یہ کتاب

اپنے بچوں کے لیے scan کی بیرونِ ملک مقیم ھیں

مو منین بھی اس سے استفادہ حاصل کرسکتے ھیں.

منجانب.



سبیلِ سکینہ

یونٹ نمبر ۸ لطیف آباد حیدرآباد پاکستان





۷۸۶
۹۲-۱۱۰
یا صاحب الزماں ادرکنیؑ

DvD Version

لبیک یا حُسینؑ

خصوصی تعاون: نذر عباس
رضوان رضوی

اسلامی کُتب (اردو) DVD

ڈیجیٹل اسلامی لائبریری۔

NOT FOR COMMERCIAL

www.ziaraat.com

SABIL-E-SAKINA
Unit#8,
Latifabad Hyderabad
Sindh, Pakistan.
www.sabeelesakina.page.tl
sabeelesakina@gmail.com

السيرة النبوية

لابن جرير الطبري

تحقيق
جمال بدران



الدار المصرية اللبنانية

NOTE:
THESE BOOKS ARE
SCANNED FOR OUR
CHILDREN KNOWLEDGE.
THANK TO BROTHER
NASIR UDDIN ARIF
TALIB DUA

NAZAR + AHMAD ALI

السيرة النبوية

الناشر : **الدار المصرية اللبنانية**
١٦ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة
تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣
فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو
ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة
رقم الإيداع: ٤٧٥٩ / ١٩٩٣
الترقيم الدولي: 3- 074 - 270 - 977
تجهيزات فنية : آر ـ تك
العنوان: ٤ ش بنى كعب ـ متفرع من السودان
تليفون: ٣١٤٣٦٣٢
طبع : المدني
العنوان: ٦٨ شارع العباسية
تليفون: ٤٨٢٧٨٥١

الطبعة الأولى : ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤
الطبعة الثانية : رمضان ١٤٢٠ هـ ـ يناير ٢٠٠٠م

السيرة النبوية

لابن جرير الطبري

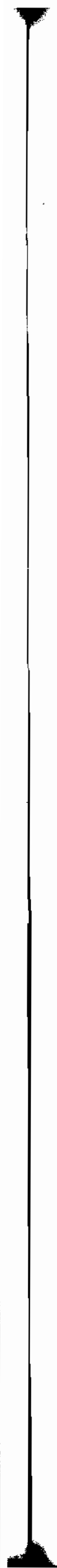
تحقيق

جمال بدران

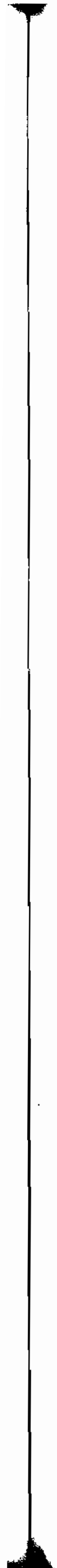


الناشر

الدار المصرية اللبنانية




بسم الله الرحمن الرحيم



مقـــدّمة

أستهلُّها بهذا التساؤل.. لماذا وقع اختيارى على تاريخ الطبرى فى إفراد قصص الأنبياء ـ عليهم السلام ـ منه ؟

وأجيب بأنه للأسباب التالية :

أولا :

لأن كتابه الذى وضعه فى القرن الثالث الهجرى معدود فى أمهات الكتب الرائدة على هذا المبحث لليعقوبى والواقدى وابن سعد.

ثانيًا :

لأن كتابه صار مصدرًا لكثير من الكتب الأمهات التى صدرت بعده مثل تواريخ: المسعودى، وابن مسكويه، وابن الأثير، وابن كثير، وكذلك ابن خلدون.

ثالثًا :

الاتساق المنهجى الذى اعتمد على الاستقراء الشامل، بدرجة عالية من الثقة والأمانة والإتقان.

رابعًا :

أول كتاب بعد تدوين السيرة النبوية، يجمع مواد التاريخ فى سياق متسلسل، بعد أن كان فى الجاهلية أخبارًا متفرقة، وروايات متناثرة، تدور حول أيام العرب وأساطيرهم، وتتناقلها الشفاه بإضافات ومبالغات.

خامسًا :

توافر التنسيق فيه بين ماورد فى كتب الحديث والتفسير واللغة، والمغازى والسير، وأخبار الرجال والأحداث، ونصوص الشعر والخطب. . بدرجة من الدقة وروعة العرض.

سادسًا :

توافر مصوّرة لدىّ لمخطوطة تاريخ الرسل والملوك لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى الموجودة فى مكتبة كوبرولو ـ وذلك عندما زرت مركز البحوث والدراسات والفنون الإسلامية باستامبول عام ١٩٨٤م ـ مما أتاح لى إجراء بعض المطابقات بين المطبوع وصفحات من النسخة المصورة.

سابعًا :

ولو أنه قد احتوى أخبارًا. . بعضها دون تمحيص كالإسرائيليات والفارسيات قبل الإسلام، إلا أنها قليلة لو قورنت بما ورد فى كتب التاريخ الأخرى. . مما يسهل حصره واستبعاده، فضلا عن أن ماورد من هذه الغرائب فى تلافيف السيرة النبوية أمكن كشفه وتجنيبه. . باعتبار أن منهج الطبرى المؤرخ كان متأثرًا بمنهج المحدّثين النقلة، الذين اتخذوا من الجرح والتعديل وسيلة وحيدة للاستصفاء. لذلك فإن ابن جرير نفسه يقول: «فما يكن فى كتابى هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين، مما يستنكره قارئه، أو لا يستسيغه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهًا من الصحة، ولا معنى فى الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت فى ذلك من قبلنا، وإنما أتى فى بعض ناقليه إلينا، وإنا إنما أدّينا ذلك على نحو ما أدّى إلينا».

ثامنًا :

تفنيد كل ما استعان به من أخبار المغازى التى تصدّى الواقدى لتغطيتها تاريخيًا، وذلك بالإتيان بما يقابلها من وقائع مماثلة لدى الآخرين من المؤرخين الثقات كابن سعد وابن إسحاق.

فمن هو الطبرى قبلئذ؟

إنه أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى، المولود بمدينة آمل بطبرستان. . لكن تاريخ مولده لم يتأكد مابين آخر سنة أربع وعشرين ومائتين، وأول خمس وعشرين ومائتين، وقد تعجب من كونه مؤرخًا ولا يبذل الجهد فى ضبط تاريخ ميلاده!! لكنه أرجع ذلك إلى طريقة أهل بلده فى التأريخ بالأحداث دون السنين.

وربما كان ذلك كافيًا لكى ينهج فى كتابته لتاريخ الملوك والرسل نهج السنين لا الأحداث، وخاصة منذ بدء التاريخ الهجرى.

ثم رحل عن مسقط رأسه فى الثانية عشرة من عمره سعيًا وراء العلم ولقاء العلماء ـ بتشجيع وإنفاق متّصل من أبيه ـ فاستقرّ فى الرى وماحولها، ودرس فيها الفقه واللغة والمغازى، وسعى إلى لقاء ابن حنبل ببغداد، لكنه كان قد تُوفى قبل الوصول إليه فاتخذ طريقه إلى البصرة، ثم إلى الكوفة حيث درس الحديث والقراءات، فقربه أبو كرُيب الهمذانى منه لقوة حافظته؛ فحفظ منه أكثر من مائة ألف حديث. ثم توجه إلى بغداد ليدرس الفقه الشافعى واتخذه له مذهبًا، ولما عزم على المجىء إلى مصر ليلتقى بالبقية من أصحاب الإمام الشافعى، عرّج فى طريقه على بيروت، وقرأ القرآن وختمه بطريقة الشاميين، ثم واصل طريقه إلى مصر التى استقرّ بها سنوات، كان يتوجّه خلالها إلى الشام ثم يعود، فدرس قراءة حمزة وورْش، وتزود بفقه الشافعى وفقه مالك عن تلاميذهما. . حتى عاوده الحنين إلى بغداد، فعاد إليها ليستقر فيها ويفرغ للدرس والتأليف، رافضًا أن يشغل أى منصب يلهيه عنهما، حتى ولو كان فيه ثواب ـ كالقضاء والفصل فى المظالم ـ ووزّع وقته بين العبادة والقراءة والإملاء والتصنيف، إلى أن قبضه الله إليه فى آخر شوال سنة عشر وثلاثمائة، عن خمسة وثمانين عامًا، وورى التراب فى جنازة مهيبة، وصُلّى على قبره ليل نهار لعدّة شهور.

وكان عُمد مؤلفاته كتبا فى الفقه والتفسير والحديث والقراءات، فضلا عن

اهتمامه بقوله الشعر الذى ضمنه كثيراً من صفحات كتابه (تاريخ الرسل والملوك).. وبلغت كتبه ستة وعشرين سفراً فى أجزاء عديدة، هذا عدا مافقد من آثاره.. نفعنا الله بعلمه، وغفر الله زلات قلمه، فلا كمال إلا لله وحده.. هو نعم المولى ونعم المعين.

منهج العمل :

إن العمل فى تحقيق مخطوطة لأول مرة، تتحدد سبله بالحصول على نسخ أخرى أو مستنسخات لإحداها، ثم ترجيح الأقرب إلى عصر صاحب المخطوطة، لجعلها أساسًا للمقارنة والمضاهاة، وفحص حروفها لمعرفة دقائقه فى الكتابة، ثم البدء فى التحقيق بفك طلاسمها، باللجوء إلى غيرها من المصوّرات، ومقابلة الفقرة بالفقرة، وتصويب الكلمة بالكلمة الراجحة، واستكمال البياض بالرجوع إلى مصادر احتوتها، وتقويم الجُمل بما يحفظ المتْن ويُقِيمُ المعنى، وأمام النصوص المستندة لدى المؤلف، يتفرع الاستقصاء إلى مؤلفات أصحابها إذا كانت ميسورة، أو إلى جامعيها إذا كانت متناثرة، وإلى الرجوع لكتاب الله الكريم، وتفاسير آياته، أو إلى الصحيحين وعمد الأعلام على جامعى الأحاديث النبوية الشريفة.. وذلك فى حالة الوقوف أمام نصّ منها مصحَّف، وتتتالى الخطوات، وتتوالى الصفحات حتى تختتم.

أمّا فى كتابنا هذا «سيرة الرسول ﷺ وقصص الأنبياء عليهم السلام» فنحن أمام مصدر أساسى مطبوع هو تاريخ الملوك والرسل لابن جرير الطبرى، مطبوع ومحقق بمعرفة عالم مدقق هو المرحوم محمد أبو الفضل إبراهيم بجانب كتب أخرى مطبوعة ومحققة فى متناول القارئ المتخصص والقارئ العام.. مثل تاريخ ابن الأثير، فضلا عن كتب أخرى عديدة أفردت لقصص الأنبياء دون السيرة النبوية، أو قامت على استخلاص أخبار الأنبياء من تواردها فى أمهات الكتب.

وابن جرير الطبرى عندما وضع كتابه فى التاريخ، قد تميز منذ القرن الثالث الهجرى، بسعة اطلاعه، واتساع أفق تفكيره، مع حاسة نقدية للتاريخ الذى

سجله.. فيورد للواقعة التاريخية سائر الوجوه التى تضمنتها.. نعم قد انتقاها من بين سيل الأخبار التى حملها، لكنها لم يرجح أحدها على الآخر.. التزامًا منه بالأمانة العلمية ودقتها، وكذلك تحرزًا منه فى إجراء هذا الترجيح دون أن يستوفى أسانيده، وليترك لأجيال القراء الألبّاء مهمة البحث عن هذه المرجحات.

لذلك فإننى وضعت نصب عينى عدة أمور فى إعادة قراءة تاريخ الأنبياء والسيرة النبوية.

أولها :

تخليص الأخبار من العنعنات الطويلة، حرصًا منى على القارئ من أن يتسلل الملل إلى نفسه فيتملكها، أو أن يقف عند اسم واحد من النقلة حتى يتثبت من سيرته وشهرته وأخلاقياته، ودرجة التزامه بالصدق والدقّة فى الإبلاغ.. حرصًا منى على ذلك.. آثرت الإبقاء على أقل قدر من الأسماء الأولى والأخيرة كمصدر أول ثم آخر مباشر.

ثانيها :

إسقاط الأخبار المكررة التى اتفقت مع سابقاتها، باعتبارها لم تضف جديدًا، اللهمّ إلاّ التحريف أحيانًا، أو تقديم اسم على اسم أو حادثة على أخرى.

ثالثها :

استبعاد الأخبار غير المتفقة مع بقية تلك التى دارت حول واقعة من الوقائع، والتى يتضح فيها أنها من وضع الوضاعين.. وذلك بمقابلتها بعضها ببعض على محكّ العقل والإيمان بالمعجزات والخوارق المصاحبة لقصص الأنبياء.

رابعها :

ربط الوقائع بعضها ببعض فى تسلسل متماسك.. حتى تتكامل الصورة القصصية أمام القارئ المعاصر؛ فلا يشرد أو يقطع عليه اندماجه أخبار اعتراضية أو قصص جانبية.

خامسها :

الاقتصار فى الهوامش على توثيق السور والآيات.. والإشارة لأقل قدر من المصادر الرئيسية التى استندت إليها.. كتفسير الطبري وتاريخه، وتفسير ابن كثير وتاريخه، وأسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير، والكفاية فى علم الرواية للخطيب البغدادى، وميزان الاعتدال فى نقد الرجال للذهبى.

سادسها :

وضع الشرح للكلمات المستغلقة والنص غير الواضح بعدها مباشرة فى سطور المتن بين شرطتين أفقيتين، ضمانًا لاستمرار القارئ فى قراءته بلاتشتيت لبصره بين المتن والهامش أعلى وأسفل.

سابعا :

وضع النص القرآنى بين قوسين عزيزين ﴿ ﴾، أما الأحاديث النبوية فتوضع بين علامتى تنصيص « ».

هذا، والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل.

المحقق

جمـال بـدران

ذكر مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم

كان مولد رسول الله ﷺ فى عهد كسرى أنو شروان، عام قدم أبرهة الأشرم أبو يكسوم من الحبشة إلى مكة، وساق فيه إليها الفيل، يريد هدم بيت الله الحرام، وذلك لمضى اثنتين وأربعين سنة من ملك كسرى أنو شروان. وفى هذا العام كان يوم جبلة، وهو يوم من أيام العرب مذكور.

حدث ابن إسحاق، قال: ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين عام الفيل، لاثنتى عشرة مضت من شهر ربيع الأول، وقيل: إنه ولد ﷺ فى الدار التى تعرف بدار ابن يوسف، وقيل: إن رسول الله ﷺ كان وهبها لعقيل بن أبى طالب، فلم تزل فى يد عقيل حتى توفى، فباعها ولده من محمد بن يوسف، أخى الحجاج بن يوسف، فبنى داره التى يقال لها دار ابن يوسف، وأدخل ذلك البيت فى الدار، حتى أخرجته الخيزران فجعلته مسجدا يصلى فيه.

كما يزعمون فيما يتحدث الناس ـ والله أعلم ـ أن آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ كانت تحدث أنها أتيت لما حملت برسول الله ﷺ فقيل لها: إنك قد حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وقع على الأرض فقولى: أعيذه بالواحد، من شر كل حاسد، ثم سميه محمدا. . ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت منه قصور بصرى من أرض الشام، فلما وضعته أرسلت إلى جده عبد المطلب، أنه قد ولد لك غلام فأته فانظر إليه. فأتاه فنظر إليه، وحدثته بما رأت حين حملت به، وماقيل لها فيه، وما أمرت أن تسميه.

فالتمس له جده الرضعاء، فاسترضع له امرأة من بنى سعد بن بكر، يقال لها حليمة ابنة أبى ذؤيب، وأبو ذؤيب عبد الله بن الحارث بن شجنة، بن جابر ابن رزام بن ناصرة بن فصية بن سعد بن بكر بن هوازن بن منصور ابن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر. واسم الذى أرضعه: الحارث ابن عبد العزى بن رفاعة بن ملان بن ناصرة، بن فصية بن سعد، بن بكر ابن هوازان بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان ابن مضر. واسم إخوته من الرضاعة: عبد الله بن الحارث، وأنيسة ابنة الحارث، وخذامة ابنة الحارث وهى الشيماء، غلب ذلك على اسمها فلا تعرف فى قومها إلا به.

وهى حليمة ابنة عبد الله بن الحارث: أم رسول الله ﷺ ويزعمون أن الشيماء كانت تحضنه مع أمها إذ كان عندهم ﷺ.

كانت حليمة ابنة أبى ذؤيب السعدية أم رسول الله ﷺ التى أرضعته. تحدث أنها خرجت من بلدها معها زوجها وابن لها ترضعه فى نسوة من بنى سعد بن بكر، تلتمس الرضعاء، قالت: وذلك فى سنة شهباء لم تبق شيئا، فخرجت على أتان لى قمراء، معنا شارفٌ لنا - أى: إبل هرمة - والله ماتبض بقطرة، ومانتام ليلنا أجمع من صبينا الذى معى من بكائه من الجوع، ومافى ثديى ما يغنيه، ومافى شارفنا ما يغذوه، ولكنا نرجو الغيث والفرج؛ فخرجت على أتانى تلك، فلقد أذمت - أى: جاءت بما يذم عليه - بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفا وعجفًا، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فمامنا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل إنه يتيم، وذلك أنا إنما نرجو المعروف من أبى الصبى، فكنا نقول: يتيم ماعسى أن تصنع أمه وجده! فكلنا نكرهه لذلك؛ فما بقيت امرأة قدمت معى إلا أخذت رضيعًا، غيرى، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبى: إنى لأكره أن أرجع من بين صواحباتى ولم آخذ رضيعًا، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه، قال: لا عليك أن تفعلى، فعسى الله أن يجعل لنا فيه بركة! قالت: فذهبت إليه فأخذته، وماحملنى على ذلك إلا أنى لم أجد غيره.

قالت: فلما أخذته رجعت به إلى رحلى، فلما وضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن، فشرب حتى روى، وشرب معه أخوه حتى روى، ثم ناما، وما كان ينام قبل ذلك ـ وقام زوجى إلى شارفنا تلك، فنظر إليها فإذا إنها لحافل، فحلب منها حتى شربَ وشربتُ، حتى انتهينا ريًّـا وشبعًا، فبتنا بخير ليلة. قالت: يقول لى صاحبى حين أصبحت: أتَعلمين والله ياحليمة، لقد أخذت نسمة مباركة، قلت: والله إنى لأرجو ذلك. قالت: ثم خرجنا وركبت أتانى تلك، وحملته عليها معى، فوالله لقطعت بنا الركب ما يقدم عليها شىء من حمرهم، حتى إن صواحبى ليقلن لى: يا بنة أبى ذؤيب، أربعى علينا ـ أى: أقيمى وانتظرى ـ أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها؟ فأقول لهن: بلى والله، إنها لهى هى، فيقلن: والله إن لها لشأنا. قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد، وما أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمى تروح علىَّ حين قدمنا به معنا شباعًا لبنًا، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة ولايجدها فى ضرع، حتى إن كان الحاضر من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم، اسرحوا حيث يسرح راعى ابنة أبى ذؤيب: فتروح أغنامهم جياعًا ماتبض ـ أى: ما ترشح ـ بقطرة لبن، وتروح غنمى شباعًا لبنًا، فلم نزل نتعرف من الله زيادة الخير به، حتى مضت سنتان وفصلته.

وكان يشب شبابًا لايشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاما جَفْرًا ـ أى: شديدا ـ فقدمنا به على أمه ونحن أحرص شىء على مكثه فينا، لما كنا نرى من بركته، فكلمنا أمه وقلنا لها: ياظئر، لو تركت بُنَىَّ عندى حتى يغلظ، فإنى أخشى عليه وباء مكة! قالت: فلم نزل بها حتى رددناه معنا. قالت: فرجعنا به، فوالله إنه بعد مقدمنا به بأشهر مع أخيه فى بهْمٍ(١) لنا خلف بيوتنا، إذ أتانا أخوه يشتد، فقال لى ولأبيه: ذاك أخى القرشى قد جاءه رجلان عليهما ثياب بياض، فأضجعاه وشقا بطنه وهما يسوطانه ـ أى: يضربانه بالسوط ـ قالت: فخرجت أنا وأبوه نشتد، فوجدناه قائمًا منتقعًا وجهه، قالت: فالتزمته والتزمه أبوه، وقلنا

(١) البَهْمُ: الصغار من الغنم.

له: مالك يابنى؟ قال: جاءنى رجلان عليهما ثياب بياض، فأضجعانى فشقا بطنى فالتمسا فيه شيئًا لا أدرى ماهو! قالت: فرجعنا إلى خبائنا. قالت: وقال لى أبوه: والله ياحليمة لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب، فألحقيه بأهله قبل أن يظهر به ذلك، قالت: فاحتملناه، فقدمنا به على أمه، فقالت: ما أقدمك به ياظئر، وقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك؟ قالت: قلت: قد بلغ الله بابنى وقضيت الذى على وتخوفت الأحداث عليه، فأديته إليك كما تحبين. قالت: ماهذا بشأنك، فاصدقينى خبرك، قالت: فلم تدعنى حتى أخبرتها الخبر، قالت: فتخوفت عليه الشيطان؟! قالت: فقلت: نعم، قالت: كلا والله ما للشيطان عليه سبيل، وإن لبنى لشأنا، أفلا أخبرك خبره؟ قالت: قلت: بلى، قالت: رأيت حين حملت به أنه خرج منى نور أضاء لى قصور بصرى من أرض الشام، ثم حملت به، فوالله مارأيت من حمل قط كان أخف منه ولا أيسر منه، ثم وقع حين ولدته وإنه لواضع يديه بالأرض، رافع رأسه إلى السماء؛ دعيه عنك وانطلقى راشدة.

وعن خالد بن معدان الكلاعى، أن نفرًا من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: يارسول الله، أخبرنا عن نفسك، قال: نعم، أنا دعوة أبى إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمى حين حملت بى أنه خرج منها نور أضاء لها قصور بصرى من أرض الشام. واسترضعت فى بنى سعد بن بكر، فبينا أنا مع أخ لى خلف بيوتنا نرعى بهما لنا، أتانى رجلان عليهما ثياب بيض بطست من ذهب مملوءة ثلجا، فأخذانى فشقا بطنى، ثم استخرجا منه قلبى، فشقاه فاستخرجا منه علقة سوداء، فطرحاها، ثم غسلا بطنى وقلبى بذلك الثلج حتى أنقياه، ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من أمته، فوزننى بهم فوزنتهم، ثم قال: زنه بمائة من أمته، فوزننى بهم فوزنتهم، ثم قال: زنه بألف من أمته، فوزننى بهم فوزنتهم، ثم قال: دعه عنك، فلو وزنته بأمته لوزنها.

ثم توفى عبد الله أبو رسول الله، بعد ما أتى على رسول الله ﷺ ثمانية وعشرون شهرًا ـ هذا ماورد عن ابن هشام، ولو أن ابن إسحاق يقول: هلك

عبد الله بن عبد المطلب أبو رسول الله ﷺ وأم رسول الله آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة حامل به.

ولكن الثبت ما قاله الواقدى: الثبت عندنا مما ليس بين أصحابنا فيه اختلاف، أن عبدالله بن عبد المطلب أقبل من الشام فى عير لقريش، فنزل بالمدينة ـ وهو مريض ـ فأقام بها حتى توفى، ودفن فى دار النابغة، فى الدار الصغرى إذا دخلت الدار على يسارك فى البيت.

أما وفاة السيدة آمنة فلا خلاف عليها.. إذ يقول ابن حزم الأنصارى: إن أم رسول الله ﷺ آمنة، توفيت ـ ورسول الله ﷺ ابن ست سنين ـ بالأبواء بين مكة والمدينة، كانت قدمت به المدينة على أخواله من بنى عدى بن النجار تزيره إياهم، فماتت وهى راجعة به إلى مكة. ودفنت فى قبر بشعب أبى ذر بمكة.

ثم توفى عبد المطلب ورسول الله ﷺ ابن ثمانى سنين، إلا أن البعض قال: توفى عبد المطلب ورسول الله ابن عشر سنين.

وعن ابن عباس قال: كان النبى ﷺ فى حجر أبى طالب بعد جده عبد المطلب، فيصبح ولد عبد المطلب غمصا رمصًا[1]، ويصبح ﷺ صقيلاً دهينًا.



(١) الغمص والرمص: البياض الذى يجتمع فى زوايا الأجفان.

ذكر نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم
وذكر بعض أخبار آبائه وأجداده

اسم رسول الله ﷺ محمد، وهو ابن عبد الله بن عبد المطلب، وكان عبد الله أبو رسول الله أصغر ولد أبيه، وكان عبد الله والزبير وعبد مناف ـ وهو أبو طالب ـ بنو عبد المطلب لأم واحدة، وأمهم جميعًا فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة.

وعن قبيصة بن ذؤيب، قال: نذرت امرأة أن تنحر ابنها عند الكعبة فى أمر إن فعلته، ففعلت ذلك الأمر، فقدمت المدينة لتستفتى عن نذرها، فجاءت عبدالله بن عمر، فقال لها: لا أعلم الله أقر فى النذر إلا الوفاء به، فقالت المرأة: أفأنحر ابنى؟ قال ابن عمر: قد نهاكم الله أن تقتلوا أنفسكم؛ فلم يزدها عبد الله بن عمر على ذلك، فجاءت عبد الله بن عباس فاستفتته فقال: أمر الله بوفاء النذر والنذر دين، ونهاكم أن تقتلوا أنفسكم ـ وقد كان عبد المطلب بن هاشم نذر إن توافى له عشرة رهط أن ينحر أحدهم، فلما توافى له عشرة، أقرع بينهم. . أيهم ينحر؟ فطارت القرعة على عبد الله بن عبد المطلب، وكان أحب الناس إلى عبد المطلب، فقال: اللهم هو أو مائة من الإبل، ثم أقرع بينه وبين الإبل، فطارت القرعة على المائة من الإبل، فقال ابن عباس للمرأة: فأرى أن تنحرى مائة من الإبل مكان ابنك. فبلغ الحديث مروان، وهو أمير المدينة، فقال: ما أرى ابن عمر ولا ابن عباس أصابا الفتيا؛ إنه لانذر فى معصية الله، استغفرى الله وتوبى إلى الله، واعملى ما استطعت من الخير؛ فأما أن تنحرى ابنك فقد نهاك الله عن ذلك، فسر الناس بذلك، وأعجبهم قول مروان، ورأوا أنه أصاب الفتيا، فلم يزالوا يفتون بألا نذر فى معصية الله.

أما ابن إسحاق فقص من أمر هذا النذر قصة أشيع من الأولى، فقال: كان عبد المطلب بن هاشم ـ فيما يذكرون والله أعلم ـ قد نذر حين لقى من قريش فى حفر زمزم مالقى: لئن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعوه ـ أى: يزيدوه منعة ـ لينحرن أحدهم لله عند الكعبة، فلما توافى له بنوه عشرة، وعرف أنهم سيمنعونه، جمعهم ثم أخبرهم بنذره الذى نذر، ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك، فأطاعوه، وقالوا: كيف نصنع؟ قال: يأخذ كل رجل منكم قدحًا، ثم ليكتب فيه اسمه، ثم ائتونى به، ففعلوا، ثم أتوه، فدخل على هبل فى جوف الكعبة، وكانت هبل أعظم أصنام قريش بمكة، وكانت على بئر فى جوف الكعبة، وكانت تلك البئر هى التى يجمع فيها ما يهدى للكعبة، وكان عند هبل سبعة أقداح كل قدح منها فيه كتاب، قدح فيه العقل ـ أى: الدية ـ إذا اختلفوا فى العقل من يحمله منهم ضربوا بالقداح السبعة، فإن خرج العقل فعلى من خرج حمله، وقدح فيه «نعم» للأمر إذا أرادوه يضرب به؛ فإن خرج قدح «نعم» عملوا به، وقدح فيه «لا» فإذا أرادوا أمرا ضربوا به فى القداح، فإذا خرج ذلك القدح لم يفعلوا ذلك الأمر، وقدح فيه «منكم»، وقدح فيه «ملصق»، وقدح فيه «من غيركم»، وقدح فيه «المياه» إذا أرادوا أن يحضروا للماء ضربوا بالقداح، وفيها ذلك القدح، فحيثما خرج عملوا به. وكانوا إذا أرادوا أن يختتنوا غلامًا، أو ينكحوا منكحًا، أو يدفنوا ميتًا، أو شكوا فى نسب أحد منهم ذهبوا إلى هبل وبمائة درهم وجزور، فأعطوها صاحب القداح الذى يضربها، ثم قربوا صاحبهم الذى يريدون به مايريدون، ثم قالوا: يا إلهنا، هذا ابن فلان، قد أردنا به كذا وكذا، فأخرج الحق فيه؛ ثم يقولون لصاحب القداح: اضرب، فيضرب، فإن خرج عليه «منكم» كان وسيطًا ـ أى: خالص النسب ـ وإن خرج عليه «من غيركم» كان حليفًا، وإن خرج عليه «ملصق» كان على منزلته منهم، لا نسب له ولاحلف، وإن خرج فى شىء سوى هذا مما يعملون به «نعم» عملوا به، وإن خرج «لا» أخروه عامهم ذلك حتى يأتوا مرة أخرى، ينتهون فى أمورهم إلى

ذلك مما خرجت به القداح ـ فقال عبد المطلب لصاحب القداح: اضرب على بنى هؤلاء بقداحهم هذه وأخبره بنذره الذى نذر، فأعطى كل رجل منهم قدحه الذى فيه اسمه ـ وكان عبد الله بن عبد المطلب أصغر بنى أبيه، وكان ـ فيما يزعمون ـ أحب ولد عبد المطلب إليه، وكان عبد المطلب يرى أن السهم إذا أخطأه فقد أشوى ـ أى: لم يصب المقتل ـ وهو أبو رسول الله ﷺ فلما أخذ صاحب القداح القداح ليضرب بها، قام عبد المطلب عند هبل فى جوف الكعبة يدعو الله، ثم ضرب صاحب القداح، فخرج القدح على عبد الله، فأخذ عبد المطلب بيده، وأخذ الشفرة، ثم أقبل إلى إساف ونائلة ـ وهما وثنا قريش اللذان تنحر عندهما ذبائحهما ـ ليذبحه، فقامت إليه قريش من أنديتها، فقالوا: ماذا تريد ياعبد المطلب؟ قال: أذبحه. فقالت له قريش وبنوه: والله لاتذبحه أبدًا حتى تعذر فيه، لئن فعلت هذا لايزال الرجل يأتى بابنه حتى يذبحه، فما بقاء الناس على هذا! فقال له المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ـ وكان عبد الله ابن أخت القوم ـ: والله لا تذبحه أبدًا حتى تعذر فيه؛ فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه. وقالت له قريش وبنوه: لاتفعل وانطلق به إلى الحجاز، فإن به عرافة لها تابع، فسلها، ثم أنت على رأس أمرك؛ وإن أمرتك أن تذبحه ذبحته، وإن أمرتك بأمر لك وله فيه فرج قبلته.

فانطلقوا حتى قدموا المدينة، فوجدوها ـ فيما يزعمون ـ بخيبر، فركبوا إليها حتى جاءوها، فسألوها، وقص عليها عبد المطلب خبره وخبر ابنه، وما أراد به، ونذره فيه، فقالت لهم: ارجعوا عنى اليوم حتى يأتينى تابعى فأسأله. فرجعوا عنها، فلما خرجوا من عندها، قام عبد المطلب يدعو الله، ثم غدوا عليها، فقالت: نعم قدجاءنى الخبر، كم الدية فيكم؟ قالوا: عشر من الإبل ـ وكانت كذلك ـ قالت: فارجعوا إلى بلادكم، ثم قربوا صاحبكم، وقربوا عشرا من الإبل، ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا فى الإبل حتى يرضى ربكم، وإن خرجت على الإبل فانحروها، فقد رضى ربكم، ونجا صاحبكم.

فخرجوا حتى قدموا مكة، فلما أجمعوا لذلك من الأمر قام عبد المطلب يدعو الله، ثم قربوا عبد الله وعشرا من الإبل ـ وعبد المطلب فى جوف الكعبة عند هبل يدعو الله ـ فخرج القدح على عبد الله، فزادوا عشرًا، فكانت الإبل عشرين، وقام عبد المطلب فى مكانه ذلك يدعو الله، ثم ضربوا فخرج السهم على عبد الله، فزادوا عشرًا من الإبل، فكانت ثلاثين، ثم لم يزالوا يضربون بالقداح ويخرج القدح على عبد الله، فكلما خرج عليه زادوا من الإبل عشرًا، حتى ضربوا عشر مرات، وبلغت الإبل مائة، وعبد المطلب قائم يدعو، ثم ضربوا فخرج القدح على الإبل، فقالت قريش ومن حضر: قد انتهى رضا ربك ياعبد المطلب. فزعموا أن عبد المطلب قال: لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات، فضربوا على الإبل وعلى عبد الله. وقام عبد المطلب يدعو فخرج القدح على الإبل، ثم عادوا الثانية وعبد المطلب قائم يدعو، ثم عادوا الثالثة فضربوا، فخرج القدح على الإبل فنحرت، ثم تركت لايصد عنها إنسان ولاسبع.

ثم انصرف عبد المطلب آخذا بيد ابنه عبد الله، فمر ـ فيما يزعمون ـ على امرأة من بنى أسد بن عبد العزى يقال لها: أم قتال بنت نوفل بن أسد بن عبد العزى، وهى أخت ورقة بن نوفل بن أسد، وهى عند الكعبة، فقالت له حين نظرت إلى وجهه: أين تذهب ياعبد الله؟ قال: مع أبى، قالت: لك عندى مثل الإبل التى نحرت عنك، وقع علىَّ الآن، قال: إن معى أبى ولا أستطيع خلافه ولافراقه. فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة ـ ووهب يومئذ سيد بنى زهرة سنًّا وشرفًا ـ فزوجه آمنة بنت وهب، وهى يومئذ أفضل امرأة فى قريش نسبا وموضعًا، وهى لبرة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى، وبرة لأم حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصى، وأم حبيب بنت أسد لبرة بنت عوف بن عبيد بن عويج من عدى بن كعب بن لؤى. فزعموا أنه دخل عليها حين ملكها مكانه فوقع عليها، فحملت بمحمد ﷺ ثم خرج من عندها، حتى أتى المرأة التى عرضت عليه ماعرضت، فقال لها: مالك

لا تعرضين عليَّ اليوم ماكنت عرضت عليَّ بالأمس؟ فقالت له: فارقك النور الذى كان معك بالأمس، فليس لى بك اليوم حاجة. وقد كانت تسمع من أخيها ورقة بن نوفل، وكان قد تنصر واتبع الكتب، حتى أدرك، فكان فيما طلب من ذلك أنه كائن لهذه الأمة نبى من بنى إسماعيل.

ابن عبد المطلب

واسمه شيبة، سمى بذلك لأنه كان فى رأسه شيبة.

وقيل له: عبد المطلب؛ وذلك أن أباه هاشمًا كان شخص فى تجارة له إلى الشام، فسلك طريق المدينة إليها، فلما قدم المدينة نزل على عمرو بن زيد بن لبيد الخزرجى، فرأى ابنته سلمى، فأعجبته، فخطبها إلى أبيها عمرو، فأنكحه إياها، وشرط عليه ألا تلد ولدًا إلا فى أهلها، ثم مضى هاشم لوجهته قبل أن يبنى بها، ثم انصرف راجعًا من الشام، فبنى بها فى أهلها بيثرب، فحملت منه. ثم ارتحل إلى مكة وحملها معه، فلما أثقلت ردها إلى أهلها، ومضى إلى الشام فمات بها بغزة، فولدت له سلمى عبد المطلب، فمكث بيثرب سبع سنين أو ثمانى سنين. ثم إن رجلا من بنى الحارث بن عبد مناة مر بيثرب، فإذا غلمان ينتضلون، فجعل شيبة إذا أصاب ونفذ قال: أنا ابن هاشم، أنا ابن سيد البطحاء، فقال له الحارثى: من أنت؟ قال: أنا شيبة بن هاشم بن عبد مناف. فلما أتى الحارثى مكة، قال للمطلب وهو جالس فى الحجر: يا أبا الحارث، تعلم أنى وجدت غلمانًا ينتضلون بيثرب، وفيهم غلام إذا أصاب ونفذ قال: أنا ابن هاشم، أنا ابن سيد البطحاء. فقال المطلب: والله لا أرجع إلى أهلى حتى آتى به، فقال له الحارث: هذه ناقتى بالفناء فاركبها، فجلس المطلب عليها، فورد يثرب عشاء، حتى أتى بنى عدى بن النجار، فإذا غلمان يضربون كرة بين ظهرى مجلس، فعرف ابن أخيه، فقال للقوم: أهذا ابن هاشم؟ قالوا: نعم، هذا ابن أخيك، فإن كنت تريد أخذه فالساعة قبل أن تعلم به أمه، فإنها إن علمت لم تدعه، وحلنا بينك وبينه. فدعاه، فقال: يابن أخى، أنا عمك، وقد أردت الذهاب بك إلى قومك. وأناخ راحلته.. فما

كذب أن جلس على عجز الناقة، فانطلق به، ولم تعلم به أمه حتى كان الليل، فقامت تدعو بحربها على ابنها، فأخبرت أن عمه ذهب به، وقدم به المطلب ضحوة، والناس فى مجالسهم، فجعلوا يقولون: من هذا وراءك؟ فيقول: عبد لى، حتى أدخله منزله على امرأته خديجة بنت سعيد بن سهم، فقالت: من هذا؟ قال: عبد لى، ثم خرج المطلب حتى أتى الحزورة، فاشترى حلة فألبسها شيبة، ثم خرج به حين كان العشى إلى مجلس عبد مناف، فجعل ذلك يطوف فى سكك مكة فى تلك الحلة، فيقال: هذا عبد المطلب، لقوله: «هذا عبدى» حين سأله قومه، فقال المطلب:

عـرفت شـيبة والنجـار قد جعلت   أبناؤهـا حـوله بالنبـل تنتضـل

وكان إلى عبد المطلب بعد مهلك عمه المطلب بن عبد مناف ماكان إلى من قبله من بنى عبد مناف من أمر السقاية والرفادة، وشرف فى قومه، وعظم فيهم خطره، فلم يكن يعدل به منهم أحد، وهو الذى كشف عن زمزم، بئر إسماعيل ابن إبراهيم، واستخرج ما كان فيها مدفونًا؛ وذلك غزالان من ذهب، كانت جرهم دفنتهما ـ فيما ذكر ـ حين أخرجت من مكة، وأسياف قلعية، وأدراع، فجعل الأسياف بابًا للكعبة، وضرب فى الباب الغزالين صفائح من ذهب، فكان أول ذهب حليته ـ فيما قيل ـ الكعبة، وكانت كنية عبد المطلب أبا الحارث، كنى بذلك لأن الأكبر من ولده الذكور كان اسمه الحارث، وهو شيبة.

ابن هاشم

واسم هاشم عمرو، وإنما قيل له هاشم، لأنه أول من هشم الثريد لقومه بمكة وأطعمه، وله يقول مطرود بن كعب الخزاعى:

عمـرو الذى هشم الثريد لقومـه   ورجـال مكـة مسـنتون عجـاف

ـ والمسنتون هم الذين أصابتهم السنة المجدبة الشديدة ـ ذكر أن قومه من قريش، كانت أصابتهم لزبة وقحط، فرحل إلى فلسطين، فاشترى منها الدقيق، فقدم به مكة، فأمر به فخبز له ونحر جزورًا، ثم اتخذ لقومه مرقة ثريد ذلك الخبز.

وذكر أن هاشمًا هو أول من سن الرحلتين لقريش: رحلة الشتاء والصيف.

وكان هاشم وعبد شمس ـ أكبر ولد عبد مناف ـ، والمطلب ـ أصغرهم ـ من أمهم عاتكة بنت مرة السلمية،، ونوفل ـ وأمه واقدة ـ بنى عبد مناف، فسادوا بعد أبيهم جميعًا، وكان يقال لهم المجبرون، قال: ولهم يقال :

يا أيها الرجل المحوِّلُ رَحْلَهُ ألاَ نزلت بآل عبد مناف !؟

فكانوا أول من أخذ لقريش العصم ـ أى: الحبال ويراد بها العهود ـ، فانتشروا من الحرم، وأخذ لهم هاشم حبلا من ملوك الشام الروم وغسان، وأخذ لهم عبد شمس حبلاً من النجاشى الأكبر، فاختلفوا بذلك السبب إلى أرض الحبشة، وأخذ لهم نوفل حبلاً من الأكاسرة، فاختلفوا بذلك السبب إلى العراق وأرض فارس، وأخذ لهم المطلب حبلاً من ملوك حمير، فاختلفوا بذلك السبب إلى اليمن، فجبر الله بهم قريشًا، فسموا المجبرين.

وقيل : إن عبد شمس وهاشمًا توأمان، وإن أحدهما ولد قبل صاحبه، وأصبع له ملتصقة بجبهة صاحبه، فنحيت عنها فسال من ذلك دم، فتطيَّر من ذلك، فقيل: تكون بينهما دماء.. وولى هاشم بعد أبيه عبد مناف السقاية والرفادة.

قال وهب بن عبد قصى فى إطعام هاشم قومه الثريد:

تحمل هاشم ماضاق عنه وأعيا أن يقوم به ابن بيض
أتاهم بالغرائر متأقات من أرض الشأم بالبر النفيض
فأوسع أهل مكة من هشيم وشاب الخبز باللحم الغريض
فظل القوم بين مكللات من الشيزى وحائرها يفيض

فحسده أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ـ وكان ذا مال ـ فتكلف أن يصنع صنيع هاشم، فعجز عنه، فشمت به ناس من قريش فغضب، ونال من هاشم، ودعاه إلى المنافرة، فكره هاشم ذلك لسنه وقدره، ولم تدعه قريش وأحفظوه،

قال: فإنى أنافرك على خمسين ناقة سوداء الحدق، تنحرها ببطن مكة، والجلاء عن مكة عشر سنين، فرضى بذلك أمية، وجعلا بينهما الكاهن الخزاعى، فنفَّر هاشمًا عليه، فأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعمها من حضره، وخرج أمية إلى الشام فأقام بها عشر سنين، فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية.

ذكر رسول الله ﷺ

توفى عبد المطلب بعد الفيل بثمانى سنين، كذلك حدث محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبى بكر.. فقال: وكان عبد المطلب يوصى برسول الله ﷺ عمه أبا طالب، وذلك أن أبا طالب، وعبد الله أبا رسول الله ﷺ كانا لأم، فكان أبو طالب هو الذى يلى أمر رسول الله ﷺ بعد جده، وكان يكون معه. ثم إن أبا طالب خرج فى ركب من قريش إلى الشام تاجرًا، فلما تهيأ للرحيل وأجمع السير، تعلق به رسول الله ﷺ فيما يزعمون، فرق له أبو طالب، فقال: والله لأخرجن به معى، ولايفارقنى ولا أفارقه أبدًا، أو كما قال. فخرج به معه، فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام، وبها راهب يقال له بحيرى فى صومعة له، وكان ذا علم من أهل النصرانية، ولم يزل فى تلك الصومعة مذ قط راهب - أى: منذ الدهر الذى صار فيه راهبًا - فإليه يصير علمهم عن كتاب يتوارثونه كابرًا عن كابر. فلما نزلوا ذلك العام ببحيرى صنع لهم طعامًا كثيرًا، وذلك أنه رأى رسول الله ﷺ وهو فى صومعته، عليه غمامة تظله من بين القوم، ثم أقبلوا حتى نزلوا فى ظل شجرة قريبًا منه، فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة، ومالت أغصان الشجرة وتدلت على رسول الله ﷺ، حتى استظل تحتها، فلما رأى ذلك بحيرى، نزل من صومعته ثم أرسل إليهم فدعاهم جميعًا، فلما رأى بحيرى رسول الله ﷺ جعل يلحظه لحظًا شديدًا، وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته. فلما فرغ القوم من الطعام وتفرقوا، سأل رسول الله ﷺ عن أشياء فى حاله؛ فى يقظته وفى نومه، فجعل رسول الله ﷺ يخبره فيجدها بحيرى موافقة لما عنده من صفته، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه، ثم قال بحيرى لعمه أبى طالب: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابنى، فقال له

بحيرى: ما هو بابنك، وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًّــا، قال: فإنه ابن أخى، قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات وأمه حبلى به، قال: صدقت، ارجع إلى بلدك، واحذر عليه يهود؛ فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت، ليبغنه شرا، فإنه كائن له شأن عظيم، فأسرع به إلى بلده. فخرج به عمه سريعا حتى أقدمه مكة.

وأضاف هشام بن محمد إلى ذلك قائلا: خرج أبو طالب برسول الله ﷺ إلى بصرى من أرض الشام؛ وهو ابن تسع سنين.

كما أضاف أبو موسى قائلا: خرج أبو طالب إلى الشام، وخرج معه رسول الله ﷺ فى أشياخ من قريش، فلما أشرفوا على الراهب هبطوا فحلوا رحالهم، فخرج إليهم الراهب - وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت - قال: فهم يحلون رحالهم، فجعل يتخللهم حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ فقال: هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين؛ هذا يبعثه الله رحمةللعالمين. فقال له أشياخ قريش: ما علمك؟ قال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم تبق شجرة ولاحجر إلا خر ساجدًا، ولا يسجدون إلا لنبى، وإنى أعرفه بخاتم النبوة، أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة...

وعن على بن أبى طالب -رضى الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ماهممت بشىء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين، كل ذلك يحول الله بينى وبين ما أريد من ذلك. ثم ماهممت بسوء حتى أكرمنى الله - عز وجل - برسالته؛ فإنى قد قلت ليلة لغلام من قريش كان يرعى معى بأعلى مكة: لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة، فأسمر بها كما يسمر الشباب! فقال: أفعل؛ فخرجت أريد ذلك، حتى إذا جئت أول دار من دور مكة، سمعت عزفًا بالدفوف والمزامير، فقلت: ما هذا؟ قالوا: فلان ابن فلان تزوج بفلانة بنت فلان. فجلست أنظر إليهم، فضرب الله على أذنى فنمت، فما أيقظنى إلا مس الشمس؛ قال: فجئت صاحبى، فقال: ما فعلت؟ قلت: ما صنعت شيئًا، ثم أخبرته الخبر. قال: ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك، فقال: أفعل، فخرجت فسمعت حين جئت مكة مثل ماسمعت حين دخلت مكة تلك الليلة؛ فجلست

أنظر، فضرب الله على أذنى؛ فوالله ماأيقظنى إلا مس الشمس؛ فرجع إلى صاحبى فأخبرته الخبر، ثم ماهممت بعدها بسوء حتى أكرمنى الله - عز وجل - برسالته.

ذكر تزويج النبى صلى الله عليه وسلم خديجة رضى الله عنها

قال هشام بن محمد: نكح رسول الله ﷺ خديجة؛ وهو ابن خمس وعشرين سنة، وخديجة يومئذ ابنة أربعين سنة.

وعن ابن إسحاق، قال: كانت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى امرأة تاجرة، ذات شرف ومال، تستتجر الرجال فى مالها؛ وتضاربهم إياه بشىء تجعله لهم منه، وكانت قريش قومًا تجارًا؛ فلما بلغها عن رسول الله ﷺ مابلغها من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج فى مالها إلى الشام تاجرًا، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار؛ مع غلام لها يقال له ميسرة. فقبله منها رسول الله ﷺ، فخرج فى مالها ذلك؛ وخرج معه غلامها ميسرة؛ حتى قدما الشام، فنزل رسول الله ﷺ فى ظل شجرة قريبًا من صومعة راهب من الرهبان - يدعى نسطور - فأطلع الراهب رأسه إلى ميسرة. فقال: من هذا الرجل الذى نزل تحت هذه الشجرة؟ فقال له ميسرة: هذا رجل من قريش، من أهل الحرم، فقال له الراهب: مانزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبى - أى مانزل تحتها هذه الساعة إلا نبى؛ لبعد العهد بالأنبياء قبل ذلك - ثم باع رسول الله ﷺ سلعته التى خرج بها، واشترى ماأراد أن يشترى، ثم أقبل قافلاً إلى مكة؛ ومعه ميسرة. فكان ميسرة - فيما يزعمون - إذا كانت الهاجرة واشتد الحر يرى ملكين يظللانه من الشمس، وهو يسير على بعيره. فلما قدم مكة على خديجة بمالها، باعت ماجاء به فأضعفت، أو قريبًا من ذلك. وحدثها ميسرة عن قول الراهب، وعما كان يرى من إظلال الملكين إياه - وكانت خديجة امرأة حازمة لبيبة شريفة؛ مع ماأراد الله بها من كرامته - فلما أخبرها

ميسرة بما أخبرها، بعثت إلى رسول الله ﷺ، فقالت له - فيما يزعمون -: يابن عم، إنى رغبت فيك لقرابتك وسِطَتِكَ فى قومك، وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك. ثم عرضت عليه نفسها، وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسبًا، وأعظمهن شرفًا، وأكثرهن مالاً؛ كل قومها كان حريصًا على ذلك منها لو يقدر عليها.

فلما قالت ذلك لرسول الله ﷺ ذكر ذلك لأعمامه، فخرج معه حمزة بن عبد المطلب عمه؛ حتى دخل على خويلد بن أسد - أو عمها عمرو بن أسد حسب قول السهيلى - فخطبها إليه فتزوجها، فولدت له ولده كلهم إلا: إبراهيم، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، والقاسم، وبه كان يكنى ﷺ، والطاهر، والطيب. فأما القاسم والطاهر والطيب؛ فهلكوا فى الجاهلية، وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن، وهاجرن معه ﷺ.

وقد أيد ابن عباس أن عمها عمرو بن أسد هو الذى زوجها رسول الله ﷺ، وأن أباها مات قبل الفِجَار.

وكان منزل خديجة يومئذ هو المنزل الذى يعرف به اليوم، فيقال: منزل خديجة، فاشتراه معاوية - فيما ذكر - فجعله مسجدًا يصلى فيه الناس، وبناه على الذى هو عليه اليوم لم يغير. وأما الحجر الذى على باب البيت عن يسار من يدخل البيت فإن رسول الله ﷺ كان يجلس تحته يستتر به من الرمى إذا جاءه من دار أبى لهب، ودار عدى بن حمراء الثقفى خلف دار ابن علقمة، والحجر ذراعٌ وشبر فى ذراع.

ذكر باقى الأخبار عن الكائن من أمر رسول الله ﷺ قبل أن ينبأ، وما كان بين مولده ووقت نبوته من الأحداث فى بلده

بعد السنة التى نكح فيها رسول الله ﷺ خديجة بعشر سنين، هدمت قريش الكعبة ثم بنتها، فى سنة خمس وثلاثين من مولد رسول الله ﷺ.

وكان سبب هدمهم إياها أن الكعبة كانت فوق القامة منضدة الحجارة بعضها على بعض من غير ملاط، فأرادوا رفعها وتسقيفها؛ وذلك أن نفرًا من قريش وغيرهِم سرقوا كنز الكعبة؛ وإنما كان يكون فى بئر فى جوف الكعبة.

وكانت الكعبة قد رفعت حين غرق قوم نوح، فأمر الله إبراهيم خليله ـ عليه السلام ـ وابنه إسماعيل أن يعيدا بناء الكعبة على أسِّها الأول، فأعادا بناءها، كما أنزل فى القرآن : ﴿ **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾[1]، فلم يكن له ولاة منذ زمن نوح ـ عليه السلام ـ؛ وهو مرفوع. ثم أمر الله ـ عز وجل ـ إبراهيم أن ينزل ابنه إسماعيل البيت، لما أراد الله من كرامة من أكرمه بنبيه محمد ﷺ، فكان إبراهيم خليل الرحمن وابنه إسماعيل يليان البيت بعد عهد نوح، ومكة يومئذ بلاقع، ومن حول مكة يومئذ جرهم والعماليق. فنكح إسماعيل ـ عليه السلام ـ امرأة من جرهم؛ فقال فى ذلك عمرو بن الحارث بن مضاض:

وصاهرنا من أكـرم الناس والـدًا ... فأبنــاؤه منــا ونحــن الأصــاهـر

فولى البيت بعد إبراهيم إسماعيل، وبعد إسماعيل نبت؛ وأمه الجرهمية؛ ثم مات نبت، ولم يكثر ولد إسماعيل، فغلبت جرهم على ولاية البيت؛ فقال عمرو بن الحارث بن مضاض.

وكنا ولاة البيت من بعد نابتٍ ... نطوف بذاك البيت، والخير ظاهر

فكان أول من ولى من جرهم البيت مضاض، ثم وليته بعده بنوه كابرًا بعد كابر، حتى بغت جرهم بمكة، واستحلوا حرمتها، وأكلوا مال الكعبة الذى يهدى لها، وظلموا من دخل مكة، ثم لم يتناهوا حتى جعل الرجل منهم إذا لم يجد مكانًا يزنى فيه يدخل الكعبة فيزنى. فزعموا أن إسافًا بغى بنائلة فى جوف الكعبة، فمسخا حجرين، وكانت مكة فى الجاهلية لاظلم ولابغى فيها،

---

(١) البقرة ١٢٧.

ولايستحل حرمتها ملك إلا هلك مكانه، فكانت تسمى الناسَّة، وتسمى بكة، تبك أعناق البغايا إذا بغوا فيها؛ والجبابرة.

ولما لم تتناه جرهم عن بغيها، وتفرق أولاد عمرو بن عامر من اليمن، فانخزع ـ أي : تخلف ـ بنو حارثة بن عمرو، فأقاموا بتهامة ـ فسميت خزاعة، وهم بنو عمرو بن ربيعة بن حارثة ـ وأسلم ومالك وملكان بنو أفصى بن حارثة، فبعث الله على جرهم الرعاف والنمل، فأفناهم.

فاجتمعت خزاعة ليجلوا من بقى، ورئيسهم عمرو بن ربيعة بن حارثة، وأمه فهيرة بنت عامر بن الليث بن مضاض، فاقتتلوا. فلما أحس عامر بن الحارث بالهزيمة، خرج بغزالى الكعبة وحجر الركن يلتمس التوبة، وهو يقول:

لاَهُـمَّ إِنَّ جُرْهُمـا عِبَـادُكَ النَّـاسُ طُـرُفٌ وهُـمْ تِـلاَدُكَ

بهـم قديمـا عمـرت بـلادك

فلم تقبل توبته، فألقى غزالى الكعبة وحجر الركن فى زمزم، ثم دفنها وخرج من بقى من جرهم إلى أرض من أرض جهينة، فجاءهم سيل أَتِيٌّ فذهب بهم، فذلك قول أمية بن أبى الصلت:

وجرهم دمَّنوا تهامة فى الدهر فسالت بجمعهم إضم

وولى البيت عمرو بن ربيعة. وقال بنوقصى: بل وليه عمرو بن الحارث الغبشانى، وهو يقول :

ونحن ولينا البيت من بعد جرهمٍ لنعمره من كل باغ وملحد

وقال عامر بن الحارث :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بل نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالى والجدود العواثر

فوليت خزاعة البيت؛ غير أنه كان فى قبائل مضر ثلاث خلال: الإجازة بالحج للناس من عرفة، والثانية الإفاضة من جمع غداة النحر إلى منى، والثالثة النسيء للشهور الحرم حتى صار ذلك إلى آخرهم أبى ثمامة.. وقام عليه الإسلام، وقد عادت الحرم إلى أصلها، فأحكمها الله وأبطل النسيء؛ فلما كثرت معد تفرقت.

وأما قريش، فلم يفارقوا مكة، فلما حفر عبد المطلب زمزم، وجد الغزالين، غزالى الكعبة اللذين كانت جرهم دفنتهما فيه، فاستخرجهما؛ وكان من أمره وأمرهما ماذكر فى موضع مضى من هذا الكتاب قبل.

وكان الذى وجد عنده الكنز دويكا مولى لبنى مليح بن عمرو، من خزاعة. فقطعت قريش يده من بينهم، وكان ممن اتهم فى ذلك الحارث بن عامر بن نوفل، وأبو إهاب بن عزيز بن قيس بن سويد التميمى ـ وكان أخا للحارث ابن عامر بن نوفل بن عبد مناف لأمه ـ وأبو لهب بن عبد المطلب؛ وهم الذين تزعم قريش أنهم وضعوا كنز الكعبة حين أخذوه عند دويك مولى بنى مليح، فلما اتهمتهم قريش، دلوا على دويك، فقطع، ويقال: هم وضعوه عنده.

وذكروا أن قريشًا حين استيقنوا بأن ذلك كان عند الحارث بن عامر بن نوفل ابن عبد مناف، خرجوا به إلى كاهنة من كهان العرب، فسجعت عليه من كهانتها بألا يدخل مكة عشر سنين، بما استحل من حرمة الكعبة، فزعموا أنهم أخرجوه من مكة، فكان فيما حولها عشر سنين، وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جدة لرجل من تجار الروم، فتحطمت، فأخذوا خشبها فأعدوه لسقفها؛ وكان بمكة رجل قبطى نجار، فتهيأ لهم فى أنفسهم بعض ما يصلحها، وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التى يطرح فيها مايهدى لها كل يوم، فتشرف على جدار الكعبة، فكانوا يهابونها، وذلك أنه كان لا يدنو منها أحد إلا احزَألَّتْ وكَشَّتْ ـ أى: انضمت خوفا وصوتت لاحتكاك بعض جلدها ببعض ـ وفتحت فاها؛ فبينا هى

يومًا تشرف على جدار الكعبة كما كانت تصنع، بعث الله عليها طائرًا، فاختطفها فذهب بها؛ فقالت قريش: إنا لنرجو أن يكون الله - عز وجل - قد رضى ما أردنا. عندنا عامل رقيق، وعندنا خشب، وقد كفانا الله أمر الحية. وذلك بعد الفجار بخمس عشرة سنة، ورسول الله ﷺ عامئذ ابن خمس وثلاثين سنة. فلما أجمعوا أمرهم فى هدمها وبنائها، قام أبو وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم، فتناول من الكعبة حجرًا، فوثب من يده، حتى رجع إلى موضعه، فقال: يامعشر قريش، لاتدخلوا فى بنيانها من كسبكم إلا طيبا، ولا تدخلوا فيها مهر بغى، ولا بيع ربا، ولامظلمة أحد من الناس.

وحدث عبد الله بن أبى نجيح المكى، عن عبد الله بن صفوان بن أمية بن خلف، أنه رأى ابنًا لجعدة بن هبيرة بن أبى وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران ابن مخزوم يطوف بالبيت، فسأل عنه فقيل له: هذا ابن لجعدة بن هبيرة، فقال عند ذلك عبد الله بن صفوان جد هذا - يعنى أبا وهب الذى أخذ من الكعبة حجرًا حين اجتمعت قريش لهدمها، فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه - فقال عند ذلك: يامعشر قريش، لا تدخلوا فى بنيانها من كسبكم إلا طيبا، لاتدخلوا فيها مهر بغى، ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد.

وأبو وهب خال أبى رسول الله ﷺ وكان شريفا.

ثم إن قريشًا تجزأت الكعبة، فكان شق الباب لبنى عبد مناف وزهرة، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليمانى لبنى مخزوم وتيم وقبائل من قريش، ضموا إليهم، وكان ظهر الكعبة لبنى جمح وبنى سهم، وكان شق الحجر - وهو الحطيم - لبنى عبد الدار بن قصى ولبنى أسد بن عبد العزى بن قصى، وبنى عدى بن كعب.

ثم إن الناس هابوا هدمها وفرقوا منه، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم فى هدمها، فأخذ المعول ثم قام عليها، وهو يقول: اللهم لم ترع - أى: لا روع فى هذا الموطن فيتقى -، اللهم لانريد إلا الخير. ثم هدم من ناحية الركن،

فتربص الناس به تلك الليلة، وقالوا: ننظر؛ فإن أصيب لم نهدم منها شيئا، ورددناها كما كانت؛ وإن لم يصبه شيء فقد رضى الله ماصنعنا هدمنا.

فأصبَح الوليد من ليلته غاديا على عمله، فهدم والناس معه؛ حتى انتهى الهدم إلى الأساس، فأفضوا إلى حجارة خضر كأنها أسنة آخذ بعضها ببعض.

وحدث أن رجلا من قريش ممن كان يهدمها، أدخل عتلة بين حجرين منها، ليقلع بها أحدهما، فلما تحرك الحجر اهتزت مكة بأسرها، فانتهوا عند ذلك إلى الأساس.

ثم إن القبائل جمعت الحجارة لبنائها، جعلت كل قبيلة تجمع على حدتها، ثم بنوا حتى إذا بلغ البنيان موضع الركن اختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى؛ حتى انحازت كل قبيلة إلى جهة - تحاوزوا - وتحالفوا وتواعدوا للقتال، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دمًا؛ ثم تعاقدوا هم وبنو عدى بن كعب على الموت، وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى الجفنة؛ فسموا لعقة الدم بذلك؛ فمكثت قريش أربع ليال - أو خمس ليال - على ذلك. ثم إنهم اجتمعوا فى المسجد، فتشاوروا وتناصفوا؛ فزعم بعض الرواة أن أبا أمية بن المغيرة كان عامئذ أسن قريش كلها، قال: يامعشر قريش؛ اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد، يقضى بينكم فيه؛ فكان أول من دخل عليهم رسول الله ﷺ، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، قد رضينا به؛ هذا محمد: فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال: هلم لى ثوبًا، فأتى به. فأخذ الركن، فوضعه فيه بيده ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعا، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه بيده، ثم بنى عليه؛ وكانت قريش تسمى رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحى الأمين.

قال أبو جعفر: وكان بناء قريش الكعبة بعد الفجار بخمس عشرة سنة، وكان بين عام الفيل وعام الفجار عشرون سنة.

وكان رسول الله ﷺ من قبل أن يظهر له جبريل - عليه السلام - برسالة الله

عز وجل إليه - فيما ذكر عنه - يرى ويعاين آثارًا وأسبابًا من آثار من يريد الله إكرامه واختصاصه بفضله؛ فكان من ذلك ماذكرت فيما مضى من خبره عن الملكين اللذين أتياه فشقا بطنه، واستخرجا مافيه من الغل والدنس؛ وهو عند أمه من الرضاعة حليمة.

قال أبو جعفر: وكانت الأمم تتحدث بمبعثه وتخبر علماء كل أمة منها قومها بذلك؛ فعن زيد بن عمرو بن نفيل - وكل من تناقلوا ما سمعوه عنه - قال: أنا أنتظر نبيًّا من ولد إسماعيل، ثم من بنى عبد المطلب ولا أرانى أدركه، وأنا أؤمن به وأصدقه، وأشهد أنه نبى، فإن طالت بك مدة فرأيته، فأقرئه منى السلام، وسأخبرك ما نَعْتُهُ حتى لا يخفى عليك! قلت: هلم، قال: هو رجل ليس بالقصير ولا بالطويل، ولا بكثير الشعر ولابقليله، وليست تفارق عينيه حمرة، وخاتم النبوة بين كتفيه، واسمه أحمد، وهذا البلد مولده ومبعثه، ثم يخرجه قومه منها، ويكرهون ماجاء به، حتى يهاجر إلى يثرب فيظهر أمره؛ فإياك أن تخدع عنه، فإنى طفت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم، فكل من أسأل من اليهود والنصارى والمجوس يقولون: هذا الدين وراءك، وينعتونه مثل ما نَعَتُّه لك؛ ويقولون: لم يبق نبى غيره.

قال عامر بن ربيعة: فلما أسلمت أخبرت رسول الله ﷺ قول زيد بن عمرو وأقرأته منه السلام، فرد عليه رسول الله ﷺ وترحم عليه، وقال: قد رأيته فى الجنة يسحب ذيولا.

ذكر الخبر عمّا كان من أمر نبىّ الله ﷺ عند ابتداء الله - تعالى - ذكره إيّاه بإكرامه بإرسال جبريل - عليه السلام - إليه بوصية

عن السيدة عائشة - ومن تناقلوا عنها - قالت: أوّل ما ابتدئ به رسول الله ﷺ من الوحْى الرؤيا الصادقة، كانت تجىء مثل فَلَقَ الصبح، ثم حُبِّبَ إليه

الخلاء، فكان بغار حراء يتحنَّثُ فيه الليالى ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله فيتزوّد لمثلها، حتى فجأه الحقّ، فأتاه، فقال: يا محمّد، أنت رسول الله! قال رسول الله ﷺ: فجثوْتُ لركبتى وأنا قائم، ثم زحفْتُ ترجُفُ بوادرِى - أى: فؤادى - ثم دخلتُ على خديجَة، فقلت: زمّلونى، زمّلونى! حتى ذهب عنّى الرَّوْع، ثم أتانى فقال: يا محمّد، أنت رسولُ الله، قال: فلقد هممت أن أطرح نفسى من حالقٍ - من جبل - فتبدَّى لى حين هممت بذلك، فقال: يامحمّد، أنا جبريل، وأنت رسول الله. ثم قال: اقرأ، قلت: ما أقرأ؟ قال: فأخذنى فغتّنى[1] ثلاث مرات، حتى بلغ منّى الجهد، ثم قال: ﴿ **اقْرأْ باسْمِ ربِّكَ الَّذي خلَقَ** ﴾[2]، فقرأتُ. فأتيتُ خديجة، فقلت: لقد أشفقتُ على نفسى، فأخبرتها خبرى، فقالت: أبشْر، فوالله لا يُخزِيكَ الله أبدًا، ووالله إنّك لَتَصلُ الرَّحِم، وتصدق الحديث، وتؤدى الأمانة، وتَحْمِل الكَلَّ، وتقْرِى الضيف وتعين على نوائب الحقّ. ثم انطلقتْ بى إلى ورقة بن نوفل بن أسد، قالت: اسمع من ابن أخيك، فسألنى فأخبرته خبرى، فقال: هذا الناموسُ الذى أنزل على موسى بن عمران، ليتنى فيها جَذَعٌ! ليتنى أكون حيًّا حين يخرجُك قومُك! قلت: أمُخْرِجِىَّ هُمْ؟ قال: نعم، إنه لم يجئ رجُلٌ قطٌّ بما جئتَ به إلاَّ عُودِىَ، ولئن أدركنى يومك أنصرك نصرًا مؤزّرًا.

ثم كان أول ما نزل علىّ من القرآن بعد «اقرأ»: ﴿ **نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ** ﴾.

و ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ** ﴾ .

و ﴿ **وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ** ﴾.

وحدّثنا عبد الله بن شدّاد بالحديث نفسه، ثم زاد بقوله: ثم أبطأ عليه

(١) غتّنى : أى ضغطنى ضغطًا شديدًا.

(٢) سورة العلق: ١.

جبريل، فقالت له خديجة: مَا أرَى ربَّك إلاّ قد قَلاك، قال: فأنزل الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾.

وعن عُبيد بن عمير بن قتادة فى إجابته على عَبد الله بن الزبير عن كيفية بدء ما ابتدىء به رسول الله ﷺ من النبوة حين جاء جبريل ـ عليه السلام ـ . فقال: كان رسولُ الله ﷺ يجاور فى حراء من كل سنة شهراً، وكان ذلك مما تحنّث به قريش فى الجاهلية ـ والتحنّث: التبرر ـ فكان رسول الله ﷺ يجاور ذلك الشهر من كلِّ سنة، يطعم من جاءه من المساكين، فإذا قَضَى رسول الله ﷺ جواره من شهره ذلك، كان أوّل ما يبدأ به ـ إذا انصرف من جواره ـ الكعبة قبل أن يدخل بيته، فيطوف بها سبعًا، أو ما شاء الله من ذلك، ثم يرجع إلى بيته، حتى إذا كان الشهر الذى أراد الله ـ عز وجل ـ فيه ما أراد من كرامته، من السنة التى بعثه فيها؛ وذلك فى شهر رمضان، خرج رسول الله ﷺ إلى حراء ـ كما كان يخرج لجواره ـ معه أهله، حتى إذا كانت الليلة التى أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد بها، جاءه جبريل بأمر الله فقال رسول الله ﷺ : فجاءنى وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال: اقرأ! فقال: ما أقرأ؟ فغتنى ـ أى: عصرنى عصرا شديدًا ـ حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلنى فقال: اقرأ، فقلت: ماذا أقرأ؟ وما أقول ذلك إلا افتداءً منه أن يعود إلى بمثل ماصنع بى؛ قال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ إلى قوله: ﴿ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ قال: فقرأته، قال: ثم انتهى، ثم انصرف عنى وهببت من نومى؛ وكأنما كتب فى قلبى كتابًا.

قال: ولم يكن من خلق الله أحد أبغض إلى من شاعر أو مجنون، كنت لاأطيق أن أنظر إليهما، قال: قلت إن الأبعد ـ يعنى نفسه ـ لشاعر أو مجنون، لاتحدث بها عنى قريش أبدًا! لأعمدن إلى حالق من الجبل فلأطرحن نفسى فلأقتلنها فلأستريحن.

قال: فخرجت أريد ذلك؛ حتى إذا كنت فى وسط من الجبل؛ سمعت صوتا من السماء يقول: يامحمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل، قال: فرفعت رأسى

إلى السماء؛ فإذا جبرائيل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء، يقول: يامحمد، أنت رسول الله وأنا جبرائيل. قال: فوقفت أنظر إليه، وشغلنى ذلك عما أردت، فما أتقدم ولا أتأخر؛ وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك؛ فمازلت واقفًا ما أتقدم أمامى، ولا أرجع ورائى؛ حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى؛ حتى بلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف فى مكانى. ثم انصرف عنى وانصرفت راجعًا إلى أهلى؛ حتى أتيت خديجة، فجلست إلى فخذها مضيفًا ـ ملتصقًا بها مائلا إليها ـ فقالت: يا أبا القاسم، أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك، حتى بلغوا مكة ورجعوا إلّى. قال: قلت لها: إن الأبعد لشاعر أو مجنون، فقالت: أعيذك بالله من ذلك يا أبا القاسم! ما كان الله ليصنع ذلك بك مع ما أعلم منك من صدق حديثك، وعظم أمانتك، وحسن خلقك، وصلة رحمك! وماذاك يابن عم! لعلك رأيت شيئًا؟ قال: فقلت لها: نعم. ثم حدثتها بالذى رأيت، فقالت: أبشر يابن عمّ واثبت، فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة، ثم قامت فجمعت عليها ثيابها، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل بن أسد ـ وهو ابن عمها، وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتب، وسمع من أهل التوراة والإنجيل ـ فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ أنه رأى وسمع، فقال ورقة: قدوس، قدوس! والذى نفس ورقة بيده، لئن كنت صدقتنى ياخديجة، لقد جاءه الناموس ـ هو صاحب سر الرجل فى خيره وشره. . جبرائيل ـ الأكبر ـ الذى كان يأتى موسى ـ وإنه لنبى هذه الأمة، فقولى له فليثبت، فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بقول ورقة، فسهل ذلك عليه بعض ماهو فيه من الهم، فلما قضى رسول الله ﷺ جواره، وانصرف صنع كما كان يصنع؛ وبدأ بالكعبة فطاف بها، فلقيه ورقة ابن نوفل، وهو يطوف بالبيت، فقال: يابن أخى، أخبرنى بما رأيت أو سمعت، فأخبره رسول الله ﷺ فقال له ورقة: والذى نفسى بيده، إنك لنبى هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء إلى موسى، ولتكذبنه ولتؤذينه، ولتخرجنه، ولتقاتلنه، ولئن أنا أدركت ذلك لأنْصُرَنّ الله نصراً يعلمه. ثم أدنى رأسه فقبل يافوخه، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله.

وقد زاده ذلك من قول ورقة ثباتًا، وخفف عنه بعض ما كان فيه من الهمّ.

وعن إسماعيل بن أبى حكيم مولى آل الزبير، أنه حدث عن خديجة أنها قالت لرسول الله ﷺ فيما يثبته فيما أكرمه الله به من نبوته: يابن عم، أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى يأتيك إذا جاءك؟ قال: نعم، قالت: فإذا جاءك فأخبرنى به، فجاءه جبرائيل ـ عليه السلام ـ كما كان يأتيه، فقال رسول الله ﷺ لخديجة: ياخديجة هذا جبريل قد جاءنى، فقالت: نعم، فقم يابن عم، فاجلس على فخذى اليسرى، فقام رسول الله ﷺ فجلس عليها قالت: هل تراه؟ قال: نعم، قالت: فتحول فاقعد على فخذى اليمنى، فتحول رسول الله ﷺ فجلس عليها، فقالت: هل تراه؟ قال: نعم؛ قالت: فتحول فاجلس فى حجرى، فتحول فجلس فى حجرها، قالت: هل تراه؟ قال: نعم، فتحسرت، فألقت خمارها ورسول الله ﷺ جالس فى حجرها، ثم قالت: هل تراه؟ قال: لا، فقالت: يابن عم، اثبت وأبشر؛ فوالله إنه لملك وما هو بشيطان.

وعن جابر بن عبد الله الأنصارى قال: قال رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحى: بينا أنا أمشى سمعت صوتًا من السماء، فرفعت رأسى، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض. قال رسول الله ﷺ: فجئثت منه ـ خفت وفزعت ـ فرقًا، وجئت فقلت: زملونى، زملونى! فدثرونى، فأنزل الله ـ عز وجل: ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ⓵ قُمْ فَأَنذِرْ ⓶ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ** ﴾ إلى قوله: ﴿ **وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ** ﴾ قال: ثم تتابع الوحى.

قال أبو جعفر: فلما أمر الله ـ عز وجل ـ نبيه محمدا ﷺ أن يقوم بإنذار قومه عقاب الله على ما كانوا عليه مقيمين من كفرهم بربهم وعبادتهم الآلهة والأصنام دون الذى خلقهم ورزقهم؛ وأن يحدث بنعمة ربه عليه بقوله: ﴿ **وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** ﴾. وذلك ـ فيما زعم ابن إسحاق ـ النبوة، أى: ماجاءك

من الله من نعمته وكرامته من النبوة فحدث؛ اذكرها وادع إليها. قال ابن إسحاق: فجعل رسول الله ﷺ يذكر ما أنعم الله عليه وعلى العباد به من النبوة سرًّا إلى من يطمئن إليه من أهله، فكان أول من صدقه وآمن به واتبعه من خلق الله - فيما ذكر - زوجته خديجة - رحمها الله.

قال الواقدى: أصحابنا على أن أول أهل القبلة استجاب لرسول الله ﷺ خديجة بنت خويلد - رحمها الله.

وقال أبو جعفر: ثم كان أول شيء فرض الله - عز وجل - من شرائع الإسلام عليه بعد الإقرار بالتوحيد والبراءة من الأوثان والأصنام وخلع الأنداد، الصلاة - فيما ذكر.

وعن محمد بن إسحاق قال: وحدثنى بعض أهل العلم أن الصلاة حين افترضت على رسول الله ﷺ، أتاه جبرائيل وهو بأعلى مكة، فهمز له بعقبه فى ناحية الوادى، فانفجرت منه عين، فتوضأ جبرائيل - عليه السلام - ورسول الله ﷺ ينظر إليه ليريه كيف الطهور للصلاة، ثم توضأ رسول الله ﷺ كما رأى جبرائيل - عليه السلام - توضأ، ثم قام جبرائيل - عليه السلام - فصلى به، وصلى النبى ﷺ بصلاته. ثم انصرف جبرائيل - عليه السلام - فجاء رسول الله ﷺ خديجة، فتوضأ لها يريها كيف الطهور للصلاة؛ كما أراه جبرائيل - عليه السلام -، فتوضأت كما توضأ رسول الله ﷺ ثم صلى بها رسول الله ﷺ كما صلى به جبرائيل - عليه السلام - فصلت بصلاته.

وعن أنس بن مالك، قال: لما كان حين نبئ النبى - صلى الله عليه وسلم - وكان ينام حول الكعبة، وكانت قريش تنام حولها، فأتاه ملكان: جبرائيل وميكائيل، فقالا: بأيهم أمرنا؟ فقالا: أمرنا بسيدهم، ثم ذهبا ثم جاءا من القبلة، وهم ثلاثة، فألفوه وهو نائم، فقلبوه لظهره، وشقوا بطنه، ثم جاءوا بماء من ماء زمزم، فغسلوا ما كان فى بطنه من شك أو شرك أو جاهلية أو ضلالة، ثم جاءوا بطست من ذهب، مليء إيمانا وحكمة، فملئ بطنه وجوفه إيمانًا

وحكمة، ثم عرج به إلى السماء الدنيا، فاستفتح جبرائيل، فقالوا: من هذا؟ فقال: جبرائيل، فقالوا: من معك؟ فقال: محمد، قالوا: وقد بعث؟ قال: نعم، قالوا: مرحبًا، فدعوا له فى دعائهم، فلما دخل، فإذا هو برجل جسيم وسيم، فقال: من هذا ياجبرائيل؟ فقال: هذا أبوك آدم، ثم أتوا به إلى السماء الثانية، فاستفتح جبرائيل، فقيل له مثل ذلك، وقالوا فى السموات كلها كما قال وقيل له فى السماء الدنيا، فلما دخل، إذا برجلين، فقال: من هؤلاء ياجبرائيل؟ فقال: يحيى وعيسى ابنا الخالة، ثم أتى به السماء الثالثة، فلما دخل إذا هو برجل، فقال: من هذا ياجبرائيل؟ قال: هذا أخوك يوسف، فضل بالحسن على الناس، كما فضل القمر ليلة البدر على الكواكب، ثم أتى به السماء الرابعة، فإذا هو برجل، فقال: من هذا ياجبرائيل؟ فقال: إدريس، ثم قرأ ﴿ ورفعناه مكانًا عليًّا ﴾[1]، ثم أتى السماء الخامسة، فإذا هو برجل، فقال: من هذا ياجبرائيل؟ قال: هذا هارون، ثم أتى السماء السادسة، فإذا هو برجل فقال: من هذا ياجبرائيل؟ فقال: هذا موسى، ثم أتى السماء السابعة، فإذا هو برجل، فقال: من هذا ياجبرائيل؟ فقال: هذا أبوك إبراهيم، ثم انطلق إلى الجنة، فإذا هو بنهر أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، بجنبتيه قباب الدر، فقال: من هذا ياجبرائيل؟ فقال: هذا الكوثر الذى أعطاك ربك، وهذه مساكنك، قال: وأخذ جبرائيل بيده من تربته، فإذا هو مسك أذفر، ثم خرج إلى سدرة المنتهى، وهى سدرة نبق أعظمها أمثال الجراز، وأصغرها أمثال البيض، فدنا ربك ـ عز وجل ـ: ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾[2]، فجعل يتغشى السدرة من دنو ربها ـ تبارك وتعالى ـ، أمثال الدر والياقوت والزبرجد واللؤلؤ ألوان. فأوحى إلى عبده، وفهمه وعلمه وفرض عليه خمسين صلاة، فمر على موسى، فقال: مافرض على أمتك؟ فقال: خمسين صلاة، قال: ارجع إلى ربك فسله التخفيف

(١) مريم : ٥٧.

(٢) النجم : ٩.

لأمتك، فإن أمتك أضعف الأمم قوة، وأقلها عمرًا، وذكر مالقى من بنى إسرائيل، فرجع فوضع عنه عشرًا، ثم مر على موسى، فقال: ارجع إلى ربك فسله التخفيف، كذلك حتى جعلها خمسًا، قال: ارجع إلى ربك فسله التخفيف، فقال: لست براجع؛ غير عاصيك؛ وقذف فى قلبه ألا يرجع، فقال الله ـ عز وجل ـ: «**لا يبدل كلامى، ولايرد قضائى وفرضى**» وخفف عن أمتى الصلاة لعشر. قال أنس: وما وجدت ريحًا قط ولاريح عروس قط، أطيب ريحا من جلد رسول الله ﷺ ؛ ألزقت جلدى بجلده وشممته.

قال أبو جعفر: ثم اختلف السلف فيمن اتبع رسول الله ﷺ وآمن به وصدقه على ماجاء به من عند الله من الحق بعد زوجته خديجة بنت خويلد، وصلّى معه.

فقال بعضهم: كان أول ذكر آمن برسول الله ﷺ معه وصدقه بما جاءه من عند الله، على بن أبى طالب ـ عليه السلام .

وعن زيد بن أرقم وغيره، قالوا: أول من أسلم مع رسول الله ﷺ على بن أبى طالب. . قال: فذكرته للنخعى، فأنكره، وقال: أبو بكر أول من أسلم.

وحكى عفيف قائلا: جئت فى الجاهلية إلى مكة، فنزلت على العباس بن عبد المطلب. قال: فلما طلعت الشمس وحلقت فى السماء وأنا أنظر إلى الكعبة، أقبل شاب، فرمى ببصره إلى السماء، ثم استقبل الكعبة، فقام مستقبلها، فلم يلبث حتى جاء غلام، فقام عن يمينه. قال: فلم يلبث حتى جاءت امرأة، فقامت خلفهما، فركع الشاب. فركع الغلام والمرأة، فرفع الشاب، فرفع الغلام والمرأة، فخر الشاب ساجدا فسجدوا معه، فقلت: ياعباس، أمر عظيم، فقال: أمر عظيم! أتدرى من هذا؟ فقلت: لا، قال: هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن أخى. أتدرى من هذا معه؟ قلت: لا، قال هذا على بن أبى طالب بن عبد المطلب، ابن أخى. أتدرى من هذه المرأة التى خلفهم؟ قلت: لا، قال: هذه خديجة بنت خويلد، زوجة ابن أخى، وهذا حدثنى أن ربك رب السماء، أمرهم

بهذا الذى تراهم عليه، وايم الله ما أعلم على ظهر الأرض كلها أحدًا على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة. قال عفيف: فليتنى كنت آمنت يومئذ فكنت أكون رابعًا!.

وعن مجاهد حدث ابن إسحاق.. قال: كان من نعمة الله على عليٍّ بن أبى طالب، وماصنع الله له وأراده به من الخير، أن قريشًا أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثير؛ فقال رسول الله ﷺ للعباس عمه ـ وكان من أيسر بنى هاشم ـ: ياعباس؛ إن أخاك أبا طالب كثير العيال وقد أصاب الناس ماترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا فلنخفف عنه من عياله؛ آخذ من بنيه رجلا، وتأخذ من بنيه رجلاً، فنكفهما عنه. قال العباس: نعم، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب، فقالا: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ماهم فيه، فقال لهما أبو طالب: إذا تركتما لى عقيلاً فاصنعا ماشئتما، فأخذ رسول الله ﷺ عليًّا فضمه إليه، وأخذ العباس جعفرًا فضمه إليه، فلم يزل على بن أبى طالب مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله نبيًّا، فاتبعه على فآمن به وصدقه، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه.

وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ كان إذا حضرت الصلاة، خرج إلى شعاب مكة، وخرج معه على بن أبى طالب، مستخفيًا من عمه أبى طالب وجميع أعمامه وسائر قومه، فيصليان الصلوات فيها؛ فإذا أمسيا رجعا، فمكثا كذلك ماشاء الله أن يمكثا. ثم إن أبا طالب عثر عليهما يومًا وهما يصليان، فقال لرسول الله ﷺ: يابن أخى، ماهذا الدين الذى أراك تدين به؟ قال: أى عم، هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله، ودين أبينا إبراهيم ـ أو كما قال ـ بعثنى الله به رسولا إلى العباد، وأنت ياعم أحق من بذلت له النصيحة، ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجابنى إليه، وأعاننى عليه ـ أو كما قال ـ فقال أبو طالب: يابن أخى؛ إنى لا أستطيع أن أفارق دينى ودين آبائى وما كانوا عليه؛ ولكن والله لا يخلص إليك بشىء تكرهه ماحييت.

وزعموا أنه قال لعليّ بن أبى طالب: أى بنى، ماهذا الدين الذى أنت عليه؟ قال يا أبه، آمنت بالله وبرسوله وصدقته بما جاء به، وصليت معه لله. فزعموا أنه قال له: أما إنه لا يدعوك إلا إلى خير، فالزمه.

وقال آخرون: أول من أسلم من الرجال أبو بكر - رضى الله عنه.

ذكر من قال ذلك:

سأل الشعبى ابن عباس: من أول الناس إسلامًا؟ فقال: أما سمعت قول حسان بن ثابت:

إذا تذكرت شجوا من أخى ثقة — فاذكر أخاك أبا بكر بمافعلا
خــير البريــة أتقاهــا وأعــدلها — بعد النبى وأوفاها بما حملا
الثانـى التـالى المحمـود مشهـده — وأول الناس منهم صدق الرسلا

وقال عمرو بن عبسة: أتيت رسول الله ﷺ وهو نازل بعكاظ، قلت: يارسول الله، من تبعك على هذا الأمر؟ قال: اتبعنى عليه رجلان؛ حر وعبد: أبو بكر وبلال، قال: فأسلمت عند ذلك؛ فلقد رأيتنى إذ ذاك ربع الإسلام.

حدثنى ابن عبد الرحيم البرقى، عن جبير بن نفير، قال: كان أبو ذر وابن عبسة كلاهما يقول: لقد رأيتنى ربع الإسلام، ولم يسلم قبل إلا النبى وأبو بكر وبلال، كلاهما لايدرى متى أسلم الآخر.

وقال إبراهيم النخعى: أبو بكر أول من أسلم.

وقال آخرون: كان أول من آمن واتبع النبى ﷺ من الرجال زيد بن حارثة مولاه.

ذكر من قال ذلك...

سأل ابن أبى ذؤيب.. الزهرى: من أول من أسلم؟ قال: من النساء خديجة، ومن الرجال زيد بن حارثة.

وعن سليمان بن يسار، قال: أول من أسلم زيد بن حارثة.

وعن عروة، قال: أول من أسلم زيد بن حارثة.

وقال ابن إسحاق: ثم أسلم زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ فكان أول ذكر أسلم، وصلى بعد عليّ بن أبى طالب، ثم أسلم أبو بكر بن أبى قحافة الصديق، فلما أسلم أظهر إسلامه، ودعا إلى الله - عز وجل - وإلى رسوله. قال: وكان أبو بكر رجلاً مألفًا لقومه، محببًا سهلاً، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير أو شر، وكان رجلاً تاجرًا ذا خلق ومعروف، كان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر: لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه، فأسلم على يديه - فيما بلغنى - عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص، وطلحة بن عبيد الله، فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ حين استجابوا له، فأسلموا وصلوا، فكان هؤلاء الثمانية النفر الذين سبقوا إلى الإسلام، فصلوا وصدقوا برسول الله ﷺ وآمنوا بما جاء به من عند الله؛ ثم تتابع الناس فى الدخول فى الإسلام، الرجال منهم والنساء؛ حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدث به الناس.

وقال الواقدى.. عن ابن سعد: اجتمع أصحابنا على أن أول أهل القبلة استجاب لرسول الله ﷺ خديجة بنت خويلد، ثم اختلف عندنا فى ثلاثة نفر: فى أبى بكر، وعلى، وزيد بن حارثة، أيهم أسلم أول، وأسلم معهم خالد بن سعيد بن العاص خامسًا، وأسلم أبو ذر، قالوا: رابعًا أو خامسًا، وأسلم عمرو ابن عبسة السلمى، فيقال: رابعًا أو خامسًا. قال: فإنما اختلف عندنا فى هؤلاء النفر أيهم أسلم أول؛ وفى ذلك روايات كثيرة. قال: فيختلف فى الثلاثة المتقدمين، وفى هؤلاء الذين كتبنا بعدهم.

وأما ابن إسحاق فإنه ذكر أن خالد بن سعيد بن العاص وامرأته أمينة بنت خلف بن أسعد بن عامر بن بياضة، من خزاعة، أسلما بعد جماعة كثيرة غير الذين ذكرتهم بأسمائهم أنهم كانوا من السابقين إلى الإسلام.

ثم إن الله ـ عز وجل ـ أمر نبيه ﷺ بعد مبعثه بثلاث سنين أن يصدع بما جاءه منه، وأن يبادى الناس بأمره، ويدعو إليه، فقال له : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾[1]، وكان قبل ذلك ـ فى السنين الثلاث من مبعثه؛ إلى أن أمر بإظهار الدعاء إلى الله ـ مستسراً مخفيًا أمره ﷺ وأنزل عليه: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُون ﴾[2].

قال ابن إسحاق: وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلوا ذهبوا إلى الشعاب، فاستخفوا من قومهم، فبينا سعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحاب النبى ﷺ فى شعب من شعاب مكة إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون، فناكروهم وعابوا عليهم مايصنعون؛ حتى قاتلوهم، فاقتتلوا، فضرب سعد بن أبى وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بلحى جملٍ فشجه، فكان أول دم أهريق فى الإسلام.

وعن ابن عباس، قال: صعد رسول الله ﷺ ذات يوم الصفا، فقال: ياصباحاه! فاجتمعت إليه قريش، قالوا: مالك؟ قال: أرأيت إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أما كنتم تصدقوننى! قالوا: بلى، قال: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد، فقال أبو لهب: تبا لك ! ألهذا دعوتنا ـ أو جمعتنا! فأنزل الله ـ عز وجل ـ: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَب ﴾ إلى آخر السورة.

وعن عبد الله بن عباس، عن علّى بن أبى طالب، قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينْ ﴾، دعانى رسول الله ﷺ فقال لى: ياعلىّ، إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين، فضقت بذلك ذرعا، وعرفت أنى متى أباديهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره، فصمت عليه حتى جاء

(١) الحجر الآية ٩٤.

(٢) الشعراء الآيات ٢١٤ - ٢١٦.

جبرائيل فقال: يامحمد، إنك إلا تفعل ما تؤمر به يعذبك ربك، فاصنع لنا صاعًا من طعام، واجعل عليه رجل شاة، واملأ لنا عسًّا من لبن؛ ثم اجمع لى بنى عبد المطلب حتى أكلمهم، وأبلغهم ما أمرت به، ففعلت ما أمرنى به، ثم دعوتهم له؛ وهم يومئذ أربعون رجلا، يزيدون رجلا أو ينقصونه؛ فيهم أعمامه: أبو طالب، وحمزة، والعباس، وأبو لهب؛ فلما اجتمعوا إليه دعانى بالطعام الذى صنعت لهم، فجئت به، فلما وضعته تناول رسول الله ﷺ حذية من اللحم (شريحة طويلة) فشقها بأسنانه، ثم ألقاها فى نواحى الصحفة. ثم قال: خذوا باسم الله، فأكل القوم حتى مالهم بشىء حاجة وما أرى إلا موضع أيديهم، وايم الله الذى نفس علىّ بيده، وإن كان الرجل الواحد منهم ليأكل ما قدمت لجميعهم. ثم قال: اسق القوم، فجئتهم بذلك العُس، فشربوا منه حتى رووا منه جميعًا، وايم الله إن كان الرجل الواحد منهم ليشرب مثله، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يكلمهم بدره أبو لهب إلى الكلام، فقال: لهدَّ ما ـ كلمة يتعجب بها ـ سحركم صاحبكم! فتفرق القوم ولم يكلمهم رسول الله ﷺ، فقال: الغد ياعلىّ؛ إن هذا الرجل سبقنى إلى ما قد سمعت من القول، فتفرق القوم قبل أن يكلمهم، فعد لنا من الطعام بمثل ما صنعت، ثم اجمعهم إلىّ. قال: ففعلت، ثم جمعتهم، ثم دعانى بالطعام فقربته لهم، ففعل كما فعل بالأمس، فأكلوا حتى مالهم بشىء حاجة. ثم قال: اسقهم، فجئتهم بذلك العُسّ، فشربوا حتى رووا منه جميعًا، ثم تكلم رسول الله ﷺ، فقال: يابنى عبد المطلب؛ إنى والله ما أعلم شابا فى العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، إنى قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرنى الله تعالى أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخى ووصيى وخليفتى فيكم؟ قال: فأحجم القوم عنها جميعًا، وقلت ـ وإنى لأحدثهم سنا، وأرمصهم ـ الرمص فى العين كالغمص الذى تلفظه ـ عينًا، وأعظمهم بطنًا، وأحمشهم ساقا ـ أحمش، أى: أدق ـ: أنا يانبىّ الله، أكون وزيرك عليه، فأخذ برقبتى، ثم قال: إن هذا

أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فاسمعوا وأطيعوا. قال: فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع.

وحدثنا محمد بن إسحاق.. قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينْ ﴾، قام رسول الله ﷺ بالأبطح، ثم قال: يابنى عبد المطلب، يابنى عبد مناف، يابنى قصى، قال: ثم فخذ قريشا ـ أي: دعاهم فخذا فخذا، قبيلة قبيلة، حتى مر على آخرهم، إنى أدعوكم إلى الله وأنذركم عذابه.

وعن القاسم ، قال: أمر رسول الله ﷺ أن يصدع بما جاءه من عند الله، وأن يبادى الناس بأمره، وأن يدعوهم إلى الله، فكان يدعو من أول مانزلت عليه النبوة ثلاث سنين، مستخفيًا، إلى أن أمر بالظهور للدعاء.

فصدع رسول الله ﷺ بأمر الله، وبادى قومه بالإسلام، فلما فعل ذلك لم يبعد منه قومه، ولم يردوا عليه بعض الرد ـ فيما بلغنى ـ حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك ناكروه وأجمعوا على خلافه وعداوته إلاّ مَنْ عصم الله منهم بالإسلام، وهم قليل مستخفون، وحَدب عليه أبو طالب عَمّه ومنعه، وقام دونه، ومضى رسولُ الله ﷺ على أمر الله مظهرًا لأمره، لا يردّه عنه شيء. فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ لا يُعتبهم مِنْ شيء يكرهونه مما أنكروه عليه من فراقهم وعيْب آلهتهم، ورأوْا أن أبا طالب قد حَدبَ عليه، وقام دونه فلم يُسلمْه لهم، مشى رجالٌ من أشراف قريش إلى أبي طالب: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة ، وأبو البخْتَرِيّ بن هشام، والأسود بن المطّلب، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، والعاص بن وائل، ونبيه ومنبه ابنا الحجّاج ـ أوْ منْ مشى إليه منهم ـ فقالوا : يا أبا طالب، إنّ ابن أخيك قد سبّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا، وضلّل آباءنا، فإمّا أن تكفه عنّا، وإمّا أنْ تخلي بيننا وبينه؛ فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه. فقال لهم أبو طالب قولا رفيقًا، وردّهم ردّا جميلاً، فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه؛ يُظهر دين الله، ويدعو إليه. قال: ثم شرى الأمرُ بينه وبينهم حتى تباعد الرجالُ،

وتضاعفوا، وأكثرت قريش ذكْر رسول الله ﷺ بينها، وتذامروا فيه، وحضّ بعضهم بعْضا عليه. ثم إنهم مَشَوْا إلى أبى طالب مرَّة أخرى، فقالوا: يا أبا طالب، إن لك سنًّـا وشرفًا ومنزلة فينا، وإنَّا قد استنهيْناك من ابن أخيك فلم تنْههَ عنّا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا حتى تكفه عنّا أو ننازله وإياك فى ذلك؛ حتى يهلك أحد الفريقين ـ أو كما قالوا ـ ثم انصرفوا عنه، فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم له؛ ولم يطبْ نفسًا بإسلام رسول الله ﷺ لهم ولا خذلانه.

فبعث إليه أبو طالب، فلمّا دخل عليه رسولُ الله ﷺ قال: يا بن أخى؛ هؤلاء مشيخة قومك وسرواتهم، قد سألوك النَّصْف، أن تكفّ عن شتم آلهتهم ويدعوك وإلـهك. قال: أى عمّ، أولا أدعوهم إلى ما هو خير لهم منها؟ قال: وإلام تدعوهم؟ قال: أدعوهم إلى أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب، ويملكون بها العجم. قال: فقال أبو جهل من بين القوم: ما هى وأبيك؟ لنعطينكها وعشرًا أمثالها. قال: تقول: لا إله إلا الله، قال: فنفروا وتفرقوا وقالوا : سلنا غير هذه، فقال: لو جئتمونى بالشمس حتى تضعوها فى يدى ماسألتكم غيرها! قال: فغضبوا وقاموا من عنده غضابى، وقالوا: والله لنشتمنك وإلهك الذى يأمرك هذا، ﴿ وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلاَّ اخْتِلاقٌ ﴾(١).

وأقبل على عمه فقال له عمه: يابن أخى، ما شططت عليهم، فأقبل على عمه فدعاه، فقال: قل كلمة أشهد لك بها يوم القيامة، تقول: لا إله إلا الله فقال : لولا أن تعييكم بها العرب، يقولون: جزع من الموت لأعطيتكها؛ ولكن على ملة الأشياخ، قال: فنزلت هذه الآية: ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾(٢).

---

(١) ص الآيتان ٦، ٧.

(٢) القصص الآية ٥٦.

وحدث أن قريشًا حين قالت لأبى طالب هذه المقالة لما مرض، بعث إلى رسـول الله ﷺ فقال له: يابن أخى، إن قومك قد جاءونى فقالوا لى كذا وكذا، فأبْقِ علىَّ وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق! فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لِعَمِّه فيه بداء ـ أى: رأى ـ وأنه خاذله ومسلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه، فقال رسول الله ﷺ : ياعماه، لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ماتركته. ثم استعتب رسول الله ﷺ فبكى ثم قام، فلما ولى ناداه أبو طالب، فقال: أقبل يابن أخى، فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: اذهب يابن أخى، فقل ما أحببت فوالله لاأسلمك لشىء أبدًا.

قال ابن إسحاق: ثم إن قريشًا لما عرفت أن أبا طالب أبى خذلان رسول الله ﷺ وإسلامه وإجماعه لفراقهم فى ذلك، وعداوتهم، مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له. . فيما بلغنى: يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى ـ أى : أقوى وأجلد ـ فى قريش وأشعره وأجمله، فخذه فلك عقله ونصرته، واتخذه ولدًا؛ فهو لك، وأسلم لنا ابن أخيك ـ هذا الذى قد خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك، وسفه أحلامهم ـ فنقتله؛ فإنما رجل كرجل؛ فقال: والله لبئس ماتسوموننى! أتعطوننى ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابنى تقتلونه! هذا والله مالايكون أبدًا. فقال المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف: والله يا أبا طالب، لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكرهه، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئًا، فقال أبو طالب للمطعم: والله ما أنصفونى؛ ولكنك قد أجمعت خذلانى ومظاهرة القوم علىَّ فاصنع مابدا لك!

قال : فحقب الأمر عند ذلك، وحميت الحرب، وتنابذ القوم، وبادى بعضهم بعضًا.

ثم إن قريشًا تذامروا على من فى القبائل منهم من أصحاب رسول الله ﷺ الذين أسلموا معه.

فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم، ومنع الله رسوله منهم بعمه أبى طالب، فدعاهم إلى ماهو عليه من منع رسول الله ﷺ والقيام دونه. فاجتمعوا إليه، وقاموا معه، وأجابوا إلى مادعاهم إليه من الدفع عن رسول الله ﷺ إلا ما كان من أبى لهب؛ فلما رأى أبو طالب من قومه ماسره من جدهم معه، وحدبهم عليه، جعل يمدحهم، ويذكر فضل رسول الله ﷺ فيهم ومكانه منهم ليشد لهم رأيهم.

وقدم ناس من الطائف من قريش لهم أموال، أنكروا عليه ﷺ ذكر طواغيتهم، واشتدوا عليه، وكرهوا ماقال لهم، وأغروا به من أطاعهم، فانصفق - أى: فانصرف - عنه عامة الناس، فتركوه إلا من حفظه الله منهم، وهم قليل؛ فمكث بذلك ما قدر الله أن يمكث. ثم ائتمرت رءوسهم بأن يفتنوا من تبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم، فكانت فتنة شديدة الزلزال على من اتبع رسول الله ﷺ من أهل الإسلام، فافتتن من افتتن، وعصم الله منهم من شاء؛ فلما فعل ذلك بالمسلمين؛ أمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا إلى أرض الحبشة، وكان بالحبشة ملك صالح يقال له النجاشى، لا يظلم أحد بأرضه، وكان يثنى عليه - أى: يشيع عنه - مع ذلك صلاح، وكانت أرض الحبشة متجرًا لقريش يتجرون فيها، يجدون فيها رفاغا - سعة - من الرزق، وأمنًا ومتجرًا حسنًا - فأمرهم بها رسول الله ﷺ؛ فذهب إليها عامتهم لما قهروا بمكة، وخاف عليهم الفتن، ومكث هو فلم يبرح، فمكث بذلك سنوات؛ يشتدون على من أسلم منهم.

ثم إنه فشا الإسلام فيها، ودخل فيه رجال من أشرافهم.

قال أبو جعفر: اختلف فى عدد من خرج إلى أرض الحبشة، وهاجر إليها هذه الهجرة، وهى الهجرة الأولى، فقال بعضهم: كانوا أحد عشر رجلا وأربع نسوة.

أخبرنا عبيد الله بن العباس الهذلى، عن الحارث بن الفضل، قالا: خرج الذين هاجروا الهجرة الأولى متسللين سرا، وكانوا أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، حتى انتهوا إلى الشعيبة، منهم الراكب والماشى، ووفق الله للمسلمين ساعة

جاءوا سفينتين للتجارة وحملوهم فيها إلى أرض الحبشة بنصف دينار، وكان مخرجهم فى رجب فى السنة الخامسة، من حين نبىء رسول الله ﷺ، وخرجت قريش فى آثارهم حتى جاءوا البحر؛ حيث ركبوا فلم يدركوا منهم أحدًا.

قالوا: وقدمنا أرض الحبشة، فجاورنا بها خير جار؛ أمنا على ديننا، وعبدنا الله، لانؤذى ولا نسمع شيئًا نكرهه.

وحدثنى عبد الحميد بن جعفر، عن محمد بن يحيى بن حبان، قالا: تسمية القوم الرجال والنساء: عثمان بن عفان معه امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة معه امرأته سهلة بنت عمرو، والزبير بن العوام بن خويلد بن أسد، ومصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، وعبد الرحمن بن عوف بن الحارث بن زهرة، وأبو سلمة بن أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم معه امرأته أم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وعثمان بن مظعون الجمحى، وعامر بن ربيعة العنزى؛ من عنز بن وائل - ليس من عنزة - حليف بنى عدى بن كعب، معه امرأته ليلى بنت أبى حثمة، وأبو سبرة بن أبى رهم بن عبد العزى العامرى، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس، وسهيل بن بيضاء، من بنى الحارث بن فهير، وعبد الله بن مسعود حليف بنى زهرة.

وقال آخرون: كان الذين لحقوا بأرض الحبشة، وهاجروا إليها من المسلمين - سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم صغارًا وولدوا بها - اثنين وثمانين رجلا.

قال محمد بن إسحاق: لما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وماهو فيه من العافية بمكانه من الله وعمه أبى طالب، وأنه لايقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة! فإن بها ملكًا لايظلم أحد عنده، وهى أرض صدق؛ حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه! فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة؛ وفرارًا إلى الله - عز وجل - بدينهم؛ فكانت أول هجرة كانت فى الإسلام؛ فكان أول من خرج من المسلمين من بنى أمية بن عبد شمس بن

عبد مناف: عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية؛ ومعه امرأته رقية ابنة رسول الله ﷺ ؛ ومن بنى عبد شمس أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، ومعه امرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو؛ أحد بنى عامر بن لؤى؛ ومن بنى أسد بن عبد العزى بن قصى الزبير بن العوام.

فعد النفر الذين ذكرهم الواقدى؛ غير أنه قال: من بنى عامر بن لؤى بن غالب بن فهر أبو سبرة بن أبى رهم بن عبد العزى بن أبى قيس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤى؛ ويقال: بل أبو حاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤى. قال: هو أوّل مَنْ قدمها فجعلهم ابن إسحاق عشرة؛ وقال: كان هؤلاء العشرة أول من خرج من المسلمين إلى أرض الحبشة ـ فيما بلغنى.

قال: ثم خرج جعفر بن أبى طالب، وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة؛ فكانوا بها، منهم من خرج بأهله معه، ومنهم من خرج بنفسه لا أهل معه؛ ثم عد بعد ذلك تمام اثنين وثمانين رجلا؛ بالعشرة الذين ذكرت بأسمائهم؛ ومن كان منهم معه أهله وولده، ومن ولد له بأرض الحبشة، ومن كان منهم لاأهل معه.

ولما خرج من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مهاجرا إليها، ورسول الله ﷺ مقيم بمكة، يدعو إلى الله سراً وجهراً، قد منعه الله بعمه أبى طالب وبمن استجاب لنصرته من عشيرته، ورأت قريش أنهم لاسبيل لهم إليه، رموه بالسحر والكهانة والجنون؛ وأنه شاعر، وجعلوا يصدون عنه من خافوا منه أن يسمع قوله فيتبعه؛ فكان أشد مابلغوا منه حينئذ ـ فيما ذكر عبد الله ابن عمرو بن العاص ـ قال: قد حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يوما فى الحجر، فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا: ما رأينا مثل ماصبرنا عليه من هذا الرجل قط! سفه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آلهتنا! لقد صبرنا منه على أمر عظيم ـ أو كما قالوا.

فبيناهم كذلك إذ طلع رسول الله ﷺ فأقبل يمشى حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفًا بالبيت، فلما مرَّ بهم غمزوه ببعض القول. قال: فعرفت ذلك فى وجهه، ثم مضى، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها، فوقف فقال: أتسمعون يامعشر قريش! أما والذى نفس محمد بيده، لقد جئتكم بالذبح! قال: فأخذت القوم كلمته، حتى مامنهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع؛ وحتى إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفؤه - يهدئه ويرفق به - بأحسن مايجد من القول؛ حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم راشدًا، فوالله ما كنت جهولاً.

فانصرف رسول الله ﷺ؛ حتى إذا كان الغد، اجتمعوا فى الحجر، وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم، ومابلغكم عنه، حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه! فبينا هم كذلك إذ طلع رسول الله ﷺ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد؛ وأحاطوا به يقولون له: أنت الذى تقول كذا وكذا! لما يبلغهم من عيب آلهتهم ودينهم؛ فيقول رسول الله ﷺ: نعم أنا الذى أقول ذلك؛ قال: فلقد رأيت رجلاً منهم آخذًا بجمع ردائه. قال: وقام أبو بكر الصديق دونه، يقول وهو يبكى: ويلكم! أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله! ثم انصرفوا عنه، فإن ذلك أشد ما رأيت قريشًا بلغت منه قط.

وحدث أن مر أبو جهل بن هشام برسول الله - ﷺ وهو جالس عند الصفا، فآذاه وشتمه، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف له، فلم يكلمه رسول الله ﷺ ومولاة لعبد الله بن جدعان التيمى فى مسكن لها فوق الصفا تسمع ذلك - ثم انصرف عنه، فعمد إلى نادى قريش عند الكعبة، فجلس معهم فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل متوشحا قوسه، راجعًا من قنص له - وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف الكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم، وكان أعز قريش وأشدها شكيمة - فلما مر بالمولاة وقد قام رسول الله ﷺ ورجع إلى بيته، قالت: يا أبا عمارة، لو رأيت مالقى ابن أخيك محمد آنفا قبل أن تأتى من أبى الحكم بن هشام! وجده ها هنا جالسًا فسبه

وآذاه، وبلغ منه مايكره؛ ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد. فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته، فخرج سريعًا لايقف على أحد كما كان يصنع - يرِيد الطواف بالكعبة، معدا لأبي جهل إذا لقيه أن يقع به، فلما دخل المسجد نظر إليه جالسًا في القوم، فأقبل نحوه؛ حتى إذا قام على رأسه، رفع القوس فضربه بها ضربة فشجه بها شجة منكرة، وقال: أتشتمه وأنا على دينه أقول مايقول! فرد ذلك عليَّ إن استطعت! وقامت رجال بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل منه، فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عز، وأن حمزة سيمنعه، فكفوا عن رسول الله ﷺ بعض ماكانوا ينالون منه.

وعن محمد بن إسحاق.. عن عروة بن الزبير، قال: كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة عبد الله بن مسعود، قال: اجتمع يومًا أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: والله ماسمعت قريش بهذا القرآن يجهر لها به قط، فمن رجل يسمعهموه؟ فقال عبد الله بن مسعود: أنا، قالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه، فقال: دعوني، فإن الله سيمنعني، قال: فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى، وقريش في أنديتها، حتى قام عند المقام ثم قال: ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾ رافعا بها صوته ﴿ **الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** ﴾، ثم استقبلها يقرأ فيها، قال: وتأملوا وجعلوا يقولون: مايقول ابن أم عبد؟! ثم قالوا: إنه ليتلو بعض ماجاء به محمد. فقاموا إليه، فجعلوا يضربون في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ماشاء الله أن يبلغ ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا بوجهه، فقالوا: هذا الذي خشينا عليك! قال: ماكان أعداء الله أهون علي منهم الآن! لئن شئتم لأغادينهم غدًا بمثلها، قالوا: لا، حسبك، فقد أسمعتهم مايكرهون.

ولما استقر بالذين هاجروا إلى أرض الحبشة القرار بأرض النجاشي واطمأنوا،

تآمرت قريش فيما بينها فى الكيد بمن ضوى إليها من المسلمين، فوجهوا عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبى ربيعة بن المغيرة المخزومى إلى النجاشى، مع هدايا كثيرة أهدوها إليه وإلى بطارقته، وأمروهما أن يسألا النجاشى تسليم من قبله وبأرضه من المسلمين إليهم. فشخص عمرو وعبد الله إليه فى ذلك، فنفذا لما أرسلهما إليه قومهما، فلم يصلا إلى ما أمل قومهما من النجاشى، فرجعا مقبوحين، وأسلم عمر بن الخطاب ـ رحمه الله ـ فلما أسلم ـ وكان رجلا جلدًا منيعًا ـ وكان قد أسلم قبل ذلك حمزة بن عبد المطلب، ووجد أصحاب رسول الله ﷺ فى أنفسهم قوة، وجعل الإسلام يفشو فى القبائل، وحمى النجاشى من ضوى ـ لجأ إلى بلده منهم ـ اجتمعت قريش، فائتمرت بينها: أن يكتبوا بينهم كتابًا يتعاقدون فيه؛ على ألا ينكحوا إلى بنى هاشم وبنى المطلب، ولاينكحوهم ولايبيعوهم شيئًا، ولا يبتاعوا منهم، فكتبوا بذلك صحيفة، وتعاهدوا وتواثقوا على ذلك؛ ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة، توكيدًا بذلك الأمر على أنفسهم، فلما فعلت ذلك قريش، انحازت بنوهاشم وبنو المطلب إلى أبى طالب، فدخلوا معه فى شعبه، واجتمعوا إليه، وخرج من بنى هاشم أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب إلى قريش، وظاهرهم عليه، فأقاموا على ذلك من أمرهم سنتين أو ثلاثًا؛ حتى جهدوا ألا يصل إلى أحد منهم شىء إلا سرا، مستخفيا به من أراد صلتهم من قريش. وذكر أن أبا جهل لقى حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد، معه غلام يحمل قمحًا يريد به عمته خديجة بنت خويلد، وهى عند رسول الله ﷺ ومعه فى الشعب، فتعلق به، وقال: أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم والله لاتبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة! فجاء أبو البخترى بن هشام بن الحارث بن أسد، فقال: مالك وله! قال: يحمل الطعام إلى بنى هشام، فقال له أبو البخترى: طعام لعمته عنده بعثت إليه فيه، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها! خل سبيل الرجل، فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه، فأخذ أبو البخترى لحى بعير، فضربه فشجه، ووطئه وطئًا شديدًا، وحمزة بن عبد المطلب قريب يرى ذلك، وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه، فيشمتوا بهم،

ورسول الله ﷺ في كل ذلك، يدعو قومه سراً وجهراً، آناء الليل وآناء النهار، والوحي عليه من الله متتابع بأمره ونهيه، ووعيد من ناصبه العداوة، والحجج لرسول الله ﷺ على من خالفه.

فذكر أن أشراف قومه اجتمعوا له يومًا، فيما حدثني محمد بن موسى الحرشي، عن ابن عباس، قال: وعدت قريش رسول الله ﷺ أن يعطوه مالا فيكون أغنى رجل بمكة، ويزوجوه ما أراد من النساء، ويطأوا عقبه، فقالوا: هذا لك عندنا يامحمد، وكف عن شتم آلهتنا فلا تذكرها بسوء؛ فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلة واحدة فهي لك ولنا فيها صلاح. قال: ماهي؟ قالوا: تعبد آلهتنا سنة: اللات والعزى، ونعبد إلهك سنة، قال: حتى أنظر ما يأتي من عند ربي! فجاء الوحي من اللوح المحفوظ: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ** (١) **لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ** ﴾ السورة.

وأنزل الله عز وجل: ﴿ **قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ** ﴾ إلى قوله: ﴿ **بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ** ﴾[(١)].

فكان رسول الله ﷺ حريصًا على صلاح قومه، محبًّا مقاربتهم بما وجد إليه السبيل، قد ذكر أنه تمنى السبيل إلى مقاربتهم، فكان من أمره في ذلك.. لما رأى رسول الله ﷺ تولى قومه عنه، وشق عليه ما يرى من مباعدتهم ماجاءهم به من الله، تمنى في نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب بينه وبين قومه، وكان يسره مع حبه قومه، وحرصه عليهم أن يلين له بعض ما قد غلظ عليه من أمرهم، حتى حدث بذلك نفسه وتمناه وأحبه، فأنزل الله ـ عز وجل ـ: ﴿ **وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ** (١) **مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ** (٢) **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ** ﴾، فلما انتهى إلى قوله: ﴿ **أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ** (١٩) **وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ** ﴾[(٢)].

---

(١) الزمر الآيات: ٦٤ - ٦٦.

(٢) النجم الآيات: ١-٢٠.

ألقى الشيطان على لسانه، لما كان يحدث به نفسه، ويتمنى أن يأتى به قومه: «تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى»، فلما سمعت بذلك قريش فرحوا، وسرهم وأعجبهم ماذكر به آلهتهم، فأصاخوا له.. والمؤمنون مصدقون نبيهم فيما جاءهم به عن ربهم، ولا يتهمونه على خطأ ولاوهم ولازلل - فلما انتهى إلى السجدة منها وختم السورة سجد فيها، فسجد المسلمون بسجود نبيهم، تصديقًا لما جاء به، واتباعًا لأمره، وسجد من فى المسجد من المشركين من قريش وغيرهم، لما سمعوا من ذكر آلهتهم، فلم يبق فى المسجد مؤمن ولاكافر إلا سجد، إلا الوليد بن المغيرة، فإنه كان شيخًا كبيرًا، فلم يستطع السجود، فأخذ بيده حفنة من البطحاء فسجد عليها، ثم تفرق الناس من المسجد، وخرجت قريش، وقد سرهم ماسمعوا من ذكر آلهتهم، يقولون: قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر، قد زعم فيما يتلو: «أنها الغرانيق العلا، وأن شفاعتهن ترتضى» وبلغت السجدة من بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ؛ وقيل: أسلمت قريش، فنهض منهم رجال، وتخلف آخرون، وأتى جبريل رسول الله ﷺ فقال: يامحمد، ماذا صنعت؟ لقد تلوت على الناس مالم آتك به عن الله - عز وجل - وقلت مالم يقل لك! فحزن رسول الله ﷺ عند ذلك حزنًا شديدًا، وخاف من الله خوفًا كثيرًا، فأنزل الله - عز وجل، وكان به رحيمًا - يعزيه ويخفض عليه الأمر، ويخبره أنه لم يك قبله نبى ولا رسول تمنى ما تمنى، ولا أحب كما أحب إلا والشيطان قد ألقى فى أمنيته، كما ألقى على لسانه ﷺ فنسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم آياته؛ أى: فإنما أنت كبعض الأنبياء والرسل، فأنزل الله - عز وجل -: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾[1].

فأذهب الله - عز وجل - عن نبيه الحزن، وآمنه من الذى كان يخاف، ونسخ

(١) الحج: الآية ٥٢.

ما ألقى الشيطان على لسانه من ذكر آلهتهم: «أنها الغرانيق العلا وأن شفاعتهن ترتضى»، بقول الله - عز وجل - حين ذكر اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى: ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ أى: عوجاء، ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم ﴾ - إلى قوله - ﴿ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾[1]، أى: فكيف تنفع شفاعة آلهتكم عنده!

فلما جاء من الله مانسخ ما كان الشيطان ألقى على لسان نبيه، قالت قريش: ندم محمد على ماذكر من منزلة آلهتكم عند الله، فغير ذلك وجاء بغيره؛ وكان ذانك الحرفان اللذان ألقى الشيطان على لسان رسول الله ﷺ قد وقعا فى فم كل مشرك، فازدادوا شرًا إلى ما كانوا عليه، وشدةً على من أسلم واتبع رسول الله ﷺ منهم، وأقبل أولئك النفر من أصحاب رسول الله ﷺ الذين خرجوا من أرض الحبشة لما بلغهم من إسلام أهل مكة حين سجدوا مع رسول الله ﷺ حتى إذا دنوا من مكة، بلغهم أن الذى كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلا، فلم يدخل منهم أحد إلا بجوار، أو مستخفيًا، فكان ممن قدم مكة منهم فأقام بها حتى هاجر إلى المدينة، فشهد معه بدرًا من بنى عبد شمس بن عبد مناف بن قصى، عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية، معه امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس معه امرأته سهلة بنت سهيل، وجماعة أخر معهم، عددهم ثلاثة وثلاثون رجلا.

عن ابن إسحاق، فى نقص الصحيفة التى كانت قريش كتبت بينها على بنى هاشم وبنى المطلب - نفر من قريش. وكان أحسنهم بلاءً فيه هشام بن عمرو بن الحارث العامرى - من عامر بن لؤى - وكان ابن أخى نضلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه - وإنه مشى إلى زهير بن أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم - وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب - فقال: يازهير، أرضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب، وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمت، لايبايعون ولا يبتاع

(١) النجم : الآيات من ٢١ - ٢٦.

منهم، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم! أما إنى أحلف بالله لو كانوا أخوال أبى الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل مادعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبدًا. قال: ويحك ياهشام! فماذا أصنع! إنما أنا رجلٌ واحد؛ والله لو كان معى رجلٌ آخر لقمت فى نقضها حتى أنقضها. قال: قد وجدت رجلاً، قال: من هو؟ قال: أنا، قال زهير: ابغنا ثالثًا، فذهب إلى المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف، فقال له: يامطعم، أقد رضيت أن يهلك بطنان من بنى عبد مناف، وأنت شاهد على ذلك، موافق لقريش فيه! أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعًا. قال: ويحك فماذا أصنع! إنما أنا رجل واحد، قال: قد وجدت ثانيًا، قال: من هو ؟ قال: أنا، قال: ابغنا ثالثًا، قال: قد فعلت، قال: من هو؟ قال: زهير بن أبى أمية، قال: ابغنا رابعًا، فذهب إلى أبى البخترى بن هشام، فقال له نحوًا مما قال للمطعم بن عدى، فقال: وهل من أحد يعين على هذا؟ قال: نعم، قال: من هو؟ قال: زهير بن أبى أمية والمطعم بن عدى وأنا معك. قال: ابغنا خامسًا، فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، فكلمه، وذكر له قرابتهم وحقهم، فقال له: وهل على هذا الأمر الذى تدعونى إليه من أحد؟ قال: نعم، ثم سمى له القوم. فاتعدوا له خطم الحجون الذى بأعلى مكة، فاجتمعوا هنالك، وأجمعوا أمرهم، وتعاهدوا على القيام فى الصحيفة حتى ينقضوها، وقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أوّلكم يتكلم، فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير بن أبى أمية، عليه حلة له؛ فطاف بالبيت سبعًا، ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة، أنأكل الطعام، ونشرب الشراب، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يبايعون ولايبتاع منهم! والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة، قال أبو جهل.. وكان فى ناحية المسجد: كذبت، والله لاتشق! قال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب، مارضينا كتابها حين كتبت؛ قال أبو البخترى: صدق زمعة، لانرضى ماكتب فيها ولانقر به! قال المطعم بن عدى: صدقتما وكذب من قال غير ذلك؛ نبرأ إلى الله منها، ومما كتب فيها؛ وقال هشام ابن عمرو نحوًا من ذلك، قال أبو جهل: هذا أمر قضى بليل، وتشوور فيه بغير

هذا المكان ـ وأبو طالب جالس فى ناحية المسجد ـ وقام المطعم بن عدى إلى الصحيفة ليشقها؛ فوجد الأرضة قد أكلتها؛ إلا ما كان من «باسمك اللهم»، وهى فاتحة ماكانت تكتب قريش، تفتتح بها كتابها إذا كتبت.

قال: وكان كاتب صحيفة قريش ـ فيما بلغنى ـ التى كتبوا على رسول الله ﷺ ورهطه من بنى هاشم وبنى عبد المطلب، منصور بن عكرمة بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى، فشلت يده.

وأقام بقيتهم بأرض الحبشة، حتى بعث فيهم رسول الله ﷺ إلى النجاشى عمرو بن أمية الضمرى، فحملهم فى سفينتين، فقدم بهم على رسول الله ﷺ، وهو بخيبر بعد الحديبية، وكان جميع من قدم فى السفينتين ستة عشر رجلاً.

ولم يزل رسول الله ﷺ مقيمًا مع قريش بمكة يدعوهم إلى الله سرًّاوجهرًا، صابرًا على أذاهم وتكذيبهم إياه واستهزائهم به؛ حتى إن كان بعضهم ـ فيما ذكر ـ يطرح عليه رحم الشاة وهو يصلى، ويطرحها فى برمته إذا نصبت له، حتى اتخذ رسول الله ﷺ منهم ـ فيما بلغنى ـ حجرًا، يستتر به منهم إذا صلى.

عن عروة بن الزبير، قال: كان رسول الله ﷺ يخرج بذلك إذا به رمى فى داره على العود فيقف على بابه، ثم يقول: يابنى عبد مناف، أى جوار هذا! ثم يلقيه فى الطريق.

ثم إذا أبا طالب وخديجة هلكا فى عام واحد، قبل هجرة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى المدينة بثلاث سنين، فعظمت المصيبة عليه بهلاكهما؛ وذلك أن قريشًا وصلوا من أذاه بعد موت أبى طالب إلى مالم يكونوا يصلون إليه فى حياته منه؛ حتى نثر بعضهم على رأسه التراب.

عن ابن إسحاق.. قال: لما نثر ذلك السفيه التراب على رأس رسول الله ﷺ دخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته تغسل عنه التراب؛ وهى تبكى، ورسول الله ﷺ يقول لها: يابنية لاتبكى؛ فإن الله مانع

أباك! قال: ويقول رسول الله ﷺ : ما نالت منى قريش شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب.

حدثنا ابن إسحاق، عن محمد بن كعب القرظى، قال: لما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم؛ وهم إخوة ثلاثة: عبد ياليل بن عمرو بن عمير، ومسعود بن عمرو بن عمير، وحبيب ابن عمرو بن عمير؛ وعندهم امرأة من قريش من بنى جمح، فجلس إليهم، فدعاهم إلى الله وكلمهم بما جاء لهم من نصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال أحدهم: هو يمرط - أى: ينزعها ويرمى بها - ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك! وقال الآخر: ماوجد الله أحدًا يرسله غيرك! وقال الثالث: والله لاأكلمك كلمة أبدًا؛ لئن كنت رسولا من الله كما تقول؛ لأنك أعظم خطرًا من أن أرد عليك الكلام؛ ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى لى أن أكلمك!

فقام رسول الله ﷺ من عندهم، وقد يئس من خير ثقيف، وقد قال لهم - فيما ذكر لى -: إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا علىّ. وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه، فيذئرهم ذلك عليه - أى: يحرش بينهم - فلم يفعلوا وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونه ويصيحون به؛ حتى اجتمع عليه الناس وألجئوه إلى حائط - بستان - لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظل حَبَلَة من عنب، فجلس فيه، وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان ما لقى من سفهاء ثقيف. وقد لقى رسول الله ﷺ فيما ذكر لى - تلك المرأة من بنى جمح، فقال لها: ماذا لقينا من أحمائك! فلما اطمأن رسول الله ﷺ قال : اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربى؛ إلى من تكلنى! إلى بعيد يتجهمنى، أو إلى عدو ملكته أمرى؛ إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى! ولكن عافيتك هى أوسع لى. أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن ينزل بى

غضبك، أو يحل عليَّ سخطك، لك العتبى - الرضا - حتى ترضى، لا حول ولاقوة إلا بك.

فلما رأى ابنا ربيعة: عتبة وشيبة مالقى، تحركت له رحمهما، فدعوا له غلامًا لهما نصرنيًّا؛ يقال له عداس، فقالا له: خذ قطفًا من هذا العنب وضعه فى ذلك الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه؛ ففعل عداس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله ﷺ فلما وضع رسول الله ﷺ يده، قال: «بسم الله»، ثم أكل، فنظر عداس إلى وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة، قال له رسول الله ﷺ: ومن أهل أى البلاد أنت ياعداس؟ ومادينك؟ قال: أنا نصرانى، وأنا رجل من أهل نينوى، فقال له رسول الله ﷺ: أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ قال له: ومايدريك مايونس بن متى؟ قال رسول الله ﷺ: ذاك أخى، كان نبيًّا وأنا نبى، فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه ورجليه، قال: يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك. فلما جاءهما عداس قالا له: ويلك ياعداس! مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه! قال: ياسيدى ما فى هذه الأرض خير من هذا الرجل! لقد أخبرنى بأمر لا يعلمه إلا نبى، فقالا: ويحك ياعداس! لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.

ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعًا إلى مكة حين يئس من خير ثقيف، حتى إذا كان بنخلة، قام من جوف الليل يصلى، فمر به نفر من الجنّ الذين ذكر الله - عز وجل .

قال محمد بن إسحاق: وهم - فيما ذكر لى - سبعة نفر من جن أهل نصيبين اليمن، فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا إلى ماسمعوا، فقص الله - عز وجل - خبرهم عليه : ﴿ **وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ** ﴾ إلى قوله -: ﴿ **وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾[1]،

---

(١) سورة الأحقاف ٢٩ - ٣١.

وقال : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ إلى آخر القصة من خبرهم في هذه السورة[١].

قال: ثم قدم رسول الله ﷺ مكة، وقومه أشد ماكانوا عليه من خلافه وفراق دينه، إلا قليلا مستضعفين ممن آمن به. . وكان أول من أجار النبى ﷺ المطعم ابن عدى الذى لبس سلاحه هو وبنوه وبنو أخيه، فدخلوا المسجد، فلما رآه أبو جهل، قال: أمجير أم متابع؟ قال: بل مجير، قال: فقال: قد أجرنا من أجرت، فدخل النبى ﷺ مكة، وأقام بها، فدخل يوما المسجد الحرام والمشركون عند الكعبة، فلما رآه أبو جهل، قال: هذا نبيكم يا بنى عبد مناف، قال عتبة بن ربيعة: وما تنكر أن يكون منا نبى أو ملك! فأخبر بذلك النبى ﷺ أو سمعه - فأتاهم فقال: أما أنت ياعتبة بن ربيعة فوالله ماحميت لله ولا لرسوله؛ ولكن حميت لأنفك، وأما أنت يا أبا جهل بن هشام؛ فوالله لا يأتى عليك غير كبير من الدهر حتى تضحك قليلا وتبكى كثيرًا. . وأما أنتم يامعشر الملأ من قريش، فوالله لا يأتى عليكم غير كبير من الدهر حتى تدخلوا فيما تنكرون، وأنتم كارهون.

وكان رسول الله ﷺ يعرض نفسه فى المواسم - إذا كانت - على قبائل العرب، يدعوهم إلى الله وإلى نصرته ويخبرهم أنه نبى مرسل، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين عن الله ما بعثه به، فعن عبد الله بن عباس، قال: سمعت ربيعة بن عبَّاد يحدث أبى، قال: إنى لغلام شاب مع أبى بمنى، ورسول الله ﷺ يقف على منازل القبائل من العرب، فيقول: يا بنى فلان، إنى رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وأن تخلعوا ماتعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بى وتصدقونى وتمنعونى حتى أبين عن الله ما بعثنى به.

قال: وخلفه رجل أحول وضىء، له غديرتان - أى: ذؤابة من الشعر -، عليه حلة عدنية، فإذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله، وما دعا إليه، قال الرجل:

---

(١) سورة الجن .

يابنى فلان، إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم، وحلفاءكم من الجن من بنى مالك بن أقيش، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه ولا تسمعوا له.

قال: فقلت لأبى: يا أبت من هذا الرجل الذى يتبعه؛ يرد عليه مايقول؟ قال: هذا عمه عبد العزى أبو لهب بن عبد المطلب.

وحدثنا محمد بن إسحاق، قال: حدثنا محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى أن رسول الله ﷺ أتى كندة فى منازلهم، وفيهم سيد لهم ﷺ يقال له مليح، فدعاهم إلى الله ـ عز وجل ـ وعرض عليهم نفسه، فأبوا عليه.

كما حدث عن محمد بن..... حصين..... قال: إنه أتى كلبًا فى منازلهم إلى بطن منهم يقال لهم بنو عبد الله، فدعاهم إلى الله ـ عز وجل ـ، وعرض عليهم نفسه؛ حتى إنه ليقول لهم: يابنى عبد الله، إن الله قد أحسن اسم أبيكم، فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم.

وعن عبد الله بن كعب بن مالك.. أن رسول الله ﷺ أتى بنى حنيفة فى منازلهم، فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه؛ فلم يكن أحد من العرب أقبح ردًا عليه منهم.

كما حدث ابن إسحاق عن محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى.. أنه أتى بنى عامر بن صعصعة، فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه، فقال رجل منهم، يقال له بيحرة بن فراس: والله لو أنى أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب. ثم قال له: أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك؛ أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء. قال: فقال له: أفتهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا ظهرت كان الأمر لغيرنا! لا حاجة لنا بأمرك. فأبوا عليه، فلما صدر الناس، رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم؛ قد كانت أدركته السن، حتى لا يقدر على أن يوافى معهم الموسم، فكانوا إذا رجعوا إليه، حدثوه بما يكون فى ذلك الموسم؛ فلما قدموا عليه ذلك العام، سألهم عما

كان فى موسمهم، فقالوا: جاءنا فتى من قريش، ثم أحد بنى عبد المطلب؛ يزعم أنه نبى، ويدعو إلى أن نمنعه ونقوم معه؛ ونخرج به معنا إلى بلادنا. قال: فوضع الشيخ يده على رأسه، ثم قال: يابنى عامر، هل لها من تلاف! هل لذناباها من مطلب! والذى نفس فلان بيده ماتقوَّلها إسماعيلى قط! وإنها لحق، فأين كان رأيكم عنه!

فكان رسول الله ﷺ على ذلك من أمره؛ كلما اجتمع له الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام، ويعرض عليهم نفسه وماجاء به من الله من الهدى والرحمة، لايسمع بقادم يقدم من العرب؛ له اسم وشرف إلا تصدى له فدعاه إلى الله، وعرض عليه ماعنده.

حدثنا محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر الظفرى، عن أشياخ من قومه، قالوا: قدم سويد بن صامت. . أخو بنى عمرو بن عوف ـ مكة حاجا أو معتمراً، قال: وكان سويد إنما يسميه قومه فيهم الكامل، لجلده وشعره، ونسبه وشرفه؛ فتصدى له رسول الله ﷺ حين سمع به، فدعاه إلى الله وإلى الإسلام. قال: فقال له سويد: فلعل الذى معك مثل الذى معى! فقال له رسول الله ﷺ: وما الذى معك؟ قال: مجلة ـ أى: صحيفة ـ لقمان ـ يعنى حكمة لقمان. . فقال له رسول الله ﷺ: اعرضها علىّ، فعرضها عليه، فقال: إن هذا لكلام حسن، معى أفضل من هذا؛ قرآن أنزله الله علىّ، هدى ونور، قال: فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن، ودعاه إلى الإسلام، فلم يبعد منه، وقال: إن هذا القول حسن. ثم انصرف عنه، وقدم المدينة، فلم يلبث أن قتله الخزرج، فإن كان قومه ليقولون: قد قتل وهو مسلم، وكان قتله قبل بعاث.

قيل: لما قدم أبو الحيسر أنس بن رافع مكة، ومعه فتية من بنى عبد الأشهل، فيهم إياس بن معاذ؛ يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول الله ﷺ فأتاهم فجلس إليهم، فقال لهم: هل لكن إلىَ خير مما جئتم له؟ قالوا: وماذاك؟ قال: أنا رسول الله، بعثنى إلى العباد، أدعوهم إلى الله أن يعبدوا الله، ولايشركوا به شيئا، وأنزل علىّ الكتاب. ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا

عليهم القرآن. فقال إياس بن معاذ ـ وكان غلامًا حدثًا ـ: أى قوم، هذا والله خير مما جئتم له. قال: فيأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع حفنة من البطحاء، فضرب بها وجه إياس بن معاذ، وقال: دعنا منك، فلعمرى لقد جئنا لغير هذا. قال: فصمت إياس، وقام رسول الله ﷺ عنهم وانصرفوا إلى المدينة. فكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج.

قال: ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك، فأخبر من حضره من قومه عند موته أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله ويكبره، ويحمده ويسبحه؛ حتى مات، فما كانوا يشكون أن قد مات مسلمًا، لقد كان استشعر الإسلام فى ذلك المجلس حين سمع من رسول الله ﷺ ماسمع.

فلما أراد الله ـ عز وجل ـ إظهار دينه وإعزاز نبيه، وإنجاز موعده له. خرج رسول الله ﷺ فى الموسم الذى لقى فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب؛ كما كان يصنع فى كل موسم؛ فبينا هو عند العقبة إذ لقى رهطًا من الخزرج أراد الله بهم خيرا.

عن أشياخ من قوم عاصم بن عمر بن قتادة.. قالوا: لما لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج، قال: أمن موالى يهود؟ قالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون حتى أكلمكم؟ قالوا: بلى، قال: فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله ـ عز وجل ـ وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

قال ابن إسحاق: وكان مما صنع الله لهم به فى الإسلام، أن يهود كانوا معهم ببلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا أهل شرك، أصحاب أوثان، وكانوا قد عزوهم ـ أى: غلبوهم ـ ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شىء قالوا لهم: إن نبيا الآن مبعوث قد أظل زمانه، نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: تعلمن والله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدقوه، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا له: إنا قد تركنا

قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى الله أن يجمعهم بك، وسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين؛ فإن يجمعهم الله عليه، فلا رجل أعز منك. ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدقوا.

وهم - فيما ذكر لى - ستة نفر من الخزرج: منهم من بنى النجار - وهم تيم الله - ثم من بنى مالك بن النجار بن ثعلبة بن عمرو بن عامر، أسعد بن زرارة ابن عدس بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار، وهو أبو أمامة؛ وعوف ابن الحارث بن رفاعة بن سواد بن مالك بن النجار؛ وهو ابن عفراء.

ومن بنى زريق بن عامر بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج. . . بن عامر، رافع بن مالك بن العجلان. . . . بن زريق.

ومن بنى سلمة بن سعد بن على بن أسد بن ساردة بن تزيد بن جشم بن الخزرج. . بن عامر؛ ثم من بنى سواد، قطبة بن عامر بن حديدة بن عمرو بن سواد بن غنم. . . . بن سلمة.

ومن بنى حرام بن كعب بن غنم. . . بن سلمة، عقبة بن عامر بن نابى بن زيد بن حرام.

ومن بنى عبيد بن عدى بن غنم بن كعب بن سلمة، جابر بن عبد الله بن رئاب بن. . . . عبيد.

قال: فلما قدموا المدينة على قومهم، ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام، حتى فشا فيهم فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ، حتى إذا كان العام المقبل، وافى من الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلقوه بالعقبة وهى العقبة الأولى، فبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن يفترض عليهم الحرب؛ منهم من بنى النجار أسعد بن زرارة بن عدس. . . . بن النجار؛ وهو أبو أمامة؛ وعوف ومعاذ ابنا الحارث بن رفاعة. . . . بن النجار؛ وهما ابنا عفراء.

ومن بنى زريق بن عامر، رافع وذكوان.

ومن بنى عوف بن الخزرج، ثم بنى غنم بن عوف - وهم القوافل - عبادة بن الصامت.. بن الخزرج، وأبو عبد الرحمن، وهو يزيد بن ثعلبة.... بن عمارة، من بنى غضينة من بليّ، حليف لهم.

ومن بنى سالم بن عوف.... عباس بن عبادة.

ومن بنى سلمة، ثم من بنى حرام، عقبة بن عامر بن نابى بن.. كعب بن سلمة.

ومن بنى سواد، قطبة بن عامر بن حديدة.. بن كعب بن سلمة.

وشهدها من الأوس بن حارثة بن ثعلبة، ثم من بنى الأشهل: أبو الهيثم بن التيهان؛ اسمه مالك، ومن بنى عمرو بن عوف، عويم بن ساعدة بن صلعحة، حليف لهم.

عن عبادة بن الصامت، قال: كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثنى عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء؛ وذلك قبل أن تفترض الحرب، على ألا نشرك بالله شيئًا، ولانسرق ولانزنى، ولانقتل أولادنا، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه فى معروف، فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم شيئًا من ذلك فأخذتم بحده فى الدنيا؛ فهو كفارة له، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة؛ فأمركم إلى الله؛ إن شاء عذبكم، وإن شاء غفر لكم.

فلما انصرف عنه القوم بعث معهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير بن هاشم ابن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم فى الدين؛ فكان يسمى مصعب بالمدينة: المقرئ، وكان منزله على أسعد بن زرارة بن عدس أبى أمامة.

وعن عبد الله بن أبى بكر.. أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير، يريد به دار عبد الأشهل، ودار بنى ظفر؛ وكان سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ

القيس، ابن خالة أسعد بن زرارة، فدخل به حائطًا من حوائط بنى ظفر، على بئر يقال لها بئر مَرق؛ فجلسا فى الحائط، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم، وسعد ابن مَعاذ وأسيد بن حضير يومئذ سيدا قومهما من بنى عبد الأشهل؛ وكلاهما مشرك على دين قومه، فلما سمعا به، قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير: لا أبا لك! انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارنا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة منى حيث قد علمت، كفيتك ذلك؛ هو ابن خالتى، ولا أجد عليه مقدما. فأخذ أسيد بن حضير حربته. ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب: هذا سيد قومه قد جاءك، فاصدق الله فيه.. قال مصعب: إن يجلس أكلمه، قال: فوقف عليهما متشتِّمًا، فقال: ماجاء بكما إلينا، تسفهان ضعفاءنا! اعتزلانا إن كانت لكما فى أنفسكما حاجة. فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره؟ قال: أنصفت، ثم ركز حربته، وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، فى إشراقه وتسهله. ثم قال: ما أحسن هذا وأجمل! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين؟ قالا له: تغتسل، فتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى ركعتين.

قال: فقام فاغتسل، وظهر ثوبيه، وشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائى رجلاً، إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحدٌ من قومه؛ وسأرسله إليكما الآن؛ سعد بن معاذ: ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه، وهم جلوس فى ناديهم؛ فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلا، قال: أحلف بالله، لقد جاءكم أسيد بن حضير بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادى، قال له سعد: مافعلت؟ قال: كلمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأسًا، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حدثت أن بنى حارثة، قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه؛ وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليخفروك ـ أى: لينقضوا عهدك ـ قال: فقام سعد مغضبًا مبادرًا تخوفًا للذى ذكر له من بنى حارثة. فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئًا؛ ثم خرج

إليهما؛ فلما رآهما سعد مطمئنين، عرف أن أسيدًا إنما أراد أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتما، ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة، لولا ما بينى وبينك من القرابة ما رمت هذا منى. تغشانا فى دارنا بما نكره! وقد قال أسعد لمصعب: أى مصعب، جاءك والله سيد من وراءه من قومه، إن يتبعك لم يخالف عليك منهم اثنان، فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع، فإن رضيت أمرًا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره؟ قال سعد: أنصفت؛ ثم ركز الحربة، فجلس فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن. قالا: فعرفنا والله فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم به، فى إشراقه وتسهله.

ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم فى هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى ركعتين. قال: فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وشهد شهادة الحق، وركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عامدًا إلى نادى قومه، ومعه أسيد بن حضير؛ فلما رآه قومه مقبلاً، قالوا: نحلف بالله لقد رجع سعد إليكم بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم؛ فلما وقف عليهم، قال: يابنى عبد الأشهل؛ كيف تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيًا، وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علىّ حرامٌ حتى تؤمنوا بالله ورسوله. قال: فوالله ما أمسى فى دار عبد الأشهل رجلٌ ولا امرأة إلا مسلمًا أو مسلمة.

ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون إلا ما كان من دار بنى أمية بن زيد وخطمة ووائل وواقف؛ وتلك أوس الله؛ وهم من أوس بن حارثة؛ وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت؛ وهو صيفى، وكان شاعرًا لهم، وقائدًا يسمعون منه، ويطيعونه، فوقف بهم عن الإسلام؛ فلم يزل على ذلك حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة؛ ومضى بدر وأُحُد والخندق.

قال: ثم إن مصعب بن عمير، رجع إلى مكة وخرج من خرج من الأنصار

من المسلمين إلى الموسم مع حجاج قومهم من أهل الشرك؛ حتى قدموا مكة؛ فواعدوا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق حين أراد الله بهم ما أراد من كرامته، والنصر لنبيه ﷺ وإعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله.

وحدث عبد الله بن كعب أخاه معبداً أن أباه كعب بن مالك ـ وكان ممن شهد العقبة وبايع رسول الله ﷺ بها ـ قال له: " خرجنا فى حجاج قومنا، وقد صلينا وفقهنا، ومعنا البراء بن معرور، سيدنا وكبيرنا. فلما وجهنا لسفرنا، وخرجنا من المدينة، قال البراء لنا: والله ياهؤلاء، إنى قد رأيت رأيًا، والله ما أدرى أتوافقوننى عليه أم لا؟ قال: فقلنا: وماذاك؟ قال: قد رأيت ألا أدع هذه البنية منى بظهر ـ يعنى الكعبة ـ وأن أصلى إليها. قال: فقلنا: والله ما بلغنا عن نبينا أنه يصلى إلا إلى الشام، ومانريد أن نخالفه. قال: فقال: إنى لمصلٍّ إليها، قال: فقلنا له: لكنا لا نفعل، قال: فكنا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام، وصلىّ إلى الكعبة، حتى قدمنا مكة.

قال: وقد عبنا عليه ماصنع، وأبى إلا الإقامة على ذلك، فلما قدمنا مكة قال لى: يابن أخى، انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ حتى أسأله عما صنعت فى سفرى هذا، فإنى والله لقد وقع فى نفسى منه شىء؛ لما رأيت من خلافكم إياى فيه.

قال: فخرجنا نسأل عن رسول الله ﷺ وكنا لانعرفه، ولم نره قبل ذلك، فلقينا رجلاً من أهل مكة، فسألناه عن رسول الله ﷺ فقال: هل تعرفانه؟ قلنا: لا، قال: فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمه؟ قلنا: نعم ـ قال: وقد كنا نعرف العباس، كان لايزال يقدم علينا تاجرًا ـ قال: فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس بن عبد المطلب، قال: فدخلنا المسجد، فإذا العباس جالس ورسول الله ﷺ مع العباس، فسلمنا، ثم جلسنا إليه، فقال رسول الله ﷺ للعباس: هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل؟ قال: نعم؛ هذا البراء بن معرور سيد قومه؛ وهذا كعب بن مالك. قال: فوالله ما أنسى قول رسول الله ﷺ وسلم ـ الشاعر؟ قال: نعم ـ قال: فقال له البراء بن معرور: يانبى الله؛ إنى

خرجت فى سفرى هذا وقد هدانى الله للإسلام، فرأيت ألا أجعل هذه البنية منى بظهر، فصليت إليها؛ وقد خالفنى أصحابى فى ذلك؛ حتى وقع فى نفسى من ذلك شيء؛ فماذا ترى يارسول الله؟ قال: قد كنتَ على قبلة لو صبرت عليها! فرجع البراء إلى قبلة رسول الله ﷺ؛ وصلى معنا إلى الشام، قال: وأهله يزعمون أنه صلى إلى الكعبة حتى مات؛ وليس ذلك كما قالوا؛ نحن أعلم به منهم.

قال: ثم خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق.

قال: فلما فرغنا من الحج؛ وكانت الليلة التى واعدنا رسول الله ﷺ لها؛ ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام، أبو جابر، أخبرناه، وكنا نكتم من معنا من المشركين من قومنا أمرنا؛ فكلمناه، وقلنا له: يا أبا جابر؛ إنك سيد من سادتنا، وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبًا للنار غدًا. ثم دعوناه إلى الإسلام، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة.

قال: فأسلم، وشهد معنا العقبة ـ وكان نقيبًا ـ فبتنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل مستخفين تسلل القطا؛ حتى اجتمعنا فى الشعب عند العقبة؛ ونحن سبعون رجلاً، ومعهم امرأتان من نسائهم: نسيبة بنت كعب أم عمارة إحدى نساء بنى مازن بن النجار، وأسماء بنت عمرو بن عدى، إحدى نساء بنى سلمة؛ وهى أم منيع، فاجتمعنا بالشعب ننتظر رسول الله ﷺ؛ حتى جاءنا عمه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه؛ إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له؛ فلما جلس كان أول من تكلم العباس بن عبد المطلب، فقال: يامعشر الخزرج ـ وكانت العرب إنما يسمون هذا الحى من الأنصار: الخزرج؛ خزرجها وأوسها ـ إن محمدًا منا حيث قد علمتم؛ وقد منعناه من قوم ممن هو على مثل رأينا؛ وهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده؛ وإنه قد أبى إلا الانقطاع

إليكم واللحوق بكم؛ فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه؛ ومانعوه ممن خالفه؛ فأنتم وما تحملتم من ذلك؛ وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم؛ فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده.

قال: فقلنا له: قد سمعنا ماقلت؛ فتكلم يارسول الله؛ وخذ لنفسك وربك ما أحببت.

قال: فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب فى الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم.

قال: فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال: والذى بعثك بالحق، لنمنعنَّك مما نمنع منه أزرنا ـ أى: نساءنا ـ فبايعنا يارسول الله، فنحن أهل الحرب وأهل الحلقة ـ أى: السلاح ـ ورثناها كابرًا عن كابر.

قال: فاعترض القول ـ والبراء يكلم رسول الله ﷺ ـ أبو الهيثم بن التيهان، حليف بنى عبد الأشهل، فقال: يارسول الله؛ إن بيننا وبين الناس حبالاً وإنا قاطعوها ـ يعنى اليهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك، وتدعنا! قال: فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال: بل الدم الدم، الهدم الهدم ـ أى: دمى دمك وهدمى هدمك ـ أنتم منى وأنا منكم؛ أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم.

وقد قال رسول الله ﷺ: أخرجوا إلىَّ منكم اثنى عشر نقيبًا، يكونون على قومهم بما فيهم. فأخرجوا اثنى عشر نقيبًا؛ تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس. . فقال لهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ: أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومى، قالوا: نعم.

وحدثنا محمد بن إسحاق أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عبادة الأنصارى: يامعشر الخزرج، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس؛ فإن كنتم ترون أنكم إذا نَهكَتْ أموالكم مصيبة؛ وأشرافكم قتلا أسلمتموه، فمن

الآن، فهو ـ والله ـ خزى الدنيا والآخرة إن فعلتم، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، على نهكة الأموال ـ أى: نقصها ـ وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال، وقتل الأشراف؛ فما لنا بذلك يارسول الله إن نحن وفينا؟ قال: الجنة، قالوا: ابسط يدك، فبسط يده، فبايعوه.

وما قال العباس ذلك إلا ليشد العقد لرسول الله ﷺ فى أعناقهم، أو ليؤخر القوم تلك الليلة رجاء أن يحضرها عبد الله بن أُبَىٍّ بن سلول، فيكون أقوى لأمر القوم.. والله أعلم أى ذلك كان.

وكان أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ البراء بن معرور، ثم تتابع القوم، فلما بايعناه صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته قط: يا أهل الجباجب ـ أى: المنازل ـ هل لكم فى مذمَّمٍ والصباة ـ أى: غاية الذم والصابئة ـ معه، قد اجتمعوا على حربكم! فقال رسول الله ﷺ: ما يقول عدو الله؟ هذا أزب العقبة، هذا ابن أزيب ـ أى: اسم الشيطان ـ؛ اسمع عدو الله؛ أما والله لأفرغن لك. ثم قال رسول الله ﷺ: ارفضُّوا إلى رحالكم ـ أى: تفرقوا إليها ـ فقال له العباس بن عبادة: والذى بعثك بالحق لئن شئت لنميلن غدًا على أهل منى بأسيافنا، فقال رسول الله ﷺ: لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم، قال: فرجعنا إلى مضاجعنا، فنمنا عليها؛ حتى أصبحنا، فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش حتى جاءونا فى منازلنا، فقالوا: يامعشر الخزرج؛ إنا قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا؛ وإنه والله مامن حىٍّ من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم؛ قال: فانبعث من هناك من مشركى قومنا يحلفون لهم بالله: ما كان من هذا شىء وما علمناه.

قال: وصدقوا لم يعلموا. قال: وبعضنا ينظر إلى بعض؛ وقام القوم وفيهم الحارث بن هشام المخزومى، وعليه نعلان جديدان. قال: فقلت كلمة كأنى أريد

أن أشرك القوم بها فيما قالوا: يا أبا جابر؛ أما تستطيع أن تتخذ ـ وأنت سيد من ساداتنا ـ مثل نعلى هذا الفتى من قريش؟ قال: فسمعها الحارث، فخلعهما من رجليه؛ ثم رمى بهما إلىّ، وقال: والله لتنتعلنهما. قال: يقول أبو جابر: مَهْ أحفظت ـ والله ـ الفتى! فاردد عليه نعليه، قال: قلت : والله لا أردهما؛ فأل ـ والله ـ صالح، والله لئن صدق الفأل لأسلبنه.

وقال غير ابن إسحاق: كان مَقْدَمُ مَنْ قَدِمَ على النبى ﷺ للبيعة من الأنصار فى ذى الحجة، وأقام رسول الله ﷺ بعدهم بمكة بقية ذى الحجة من تلك السنة، والمحرم وصفر؛ وخرج مهاجرًا إلى المدينة فى شهر ربيع الأول، وقدمها يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت منه.

قال أبو جعفر: لما قدم الأنصار المدينة، أظهروا الإسلام بها. وفى قومهم بقايا من شيوخ لهم على دينهم من أهل الشرك؛ منهم عمرو بن الجموح بن زيد بن حرام، وكان ابنه معاذ بن عمرو قد شهد العقبة، وبايع رسول الله ﷺ فى فتيان منهم، وبايع رسول الله ﷺ من بايع من الأوس والخزرج فى العقبة الآخرة، وهى بيعة الحرب حين أذن الله ـ عز وجل ـ فى القتال بشروط غير الشروط فى العقبة الأولى، وأما الأولى فإنما كانت على بيعة النساء؛ على ما ذكرت الخبر به عن عبادة بن الصامت قبل؛ وكانت بيعة العقبة الثانية على حرب الأحمر والأسود على ماقد ذكرت قبل عن عبادة بن الصامت. . وكان أحد النقباء ـ قال: بايعنا رسول الله ﷺ على بيعة الحرب، وكان عبادة من الاثنى عشر الذين بايعوا فى العقبة الأولى.

قال أبو جعفر: فلما أذن الله ـ عز وجل ـ لرسوله ﷺ فى القتال، ونزل قوله: ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ** ﴾[1]، وبايعه الأنصار على ما وصفت من بيعتهم، أمر رسول الله ﷺ أصحابه ممن هو معه بمكة من المسلمين بالهجرة والخروج إلى المدينة، واللحوق بإخوانهم من الأنصار؛ وقال:

(١) سورة الأنفال الآية ٣٩.

إن الله ـ عز وجل ـ قد جعل لكم إخوانًا ودارًا تأمنون فيها، فخرجوا أرسالا، وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن له ربه بالخروج من مكة؛ فكان أول من هاجر من مكة ـ والهجرة إلى المدينة ـ من أصحاب رسول الله ﷺ من قريش، ثم من بنى مخزوم: أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال. . . . ابن مخزوم، هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة رسول الله ﷺ بسنة، وكان قدم على رسول الله ﷺ بمكة من أرض الحبشة، فلما آذته قريش، وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار، خرج إلى المدينة مهاجرًا.

ثم كان أول من قدم المدينة من المهاجرين بعد أبى سلمة، عامر بن ربيعة، حليف بنى عدى بن كعب، معه امرأته ليلى بنت أبى حثمة بن غانم. . . . بن عدى بن كعب. ثم عبد الله بن جحش بن رئاب، وأبو أحمد بن جحش ـ وكان رجلا ضرير البصر، وكان يطوف مكة أعلاها وأسفلها بغير قائد ـ ثم تتابع أصحاب رسول الله ﷺ إلى المدينة أرسالاً.

وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين، ينتظر أن يؤذن له فى الهجرة. ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا أخذ فحبس أو فتن إلا علىّ ابن أبى طالب وأبو بكر بن أبى قحافة، وكان أبو بكر كثيرًا ما يستأذن رسول الله ﷺ فى الهجرة، فيقول له رسول الله ﷺ: لا تعجل، لعل الله أن يجعل لك صاحبًا، فطمع أبو بكر أن يكونه، فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم، بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنه قد أجمع أن يلحق بهم لحربهم، فاجتمعوا له فى دار الندوة؛ وهى دار قصى بن كلاب، التى كانت قريش لا تقضى أمرًا إلا فيها، فيتشاورون فيها مايصنعون فى أمر رسول الله ﷺ حين خافوه!

عن ابن عباس. . قال : لما اجتمعوا لذلك واتعدوا أن يدخلوا دار الندوة، ويتشاوروا فيها فى أمر رسول الله ﷺ غدوا فى اليوم الذى اتعدوا له؛ وكان ذلك اليوم يسمى الزحمة؛ فاعترضهم إبليس فى هيئة شيخ جليل، عليه بتٌّ ـ

أى: كساء غليظ ـ له، فوقف على باب الدار، فلما رأوه واقفًا على بابها؛ قالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد، سمع بالذى اتعدتم له، فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى ألا يعدمكم منه رأى ونصح، قالوا: أجل، فدخل معهم، وقد اجتمع فيها أشراف قريش كلهم، من كل قبيلة؛ من بنى عبد شمس: شيبة وعتبة ابنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب، ومن بنى نوفل بن عبد مناف: طعيمة بن عدى، وجبير بن مطعم والحارث بن عامر بن نوفل. ومن بنى عبد الدار بن قصى: النضر بن الحارث بن كلدة. ومن بنى أسد بن عبد العزى: أبو البخترى بن هشام وزمعة بن الأسود بن المطلب، وحكيم بن حزام. ومن بنى مخزوم: أبو جهل بن هشام، ومن بنى سهم: نبيه ومنبه ابنا الحجاج. . ومن بنى جمح: أمية بن خلف، ومن كان معهم، وغيرهم ممن لايعد من قريش.

فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان أمره ماقد كان وماقد رأيتم؛ وإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا بمن قد اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأيًا. قال: فتشاوروا. ثم قائل منهم: احبسوه فى الحديد، وأغلقوا عليه بابًا، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين قبله: زهيرًا، والنابغة، ومن مضى منهم، من هذا الموت حتى يصيبه منه ما أصابهم.

قال: فقال الشيخ النجدى: لا والله، ما هذا لكم برأى؛ والله لو حبستموه ـ كما تقولون ـ لخرج أمره من وراء الباب الذى أغلقتموه دونه إلى أصحابه؛ فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من بين أيديكم، ثم يكاثروكم حتى يغلبوكم على أمركم هذا؛ ما هذا لكم برأى فانظروا فى غيره.

ثم تشاوروا، فقال قائل منهم: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلدنا؛ فإذا خرج عنا فوالله مانبالى أين ذهب، ولاحيث وقع، إذا غاب عنا وفرغنا، فأصلحنا أمرنا، وأُلفتنا كما كانت.

قال الشيخ النجدى: والله ما هذا لكم برأى؛ ألم تروا حسن حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به! والله ولو فعلتم ذلك ما أمنت أن

يحل على حى من العرب، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم، فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد. أديروا فيه رأيًا غير هذا!.

قال: فقال أبو جهل بن هشام، والله إن لى فيه لرأيًا ما أراكم وقعتم عليه بعد! قالوا: وماهو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن تأخذوا من كل قبيلة فتى شابا جلدًا، نسيبًا وسيطًا فينا، ثم نعطى كل فتى منهم سيفًا صارمًا ثم يعمدون إليه، ثم يضربونه بها ضربة رجل واحد فيقتلونه فنستريح؛ فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل كلها؛ فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا، ورضوا منا بالعقل فعقلناه لهم.

قال: فقال الشيخ النجدى: القول ما قال الرجل، هذا الرأى لا رأى لكم غيره.

فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له، فأتى جبريل رسول الله ﷺ فقال: لا تبت هذه الليلة فى فراشك الذى كنت تبيت عليه!

قال: فلما كان العتمة من الليل، اجتمعوا على بابه فترصدوه متى ينام، فيثبون عليه. فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم، قال لعلىّ بن أبى طالب: نم على فراشى، واتشح ببردى الحضرمى الأخضرى، فنم فإنه لايخلص إليك شىء تكرهه منهم. وكان رسول الله ﷺ ينام فى برده ذلك إذا نام.

قال أبو جعفر: زاد بعضهم فى هذه القصة فى هذا الموضوع: وقال له: إن أتاك ابن أبى قحافة، فأخبره أنى توجهت إلى ثور، فمره فليلحق بى، وأرسل إلى بطعام، واستأجر لى دليلاً يدلنى على طريق المدينة؛ واشتر لى راحلة.

ثم مضى رسول الله ﷺ، وأعمى الله أبصار الذين كانوا يرصدونه عنه، وخرج عليهم رسول الله ﷺ.

وحدث محمد بن إسحاق عن. . . . محمد بن كعب القرظى، قال: اجتمعوا له، وفيهم أبو جهل بن هشام، فقال وهم على بابه: إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم بعد موتكم فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان لكم منه ذبح ، ثم بعثتم بعد موتكم؛ فجعلت لكم نار تحرقون فيها.

قال: وخرج رسول الله ﷺ فأخذ حفنة من تراب، ثم قال: نعم، أنا أقول ذلك، أنت أحدهم. وأخذ الله على أبصارهم عنه فلا يرونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رءوسهم؛ وهو يتلو هذه الآيات من يـّس: ﴿ **يسٓ ① وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ② إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ③ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ إلى قوله: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ** ﴾، حتى فرغ رسول الله ﷺ من هؤلاء الآيات، فلم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابًا؛ ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب.

فأتاهم آت ممن لم يكن معهم، فقال: ماتنتظرون هاهنا؟ قالوا: محمداً. قال: خيبكم الله! قد والله خرج عليكم محمد، ثم ماترك منكم رجلا إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، وانطلق لحاجته؛ أفما ترون ماترك منكم رجلا إلا وقد وضع على رأسه ترابا، فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يطلعون، فيرون عليـًّا على الفراش متسجيا ببرد رسول الله ﷺ فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائم، عليه برده؛ فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، فقام علىّ عن الفراش، فقالوا: والله لقد صدقنا الذى كان حدثنا، فكان مما نزل من القرآن فى ذلك اليوم، وماكانوا أجمعوا له: ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴾[1]. وقول الله عز وجل :

(١) الأنفال ٣٠.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴾(١).

وقد زعم بعضهم أن أبا بكر أتى عليـًّا فسأله عن نبى الله ﷺ فأخبره أنه لحق بالغار من ثور، وقال: إن كان لك فيه حاجة، فالحقه، فخرج أبو بكر مسرعًا، فلحق نبى الله ﷺ فى الطريق، فسمع رسول الله ﷺ جرس أبى بكر فى ظلمة الليل، فحسبه من المشركين، فأسرع رسول الله ﷺ المشى، فانقطع قبال نعله ففلق إبهامه حجر فكثر دمها، وأسرع السعى، فخاف أبو بكر أن يشق على رسول الله ﷺ فرفع صوته، وتكلم، فعرفه رسول الله ﷺ فقام حتى أتاه، فانطلقا ورجل رسول الله ﷺ تستن دمًا؛ حتى انتهيا إلى الغار مع الصبح؛ فدخلاه. وأصبح الرهط الذين كانوا يرصدون رسول الله ﷺ فدخلوا الدار، وقام علىّ عليه السلام عن فراشه، فلما دنوا منه عرفوه، فقالوا له: أين صاحبك؟ قال: لا أدرى، أو رقيبا كنت عليه! أمرتموه بالخروج فخرج؛ فانتهروه وضربوه وأخرجوه إلى المسجد، فحبسوه ساعة ثم تركوه، ونجى الله رسوله من مكرهم وأنزل عليه فى ذلك: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾.

وعن عروة قال: لما خرج أصحاب رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقبل أن يخرج - يعنى رسول الله، ﷺ - وقبل أن تنزل هذه الآية التى أمروا فيها بالقتال، استأذنه أبو بكر؛ ولم يكن أمره بالخروج مع من خرج من أصحابه، حبسه رسول الله ﷺ وقال له: أنظرونى، فإنى لاأدرى؛ لعلى يؤذن لى بالخروج. وكان أبو بكر قد اشترى راحلتين يعدهما للخروج مع أصحاب رسول الله ﷺ إلى المدينة؛ فلما استنظره رسول الله ﷺوأخبره بالذى يرجو من ربه أن يأذن له بالخروج، حبسهما وعلفهما، انتظار صحبة رسول الله ﷺ حتى أسمنهما، فلما حبس عليه خروج النبى ﷺ قال أبو بكر: أتطمع أن يؤذن لك؟ قال: نعم؛ فانتظره فمكث بذلك.

(١) الطور ٣٠، ٣١.

فأخبرتنى عائشة، أنهم بينا هم ظهراً فى بيتهم، وليس عند أبى بكر إلا ابنتاه: عائشة وأسماء؛ إذا هم برسول الله ﷺ حين قام قائم الظهيرة ـ وكان لايخطئه يومًا أن يأتى بيت أبى بكر أول النهار وآخره ـ فلما رأى أبو بكر النبى ﷺ جاء ظهرًا، قال له: ماجاء بك يانبى الله إلا أمر حدث؟ فلما دخل عليهم النبى ﷺ البيت، قال لأبى بكر: أخرج من عندك، قال: ليس علينا عين، إنما هما ابنتاى، قال: إن الله قد أذن لى بالخروج إلى المدينة، فقال أبو بكر: يارسول الله، الصحابة، الصحابة! قال: الصحابة. قال أبو بكر: خذ إحدى الراحلتين ـ وهما الراحلتان اللتان كان يعلفهما أبو بكر، يعدهما للخروج، إذا أذن لرسول الله ﷺ ـ فأعطاه إحدى الراحلتين، فقال: خذها يارسول الله فارتحلها، فقال النبى ﷺ: قد أخذتها بالثمن، وكان عامر بن فهيرة مولدًا من مولّدى الأزد، كان للطفيل بن عبد الله بن سخبرة، وهو أبو الحارث بن الطفيل، وكان أخا عائشة بنت أبى بكر وعبد الرحمن بن أبى بكر لأمهما، فأسلم عامر بن فهيرة، وهو مملوك لهم، فاشتراه أبو بكر فأعتقه، وكان حسن الإسلام، فلما خرج النبى ـ ﷺ وأبو بكر، كان لأبى بكر منيحة ـ أى: ذات اللبن ـ من غنم تروح على أهله، فأرسل أبو بكر عامرًا فى الغنم إلى ثور، فكان عامر بن فهيرة يروح بتلك الغنم على رسول الله ﷺ بالغار فى ثور، وهو الغار الذى سماه الله فى القرآن، فأرسل بظهرهما رجلاً من بنى عبد بن عدىّ، حليفا لقريش من بنى سهم، ثم آل العاص بن وائل؛ وذلك العدوىّ يومئذ مشركٌ، ولكنهما استأجراه وهو هادٍ بالطريق، وفى الليالى التى مكثا بالغار كان يأتيهما عبد الله بن أبى بكر حين يمسى بكل خبر بمكة، ثم يصبح بمكة ويريح عامر الغنم كل ليلة، فيحلبان، ثم يسرح بكرة فيصبح فى رعيان الناس، ولا يفطن له؛ حتى إذا هدأت عنهما الأصوات، وأتاهما أن قد سكت عنهما، جاءهما صاحبهما ببعيريهما، فانطلقا وانطلق معهما بعامر بن فهيرة يخدمهما ويعينهما، يردفه أبو بكر ويعقبه على رحله، ليس معهما أحدٌ إلا عامر بن فهيرة، وأخو بنى عدىّ يهديهما الطريق، فأجاز بهما فى أسفل مكة، ثم مضى بهما حتى حاذى بهما الساحل، أسفل من عسفان، ثم استجاز

بهما حتى عارض الطريق بعد ما جاوز قديدًا، ثم سلك الحرار، ثم أجار على ثنية المرة، ثم أخذ على طريق يقال له المدلجة بين طريق عمق وطريق الروحاء، حتى توافوا طريق العرج، وسلك ماء يقال له الغابرَ عن يمين ركوبة؛ حتى يطلع على بطن رئم، ثم جاء حتى قدم المدينة على بنى عمرو بن عوف قبل القائلة. فحدثت أنه لم يبق فيهم إلا يومين ـ وتزعم بنو عمرو بن عوف أن قد أقام فيهم أفضل من ذلك ـ فاقتاد راحلته فاتبعته حتى دخل فى دور بنى النجار، فأراهم رسول الله ﷺ مربدًا كان بين ظهرى دورهم.

وعن محمد بن إسحاق، قال: حدثت عن أسماء بنت أبى بكر، قالت: لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر أتانا نفر من قريش، فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبى بكر، فخرجت إليهم، فقالوا: أين أبوك يا بنة أبى بكر؟ قلت: لا أدرى والله أين أبى! قالت: فرفع أبو جهل يده ـ وكان فاحشًا خبيثًا ـ فلطم خدى لطمة طرح منها قرطى. قالت: ثم انصرفوا ومكثنا ثلاث ليال؛ لاندرى أين توجه رسول الله ﷺ؛ حتى أقبل رجلٌ من الجن، من أسفل مكة يغنى بأبيات من الشعر غناء العرب والناس يتبعونه؛ يسمعون صوته وما يرونه، حتى خرج من أعلى مكة، وهو يقول:

جزى الله رب الناس خير جزائه ... رفيقين حلا خيمتى أم معبد
هما نزلاها بالهدى واغتدوا به ... فأفلح من أمسى رفيق محمد
ليهن بنى كعب مكان فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد

قالت: فلما سمعنا قوله عرفنا حيث وجه رسول الله ﷺ وأن وجهه إلى المدينة، وكانوا أربعة: رسول الله ﷺ وأبو بكر، وعامر بن فهيرة، وعبد الله بن أريقط دليلهما.

قال أبو جعفر: وقدم دليلهما بهما قباء، على بنى عمرو بن عوف، لثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، يوم الاثنين حين اشتد الضحى، وكادت الشمس أن تعتدل.

عن عبد الرحمن بن عويم بن ساعدة، قال: حدثنا رجال قومى من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: لما سمعنا بمخرج رسول الله ﷺ من مكة، وتوكفنا قدومه - أى: انتظرناه - كنا نخرج إذا صلينا الصبح إلى ظاهرِ حرتنا، ننتظر رسول الله ﷺ؛ فوالله مانبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال؛ فإذا لم نجد ظلا دخلنا بيوتنا، وذلك فى أيام حارة؛ حتى إذا كان فى اليوم الذى قدم فيه رسول الله ﷺ جلسنا كما كنا نجلس؛ حتى إذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا. وقدم رسول الله ﷺ حين دخلنا البيوت، فكان أول من رآه رجل من اليهود، وقد رأى ما كنا نصنع، وأنا كنا ننتظر قدوم رسول الله ﷺ فصرخ بأعلى صوته: يابنى قيلة - اسم جدة كانت لهم وهم الأنصار - هذا جدكم قد جاء.

قال: فخرجنا إلى رسول الله ﷺ وهو فى ظل نخلة، ومعه أبو بكر فى مثل سنه، وأكثرنا من لم يكن رأى رسول الله ﷺ قبل ذلك، قال: وركبه الناس - أى ازدحموا حوله - ومانعرفه من أبى بكر؛ حتى زال الظل عن رسول الله ﷺ فقام أبو بكر، فأظله بردائه، فعرفناه عند ذلك، فنزل رسول الله ﷺ - فيما يذكرون - على كلثوم بن هدم، أخى بنى عمرو بن عوف، ثم أحد بنى عبيد، ويقال: بل نزل على سعد بن خيثمة.

ويقول من يذكر أنه نزل على كلثوم بن هدم: إنما كان رسول الله ﷺ إذا خرج من منزل كلثوم بن هدم، جلس للناس فى بيت سعد بن خيثمة، وذلك أنه كان عزبًا لا أهل له، وكان منازل العزاب من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين عنده؛ فمن هنالك يقال: نزل على سعد بن خيثمة، وكان يقال لبيت سعد بن خيثمة: بيت العزاب، فالله أعلم أى ذلك كان، كُلاً قد سمعنا.

ونزل أبو بكر بن أبى قحافة على خبيب بن أساف، أخى بنى الحارث بن الخزرج بالسنح، ويقول قائل: كان منزله على خارجة بن زيد بن أبى زهير، أخى بنى الحارث بن الخزرج.

(١) سورة الأنفال الآية ٣٩.

وأقام عليّ بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ بمكة ثلاث ليال وأيامها، حتى أدى عن رسول الله ﷺ الودائع التى كانت عنده إلى الناس، حتى إذا فرغ منها لحق برسول الله ﷺ فنزل معه على كلثوم بن هدم، فكان عليّ يقول: وإنما كانت إقامته بقباء على امرأة لازوج لها مسلمة ليلة أو ليلتين، وكان يقول: كنت قد نزلت بقباء على امرأة لازوج لها مسلمة، فرأيت إنسانًا يأتيها فى جوف الليل، فيضرب عليها بابها، فتخرج إليه فيعطيها شيئًا معه، قال: فاستربت لشأنه، فقلت لها: يا أمة الله، من هذا الرجل الذى يضرب عليك بابك كل ليلة فتخرجين إليه، فيعطيك شيئًا، ما أدرى ماهو؟ وأنت امرأة مسلمة لازوج لك! قالت: هذا سهل بن حنيف بن واهب، قد عرف أنى امرأة لا أحد لى؛ فإذا أمسى عدا على أوثان قومه فكسّرها، ثم جاءنى بها، وقال: احتطبى بهذا. فكان عليّ بن أبى طالب يأثر ذلك من أمر سهل بن حنيف حين هلك عنده بالعراق.

فأقام رسول الله ﷺ بقباء فى بنى عمرو بن عوف يوم الاثنين، ويوم الثلاثاء، ويوم الأربعاء، ويوم الخميس، وأسس مسجدهم، ثم أخرجه الله ـ عز وجل ـ من بين أظهرهم يوم الجمعة؛ وبنو عمرو بن عوف يزعمون أنه مكث فيهم أكثر من ذلك. والله أعلم.

ذكر ما كان من الأمور المذكورة فى أول سنة من الهجرة

نذكر الآن مالم نذكر قبل مما كان من الأمور المذكورة فى بقية سنة قدومه؛ وهى السنة الأولى من الهجرة. فمن ذلك تجميعه ـ ﷺ بأصحابه الجمعة، فى اليوم الذى ارتحل فيه من قباء؛ وذلك أن ارتحاله عنها كان يوم الجمعة عامدًا المدينة، فأدركته الصلاة: صلاة الجمعة فى بنى سالم بن عوف، ببطن واد لهم ـ قد اتخذ اليوم فى ذلك الموضع مسجد فيما بلغنى ـ وكانت هذه الجمعة أول جمعة جمعها رسول الله ﷺ فى الإسلام، فخطب فى هذه الجمعة؛ وهى أول خطبة خطبها بالمدينة فيما قيل.

خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم
فى أول جمعة جمعها بالمدينة

الحمد لله أحمده وأستعينه، وأستغفره وأستهديه، وأومن به ولا أكفره، وأعادى من يكفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى والنور والموعظة، على فترة من الرسل، وقلة من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنو من الساعة، وقرب من الأجل؛ من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى وفرط؛ وضل ضلالاً بعيدًا. وأوصيكم بتقوى الله، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم، أن يحضه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله، فاحذروا ماحذركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة، ولا أفضل من ذلك ذكرًا؛ وإن تقوى الله لمن عمل به على وجل ومخافة من ربه، عون صدق على ما تبغون من أمر الآخرة. ومن يصلح الذى بينه وبين الله من أمره فى السر والعلانية، لاينوى بذلك إلا وجه الله يكن له ذكرًا فى عاجل أمره، وذخرًا فيما بعد الموت، حين يفتقر المرء إلى ماقدم، وماكان من سوى ذلك يود لو أن بينها وبينه أمَدًا بعيدًا، ويحذركم الله نفسه، فإنه يقول ـ عز وجل : ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[1]،

فاتقوا الله فى عاجل أمركم وآجله، فى السر والعلانية، فإنه من يتق الله يكفر عنه سيئاته، ويعظم له أجرًا، ومن يتق الله فقد فاز فوزًا عظيمًا، وإن تقوى الله يوقى مقته، ويوقى عقوبته، ويوقى سخطه، وإن تقوى الله يبيض الوجوه، ويرضى الرب، ويرفع الدرجة.

خذوا بحظكم، ولاتفرطوا فى جنب الله؛ قد علمكم الله كتابه، ونهج لكم سبيله، ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه، وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وسماكم المسلمين، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حى عن بينة، ولاقوة إلا بالله. فأكثروا ذكر

(١) سورة ق ، الآية: ٢٩.

الله، واعملوا لما بعد اليوم، فإن من يصلح مابينه وبين الله يكفه الله مابينه وبين الناس، ذلك بأن الله يقضى على الناس ولايقضون عليه، ويملك من الناس ولايملكون منه؛ الله أكبر، ولا قوة إلا بالله العظيم.

عن أبى إسحاق، أن رسول الله ﷺ ركب ناقته، وأرخى لها الزمام، فجعلت لا تمر بدار من دور الأنصار إلا دعاه أهلها إلى النزول عندهم، وقالوا له: هلم يارسول الله إلى العدد والعدة والمنعة؛ فيقول لهم ﷺ: خلوا زمامها فإنها مأمورة؛ حتى انتهى إلى موضع مسجده اليوم، فبركت على باب مسجده؛ وهو يومئذ مربد لغلامين يتيمين من بنى النجار فى حجر معاذ بن عفراء؛ يقال لأحدهما سهل وللآخر سهيل، ابنا عمرو بن عباد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار. فلما بركت لم ينزل عنها رسول الله ﷺ ثم وثبت فسارت غير بعيد، ورسول الله ﷺ واضع لها زمامها ولايثنيها؛ ثم التفتت خلفها، ثم رجعت إلى مبركها أول مرة، فبركت فيه ووضعت جرانها، ونزل عنها رسول الله ﷺ فاحتمل أبو أيوب رحله، فوضعه فى بيته، فدعته الأنصار إلى النزول عليهم، فقال رسول الله ﷺ: المرء مع رحله، فنزل على أبى أيوب خالد بن زيد بن كليب، فى بنى غنم بن النجار.

قال أبو جعفر: وسأل رسول الله ﷺ عن المربد لمن هو؟ فأخبره معاذ بن عفراء، وقال: هو ليتيمين لى، سأرضيهما، فأمر به رسول الله ﷺ أن يبنى مسجدًا، ونزل على أبى أيوب، حتى بنى مسجده ومساكنه. وقيل: إن رسول الله ﷺ اشترى موضع مسجده، ثم بناه.

والصحيح عندنا فى ذلك، ماحدثنا. . . . أنس بن مالك، قال: كان موضع مسجد النبى ﷺ لبنى النجار، وكان فيه نخل وحرث وقبور من قبور الجاهلية، فقال لهم رسول الله ﷺ: ثامنونى به، فقالوا: لانبغى به ثمنًا إلا ماعند الله، فأمر رسول الله ﷺ بالنخل فقطع، وبالحرث فأفسد، وبالقبور فنبشت، وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك يصلى فى مرابض الغنم، وحيث أدركته الصلاة.

قال أبو جعفر: وتولى بناء مسجده ﷺ هو بنفسه وأصحابه من المهاجرين والأنصار، وفى هذه السنة بنى مسجد قباء.

وكان أول من توفى بعد مقدمه المدينة من المسلمين ـ فيماذكر ـ صاحب منزله كلثوم بن الهدم، لم يلبث بعد مقدمه إلا يسيرًا حتى مات.

ثم توفى بعده أسعد بن زرارة فى سنة مقدمه ـ أبو أمامة ـ وكانت وفاته قبل أن يفرغ رسول الله ﷺ من بناء مسجده، بالذبحة والشهقة.. فقال رسول الله ﷺ: بئس الميت أبو أمامة ليهود ومنافقى العرب! يقولون: لو كان محمد نبيا لم يمت صاحبه، ولا أملك لنفسى ولا لصاحبى من الله شيئًا.

وعن ابن إسحاق.... قال:...... لما مات أبو أمامة أسعد بن زرارة، اجتمعت بنو النجار إلى رسول الله ﷺ وكان أبو أمامة نقيبهم، فقالوا: يارسول الله ﷺ إن هذا الرجل قد كان منا حيث قد علمت؛ فاجعل منا رجلا مكانه، يقيم من أمرنا ما كان يقيمه، فقال لهم رسول الله ﷺ: أنتم أخوالى وأنا منكم، وأنا نقيبكم. قال: وكره رسول الله ﷺ أن يخص بها بعضهم دون بعض، فكان من فضل بنى النجار الذى يعد على قومهم، أن رسول الله ﷺ كان نقيبهم.

وعن أنس، أن النبى ﷺ كوى أسعد بن زرارة من الشوكة ـ أى: الحمرة التى تطفح على الجلد.

وفيها بنى رسول الله ﷺ بعائشة بعد مقدمه المدينة بثمانية أشهر؛ فى ذى القعدة فى قول بعضهم، وفى قول بعضٍ: بعد مقدمه المدينة بسبعة أشهر، فى شوال، وكان تزوجها بمكة قبل الهجرة بثلاثة سنين بعد وفاة خديجة وهى ابنة ست سنين، وقد قيل: تزوجها وهى ابنة سبع.

يحدث عبد الرحمن بن محمد، أن عبد الله بن صفوان وآخر معه أتيا عائشة، فقالت عائشة: يافلان، أسمعت حديث حفصة؟ قال لها: نعم يا أم المؤمنين، قال لها ابن صفوان: وماذاك؟ قالت: خلال فى تسع لم تكن فى أحد من النساء إلا ما آتى الله مريم بنت عمران؛ والله ما أقول هذا فخرًا على أحد من

صواحبى، قال لها: وماهن؟ قالت: نزل الملك بصورتى، وتزوجنى رسول الله ﷺ لسبع سنين، وأهديت إليه لتسع سنين، وتزوجنى بكرًا لم يشركه فىّ أحدٌ من الناس، وكان يأتيه الوحى وأنا وهو فى لحاف واحد، وكنت من أحب الناس إليه، ونزل فىَّ آية من القرآن كادت الأمة أن تهلك، ورأيت جبريل ولم يره أحدٌ من نسائه غيرى، وقبض فى بيتى لم يله أحدٌ غير الملك وأنا.

قال أبو جعفر: وتزوجها رسول الله ﷺ - فيما قيل - فى شوال، وبنى بها حين بنى بها فى شوال..

ذكر الرواية بذلك:

عن عبد الله بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، قالت: تزوجنى رسول الله ﷺ فى شوال، وبنى بى فى شوال. وكانت عائشة تستحب أن يبنى بالنساء فى شوال، فأى نساء رسول الله كانت أحظى عنده منى؟

وقيل: إن رسول الله ﷺ بنى بها فى شوال يوم الأربعاء، فى منزل أبى بكر بالسنح.

وفى هذه السنة بعث النبى ﷺ إلى بناته وزوجته سودة بنت زمعة، زيد بن حارثة وأبا رافع، فحملاهن من مكة إلى المدينة.

ولما رجع - فيما ذكر - عبد الله بن أريقط إلى مكة أخبر عبد الله بن أبى بكر بمكان أبيه أبى بكر، فخرج عبد الله بعيال أبيه إليه، وصحبهم طلحة بن عبيد الله، معهم أم رومان، وهى أم عائشة، وعبد الله بن أبى بكر حتى قدموا المدينة.

وفى هذه السنة زيد فى صلاة الحضر - فيما قيل - ركعتان، وكانت صلاة الحضر والسفر ركعتين؛ وذلك بعد مقدم رسول الله ﷺ المدينة بشهر، فى ربيع الآخر، لمضى اثنتى عشرة ليلة منه، زعم الواقدى أنه لاخلاف بين أهل الحجاز فيه.

وفيها ـ فى قول بعضهم ـ ولد عبد الله بن الزبير. وفى قول الواقدى: ولد فى السنة الثانية من مقدم رسول الله ﷺ المدينة فى شوال.. بعد الهجرة بعشرين شهرًا بالمدينة.

وقال أبو جعفر: وكان أول مولود ولد من المهاجرين فى دار الهجرة، فكبر ـ فيما ذكر ـ أصحاب رسول الله ﷺ حين ولد؛ وذلك أن المسلمين كانوا قد تحدثوا أن اليهود يذكرون أنهم قد سحروهم فلا يولد لهم؛ فكان تكبيرهم ذلك سرورًا منهم بتكذيب الله اليهود فيما قالوا من ذلك.

وقيل: إن أسماء بنت أبى بكر، هاجرت إلى المدينة وهى حامل به.

وقيل أيضا: إن النعمان بن بشير ولد فى هذه السنة، وإنه أول مولود ولد للأنصار بعد هجرة النبى ﷺ؛ وأنكر ذلك الواقدى أيضًا.. فأخبر عن سهل بن أبى حثمة، قال: كان أول مولود من الأنصار النعمان بن بشير، ولد بعد الهجرة بأربعة عشر شهرًا، فتوفى رسول الله ﷺ وهو ابن ثمانى سنين، أو أكثر قليلا.. كما أن ولادته كانت قبل بدر بثلاثة أشهر أو أربعة.

وعن أبى الأسود، قال: ذكر النعمان بن بشير عند ابن الزبير، فقال: هو أسن منى بستة أشهر، قال أبو الأسود: ولد ابن الزبير على رأس عشرين شهرًا من مهاجر رسول الله ﷺ وولد النعمان على رأس أربعة عشر شهرًا فى ربيع الآخر.

وقيل: إن المختار بن أبى عبيد الثقفى وزياد بن سمية فيها ولدا.

وزعم الواقدى أن رسول الله ﷺ عقد فى هذه السنة فى شهر رمضان، على رأس سبعة أشهر من مهاجره، لحمزة بن عبد المطلب لواءً أبيض فى ثلاثين رجلا من المهاجرين، ليعترض لعيرات ـ جمع العير وهى الإبل ـ قريش، وإن حمزة لقى أبا جهل بن هشام فى ثلثمائة رجل، فحجر بينهم مَجْدِىُّ بن عمرو الجهنى فافترقوا، ولم يكن بينهم قتال. وكان الذى يحمل لواء حمزة أبو مرثد.

وأن رسول الله ﷺ عقد أيضًا فى هذه السنة، على رأس ثمانية أشهر من مهاجره فى شوال، لعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف لواء أبيض، وأمره بالمسير إلى بطن رابغ، وأن لواءه كان مع مسطح بن أثاثة، فبلغ ثنية المرة - وهى بناحية الجحفة - فى ستين من المهاجرين، ليس فيهم أنصارى، وأنهم التقوا هم والمشركون على ماء يقال له أحياء؛ فكان بينهم الرمى دون المسايفة - أى : التضارب بالسيف.

وقد اختلفوا فى أمير السرية؛ فقال بعضهم: كان أبو سفيان بن حرب، وقال بعضهم: كان مكرز بن حفص، قال الواقدى: ورأيت الثبت على أبى سفيان بن حرب، وكان فى مائتين من المشركين.

وفيها عقد رسول الله ﷺ لسعد بن أبى وقاص إلى الخزار لواء أبيض يحمله المقداد بن عمرو فى ذى القعدة. وقال عن ابن سعد: خرجت فى عشرين رجلاً على أقدامنا - أو قال : واحد وعشرين رجلاً - فكنا نكمن النهار، ونسير الليل حتى صبحنا الخزار صبح خامسة، وكان رسول الله ﷺ قد عهد إلىّ ألاّ أجاوز الخزار، وكانت العير قد سبقتنى قبل ذلك بيوم، وكانوا ستين، وكان من مع سعد كلهم من المهاجرين.

لكنَّ أبا جعفر وابن إسحاق قالا فى أمر كل هذه السرايا التى ذكرت عن الواقدى قولة فيها غير ماقاله الواقدى، وأن ذلك كله كان فى السنة الثانية من وقت التاريخ.

قال محمد بن إسحاق: قدم رسول الله ﷺ المدينة فى شهر ربيع الأول لاثنتى عشرة ليلة مضت منه، فأقام بها مابقى من شهر ربيع الأول وشهر ربيع الآخر وجماديين، ورجب وشعبان ورمضان وشوالا وذا القعدة وذا الحجة - وولى تلك الحجة المشركون - والمحرم - وخرج فى صفر غازيًا على رأس اثنى عشر شهراً من مقدمه المدينة لثنتى عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول؛ حتى بلغ ودان؛ يريد قريشًا وبنى ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة؛ وهى غزوة الأبواء، فوادعته

فيها بنو ضمرة؛ وكان الذى وادعه منهم عليهم سيدهم كان فى زمانه ذلك، مخشى بن عمرو، رجل منهم.

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، ولم يلق كيدًا، فأقام بها بقية صفر وصدرًا من شهر ربيع الأول.

وبعث فى مقامه عبيدة بن الحارث بن المطلب فى ثمانين أو ستين راكبًا من المهاجرين؛ ليس فيهم من الأنصار أحدٌ، حتى بلغ أحياء (ماء بالحجاز بأسفل ثنية المرة)، فلقى بها جمعًا عظيمًا من قريش، فلم يكن بينهم قتال؛ إلاّ أن سعد بن أبى وقاص قد رمى يومئذ بسهم، فكان أول سهم رمى به فى الإسلام.

ثم انصرف القوم عن القوم وللمسلمين حامية، وفر من المشركين إلى المسلمين المقداد بن عمرو البهرانى حليف بنى زهرة، وعتبة بن غزوان بن جابر حليف بنى نوفل بن عبد مناف ـ وكانا مسلمين؛ ولكنهما خرجا يتوصلان بالكفار إلى المسلمين ـ أى: أنهما اتخذا خروجهما مع الكفار وسيلة للوصول إلى المسلمين ـ وكان على ذلك الجمع ـ من المشركين ـ عكرمة بن أبى جهل.

فكانت راية عبيدة أول راية عقدها رسول الله ﷺ فى الإسلام لأحد من المسلمين.

وزعم بعض العلماء أن رسول الله ﷺ كان بعثه حين أقبل من غزوة الأبواء قبل أن يصل إلى المدينة. وقال محمد بن إسحاق: وبعث حمزة بن عبد المطلب فى مقام ذلك إلى سيف البحر من ناحية العيص فى ثلاثين راكبًا من المهاجرين؛ وهى من أرض جهينة ليس فيهم من الأنصار أحدٌ، فلقى أبا جهل بن هشام بذلك الساحل فى ثلثمائة راكب من أهل مكة، فحجز بينهم مجدى بن عمرو الجهنى، وكان موادعًا للفريقين جميعًا، فانصرف القوم بعضهم عن بعض، ولم يكن بينهم قتال.

وبعض القوم يقول: كانت راية حمزة أول راية عقدها رسول الله ﷺ لأحد المسلمين، وذلك أن بعثه وبعث عبيدة بن الحارث كانا معًا، فشبه ذلك على

الناس. والذى سمعنا من أهل العلم عندنا أن راية عبيدة بن الحارث كانت أول راية عقدت فى الإسلام.

ثم غزا رسول الله ﷺ فى شهر ربيع الآخر، يريد قريشًا، حتى إذا بلغ بواط من ناحية رضوى رجع ولم يلق كيدًا، فلبث بقية شهر ربيع الآخر وبعض جمادى الأولى.

ثم غزا يريد قريشًا، فسلك على نقب بنى دينار بن النجار، ثم على فيفاء الخبار، فنزل تحت شجرة ببطحاء ابن أزهر، يقال لها: ذات السّاق، فصلّى عندها، فثم مسجده، وصُنِعَ له عندها طعام فأكل منه وأكل الناس معه، فموضع أثافى البرمة معلوم هنالك، واستقى له من ماء به يقال له المشيرب. ثم ارتحل فترك الخلائق بيسار، وسلك شعبة يقال لها شعبة عبد الله ـ وذلك اسمها اليوم ـ ثم صب ليسار، ثم هبط بليل، فنزل بمجتمعه ومجتمع الضبوعة، واستقى له من بئر بالضبوعة ثم سلك الفرش؛ فرش ملل، حتى لقى الطريق بصخيرات اليمام. ثم اعتدل به الطريق حتى نزل العشيرة من بطن ينبع، فأقام بها بقية جمادى الأولى وليالى من جمادى الآخرة، ووادع فيها بنى مدلج وحلفاءهم من بنى ضمرة، ثم رجع إلى المدينة، ولم يلق كيدًا. وفى تلك الغزوة قال لعلّى بن أبى طالب ـ عليه السلام ـ ماقال، قال: فلم يقم رسول الله ﷺ حين قدم من غزوة العشيرة بالمدينة إلا ليالى قلائل لاتبلغ العشر، حتى أغار كرز بن جابر الفهرى على سرح المدينة، فخرج رسول الله ﷺ فى طلبه، حتى بلغ واديًا يقال له سفوان من ناحية بدر، وفاته كرز فلم يدركه؛ وهى غزوة بدر الأولى؛ ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة فأقام بها بقية جماد الآخر ورجب وشعبان. وقد كان بعث فيما بين ذلك سعد بن أبى وقاص فى ثمانية رهط.

وزعم الواقدى أن فى هذه السنة ـ أعنى السنة الأولى من الهجرة ـ جاء أبو قيس بن الأسلت رسول الله ﷺ فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام، فقال: ما أحسن ما تدعو إليه! أنظر فى أمرى، ثم أعود إليك، فلقيه عبد الله بن أبى، فقال له: كرهت والله حرب الخزرج! فقال أبو قيس: لا أسلم سنة؛ فمات فى ذى القعدة.

ثم كانت السنة الثانية من الهجرة

فغزا رسول الله ﷺ فى قول جميع أهل السير فيها، فى ربيع الأول بنفسه غزوة الأبواء - ويقال: ودان - وبينهما ستة أميال هى بحذائها؛ واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة حين خرج إليها سعد بن عبادة بن دليم. وكان صاحب لوائه فى هذه الغزاة حمزة بن عبد المطلب، وكان لواؤه - فيما ذكر - أبيض.

وقال الواقدى: كان مقامه بها خمس عشرة ليلة، ثم قدم المدينة.

ثم غزا رسول الله ﷺ فى مائتين من أصحابه؛ حتى بلغ بُواط فى شهر ربيع الأول؛ يعترض لعيرات قريش، وفيها أمية بن خلف ومائة رجل من قريش، وألفان وخمسمائة بعير. ثم رجع ولم يلق كيدًا. وكان يحمل لواءه سعد بن أبى وقاص، واستخلف على المدينة سعد بن معاذ فى غزوته هذه..

ثم غزا فى ربيع الأول فى طلب كرز بن جابر الفهرى فى المهاجرين، وكان قد أغار على سرح المدينة - أى: المال السارح أو الإبل - وكان يرعى بالجماء فاستاقه، فطلبه رسول الله ﷺ حتى بلغ بدرا فلم يلحقه؛ وكان يحمل لواءه علىّ بن أبى طالب - عليه السلام - واستخلف على المدينة زيد ابن حارثة.

غزوة ذات العُشيرة

وفيها خرج رسول الله ﷺ يعترض لعيرات قريش حين بدأت إلى الشام فى المهاجرين - وهى غزوة ذات العُشيرة - حتى بلغ ينبع، واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد، وكان يحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب. فحدثنا سليمان ابن عمر بن خالد الرقى، قال... عن عمار بن ياسر: كنت أنا وعلىّ رفيقين مع رسول الله ﷺ فى غزوة العُشيرة، فنزلنا منزلا، فرأينا رجالاً من بنى مدلج يعملون فى نخل لهم، فقلت: لو انطلقنا فنظرنا إليهم كيف يعملون، فانطلقنا!

فنظرنا إليهم ساعة، ثم غشينا النعاس، فعمدنا إلى صور من النخل؛ فنمنا تحته فى دمعاء من التراب ـ أى: التراب اللين ـ فما أيقظنا إلاّ رسول الله ﷺ أتانا وقد تتربنا فى ذلك التراب؛ فحرك عليــًّا برجله، فقال: قم يا أبا تراب؛ ألا أخبرك بأشقى الناس؛ أحمر ثمود عاقر الناقة، والذى يضربك ياعلىّ على هذا ـ يعنى قرنه ـ فيخضب هذه منها؛ وأخذ بلحيته.

وقد قيل فى ذلك غير هذا القول.. قيل لسهل بن سعد: إن بعض أمراء المدينة يريد أن يبعث إليك تسب عليــًّا عند المنبر، قال: أقول ماذا؟ قال: تقول: أبا تراب، قال: والله ما سماه بذلك إلا رسول الله ﷺ، قال: قلتُ: وكيف ذاك يا أبا العبّاس؟ قال: دخل علىّ على فاطمة، ثم خرج من عندها، فاضطجع فى فىء المسجد.. قال: ثم دخل رسول الله ﷺ على فاطمة، فقال لها: أين ابنُ عمك؟ فقالت: هو ذاك مضطجع فى المسجد، قال: فجاءه رسول الله ﷺ فوجده قد سقط رداؤه عن ظهره، وخلص التراب إلى ظهره، فجعل يمسح التراب عن ظهره، ويقول: اجلس أبا تراب، فوالله ما سماه به إلا رسول الله ﷺ والله ما كان له اسم أحب إليه منه.

وفى هذه السنة فى صفر، لليال بقين منه، تزوج علىٌّ بن أبى طالب ـ عليه السلام ـ فاطمة ـ رضى الله عنها.

سرية عبد الله بن جحش

لما رجع رسول الله ﷺ من طلب كرز بن جابر الفهرى إلى المدينة، وذلك فى جمادى الآخرة، بعص فى رجب عبد الله بن جحش معه ثمانية رهط من المهاجرين، ليس فيهم من الأنصار أحدٌ.

أما الواقدى فإنه زعم أن رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن جحش سريَّة فى اثنى عشر رجلاً من المهاجرين.

رجع الحديث إلى حديث ابن إسحاق، عن عـروة، قال: وكتب رسول الله

ﷺ له كتابا ـ يعنى لعبد الله بن جحش ـ وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين؛ ثم ينظر فيه فيمضى لما أمره به، ولا يستكره أحدًا من أصحابه، فلما سار عبد الله بن جحشٍ يومين، فتح الكتاب، ونظر فيه، فإذا فيه: «وإذا نظرت فى كتابى هذا؛ فسر حتى تنزل نخلة بين مكة والمدينة، فترصد بها قريشًا، وتعلم لنا من أخبارهم» فلما نظر عبد الله فى الكتاب قال: سمعٌ وطاعة؛ ثم قال لأصحابه: قد أمرنى رسول الله ﷺ أن أمضى إلى نخلة، فأرصد بها قريشًا حتى آتيه منهم بخبر، وقد نهانى أن أستكره أحدًا منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة، ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع؛ فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ.

فمضى ومضى معه أصحابه، فلم يتخلف عنه منهم أحد، وسلك على الحجاز، حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع يقال له (بحران)، أضل سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان بعيرًا لهما كانا يعتقبانه ـ يتناوبان ركوبه ـ فتخلفا عليه فى طلبه. ومض يعبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة، فمرت به عير لقريش تحمل زبيبًا وأدمًا وتجارة من تجارة قريش، فيها منهم عمرو بن الحضرمّى، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة وأخوه نوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزوميان، والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة. فلما رآهم القوم هابوهم؛ وقد نزلوا قريبًا منهم، فأشرف لهم عكاشة بن محصن ـ وقد كان حلق رأسه ـ فلما رأوه أمنوا، وقالوا: عمار ـ أى: معتمرون ـ لابأس عليكم منهم، وتشاور القوم فيهم؛ وذلك فى آخر يوم من رجب، فقال القوم: والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم؛ فليمتنعن به منكم؛ ولئن قتلتموهم لتقتلنهم فى الشهر الحرام. فتردد القوم، وهابوا الإقدام عليهم؛ ثم تشجعوا عليهم، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم، وأخذ ما معهم؛ فرمى واقدُ بن عبد الله التميمى عمرو بن الحضرمى بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، وأفلت نوفل بن عبد الله فأعجزهم، وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين؛ حتى قدموا على رسول الله ﷺ بالمدينة.

وقد ذكر بعض آل عبد الله بن جحش، أنه قال لأصحابه: إن لرسول الله ﷺ

مما غنمتم الخمس ـ وذلك قبل أن يفرض الله من الغنائم الخمس ـ فعزل لرسول الله ﷺ خمس الغنيمة، وقسم سائرها بين أصحابه؛ فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال: ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام. فوقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئًا. فلما قال ذلك رسول الله ﷺ سقط فى أيدى القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنفهم المسلمون فيما صنعوا. وقالوا لهم: صنعتم مالم تؤمروا به، وقاتلتم فى الشهر الحرام ولم تؤمروا بقتال! وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهرالحرام، فسفكوا فيه الدّم وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال. فقال من يرد ذلك عليهم من المسلمين ممن كان بمكة: إنما أصابوا ما أصابوا فى شعبان، وقالت يهود؛ تتفاءل بذلك على رسول الله ﷺ: عمرو ابن الحضرمى قتله واقد بن عبد الله: «عمرو» عمرت الحرب، و«الحضرمى» حضرت الحرب، و«واقد بن عبد الله» وقدت الحرب؛ فجعل الله ـ عز وجل ـ ذلك عليهم لا لهم.

فلما أكثر الناس فى ذلك أنزل الله ـ عز وجل ـ على رسوله ﷺ: **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾**(1).

فلما نزل القرآن بهذا من الأمر وفرج الله عن المسلمين ماكانوا فيه من الشفق ـ أى: الخوف والحذر ـ قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين.

وبعثت إليه قريش فى فداء عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، فقال رسول الله ﷺ: لا نفديكموهما؛ حتى يقدم صاحبانا ـ يعنى سعد بن أبى وقاص وعتبة ابن غزوان ـ فإنا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم. فقدم سعد وعتبة، ففاداهما رسول الله ﷺ منهم، فأما الحكم بن كيسان فأسلم فحسُن إسلامه، وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قتل يوم بِئر معونة شهيدًا.

وخالف السدى هذه الرواية.. بخبره.. فقال: **﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾**، وذلك أن رسول الله ﷺ

---

(1) البقرة الآية ٢١٧.

بعث سريّة وكانوا سبعة نفر، عليهم عبد الله بن جحش الأسدى وفيهم عمار بن ياسر، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وسعد بن أبى وقاص، وعتبة بن غزوان السلمى حليف لبنى نوفل، وسهيل بن بيضاء، وعامر بن فهيرة، وواقد بن عبد الله اليربوعى؛ حليف لعمر بن الخطاب. وكتب مع ابن جحش كتابًا وأمره ألا يقرأ حتى ينزل بطن ملَل؛ فلما نزل بطن ملَل فتح الكتاب؛ فإذا فيه: أن سِر حتّى تنزل بطن نخلة؛ فقال لأصحابه: مَنْ كان يريد الموت فليمض وليوص؛ فإنى موص وماضٍ لأمر رسول الله ﷺ، فسار وتخلّف عنه سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان، أضلاّ راحلة لهما، فأتيا بُحران يطلبانها، وسار ابن جحش إلى بطن نخلة؛ فإذا هو بالحكم بن كيسان، وعبد الله بن المغيرة، والمغيرة بن عثمان، وعمرو بن الحضرمىّ، فاقتتلوا، فأسروا الحكم ابن كيسان وعبد الله بن المغيرة، وانفلت المغيرة، وقتل عمرو بن الحضرمىّ، قتله واقد بن عبد الله. فكانت أول غنيمة غنمها أصحاب محمد ﷺ.

فلما رجعوا بالأسيرين وما أصابوا من الأموال؛ أراد أهل مكة أن يفادوا الأسيرين، فقال النبى ﷺ: حتى ننظر مافعل صاحبانا! فلما رجع سعد وصاحبه فادى بالأسيرين ففجر عليه المشركون، وقالوا: محمد يزعم أنه يتبع طاعة الله، وهو أول من استحلّ الشهر الحرام، وقتل صاحبنا فى رجب! فقال المسلمون: إنما قتلناه فى جمادى - وقيل: فى أول ليلة من رجب وآخر ليلة من جمادى - وغمد المسلمون سيوفهم حين دخل رجب، فأنزل الله - عز وجل - يعير أهل مكة: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾[1] إلى قوله : ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ الفتنة : هى الشرك.

ذكر بقية ما كان فى السنة الثانية من سنى الهجرة

ومن ذلك ما كان من صرف الله - عز وجل - قبلة المسلمين من الشام إلى الكعبة، وذلك فى السنة الثانية من مقدم النبى ﷺ المدينة فى شعبان.

(١) الخبر فى تفسير الطبرى ٤: ٣٠٥ - ٣٠٦.

واختلف السلف من العلماء فى الوقت الذى صرفت القبلة فيه من هذه السنة، فقال بعضهم ـ وهم الجمهور الأعظم ـ: صُرفت فى النصف من شعبان على رأس ثمانية عشر شهرًا من مقدم رسول الله ﷺ .

فعن ابن عباس وابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبيّ ﷺ: كان الناس يصلّون قبل بيت المقدس؛ فلما قدم النبى ﷺ المدينة على رأس ثمانية عشر شهرًا من مهاجره، كان إذا صلى رفع رأسه إلى السماء ينظر ما يؤمر، وكان يصلى قبل بيت المقدس فنسختها الكعبة، وكان النبى ﷺ يحب أن يصلى قبل الكعبة، فأنزل الله ـ عز وجل : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾[1].

عن ابن إسحاق، قال: صُرفت القِبْلة فى شعبان على رأس ثمانية عشر شهرًا من مقدم رسول الله ﷺ المدينة.

وعن الواقدى مثل ذلك، وقال: صُرفت القبلة فى الظهر يوم الثلاثاء للنصف من شعبان.

أما ابن وهب، فسمع من ابن زيد يقول: استقبل النبى ﷺ بيت المقدس ستة عشر شهرًا، فبلغه أن يهود تقول: والله ما دَرَى محمدٌ وأصحابه أين قبلتُهم حتى هديناهم! فكره ذلك النبى ﷺ، ورفع وجهه إلى السماء، فقال الله ـ عز وجل: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾[2].

* * *

وفى هذه السنة فرض ـ فيما ذكر ـ صومُ رمضان. وقيل: إنَّه فرض فى شعبان منها، وكان النبى ﷺ حين قدم المدينة، رأى يهود تصوم يوم عاشوراء؛ فسألهم فأخبروه أنَّه اليوم الذى غرّق الله فيه آل فرعون، ونجّى موسى ومن معه منهم؛ فقال: نحن أحقٌّ بموسى منهم. فصام وأمر الناس بصومه، فلمَّا فُرض صوم شهر رمضان، لم يأمرهم بصوم يوم عاشوراء، ولم ينههم عنه.

(١) البقرة الآية ١٤٤.

(٢) تفسير الطبرى ٢: ٥٢٩، ٥٢٦.

وفيها أمر الناس بإخراج زكاة الفطر. وقيل: إن النبيّ ﷺ خطب الناس قبل يوم الفِطْر بيوم أو يومين، وأمرهم بذلك.

وفيما خرج إلى المُصَلَّى فصلَّى بهم صلاة العيد، وكان ذلك أوَّلَ خرْجَة خرجها بالناس إلى المصلى لصلاة العيد.

وفيها ـ فيما ذكر ـ حُملت العَنَزَة له إلى المصلَّى فصلَّى إليها ـ والعنَزَة عصا أقصر من الرمح يقال لها سنان وقد قدم بها الزبير من الحبشة ـ وكانت للزبير بن العوام ـ كان النجاشى وهبها له ـ فكانت تحمل بين يديه فى الأعياد، وهى اليوم ـ فيما بلغنى ـ عند المؤذّنين بالمدينة.

وفيها كانت وقعة بدر الكبرى بين رسول الله ﷺ والكفَّار من قُريش؛ وذلك فى شهر رمضان منها.

واختلفوا فى اليوم الذى فيه كانت الحرب بينه وبينهم، فقال بعضهم: كانت وقْعة بدر يوم تسعة عشر من شهر رمضان.

فعن ابن مسعود، قال: التمِسُوا لَيْلَةَ القَدْرِ فى تِسْع عشرة ليلةً من رمضان؛ فإنها ليلة بَدْر. وعن عبد الله، قال: التمسوا ليلة القدر فى تسع عشرة من رمضان، فإن صبيحتها كانت ليلة صبيحة بدر. وعن زيد أنه كان لا يحيى ليلة من شهر رمضان كما يحيى ليلة تسع عشرة وثلاث وعشرين، ويصبح وجهه مصفراً من أثَر السَّهَر، فقيل له، فقال: إن الله ـ عزّ وجلّ ـ فرق فى صبيحتها بين الحق والباطل.

وقال آخرون: كانت يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من شهر رمضان.

فمحمد بن صالح، قال: هذا أعجب الأشياء، ماظننت أن أحدًا من أهل الدنيا شَكّ فى هذا؛ إنها صبيحة سبع عشرة من رمضان، يوم الجمعة.

وكانت وقعة بدر يوم الجمعة، قال الحسن بن علىّ بن أبى طالب: كانت ليلة الفُرقان يوم التقى الجمعان، لسبع عشرة من رمضان.

وكان الذى هاج وقعة بدر وسائر الحروب التى كانت بين رسول الله ﷺ وبين

مشركى قريش - فيما قال عُرْوة بن الزُّبير - ما كان من قتل واقد بن عبد الله التميمى عمرو بن الحضرمى.

ذكر وقعة بدر الكبرى

كتب عروة إلى عبد الملك بن مروان: أمّا بعد، فإنك كتبت إلىّ فى أبى سفيان ومخْرجه، تسألنى كيف كان شأنه؟ كان من شأنه أن أبا سُفيان بن حرْب أقبل من الشام فى قريب من سبعين راكبًا من قبائل قريش كلها، كانوا تجارًا بالشام، فأقبلوا جميعًا، معهم أموالهُم وتجارتهم، فَذُكِرُوا لرسول الله ﷺ وأصحابه؛ وقد كانت الحربَ بينهم قبل ذلك، فقتلت قتلى، وقتل ابن الحضرمىّ فى ناس بنَخْلةَ، وأسرتْ أسارى من قريش؛ فيهم بعض بنى المغيرة، وفيهم ابن كَيْسان مولاهم، أصابهم عبد الله بن جحش، وواقد حليف بنى عدىّ بن كعب، فى ناس من أصحاب رسول الله ﷺ وبين قريش، وأول ما أصاب به بعضهم بعضًا من الحرب، وذلك قبل مخرج أبى سفيان إلى الشام. ثم إنّ أبا سفيان أقبل بعد ذلك ومن معه من ركبان قريش مقبلين من الشام، فسلكوا طريق الساحل، فلما سمع بهم رسول الله ﷺ ندب أصحابه وحدثهم بما معهم من الأموال، وبقلّة عددهم، فخرجوا لايريدون إلا أبا سفيان والركْبَ معه؛ لا يرونْها إلاّ غنيمة لهم؛ لا يظنوّن أن يكون كبيرُ قتال إذا لقوهُم، وهى التى أنزل الله - عز وجل - فيها: ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾(١).

فلمّا سمعَ أبو سفيان أنّ أصحابَ رسول الله ﷺ معترضون له، بعث إلى قريش: إنّ محمدًا وأصحابه معترضون لكم، فأجيروا تجارتكم. فلما أتى قريْشًا الخبرُ - وفى عير أبى سفيان، من بطون كعب بن لؤى كلها - نفر لها أهل مكة، وهى نَفْرة بنى كعب بن لؤى، ليس فيها من بنى عامر أحدٌ إلا من كان من بنى مالك بن حسْل، ولم يسمع بنَفْرة قريش رسول الله ﷺ ولا أصحابه، حتى قدم النبى ﷺ بَدْرًا وكان طريق ركبان قريش، مَنْ أخذ منهم طريق الساحل إلى

---

(١) الأنفال الآية ٧ والخبر فى تفسير الطبرى ١٣ : ٣٩٩.

الشام ـ فخفض ـ سار بلين ـ أبو سفيان عند بدْر، ولزم طريق الساحل، وخاف الرّصدَ ـ المترقبون على الطريق ـ على بدْر، وسار النبى ﷺ حتى عرّس قريبًا من بدْر، وبعث النبىّ ﷺ الزبير بن العوام فى عصابة من أصحابه إلى ماء بدر، وليسوا يحسبون أنّ قريشًا خرجت لهم، فبينا النبّى ﷺ قائم يصلى؛ إذْ ورد بعض روايا قريش ـ وهم الذين يستقون الماء على الدواب ـ ماء بدر، وفيمن ورد من الروايا غلام لبنى الحجاج أسود؛ فأخذه النّفرُ الذين بعثهم رسول الله ﷺ مع الزبير إلى الماء، وأفلت بعض أصحاب العبد نحو قريش، فأقبلوا حتى أتوا به رسولَ الله ﷺ وهو فى مُعَرّسه، فسألوه عن أبى سفيان وأصحابه، لايحسبون إلا أنه معهم، فطفق العبد يحدّثهم عن قريش ومن يخرج منها، وعن رءوسهم، ويصدقهم الخبر، وهم أكره شىء إليهم الخبر الذى يخبرهم؛ وإنما يطلبون حينئذ بالركب أبا سفيان وأصحابه والنبى ﷺ يصلى؛ يركع ويسجد يرى ويسمع ما يصنع بالعبد، فطفقوا إذا ذكر لهم أنها قريش جاءتهم، ضربوه وكذّبوه، وقالوا: إنما تكتّمنا أبا سفيان وأصحابه، فجعل العبد إذا أذلقوهُ بالضرب ـ أى أضعفوه ـ وسألوه عن أبى سفيان وأصحابه ـ وليس له بهم علم؛ إنما هو من رَوَايا قريش ـ قال: نعم، هذا أبو سفيان، والركْب حينئذ أسفل منهم، قال الله ـ عزّ وجلّ: ﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ حتى بلغ ﴿ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾[1].

فطفقوا إذا قال لهم العبد : هذه قريش قد أتتكم ضربوه، وإذا قال لهم: هذا أبو سفيان تركوه.

فلما رأى صنيعهم النبىّ ﷺ انصرف من صلاته وقد سمع الذى أخبرهم، فزعموا أنّ رسول الله ﷺ قال: والذى نفسى بيده، إنكم لتضربونه إذا صدق، وتتركونه إذا كذب! قالوا: فإنه يحدّثنا أن قريْشا قد جاءت، قال: فإنه قد صدق؛ قد خرجت قريش تجير ركابها، فدعا الغلام فسأله فأخبره بقريش، قال: لا علم

(١) الأنفال الآية ٤٢.

لى بأبى سفيان، فسأله: كم القوم؟ فقال: لا أدرى، والله هم كثير عددهم، فزعموا أن النبى ﷺ قال: مَنْ أطعمهم أوّل مِنْ أمس؟ فسمّى رجلا أطعمهم، فقال: كم جزائر نَحَرَ لهم؟ - أى: كم ناقة مجزورة - قال: تسع جزائر، قال: فمَنْ أطعمهم أمس؟ فسمّى رجلا، فقال: كم نحر لهم؟ قال: عشر جزائر؛ فزعموا أن النبىّ ﷺ قال: القوم ما بين التسعمائة إلى الألف، فكان نَفْرة - أى: القوم ينفرون إلى القتال - قريش يومئذ خمسين وتسعمائة.

فانطلق النبىّ ﷺ فنزل الماء وملأ الحياض، وصفّ عليها أصحابه، حتى قدم عليه القوم. فلما ورد رسول الله ﷺ بدرًا قال: هذه مصارعهم؛ فوجدوا النبى ﷺ قد سبقهم إليه ونزل عليه. فلما طلعوا عليه زعموا أن النبى ﷺ قال: هذه قريش قد جاءت بجلبتها وفخرها؛ تحادُّك وتكذب رسولك! اللهم إنى أسألك ما وعدتنى.

فلما أقبلوا استقبلهم، فحثا فى وجوههم التراب؛ فهزمهم الله. وكانوا قبل أن يلقاهم النبى ﷺ قد جاءهم راكب من أبى سفيان والركب الذين معه: أن ارجعوا - والركب الذين يأمرون قريشًا بالرجعة - بالجحفة - فقالوا: والله لا نرجع حتى ننزل بدرًا، فنقيم به ثلاث ليال، ويرانا مَنْ غشينا من أهل الحجاز، فإنه لن يرانا أحد من العرب وماجمعنا فيقاتلنا. وهم الذين قال الله - عز وجل: ﴿ كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ ﴾[1] فالتقوا هم والنبى ﷺ ففتح الله على رسوله؛ وأخزى أئمة الكفر وشفى صدور المسلمين منهم.

ثم إنه أصابنا من الليل طشٌ من المطر - أى: المطر الضعيف فوق الرذاذ - فانطلقنا تحت الشجر والحجف - وهو نوع من الجلد - نستظل تحتها من المطر، وبات رسول الله ﷺ يدعو ربه: اللهم إن تهلك هذه العصابة لاتعبد فى الأرض. فلما أن طلع الفجر نادى: الصلاة عباد الله! فجاء الناس من تحت الشجر والحجف، فصلى بنا رسول الله ﷺ وحرض على القتال، ثم قال: إن جمع

(١) الأنفال : ٤٧ .

قريش عند هذه الضلعة من الجبل. فلما دنا القوم منا وصاففناهم ـ أى: وقفوا مصطفين ـ إذا رجل من القوم على جمل أحمر يسير فى القوم، فقال رسول الله ﷺ: ياعلى، ناد لى حمزة ـ وكان أقربهم إلى المشركين: من صاحب الجمل الأحمر؟ وماذا يقول لهم؟ وقال رسول الله ﷺ: إن يكن فى القوم من يأمر بالخير، فعسى أن يكون صاحب الجمل الأحمر. فجاء حمزة، فقال: هو عتبة بن ربيعة؛ وهو ينهى عن القتال، ويقول لهم: إنى أرى قوما مستميتين لا تصلون إليهم وفيكم خير؛ ياقوم اعصبوها اليوم برأسى، وقولوا: جَبُنَ عتبة بن ربيعة؛ ولقد علمتم أنى لست بأجبنكم.

فسمع أبو جهل فقال: أنت تقول هذا! والله لو غيرك يقول هذا لعضضته! لقد ملئت رئتك وجوفك رعبا. فقال عتبة: إياى تعير يامصفر استه! ستعلم اليوم أينا أجبن!

فبرز عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة بن ربيعة، وابنه الوليد، حمية، فقالوا: من يبارز؟ فخرج فتية من الأنصار ستة، فقال عتبة: لانريد هؤلاء؛ ولكن يبارزنا من بنى عمنا من بنى عبد المطلب. فقال رسول الله ﷺ: ياعلى قم، ياحمزة قم، ياعبيدة بن الحارث قم، فقتل الله عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة، وجرح عبيدة بن الحارث، فقتلنا منهم سبعين، وأسرنا منهم سبعين.

فجاء رجل من الأنصار قصير بالعباس بن عبد المطلب أسيراً، فقال: يارسول الله، والله ماهذا أسرنى، ولكن أسرنى رجل أجلح ـ منحسر الشعر عن جانبى الرأس ـ من أحسن الناس وجهًا، على فرس أبلق، ما أراه فى القوم، فقال الأنصارى: أنا أسرته، فقال رسول الله ﷺ: لقد آزرك الله بملك كريم. قال علىّ: فأسر من بنى عبد المطلب العباس، وعقيل، ونوفل بن الحارث.

وعنه أنه قال: لما أن كان يوم بدر، وحضر البأس اتقينا برسول الله، فكان من أشد الناس بأسًا، وما كان منا أحدٌ أقرب إلى العدوّ منه. . وما كان فينا فارس

غير المقداد بن الأسود، ولقد رأيتنا ومافينا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ قائمًا إلى شجرة يصلّى، ويدعو حتى الصبح.

وعن عروة وغيره من علمائنا، عن عبد الله بن عباس، كل قد حدثنى هذا الحديث؛ فاجتمع حديثهم فيما سقت من حديث بدر، قالوا: لما سمع رسول الله ﷺ بأبى سفيان مقبلا من الشام، ندب المسلمين إليهم، وقال: هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها، لعل الله أن ينفلكموها، فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم؛ وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حربا، وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار، ويسأل من لقى من الركبان تخوفًا على أموال الناس؛ حتى أصاب خبرًا من بعض الركبان أن محمدًا قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فحذر عند ذلك، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى، فبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتى قريشًا يستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمدًا قد عرض لها فى أصحابه، فخرج ضمضم بن عمرو سريعًا إلى مكة.

وقال عروة: قد رأت عاتكة بنت عبد المطلب قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث ليال رؤيا أفزعتها، فبعثت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب فقالت له: يا أخى، والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفظعتنى، وتخوفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة، فاكتم علىّ ما أحدثك به، قال لها: ومارأيت؟ قالت: رأيت راكبًا أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح. ثم صرخ بأعلى صوته: أن انفروا يا آل غدر لمصارعكم فى ثلاث! فأرى الناس اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه؛ فبينا هم حوله مثل به بعيره على ظهر الكعبة، ثم صرخ بأعلى صوته بمثلها! أن انفروا يا آل غدر لمصارعكم فى ثلاث! ثم مثل به بعيره على رأس أبى قبيس، فصرخ بمثلها، ثم أخذ صخرة فأرسلها، فأقبلت تهوى حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت ـ أى: تفرقت ـ فما بقى بيت من بيوت مكة، ولا دار من دورها إلا دخلت منها فلقة. قال العباس: والله إن هذه لرؤيا رأيت فاكتميها ولا تذكريها لأحد.

ثم خرج العباس فلقى الوليد بن عتبة بن ربيعة ـ وكان له صديقًا ـ فذكرها له واستكتمه إياها، فذكرها الوليد لأبيه عتبة، ففشا الحديث، حتى تحدثت به قريش فى أنديتها.

قال العباس: فغدوت أطوف بالبيت وأبو جهل بن هشام فى رهط من قريش قعود يتحدثون برؤيا عاتكة؛ فلما رآنى أبو جهل، قال: يا أبا الفضل؛ إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا. قال: فلما فرغت أقبلت إليه حتى جلست معهم، فقال لى أبو جهل: يا بنى عبد المطلب؛ متى حدثت فيكم هذه النبية! قال: قلت: وما ذاك؟ قال: الرؤيا التى رأت عاتكة، قال: قلت: ومارأت؟ قال: يا بنى عبد المطلب، أما رضيتم أن تتنبأ رجالكم، حتى تتنبأ نساؤكم؟ قد زعمت عاتكة فى رؤياها أنه قال: انفروا فى ثلاث، فسنتربص بكم هذه الثلاث؛ فإن يكن ماقلت حقا فسيكون، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شىء؛ نكتب عليكم كتابًا أنكم أكذب أهل بيت فى العرب. قال العباس: فوالله ما كان منى إليه كبير إلا أن جحدت ذلك وأنكرت أن تكون رأت شيئًا. قال: ثم تفرقنا، فلما أمسيت لم تبق امرأة من بنى عبد المطلب إلا أتتنى، فقالت: أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع فى رجالكم، ثم قد تناول النساء وأنت تسمع؟! ثم لم يكن عندك غيرة لشىء مما سمعت! قال: قلت: قد ـ والله ـ فعلت؛ ماكان منى إليه من كبير، وايم الله لأتعرضَنَّ له؛ فإن عاد لأكفيتكموه. فعدوت فى اليوم الثالث من رؤيا عاتكة، وأنا حديد مغضب، أرى أن قد فاتنى منه أمرٌ أحبُّ أن أدركه منه، فدخلت المسجد فرأيته؛ فوالله إنى لأمشى نحوه أتعرضه ليعود لبعض ماقال فأقع به ـ وكان رجلاً خفيفًا حديد الوجه، حديد اللسان، حديد النظر ـ إذا خرج نحو باب المسجد يشتد. قال : قلت فى نفسى: ماله لعنه الله؟ أكل هذا فرقًا من أن أشاتمه! قال: وإذا هو قد سمع مالم أسمع: صوت ضمضم بن عمرو الغفارى، وهو يصرخ ببطن الوادى واقفا على بعيره، قد جدع بعيره ـ أى: قطع أنفه ـ وحوّل رحله، وشق قميصه، وهو يقول: يامعشر قريش، اللَّطِيمَةَ اللطيمة ـ الإبل التى تحمل البز والطيب ـ أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه، لاأرى أن تدركوها، الغوث الغوث!

فشغلنى عنه وشغله عنى ماجاء فى الأمر؛ فتجهز الناس سراعًا، وقالوا: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمى! كلا والله ليعلمن غير ذلك. فكانوا رجلين: إما خارج، وإما باعث مكانه رجلاً، وأوعبت قريش - أى: خرجوا جميعًا للغزو - فلم يتخلف من أشرافها أحد، إلا أن أبا لهب بن عبد المطلب تخلف، فبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة؛ وكان لاط - أى: أربى - له بأربعة آلاف درهم كانت له عليه، أفلس بها، فاستأجره بها على أن يجزى عنه بعثه، فخرج عنه وتخلف أبو لهب.

وكان أمية بن خلف قد أجمع القعود، وكان شيخًا جليلاً ثقيلاً، فأتاه عقبة بن أبى معيط، وهو جالس فى المسجد بين ظهرى قومه بمجمرة يحملها، فيها نار ومجمر - أى: عود يتبخر به - حتى وضعها بين يديه، ثم قال: يا أبا علىّ، استجمر، فإنما أنت من النساء، قال: قبحك الله وقبح ماجئت به! قال: ثم تجهز، فخرج مع الناس، فلما فرغوا من جهازهم، وأجمعوا السير؛ ذكروا مابينهم وبين بنى بكر بن عبد مناة بن كنانة من الحرب، فقالوا: إنا نخشى أن يأتونا من خلفنا.. فكاد ذلك أن يثنى قريشًا، فتبدى لهم إبليس فى صورة سراقة ابن جعشم المدلجى - وكان من أشراف كنانة - فقال: أنا جارٌ لكم من أن تأتيكم كنانة بشىء تكرهونه. فخرجوا سرعًا.

قال أبو جعفر: وخرج رسول الله ﷺ لثلاث ليال خلون من شهر رمضان فى ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً من أصحابه؛ فاختلف فى مبلغ الزيادة على العشرة.

وأما عامة السلف؛ فإنهم قالوا: كانوا ثلثمائة رجل وبضعة عشر رجلا..

وعن البراء وقتادة وغيرهما.. قالوا: ذكر لنا أن نبى الله ﷺ قال لأصحابه يوم بدر: أنتم بعدة أصحاب طالوت يوم لقى جالوت، وكان أصحاب نبى الله ﷺ يوم بدر ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً.

وخرج رسول الله ﷺ فى أصحابه، وجعل على الساقة - المؤخرة - قيس بن

أبى صعصعة أخا بنى مازن بن النجار، فى ليال مضت من شهر رمضان؛ فسار حتى إذا كان قريبًا من الصفراء، بعث بسبس بن عمرو الجهنى - حليف بنى ساعدة - وعدى بن أبى الزغباء الجهنى - حليف بنى النجار إلى بدر، يتحسسان له الأخبار عن أبى سفيان بن حرب وعيره؛ ثم ارتحل رسول الله ﷺ وقد قدمهما؛ فلما استقبل الصفراء - وهى قرية بين جبلين - سأل عن جبليهما: ما أسماؤهما؟ فقالوا لأحدهما: هذا مسلح؛ وقالوا للآخر: هذا مخرئ؛ وسأل عن أهلهما، فقالوا: بنو النار وبنو حراق (بطنان من بنى غفار)، فكرههما رسول الله ﷺ والمرور بينهما، وتفاءل بأسمائهما وأسماء أهاليهما؛ فتركهما والصفراء بيسار، وسلك ذات اليمين على واد يقال له: ذَفِرَان؛ فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل.

وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار النبى ﷺ الناس، وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر - رضى الله عنه - فقال فأحسن، ثم قام عمر ابن الخطاب فقال فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو، فقال: يارسول الله، امض لما أمر الله، فنحن معك، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ **فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ** ﴾[1] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد - يعنى مدينة الحبشة - لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه. فقال له رسول الله ﷺ خيرًا، ودعا له بخير. ثم قال: أشيروا علىّ أيها الناس - وإنما يريد الأنصار؛ وذلك أنهم كانوا عدد الناس؛ وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة، قالوا: يارسول الله؛ إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمتنا؛ نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا؛ فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرته، إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم - فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يارسول

---

(١) المائدة : ٢٤.

الله! قال: أجل، قال: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ماجئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا؛ على السمع والطاعة، فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك؛ والذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجلٌ واحد، ومانكره أن تلقى بنا عدونا غدًا! إنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء؛ لعل الله يريك منا ماتقر به عينك؛ فسر بنا على بركة الله.

فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال: سيروا على بركة الله، وأبشروا، فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين؛ والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم. ثم ارتحل رسول الله ﷺ من دفران، فسلك على ثنايا يقال لها الأصافر، ثم انحط منها على بلد يقال لها الدبة، وترك الحنان بيمين ـ وهو كثيب عظيم كالجبل ـ ثم نزل قريبًا من بدر، فركب هو ورجل من أصحابه حتى وقف على شيخ من العرب؛ فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه، ومابلغه عنهم، فقال الشيخ: لا أخبركم حتى تخبرانى من أنتما! فقال له رسول الله ﷺ: إذا أخبرتنا أخبرناك؛ فقال: وذاك بذاك! قال: نعم، قال الشيخ: فإنه بلغنى أن محمدًا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدقنى الذى أخبرنى فهو اليوم بمكان كذا وكذا ـ للمكان الذى به رسول الله ﷺ وبلغنى أن قريشًا خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذى حدثنى صدقنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا ـ للمكان الذى به قريش ـ فلما فرغ من خبره، قال: ممن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: نحن من ماء، ثم انصرف عنه. قال: يقول الشيخ: «مامن ماء؟» أمن ماء العراق!

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى أصحابه؛ فلما أمسى بعث علىّ بن أبى طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص، فى نفر من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون له الخبر عليه، فأصابوا راوية لقريش فيها أسلم ـ غلام بنى الحجاج ـ وعريض أبو يسار ـ غلام بنى العاص بن سعيد ـ فأتوا بهما رسول الله ﷺ وهو قائم يصلى؛ فسألوهما، فقالا: نحن سقاة قريش؛ بعثونا لنسقيهم من الماء، فكره

القوم خبرهما. ورجوا أن يكونا لأبى سفيان. فضربوهما، فلما أذلقوهما قالا: نحن لأبى سفيان، فتركوهما، وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتين، ثم سلم، فقال: إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما! صدقا والله! إنهما لقريش، أخبرانى: أين قريش؟ قالا: هم وراء هذا الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى - والكثيب: العقنقل - فقال رسول الله ﷺ لهما: كم القوم؟ قالا: كثير، قال: ماعدتهم؟ قالا: لاندرى، قال: كم ينحرون كل يوم، قالا: يومًا تسعًا ويومًا عشرًا، قال رسول الله ﷺ: القوم مابين التسعمائة والألف، ثم قال لهما: فمن فيهم من أشراف قريش؟ قالا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البخترى بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدى بن نوفل، والنضر بن الحارث بن كلدة، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد ود. فأقبل رسول الله ﷺ على الناس، فقال: هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها.

وأقبل أبو سفيان قد تقدم العير حذرًا حتى ورد الماء، فقال لمجدى بن عمرو: هل أحسست أحدًا؟ قال: ما رأيت أحدًا أنكره؛ إلا أنى رأيت راكبين أناخا إلى هذا التل، ثم استقيا فى شن لهما، ثم انطلقا. فأتى أبو سفيان مناخهما، فأخذ من أبعار بعيريهما ففته؛ فإذا فيه نوى. فقال: هذه - والله - علائف يثرب! فرجع إلى أصحابه سريعًا، فضرب وجه عيره عن الطريق، فَسَاحَلَ بها، وترك بدرًا يسارًا، ثم انطلق حتى أسرع وأقبلت قريش، فلما نزلوا الجحفة رأى جهيم بن الصلت بن مخرمة بن المطلب رؤيا؛ فقال: إنى رأيت فيما يرى النائم، وإنى لبين النائم واليقظان، إذ نظرت إلى رجل أقبل على فرس حتى وقف ومعه بعير له، ثم قال: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم بن هشام، وأمية بن خلف، وفلان وفلان؛ فعدد رجالاً ممن قتل يومئذ من أشراف قريش، ورأيته ضرب فى لبة بعيره، ثم أرسله إلى العسكر، فما بقى فى خباء من أخبية العسكر إلا أصابه نضحٌ من دمه - أى: لطخ من دمه.

فبلغت أبا جهل، فقال: وهذا أيضًا نبىٌّ آخر من بنى عبد المطلب، سيعلم غدا من المقتول إن نحن التقينا! ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره، أرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورحالكم وأموالكم؛ فقد نجاها الله، فارجعوا. فقال أبو جهل بن هشام: والله لا نرجع حتى نرد بدرا ـ وكان بدرٌ موسمًا من مواسم العرب، تجتمع لهم سوق كل عام ـ فنقيم عليه ثلاثا، وننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقى الخمور، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبدًا؛ فامضوا. فقال الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفى ـ وكان حليفًا لبنى زهرة وهم بالجحفة: يابنى زهرة، قد نجى الله لكم أموالكم، وخلص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل؛ وإنما نفرتم لتمنعوه وماله، فاجعلوا بى جبنها وارجعوا، فإنه لاحاجة بكم فى أن تخرجوا فى غير صنيعة؛ لا مايقول هذا ـ يعنى أبا جهل ـ فرجعوا؛ فلم يشهدها زهرى واحد؛ وكان فيهم مطاعًا، ولم يكن بقى من قريش بطن إلا نفر منهم ناس، إلا بنى عدى بن كعب، لم يخرج منهم رجل واحدٌ، فرجعت بنو زهرة مع الأخنس بن شريق، فلم يشهد بدرًا من هاتين القبيلتين أحدٌ، ومضى القوم. بينما شخص طالب بن أبى طالب إلى بدر مع المشركين.. حيث أخرج كرهًا. فلم يوجد فى الأسرى ولا فى القتلى، ولم يرجع إلى أهله، وكان شاعرًا؛ وهو الذى يقول:

يارب إما يغزون طـــالب　　فى مقنب من هذه المقــانب[1]
فليكن المسلــوب غير السالب　　وليكن المغلوب غــير الغــالب

ومضت قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادى؛ خلف العقنقل، وبطن الوادى وهو يَلْيَل، بين بدر وبين العقنقل؛ الكثيب الذى خلفه قريش، والقُلُب ـ أى: البئر وهو جمع قليب ـ ببدر فى العدوة الدنيا من بطن يليل إلى المدينة، وبعث الله السماء، وكان الوادى دهسًا ـ أى: المكان اللين وليس رملا ـ فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه منها ما لبَّد لهم الأرض؛ ولم يمنعهم المسير،

(١) أى: جماعات الخيل.

وأصاب قريشًا منها مالم يقدروا على أن يرتحلوا معه؛ فخرج رسول الله ﷺ يبادرُهم إلى الماء؛ حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به. فقال الحباب بن المنذر ابن الجموح: يارسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزل أنزلكه الله ليس لنا أن نقدمه ولا نتأخره، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأى والحرب والمكيدة، فقال: يارسول الله، فإن هذا ليس لك بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نعور[1] - أى: ندفن - ماسواه من القُلُب، ثم نبنى عليه حوضًا فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله ﷺ: لقد أشرت بالرأى. فنهض رسول الله ﷺ ومنْ معه من الناس، فسار حتى أتى أدنى ماء من القوم؛ فنزل عليه، ثم أمر بالقلب فعورت، وبنى حوضًا على القليب الذى نزل عليه فملئ ماء، ثم قذفوا فيه الآنية.

وأشار سعد بن معاذ مشورة، فقال: يارسول الله، نبنى لك عريشًا من جريد فتكون فيه، ونعد عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا؛ فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك مما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام يانبى الله، مانحن بأشد حبًّا لك منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ماتخلفوا عنك. يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك. فأثنى رسول الله ﷺ عليه خيرًا، ودعا له بالخير.

ثم بنى لرسول الله ﷺ عريشٌ، فكان فيه، وقد ارتحلت قريش حين أصبحت، فأقبلت، فلما رآها رسول الله ﷺ تصوّب - أى: تنحدر من علوّ - من العقنقل - وهو الكثيب الذى منه جاءوا إلى الوادى - قال: اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذى وعدتنى؛ اللهم فَأَحْنِهم - أى: أهلكهم - الغداة.

وقد قال رسول الله ﷺ ورأى عتبة بن ربيعة فى القوم على جمل له أحمر: إن يكن عند أحد من القوم خيرٌ، فعند صاحب الجمل الأحمر؛ إن يطيعوه

(١) فى ابن هشام: «نغوّر» بالغين المعجمة، وهى بمعناها.

يرشدوا. وقد كان خفاف بن إيماء بن رحضة الغفارى بعث إلى قريش حين مروا به ابنًا له بجزائر ـ أى: بذبائح ـ أهداها لهم، وقال: إن أحببتم أن أمدكم بسلاح ورجال فعلنا؛ فأرسلوا إليه مع أبنه: أن وصلتكِ الرحم! فقد قضيب الذى عليكَ، فلعمرى لئن كنا إنما نقاتل الناس؛ مابنا ضعفٌ عنهم؛ ولئن كنا نقاتل الله ـ كما يزعم محمد ـ فما لأحد بالله من طاقة.

فلما نزل الناس؛ أقبل نفر من قريش؛ حتى وردوا حوض رسول الله ﷺ فيهم حكيم بن حزام، على فرس له، فقال رسول الله ﷺ: دعوهم؛ فما شرب منهم رجل إلا قتل يومئذ؛ إلاَّ ما كان من حكيم بن حزام، فإنه لم يقتل، نجا على فرس يقال له الوجيه، ثم أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، فكان إذا اجتهد فى يمينه قال: لا والذى نجانى يوم بدر.

عن أشياخ من الأنصار، قالوا: لما اطمأن القوم بعثوا عمير بن وهب الجمحى، فقالوا: احزر ـ أى: خمن ـ لنا أصحاب محمد، قال: فاستجال بفرسه حول العسكر، ثم رجع إليهم، فقال: ثلثمائة رجل، يزيدون قليلاً أو ينقصون؛ ولكن أمهلونى حتى أنظر؛ أللقوم كمين أو مدد؟ قال: فضرب فى الوادى، حتى أبعد فلم ير شيئًا، فرجع إليهم، فقال: ما رأيت شيئًا، ولكنى قد رأيت ـ يامعشر قريش ـ الولايا تحمل المنايا ـ جمع ولية، وهى البرذعة التى تكون تحت الرحل ـ نواضح ـ الإبل ـ يثرب تحمل الموت الناقع؛ قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم؛ والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلٌ منكم؛ فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك! فروا رأيكم.

فلما سمع حكيم بن حزم ذلك مشى فى الناس، فأتى عتبة بن ربيعة، فقال: يا أبا الوليد؛ إنك كبير قريش الليلة وسيدها، والمطاع فيها؛ هل لك ألاَّ تزال تذكر منها بخير إلى آخر الدهر؟! قال: وما ذاك ياحكيم؟ قال: ترجع بالناس، وتحمل دم حليفك عمرو بن الحضرمى! قال: قد فعلت، أنت علىّ بذلك؛ إنما هو حليفى فعلىّ عقله، وما أصيب من ماله؛ فأت ابن الحنظلية ـ هى أم أبى جهل ـ

فإنى لا أخشى أن يشجر أمر الناس غيره ـ يعنى أبا جهل بن هشام ـ فذهب إليه حكيم. . فإذا هو فى جماعة من بين يديه ومن ورائه، وإذا ابن الحضرمى واقف على رأسه؛ وهو يقول: قد فسخت عقدى من عبد شمس، وعقدى إلى بنى مخزوم. فقال حكيم: يقول لك عتبة بن ربيعة: هل لك أن ترجع اليوم عن ابن عمك بمن معك؟ قال أبو جهل: أما وجد رسولا غيرك! قال: لا، ولم أكن لأكون رسولا لغيره. ثم خرج حكيم مبادرًا إلى عتبة؛ لئلا يفوته من الخبر شيء، وعبتة متّكئ على إيماء بن رحضة الغفارى، فطلع أبو جهل والشر فى وجهه، فقال لعتبة: انتفخ سحرك ـ رئتك، وتقال للجبان ـ فقال له عتبة: ستعلم ! فسلّ أبو جهل سيفه، فضرب به متن فرسه، فقال إيماء بن رحضة: بئس الفأل هذا! فعند ذلك قامت الحرب.

فخرج الأسود بن عبد الأسد المخزومى ـ وكان رجلاً شرسًا سيئ الخلق ـ فقال: أعاهد الله لأشربَنّ من حوضهم ولأهدمنه أو لأموتن دونه. فلما خرج خرج له حمزة بن عبد المطلب، فلما التقيا ضربه حمزة، فأطن ـ أى : أطار ـ قدمه بنصف ساقه؛ وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تشخب ـ تسيل دمًا بصوت ـ رجله دما نحو أصحابه، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه، يريد ـ زعم ـ أن يبر يمينه، واتبعه حمزة فضربه حتى قتله فى الحوض.

ثم خرج بعده عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة؛ حتى إذا فصل من الصف دعا إلى المبارزة، فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة نفر منهم: عوف ومعوذ ابنا الحارث ـ وأمهما عفراء ـ ورجل آخر يقال له عبد الله بن رواحة، فقال: من أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار. فقالوا: مالنا بكم حاجة! ثم نادى مناديهم: يامحمد، أخرج لنا أكفاءنا من قومنا، فقال رسول الله ﷺ: قم ياحمزة بن عبد المطلب، قم ياعبيدة بن الحارث، قم ياعلى بن أبى طالب؛ فلما قاموا ودنوا منهم، قالوا: من أنتم؟ قال عبيدة: عبيدة، وقال حمزة: حمزة، وقال علىّ: علىّ، قالوا: نعم أكفاءٌ كرام! فبارز عبيدة بن الحارث ـ وكان أسنّ القوم ـ عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة، وبارز علىٌّ الوليد بن عتبة،

فأمّا حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله، وأمّا علىّ فلم يمهل الوليد أن قتله؛ واختلف عبيدة وعتبة بينهما بضربتين، كلاهما أثبت صاحبه ـ أى: جرحه جراحة لم يقم معها ـ وكرّ حمزة وعلىّ بأسيافهما على عتبة، فذففا عليه ـ أسرعا لقتله ـ فقتلاه، واحتملا صاحبهما عبيدة فجاءا به إلى أصحابه؛ وقد قطعت رجله، فمخها يسيل، فلما أتوا بعبيدة إلى رسول الله ﷺ قال: ألست شهيداً يارسول الله! قال: بلى، فقال عبيدة: لو كان أبو طالب حيًّا لعلم أنى أحق بما قال منه حيث يقول:

ونُسْلِمُهُ حتى نُصَرَّعَ حَوْلَــه ... ونَذْهَلَ عن أبنائنا والحلائــل

ثم تزاحف الناس، ودنا بعضهم من بعض، وقد أمر رسول الله ﷺ أصحابه ألا يحملوا حتى يأمرهم؛ وقال: إن اكتنفكم القوم فانضحوهم ـ ارموهم ـ عنكم بالنبل؛ ورسول الله ﷺ فى العريش معه أبو بكر.. بعد أن عدَّل صفوف أصحابه يوم بدر، وفى يده قدحٌ ـ سهم ـ يعدّل به القوم، فمرّ بسواد بن غزية حليف بنى عدى بن النجار وهو مستنتل ـ أى: متقدم ـ من الصف، فطعن رسول الله ﷺ فى بطنه بالقدح، وقال: استو ياسواد بن غزية؛ قال: يارسول الله أوجعتنى وقد بعثك الله بالحق، فأقدنى ـ أى: اقتص لى من نفسك ـ قال: فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه ثم قال: استقد، قال: فاعتنقه وقبَّل بطنه. فقال: ماحملك على هذا ياسواد؟ فقال: يارسول الله، حضر ماترى فلم آمن القتل. فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسّ جلدى جلدك. فدعا له رسول الله ﷺ بخير، وقال له خيراً.

ثم عدل رسول الله ﷺ الصفوف، ورجع إلى العريش، ودخله، ومعه فيه أبو بكر ليس معه فيه غيره، ورسول الله يناشد ربه ماوعده من النصر، ويقول فيما يقول: اللهم إنك إن تهلك هذه العصابة اليوم ـ يعنى المسلمين ـ لاتعبد بعد اليوم، وأبو بكر يقول: يانبى الله، بعض مناشدتك ربك! فإن الله ـ عز وجل ـ

منجز لك ماوعدك. فأنزل الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ **إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ** ﴾(١).

وأخذ أبو بكر بيده ﷺ فقال: حسبك يانبى الله، فقد ألححت على ربك ـ وهو فى الدرع ـ فخرج وهو يقول: ﴿ **سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ * بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ** ﴾(٢).

ولقد خفق ـ نام نوما خفيفا ـ رسول الله ﷺ خفقة وهو فى العريش، ثم انتبه فقال: يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده، على ثناياه النقع ـ أى: التراب ـ قال: وقد رمى مهجع مولى عمر بن الخطاب بسهم فقتل؛ فكان أول قتيل من المسلمين، ثم رمى حارثة بن سراقة أحد بنى عدى بن النجار ـ وهو يشرب من الحوض فقتل. ثم خرج رسول الله ﷺ إلى الناس فحرضهم، ونفل كل امرئ منهم ما أصاب، وقال: والذى نفس محمد بيده لايقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة. فقال عمير بن الحمام ـ أخو بنى سلمة ـ وفى يده تمرات يأكلهن: بخ بخ. فما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء؟! ثم قذف التمرات من يده، وأخذ سيفه، فقاتل القوم حتى قتل وهو يقول:

ركضًا إلى الله بغير زاد ... إلا التقى وعمل المعاد

والصبر فى الله على الجهاد ... وكل زاد عرضة النفاد

غير التقى والبر والرشاد

وسأل عوف بن الحارث ـ وهو ابن عفراء ـ رسول الله ﷺ قال: يارسول الله، مايضحك الرب من عبده؟ أى: مايرضيه غاية الرضا؟ قال: غمسة يده فى

---

(١) الأنفال: ٩.

(٢) القمر: ٤٥، ٤٦.

العدو حاسراً. فنزع درعًا كانت عليه، فقذفها ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل.

وقال حليف بن زهرة: لما التقى الناس، ودنا بعضهم من بعض، قال أبو جهل: اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا يعرف، فأحنه - أي: أهلكه - الغداة، فكان هو المستفتح على نفسه.

ثم إن رسول الله ﷺ أخذ حفنة من الحصباء، فاستقبل بها قريشًا، ثم قال: شاهت الوجوه! ثم نفحهم بها، وقال لأصحابه: شدوا، فكانت الهزيمة، فقتل الله من قتل من صناديد قريش، وأسر من أسر منهم. فلما وضع القوم أيديهم يأسرون، ورسول الله ﷺ فى العريش، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش الذى فيه رسول الله ﷺ متوشحًا السيف، فى نفر من الأنصار يحرسون رسول الله ﷺ يخافون عليه كرة العدو، ورأى رسول الله ﷺ - فيما ذكر لى - فى وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس، فقال رسول الله ﷺ: لكأنك ياسعد تكره ما يصنع الناس! قال: أجل - والله - يارسول الله! كانت أول وقعة أوقعها الله بالمشركين؛ فكان الإثخان فى القتل أعجب إلىّ من استبقاء الرجال.

وعن ابن عباس، قال: إن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يومئذ: إنى قد عرفت أن رجالاً من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها، لاحاجة لهم بقتالنا، فمن لقى منكم أحدًا من بنى هاشم فلا يقتله، ومن لقى أبا البخترى بن هشام ابن الحارث بن أسد فلا يقتله، ومن لقى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله فلا يقتله؛ فإنه إنما أخرج مستكرهًا.

قال: فقال أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا، ونترك العباس؟! والله لئن لقيته لألحمنه السيف - أى: لأطعنن لحمه بالسيف - فبلغت رسول الله ﷺ فجعل يقول لعمر بن الخطاب: يا أبا حفص، أما تسمع إلى قول أبى حذيفة، يقول: أضرب وجه عمّ رسول الله بالسيف! فقال عمر: يارسول الله، دعنى فلأضربن عنقه بالسيف، فوالله لقد نافق. وقال عمر:

والله إنه لأول يوم كنّانى فيه رسول الله ﷺ بأبى حفص، قال: فكان أبو حذيفة يقول: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التى قلت يومئذ، ولا أزال منها خائفًا إلا أن تكفرها عنى الشهادة، فقتل يوم اليمامة شهيداً.

قال ابن عباس: وإنما نهى رسول الله ﷺ عن قتل أبى البخترى؛ لأنه كان أكفَّ القوم عن رسول الله ﷺ وهو بمكة، كان لايؤذيه ولايبلغه عنه شىء يكرهه؛ وكان ممن قام فى نقض الصحيفة التى كتبت قريش على بنى هاشم وبنى المطلب، فلقيه المجذر بن زياد البلوى - حليف الأنصار من بنى عدى - فقال المجذر بن زياد لأبى البخترى: إن رسول الله ﷺ قد نهى عن قتلك - ومع أبى البخترى زميل له خرج معه من مكة، وهو جنادة بن مليحة بنت زهير، وجنادة رجل من بنى ليث. واسم أبى البخترى: العاص بن هشام بن الحارث بن أسد - قال: وزميلى؟ فقال المجذر: لا والله مانحن بتاركى زميلك؛ ما أمرنا رسول الله ﷺ إلا بك وحدك، قال: لا والله إذا لأموتن أنا وهو جميعًا؛ لاتحدث عنى نساء قريش من أهل مكة أنى تركت زميلى حرصًا على الحياة. فقال أبو البخترى حين نازله المجذر، وأبى إلاَّ القتال، وهو يرتجز:

لـن يسـلم ابن حـرة أكليـــه حـتى يمـوت أو يـرى ســـبيله

فاقتتلا، فقتله المجذر بن زياد.

قال: ثم أتى المجذر بن زياد رسول الله ﷺ فقال: والذى بعثك بالحق، لقد جهدت عليه أن يستأسر فآتيك به؛ فأبى إلا القتال، فقاتلته فقتلته.

وعن عبد الرحمن بن عوف.. قال: كان أمية بن خلف لى صديقًا بمكة - وكان اسمى عبد عمرو، فسميت حين أسلمت: «عبد الرحمن» ونحن بمكة - قال: فكان يلقانى ونحن بمكة، فيقول: ياعبد عمرو، أرغبت عن اسم سماكه أبوك؟ فأقول: نعم، فيقول: فإنى لا أعرف «الرحمن»؛ فاجعل بينى وبينك شيئًا أدعوك به؛ أمّا أنت فلا تجيبنى باسمك الأول، وأمّا أنا فلا أدعوك بمالا

أعرف. قال: فكان إذا دعاني: «يا عبد عمرو» لم أجبه، فقلت: اجعل بيني وبينك يا أبا عليّ ماشئت، قال: فأنت عبد الإلّه، فقلت: نعم، فكنت إذا مررت به قال: ياعبد الإلّه، فأجيبه، فأتحدث معه، حتى إذا كان يوم بدر مررت به وهو واقف مع ابنه عليّ بن أمية آخذًا بيده، ومعي أدراعٌ قد استلبتها، فأنا أحملها. فلما رآني قال: ياعبد عمرو! فلم أجبه، فقال: ياعبد الإلّه، قلت: نعم، قال: هل لك فيّ، فأنا خير لك من هذه الأدراع التي معك؟ قال: قلت: نعم، هلم إذًا. قال: فطرحت الأدراع من يدي وأخذت بيده ويد ابنه عليّ، وهو يقول: ما رأيت كاليوم قط! أما لكم حاجة في اللبن؟! ـ أي: من أسرني افتديت منه بإبل كثيرة اللبن ـ قال: ثم خرجت أمشي بهما. قال: قال لي أمية بن خلف: ياعبد الإلّه، من الرجل منكم، المعلم بريشة نعامة في صدره؟ قال: قلت: ذاك حمزة ابن عبد المطلب، قال: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل! قال عبد الرحمـٰن: فوالله إني لأقودهما إذ رآه بلال معي ـ وكان هو الذي يعذب بلالاً بمكّة على أن يترك الإسلام فيخرجه إلى رمضاء مكة ـ أي: الرمل الحارّ من الشمس ـ إذا حميتْ، فيضجعه على ظهره، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول: لاتزال هكذا حتي تفارق دين محمد، فيقول بلال: أحدٌ أحدٌ ـ فقال بلال حين رآه: رأس الكفر أمية بن خلف، لانجوتُ إن نجوتَ؛ قال: قلت: أي بلال، أسيريّ! قال: لانجوت إن نجوا. قال: قلت: تسمّع يابن السوداء! قال: لانجوت إن نجوا، ثم صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله، رأس الكفر أميّة بن خلف، لانجوت إن نجا! قال: فأحاطوا بنا، ثم جعلونا في مثل المسكة ـ أي: في حلقة كالسوار وأحدقوا بنا ـ وأنا أذبُّ عنه؛ قال: فضرب رجلٌ ابنه فوقع. قال: وصاح أمية صيحة ماسمعت بمثلها قطّ. قال: قلت: انج بنفسك، ولانجاء؛ فوالله ما أغني عنك شيئًا. قال: فهبروهما ـ أي: قطعوهما ـ بأسيافهم حتى فرغوا منهما.

قال: فكان عبد الرحمـٰن يقول: رحم الله بلالاً! ذهبت أدراعي وفجعني بأسيريّ.

عن ابن عباس، قال: حدثنى رجلٌ من بنى غفار، قال: أقبلت أنا وابن عم لى حتى أصعدنا فى جبل يشرف بنا على بدر، ونحن مشركان، ننتظر الوقعة على من تِكون الدبرة، فننتهب مع من ينتهب. قال: فبينا نحن فى الجبل؛ إذ دنت منّا سحابة، فسمعنا فيها حمحمة الخيل، فسمعت قائلاً يقول: أقدم حيزُوم ـ أى: أسرع يافرس جبريل عليه السلام ـ قال: فأما ابن عمى فانكشف قناع قلبه فمات مكانه؛ وأمّا أنا فكدت أهلك، ثم تماسكت.

عن أبى داود المازنى ـ وقد شهد بدرًا ـ قال: إنى لأتبع رجلاً من المشركين يوم بدر لأضربه، إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفى، فعرفت أن قد قتله غيرى.

عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف، قال: قال لى أبى: يا بُنىّ، لقد رأيتنا يوم بدر؛ وإن أحدنا ليشير بسيفه إلى المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف.

عن عبد الله بن عباس، قال: كانت سيماء الملائكة يوم بدر عمائم بيضًا قد أرسلوها فى ظهورهم، ويوم حنين عمائم حمرًا، ولم تقاتل الملائكة فى يوم من الأيام سوى يوم بدر. وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عددًا ومددًا لا يضربون.

كان معاذ بن عمرو بن الجموح أخو بنى سلمة، يقول: لما فرغ رسول الله ﷺ من عدوه، أمر بأبى جهل أن يلتمس فى القتلى، وقال: اللهم لا يعجزنك، قال: فكان أول من لقى أبا جهل معاذ بن عمرو بن الجموح، قال: سمعت القوم وأبو جهل فى مثل الحرجة ـ أى: شجر ملتف ـ وهم يقولون: أبو الحكم لايخلص إليه. فلما سمعتها جعلته من شأنى، فصمدت نحوه، فلما أمكننى حملت عليه فضربته ضربة أطنت ـ أى: أطارت ـ قدمه بنصف ساقه؛ فوالله ما شبهتها حين طاحت إلا النواة تطيح ـ تذهب ـ من تحت مرضخة ـ أى: التى يدق بها النوى للعلف ـ النوى حين يضرب بها. قال: وضربنى ابنه عكرمة على عاتقى؛ فطرح يدى، فتعلقت بجلدة من جنبى، وأجهضنى ـ أى: غلبنى واشتدّ

عليّ ـ القتال عنه؛ فلقد قاتلت عامّة يومى، وإنى لأسحبها خلفى؛ فلما آذتنى جعلت عليها رجلى، ثم تمطيت بها، حتى طرحتها. قال: ثم عاش مُعاذ بعد ذلك، حتى كان زمن عثمان بن عفان.

عن عائشة، قالت: لمّا أمر رسول الله ﷺ بالقتلى أن يطرحوا فى القليب ـ البئر ـ طرحوا فيه؛ إلا ما كان من أمية بن خلف؛ فإنه انتفخ فى درعه حتى ملأها، فذهبوا ليحركوه، فتزايل ـ تفرّق ـ فأقروه، وألقوا عليه ما غيبه من التراب والحجارة، فلما ألقاهم فى القليب، وقف رسول الله ﷺ عليهم، فقال: يا أهل القليب، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا! فإنى وجدتُ ماوعدنى ربّى حقًّا. فقال له أصحابه: يارسول الله ﷺ أتكلم قومًا موتى! قال: لقد علموا أن ما وعدتهم حق، قالت عائشة: والناس يقولون: «لقد سمعوا ماقلت لهم»، وإنما قال رسول الله ﷺ: «لقد علموا».

وعن بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ نظر فى وجه أبى حذيفة بن عتبة؛ فإذا هو كئيب قد تغيّر، فقال: يا أبا حذيفة، لعلك دخلك من شأن أبيك شىء! أو كما قال ﷺ فقال: لا والله يانبى الله، ماشككت فى أبى ولافى مصرعه؛ ولكنِّى كنتُ أعرف من أبى رأيًا وحلمًا وفضلاً؛ فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام؛ فلما رأيت ما أصابه، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذى كنت أرجو له، حزننى ذلك، قال: فدعا رسول الله ﷺ له بخير، وقال له خيرًا.

ثم إن رسول الله ﷺ أمر بما فى العسكر مما جمع الناس فجمع، فاختلف المسلمون فيه، فقال من جمعه: هو لنا؛ قد كان رسول الله ﷺ نفّل كلّ امرئ ما أصاب، فقال الذين كانوا يقاتلون العدوّ ويطلبونهم: لولا نحن ما أصبتموه، لنحن شغلنا القوم عنكم حتى أصبتم. فقال الذين يحرسون رسول الله ﷺ مخافة أن يخالف عليه العدو: والله ما أنتم بأحق به منّا؛ لقد رأينا أن نقتل العدوّ إذ ولانا الله، ومنحنا أكتافهم؛ ولقد رأينا أن نأخذ المتاع حين لم يكن دونه من يمنعه؛ ولكن خفنا على رسول الله ﷺ كرة العدوّ، فقمنا دونه؛ فما أنتم بأحّق به منّا.

عن أبى أمامة الباهلى، قال: سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال، فقال: فينا معشر أصحاب بدر نزلت؛ حين اختلفنا فى النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فنزعهِ الله من أيدينا، فجعله إلى رسوله، فقسّمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بواء - يقول: على السواء - فكان فى ذلك تقوى الله - وطاعة رسوله، وصلاح ذات البين، ثم بعث رسول الله ﷺ عند الفتح عبد الله بن رواحة بشيرا إلى أهل العالية بما فتح الله على رسوله ﷺ وعلى المسلمين، وبعث زيد بن حارثة إلى أهل السافلة.

قال أسامة بن زيد: فأتانا الخبر حين سوّينا التراب على رقية بنت رسول الله ﷺ التى كانت عند عثمان بن عفان، كان رسول الله ﷺ خلفنى عليها مع عثمان.

ثم قدم زيد بن حارثة فجئته وهو واقف بالمصلى قد غشيه الناس وهو يقول: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وزمعة بن الأسود، وأبو البخترى بن هشام، وأمية بن خلف، ونبيه ومنبّه ابنا الحجاج. قال: قلت: يا أبه أحقٌّ هذا؟! قال: نعم والله يابنّى. ثم أقبل رسول الله ﷺ قافلا إلى المدينة؛ فاحتمل معه النَّفَل الذى أصيب من المشركين، وجعل على النفل عبد الله ابن كعب بن زيد، ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى إذا خرج من مضيق الصفراء، نزل على كثيب بين المضيق وبين النازية - يقال له سير - إلى سرحة به، فقسَّم هنالك النفل الذى أفاء الله على المسلمين من المشركين على السّواء، واستقى له من ماء به يقال له الأرواق.

ثم ارتحل رسول الله ﷺ حتى إذا كان بالروحاء، لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين، فقال سلمة بن سلامة بن وقش: وما الذى تهنئون به! فوالله إن لقينا إلا عجائز صلعا كالبدن المعقلة، فنحرناها فتبسَّم رسول الله ﷺ وقال: يابن أخى، أولئك الملأ - الأشراف - قال: ومع رسول الله ﷺ الأسارى من المشركين وكانوا أربعة وأربعين أسيرًا، وكان من القتلى مثل ذلك -

وفى الأسارى عقبة بن أبى معيط، والنضر بن الحارث بن كلدة ـ حتى إذا كان رسول الله ﷺ بالصفراء، قتل النضر بن الحارث، قتله علىّ بن أبى طالب ـ رضى الله عنه .

ثم خرج رسول الله ﷺ حتى إذا كان بعرق الظبية، قتل عقبة بن أبى معيط، فقال حين أمر به رسول الله ﷺ أن يقتل: فمن للصبية يا محمد! قال: النار، قال: فقتله عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح الأنصارى، ثم أحد بنى عمرو بن عوف.

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى عرق الظبية حين قتل عقبة، لقيه أبو هند مولى فروة بن عمرو البياضىّ بحميت ـ أى: زقّ ـ مملوء حيسًا ـ وهو سمن مخلوط بالتمر ـ وكان تخلف عن بدر، ثم شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وكان حجام رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: إنما أبو هند امرؤ من الأنصار، فأنكحوه وانكحوا إليه، ففعلوا. ثم مضى رسول الله ﷺ حتى قدم المدينة قبل الأسارى بيوم.

قال سعد بن زرارة: قدم بالأسارى حين قدم بهم وسودة بنت زمعة زوج النبى ﷺ عند آل عفراء فى مناحتهم على عوف ومعوذ ابنى عفراء ـ قال: وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب ـ قال: تقول سودة: والله إنى لعندهم إذ أتينا، فقيل: هؤلاء الأسارى قد أتى بهم، قالت: فرحت إلى بيتى ورسول الله ﷺ فيه ، وإذا أبو يزيد سهيل بن عمرو فى ناحية الحجرة، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، قالت: فوالله ماملكت نفسى حين رأيت أبا يزيد كذلك أن قلت: يا أبا يزيد، أعطيتم بأيديكم، الا متّم كرامًا! فوالله ما أنبهنى إلا قول رسول الله ﷺ من البيت: ياسودة أعلى الله وعلى رسوله؟! قلت: يارسول الله! والذى بعثك بالحق ماملكتُ نفسى حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه بحبل أن قلت ماقلت.

وعن محمد بن إسحاق، قال: حدثنى نبيه بن وهبة، أخو بنى عبد الدار، أن رسول الله ﷺ حين أقبل بالأسارى فرقهم فى أصحابه، وقال: استوصوا بالأسارى خيراً.

وكان أول من قدم مكة بمصاب قريش الحيسمان بن عبد الله بن إياس بن ضبيعة. . . الخزاعى ـ قالوا: ما وراءك؟ قال: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم بن هشام، وأمية بن خلف، وزمعة بن الأسود، وأبو البخترى بن هشام، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج. قال: فلما جعل يعدد أشراف قريش، قال صفوان بن أمية وهو قاعد فى الحجر: والله إن يعقل هذا فسلوه عنّى، قالوا: مافعل صفوان بن أمية؟ قال: هو ذاك جالسًا فى الحجر، وقد ـ والله ـ رأيت أباه وأخاه حين قتلا.

قال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ: كنت غلامًا للعباس بن عبد المطلب، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت، وأسلمت أم الفضل وأسلمت، وكان العباس يهاب قومه، ويكره أن يخالفهم، وكان يكتم إسلامه، وكان ذا مال كثير متفرق فى قومه، وكان أبو لهب عدوّ الله قد تخلف عن بدر، وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة وكذلك صنعوا، لم يتخلف رجل إلا بعث مكانه رجلاً، فلما جاء الخبر عن مصاب أصحاب بدر من قريش، كبته الله وأخزاه، ووجدنا فى أنفسنا قوة وعزا.

قال: وكنت رجلاً ضعيفًا، وكنت أعمل القداح، أنحتها فى حجرة زمزم، فوالله إنى لجالس فيها أنحت القداح، وعندى أم الفضل جالسة، وقد سرنا ماجاءنا من الخبر، إذ أقبل الفاسق أبو لهب يجر رجليه بشرّ، حتى جلس على طنب الحجرة ـ أى: طرفها ـ فكان ظهره إلى ظهرى، فبينا هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم. قال: فقال أبو لهب: هلمّ إلىّ يابن أخى، فعندك الخبر. فجلس إليه، والناس قيام عليه، فقال: يابن أخى، أخبرنى؛ كيف كان أمر الناس؟ قال: لاشىء؛ والله إن كان إلاّ أن لقيناهم، فمنحناهم أكتافنا، يقتلوننا ويأسرون كيف شاءوا؛ وايم الله مع ذلك مالمت الناس؛ لقينا رجالاً بيضًا على خيل بلق بين السماء والأرض، ماتليق ـ أى: ماتبقى ـ شيئًا ولايقوم لها شىء. قال أبو رافع: فرفعت طنب الحجرة بيدى، ثم قلت: تلك الملائكة. . فرفع أبو لهب يده فضرب وجهى ضربة شديدة

فثاورته ـ أى: وثبت عليه ـ فاحتملنى، فضرب بى الأرض ثم برك علىّ يضربنى ـ وكنت رجلاً ضعيفًا ـ فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة، فأخذته فضربته به ضربة فشجت فى رأسه شجَّة منكرة وقالت: تستضعفه أن غاب عنه سيده؟ فقام موليا ذليلا، فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله ـ عز وجل ـ بالعدسة ـ هى قرحة قاتلة كالطاعون ـ فقتلته، فلقد تركه ابناه ليلتين أو ثلاثًا ما يدفنانه حتى أنتن فى بيته ـ وكانت قريش تتقى العدسة وعدوتها كما يتقى الناس الطاعون ـ حتى قال لهما رجل من قريش: ويحكما! ألا تستحيان أن أباكما قد أنتن فى بيته لاتغيبانه! فقالا: إنا نخشى هذه القرحة، قال: فانطلقا فأنا معكما، فما غسلوه إلا قذفًا بالماء عليه من بعيد، ما يمسونه، ثم احتملوه فدفنوه بأعلى مكة إلى جدار، وقذفوا عليه الحجارة حتى واروه.

عن عبد الله بن عباس، قال: لمّاً أمسى القوم من يوم بدْر، والأسارى محبوسون فى الوثائق، بات رسول الله ﷺ ساهرا أول ليلة، فقال له أصحابه: يارسول الله، مالك لاتنام؟ فقال: سمعت تضور العبَّاس فى وثاقه، قال: فقاموا إلى العبّاس فأطلقوه، فنام رسول الله ﷺ.

وكان الذى أسر العباس أبو اليسر كعب بن عمرو أخو بنى سلمة، وكان أبو اليسر رجلاً مجموعًا، وكان العباس رجلاً جسيمًا، فقال رسول الله ﷺ لأبى اليسر: كيف أسرت العباس يا أبا اليسر؟ فقال: يارسول الله؛ لقد أعاننى عليه رجل مارأيته قبل ذلك ولابعده؛ هيئته كذا وكذا. قال رسول الله ﷺ: لقد أعانك عليه ملك كريم.

وعن عبّاد، قال: ناحتْ قريش على قتلاهم، ثم قالوا: لاتفعلوا فيبلغ ذلك محمدًا وأصحابه، فيشمت بكم، ولاتبعثوا فى فداء أسراكم حتى تستأنوا بهم ـ أى: تؤخروا فداءهم ـ لايتأرب عليكم ـ أى: لايتأبى ويتشدد ـ محمد وأصحابه فى الفداء.

وكان الأسود بن عبد المطلب قد أصيب له ثلاثة من ولده: زمعة بن الأسود؛ وعقيل بن الأسود؛ والحارث بن الأسود، وكان يحب أن يبكى على بنيه،

فبينا هو كذلك، إذ سمع نائحة في الليل، فقال لغلام له وقد ذهب بصره: انظر هل أحل النحب؟ هل بكت قريش على قتلاها؟ لعلى أبكى على أبى حكيمة - يعنى زمعة - فإن جوفى قد احترق! قال: فلما رجع إليه الغلام، قال: إنما هى امرأة تبكى على بعير لها أضلته.

وكان فى الأسارى أبو وداعة بن ضبيرة السهمى، فقال رسول الله ﷺ: إن له ابنًا تاجرًا كيسًا ذا مال؛ وكأنكم به قد جاءكم فى فداء أبيه! قال: فلمّا قالت قريش: لاتعجلوا فى فداء أسرائكم لايتأرب عليكم محمد وأصحابه، قال المطلب ابن أبى وداعة - وهو الذى كان رسول الله ﷺ عنى -: صدقتم لاتعجلوا بفداء أُسرائكم. ثم انسلّ من الليل، فقدم المدينة، فأخذ أباه بأربعة آلاف درهم، ثم انطلق به، ثم بعثت قريش فى فداء الأسارى، فقدم مكرز بن حفص بن الأحنف فى فداء سهيل بن عمرو، وكان الذى أسره مالك بن الدخشم، أخو بنى سالم ابن عوف، وكان سهيل بن عمرو أعلم - مشقوق الشفة العليا - من شفته السفلى.

عن محمد بن عمرو، قال: قال عمر بن الخطاب لرسول الله ﷺ: يارسول الله انتزع ثنيتى سهيل بن عمرو السفليين يدلع لسانه - أى: يخرج - فلا يقوم عليك خطيبًا فى موطن أبدًا. فقال رسول الله ﷺ: لا أمثِّلُ به فيمثل الله بى؛ وإن كنت نبيًّا.

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال للعباس بن عبد المطلب حين انتهى به إلى المدينة: ياعبَّاس، افد نفسك وابنى أخيك عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث، وحليفك عُتبة بن عمرو، أخا بنى الحارث بن فهر، فإنك ذو مال. فقال: يارسول الله، إنى كنت مسلمًا، ولكن القوم استكرهونى، فقال: الله أعلم بإسلامك؛ إن يكن ماتذكر حقا فالله يجزيك به، فأمّا ظاهر أمرك فقد كان علينا، فافد نفسك، وكان رسول الله ﷺ قد أخذ منه عشرين أوقيّة من ذهب، فقال العباس: يارسول الله احسبها لى فى فدائى، قال: لا؛ ذاك شىء أعطاناه

الله ـ عز وجل ـ منك. قال: فإنه ليس لى مال. قال: فأين المالك الذى وضعته بمكة حين خرجت من عند أم الفضل بنت الحارث، ليس معكما أحد. ثم قلت لها: إن أصبت فى سفرى هذا فللفضل كذا وكذا، ولعبد الله كذا وكذا، ولقثم كذا وكذا، ولعبيد الله كذا وكذا! قال: والذى بعثك بالحق ماعلم هذا أحد غيرى وغيرها؛ وإنى لأعلم أنك رسول الله، ففدى العباس نفسه وابنى أخيه وحليفه.

وكان عمرو بن أبى سفيان بن حرب أسيرًا فى يدى رسول الله ﷺ من أسارى بدر، فقيل لأبى سفيان: افد عمرًا، قال: أيجمع علىّ دمى ومالى! قتلوا حنظلة ـ وأفدى عمرًا؟! دعوه فى أيديهم يمسكوه مابدا لهم. قال: فبينا هو كذلك محبوس عند رسول الله ﷺ خرج سعد بن النعمان بن أكّال ـ أخو بنى عمرو بن عوف، ثم أحد بنى معاوية ـ معتمرًا، ومعه مرية له ـ تصغير امرأة ـ وكان شيخًا كبيرًا مسلمًا فى غنم له بالنقيع ـ موضع قرب المدينة. أما البقيع فهو داخلها ـ فخرج من هنالك معتمرًا، ولايخشى الذى صنع به؛ لم يظن أنه يحبس بمكة؛ إنما جاء معتمرًا؛ وقد عهد قريشا لاتعترض لأحد حاجًا أو معتمرًا إلا بخير، فعدا عليه أبو سفيان بن حرب، فحبسه بمكة بابنه عمرو بن أبى سفيان، ثم قال:

أرهط ابن أكّال أجيبوا دعاءه تعاقدتم لاتسلموا السيد الكهلا
فإنّ بنى عمرو لئامٌ أذلةٌ لئن لم يفكوا عن أسيرهم الكبلا

فمشى بنو عمرو بن عوف إلى رسول الله ﷺ فأخبروه خبره، وسألوه أن يعطيهم عمرو بن أبى سفيان فيفكوا شيخهم، ففعل رسول الله ﷺ فبعثوا به إلى أبى سفيان، فخلى سبيل سعد.

وكان فى الأسارى أبو العاص بن الربيع، عبد العُزّى ختن رسول الله ﷺ زوج ابنته زينب، وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين مالاً وأمانة وتجارة، وكان لهالة بنت خويلد وكانت خديجة خالته، فسألت خديجة رسول الله ﷺ أن

يزوجه؛ وكان رسول الله ﷺ لايخالفها؛ وذلك قبل أن ينزل عليه، فزوجه؛ فكانت تعدّه بمنزلة ولدها؛ فلما أكرم الله ـ عز وجل ـ رسوله بنبوته آمنت به خديجة وبناته، فصدقنه وشهدن أن ماجاء به هو الحق؛ ودنّ بدينه؛ وثبت أبو العاص على شركه. وكان رسول الله ﷺ قد زوّج عتبة بن أبى لهب إحدى ابنتيه رقيّة أو أمّ كُلثوم؛ فلما بادى قريشًا بأمر الله ـ عز وجل ـ وباعدوه، قالوا: إنكم قد فرغتم محمدا من همّه، فردوا عليه بناته، فاشغلوه بهنّ، فمشوا إلى أبى العاص بن الربيع، فقالوا له: فارق صاحبتك؛ ونحن نزوجك أى امرأة شئت من قريش، قال: لاها الله إذًا؛ لا أفارق صاحبتى وما أحبّ أنّ لى بامرأتى امرأة من قريش؛ وكان رسول الله ﷺ يثنى عليه فى صهره خيراً.

ثم مشوا إلى عتبة بن أبى لهب، فقالوا له: طلق ابنة محمد ونحن نزوّجك أى امرأة من قريش شئت؛ فقال: إن زوّجتمونى ابنة أبان بن سعيد بن العاص، أو ابنة سعيد بن العاص فارقتُها. فزوجوه ابنة سعيد بن العاص وفارقها، ولم يكن عدو الله دخل بها، فأخرجها الله من يده كرامة لها، وهوانًا له؛ فخلف عليها عثمان بن عفّان بعده؛ وكان رسول الله ﷺ لا يحلّ بمكة ولا يَحْرِم مغلوبًا على أمره، وكان الإسلام قد فرّق بين زينب بنت رسول الله ﷺ حين أسلمت وبين أبى العاص بن الربيع، إلاّ أن رسول الله ﷺ كان لايقدر على أن يفرق بينهما؛ فأقامت معه على إسلامها وهو على شركه؛ حتى هاجر رسول الله ﷺ فلمّا سارت قريش إلى بدر كان فيهم أبو العاص بن الربيع، فأصيب فى الأسارى يوم بدر، وكان بالمدينة عند رسول الله ﷺ.

عن عائشة زوج النبى ﷺ قالت: لما بعث أهل مكة فى فداء أسرائهم؛ بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ فى فداء أبى العاص بن الربيع بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبى العاص حين بنى بها. فلما رآها رسول الله ﷺ رقّ لها رقّةً شديدة، وقال: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردُّوا عليها الذى لها فافعلوا! فقالوا: نعم يارسول الله، فأطلقوه وردُّوا عليها الذى لها. وكان رسول الله ﷺ قد أخذ عليه ـ أو وعد ـ رسول الله، ﷺ أن يخلى سبيل

زينب إليه، أو كان فيما شرط عليه فى إطلاقه؛ ولم يظهر ذلك منه ولامن رسول الله ﷺ فيعلم ماهو! إلا أنه لما خرج أبو العاص إلى مكة وخلّى سبيله، بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار مكانه، فقال: كونا ببطن يأجج؛ حتى تمرّ بكما زينت فتصحباها، حتى تأتيانى بها، فخرجا مكانهما؛ وذلك بعد بدر بشهر أو شيْعه - أى: قريب منه - فلمّا قدم أبو العاص مكّة أمرها باللحوق بأبيها، فخرجت تجهّز.

وحدثت زينب فقالت: بينا أنا أتجهّز بمكّة للحوق بأبى، لقيتنى هندْ بنت عتبة، فقالت: أى ابنة محمد؛ ألم يَبْلُغْنى أنّك تريدين اللحوق بأبيك؟! قالت: فقلت: ما أردت ذلك، قالت: أى ابنة عمى، لا تفعلى، إن كانت لك حاجة بمتاع مما يرفُق بك فى سفرك، أو بمال تبلغين به إلى أبيك، فإن عندى حاجتك فلا تضْطَنى منى - لا تستحى -، فإنه لا يدخل بين النساء ما يدخل بين الرجال - قالت: ووالله ما أراها قالت ذلك إلاّ لتفعل. قالت: ولكنّى خفتُها، فأنكرتُ أن أكون أريد ذلك، وتجهّزت.

فلما فرغت ابنة رسول الله ﷺ من جهازها قدّم لها حمُوها كنانة بن الربيع أخو زوجها بعيرًا فركبته، وأخذ قوسه وكنانته، ثم خرج بها نهارًا يقود بها، وهى فى هوْدج لها. وتحدّث بذلك رجال قريش، فخرجوا فى طلبها حتى أدركوها بذى طوًى، فكان أوّل مَنْ سبق إليها - هبّار بن الأسود بن المطلّب ونافع بن عبد القيس والفهرى. فروّعها هبّار بالرمح وهى فى هودجها - وكانت المرأة حاملا؛ فيما يزعمون - فلمّا رجَعتْ طرحت ذا بطنها، وبرك حَمُوها، ونثر كنانته، ثم قال: والله لايدنو منى رجلٌ إلاّ وضعت فيه سهمًا، فتكركر النَّاس عنه - أى: رجعوا وانصرفوا - وأتاه أبو سفيان فى جلّة قريش، فقال: أيهّـا الرجل، كفّ عنا نبلك حتى نكلمك، فكفّ.

فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه، فقاَل: إنك لم تُصِبْ، خَرَجْتَ بالمرأة على رءوس الرجال علانية، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد،

فيظن الناس إذا خُرج بابنته علانية من بين أظهرنا أن ذلك عن ذلٍّ أصابنا عن مصيبتنا ونكبتنا التى كانت، وأنَّ ذلك منّا ضعف ووهَنٌ؛ لَعَمْرى مالنا حاجة فى حبسها عن أبيها، ومالنا فى ذلك من ثؤرة - أى: طلب الثأر - ولكن أرجع المرأة، فإذا هدأ الصوت، وتحدّث النَّاس أنا قد رددناها - فسُلَّها سرًّا فألحِقْها بأبيها. ففعل، حتى إذا هدأ الصوت خرج بها ليلاً، حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحِبه، فقدما بها على رسول الله ﷺ.

فأقام أبو العاص بمكة، وأقامت زينبُ عند رسول الله ﷺ بالمدينة قد فرّق بينهما الإسلام، حتى إذا كان قبيْل الفتح خرج تاجرًا إلى الشام - وكان رجلاً مأمونًا - بمال له، وأموال رجال من قريش أبضعوها معه - فلما فرغ من تجارته، وأقبل قافلاً؛ لقيته سريَّة لرسول الله ﷺ فأصابوا ما معه، وأعجزهم هربًا، فلما قدمت السّريّة بما أصابوا من ماله، أقبل أبو العاص تحت الليل، حتى دخل على زينب بنت رسول الله ﷺ فاستجار بها، فأجارته فى طلب ماله، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الصبح - فكبَّر وكبر الناس معه، صرخت زينب من صُفَّة - سقيفة - النساء: أيها الناس، إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع. فلمّا سلّم رسول الله ﷺ من الصلاة، أقبل على الناس، فقال: أيها الناس، هل سمعتم ماسمعت! قالوا: نعم، قال: أما والذى نفس محمد بيده، ما علمت بشىء كان حتى سمعت منه ما سمعتم، إنه يجير على المسلمين أدناهم. ثم انصرف رسول الله ﷺ فدخل على ابنته، فقال: أى بنيّة أكرمى مثواه ولا يخلُصْ إليك، فإنك لا تحلّين له.

وبعث رسول الله ﷺ إلى السريَّة الذين أصابوا مال أبى العاص. فقال لهم: إن هذا الرجل منّا حيث قد علمتم، وقد أصَبْتُم له مالاً، فإن تحسنوا تردّوا عليه الذى له، فإنا نحبّ ذلك؛ وإن أبيتم فهو فَىْءُ الله الذى أفاءه عليكم؛ فأنتم أحق به. قالوا: يارسول الله، بل نردّه عليه. فردّوا عليه ماله حتى إن الرجل ليأتى بالحبْل - الدلو - ويأتى الرجل بالشَّنة - السِّقاء البالى - والإداوة - إناء صغير جلدى - حتى إنّ أحدهم ليأتى بالشظاظ - خشبة عقفاء - حتى ردّوا إليه ماله

بأسره، لايفقد منه شيئًا، ثم احتمل إلى مكّة، فأدّى إلى كلّ ذى مال من قريش ماله ممن كان أبْضَع معه، ثم قال: يامعشر قريش؛ هل بَقى لأحد منكم عندى مال لم يأخذه؟ قالوا: لا، فجزاك الله خيرًا، فقد وجدناك وفيًّـا كريمًا، قال: فإنى أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمدًا عبده ورسوله؛ والله ما منعنى من الإسلام عنده إلاّ تخوّف أن تظنّوا أنى إنما أردت أكلَ أموالكم، فلمّا أدّاها الله إليكم وفرغْتُ منها أسلمت. ثم خرج حتى قدم على رسول الله ﷺ.

عن عبد الله بن عباس، قال: ردّ عليه رسولُ الله ﷺ زينب بالنكاح الأول، ولم يُحدِث شيئًا بعد ستّ سنين.

عن عروة بن الزبير، قال: جلس عُمير بن وهب الجُمَحِىُّ مع صفوان بن أميّة بعد مصاب أهل بدْر من قريش بيسير فى الحجر - وكان عمير بن وهب شيطانًا من شياطين قريش، وكان ممن يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلمَّ وأصحابه، ويلْقَوْن منه عناء وهم بمكَّة، وكان ابنه وهب بن عمير فى أسارى بدْر - فذكر أصحاب القَليب ومصابهم، فقال صفوان: والله إنْ فى العيش خير بعدهم، فقال عمير: صدقت والله! أما والله لولا ديْن علىّ ليس عندى قضاء وعيالٌ أخشى عليهم الضَّيْعَةَ بعدى، لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإنّ لى قِبَلَهُمْ علَّةً، ابنى أسيرٌ فى أيديهم.

فاغتنمها صفوان بن أمية، فقال: علىّ ديْنكَ أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالى أواسيهم مابقُوا، لا يسَعنى شىء ويعجز عنهم، قال عمير: فاكتُم علىّ شأنى وشأنك، قال: أفعل.

ثم أنّ عميْرًا أمر بسيفه فشُحذ له وسُمّ، ثم انطلق حتى قدم المدينة، فبينا عمر ابن الخطاب فى نفر من المسلمين فى المسجد يتحدثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم الله - عزّ وجلّ - به، وما أراهم فى عَدُوّهم؛ إذ نظر عمر إلى عُمير بن وهب حين أناخ بعيره على باب المسجد، متوشحا السيف، فقال: هذا الكلب عدُوّ الله عمير بن وهب، ماجاء إلاّ لشَرًّ! وهو الذى حرَّش - أفسد - بيننا،

وحَزَرْنا ـ قَدَّرَ عَدَدَنَا ـ للقوم يوم بدر. ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ فقال: يانبيّ الله، هذا عدوُّ الله عُميْر بن وهب قد جاء متوشحًا سيفه. قال: فأدخله عليّ.

فأقبل عُمَر حتى أخذ بحمالة سيفه فى عنقه، فلبّبه بها، وقال لرجال ممَّن كان معه من الأنصار: ادخُلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده، واحذروا هذا الخبيث عليه، فإنه غير مأمون. ثم دخل به على رسول الله ﷺ فلما رآه وعمر آخذ بحمالة سيفه، قال: أرسلْه ياعمر، ادْن ياعُميْر، فدنا ثم قال: أنعموا صباحًا ـ وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم ـ فقَال رسول الله ﷺ: قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك ياعمير، بالسلام تحيّة أهل الجنة، قال: أما والله يامحمد إن كنت لحديث عَهد بها.

قال: وما جاء بك ياعمير؟ قال: جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم، فأحسنوا فيه. قال: فما بال السيف فى عنقك! قال: قبحها الله من سيوف، وهل أغنت شيئا! قال: اصدقْنى بالذى جئت له، قال: ماجئت إلاّ لذلك. فقال: بلىَ، قعدْتَ أنت وصفوان بن أمية فى الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دين علىّ وعيالى لخرجت حتى أقتل محمّدًا، فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك، على أن تقتلنى له. والله ـ عزّ وجلّ ـ حائل بينى وبينك. فقال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كُنَّا يارسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وماينزل عليك من الوحى؛ وهذا أمرٌ لم يحضره إلاّ أنا وصفوان؛ فوالله إنّى لأعلم ما أتاك به إلاّ الله؛ فالحمد لله الذى هدانى للإسلام، وساقنى هذا المساق. ثم تشهَّد شَهادة الحق، فقال رسول الله ﷺ: فقّهوا أخاكم فى دينه، وأقرئوه وعلّموه القرآن، وأطلقوا له أسيره.

ففعلوا، ثم قال: يارسول الله: إنى كنت جاهدًا فى إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله؛ وإنى أحب أن تأذن لى فأقدم مكّة فأدعوهم إلى الله وإلى الإسلام؛ لعلّ الله أن يهديهم! وإلاّ آذيتهم فى دينهم كما كنت أوذى أصحابك فى دينهم.

فأذنَ له رسول الله ﷺ فلحق بمكة، وكان صفوان حين خرج عمير بن وهب يقول لقريش: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام تنسيكم وقعة بدر، وكان صفوان يسأل عنه الركبان؛ حتى قدم راكبٌ فأخبره بإسلامه، فحلف ألاّ يكلمه أبدا ولا ينفعه بنفع أبدا، فلما قدم عمير مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام ويؤذى من خالفه أذى شديدًا، فأسلم على يديه أناس كثير.

فلما انقضى أمر بدر أنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ فيه من القرآن الأنفال بأسرها.

عن عُمر بن الخطاب، قال: لما كان يوم بدر التقوا، فهزم الله المشركين، فقتل منهم سبعون رجلاً، وأسِرَ سبعون رجلاً، فلمّا كان يومئذ شاور رسول الله ﷺ أبَا بكر وعليًّا وعمر، فقال أبو بكر: يانبى الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان؛ فإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذنا منهم قوّة، وعسَى الله أن يهديهم، فيكونوا لنا عضدًا. فقال رسول الله ﷺ: ماترى يابن الخطاب؟ قال: قلت: لا والله، ما أرى الذى رأى أبو بكر، ولكنى أرى أن تمكننى من فلان فأضرب عنقه، وتمكّن حمزة من أخ له فيضرب عنقه، وتمكّن عليًّا من عقيل فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أن ليس فى قلوبنا هوادة للكفّار؛ هؤلاء صناديدهم وقادتهم وأئمتهم.

قال: فهوِىَ رسول الله ﷺ ماقال أبو بكر، ولم يهْوَ ماقلتُ أنا، فأخذ منهم الفداء، فلما كان الغد قال عمر: غدوت إلى النبى ﷺ وهو قاعد وأبو بكر، وإذا هما يبكيان، قال: قلت: يارسول الله أخبرنى ماذا يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد تباكيت لبُكائكما. فقال رسول الله ﷺ للذى عرض علىّ أصحابك من الفداء، لقد عرض على عذابكم أدنى من هذه الشجرة ـ لشجرة قريبة ـ وأنزل الله ـ عزّ وجلّ : ﴿ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾[1]، ثم أحل لهم الغنائم.

---

(١) الأنفال: ٦٧، ٦٨.

فلما كان من العام القابل فى أحد عوقبوا بما صنعوا، قُتل من أصحاب رسول الله ﷺ سبعون، وأسر سبعون، وكسرت رباعيته ﷺ وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، وفر أصحاب النبى ﷺ وصعدوا الجبل، فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ هذه الآية: ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(١).

ونزلت هذه الآية الأخرى: ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً ﴾(٢).

قال محمد بن إسحاق: لما نزلت هذه الآية ـ يعنى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ ﴾، قال رسول الله ﷺ: لو نزل عذاب من السماء لم ينج منه إلا سعد ابن معاذ، لقوله: يانبى الله، كان الإثخان فى القتل أحب إلىّ من استبقاء الرجال.

وكان جميع من شهد بدرًا من المهاجرين، ومن ضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره ثلاثة وثمانين رجلاً فى قول ابن إسحاق.

ورد رسول الله ﷺ يومئذ جماعة استصغرهم ـ فيما زعم الواقدى ـ فمنهم ـ فيما زعم ـ عبد الله بن عمر، ورافع بن خديج، والبراء بن عازب، وزيد بن ثابت، وأسيد بن ظهير، وعمير بن أبى وقاص، ثم أجاز عميرا بعد أن رده فقتل يومئذ.

وكان رسول الله ﷺ قد بعث قبل أن يخرج من المدينة طلحة بن عبد الله بن عبيد الله، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، إلى طريق الشام يتحسسان الأخبار عن العير، ثم رجعا إلى المدينة، فقدماها يوم وقعة بدر، فاستقبلا رسول الله ﷺ بتربان؛ وهو منحدر من بدر يريد المدينة.

(١) آل عمران: ١٦٥.

(٢) آل عمران: ١٥٣، ١٥٤.

قال الواقدى: كان خروج رسول الله ﷺ من المدينة فى ثلثمائة رجل وخمسة، وكان المهاجرون أربعة وسبعين رجلاً، وسائرهم من الأنصار، وضرب لثمانية بأجورهم وسهامهم: ثلاثة من المهاجرين، أحدهم عثمان بن عفان كان تخلف على ابنة رسول الله ﷺ حتى ماتت، وطلحة بن عبيد الله وسعيد ابن زيد، كان بعثهما يتحسسان الخبر عن العير، وخمسة من الأنصار: أبو لبابة بشير بن عبد المنذر، خلفه على المدينة، وعاصم بن عدى بن العجلان؛ خلفه على العالية، والحارث بن حاطب؛ رده من الروحاء إلى بنى عمرو بن عوف لشىء بلغه عنهم، والحارث بن الصمة، كسر بالروحاء، وهو من بنى مالك بن النجار، وخوات بن جبير كسر من بنى عمرو بن عوف. قال: وكانت الإبل سبعين بعيراً، والخيل فرسين: فرس للمقداد بن عمرو، وفرس لمرثد بن أبى مرثد.

عن أبى هريرة، قال: ورئى رسول الله ﷺ فى أثر المشركين يوم بدر مصلتًا السيف، يتلو هذه الآية: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾[1].

قال: وفى غزوة بدر انتفل رسول الله ﷺ سيفه ذا الفقار، وكان لمنبه بن الحجاج.

قال: وفيها غنم جمل أبى جهل؛ وكان مَهْرِيًّا يغزو عليه ويضرب فى لقاحه.

ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة، منصرفه من بدر، وكان قد وادع حين قدم المدينة يهودها؛ على أن لا يعينوا عليه أحدًا؛ وأنه إن دهمه بها عدو نصروه. فلما قتل رسول الله ﷺ من قتل ببدر من مشركى قريش، أظهروا له الحسد والبغى، وقالوا: لم يلق محمدٌ من يحسنُ القتال؛ ولو لقينا لاقى عندنا قتالا لايشبهه قتال أحد؛ وأظهروا نقض العهد.

---

(١) القمر : ٤٥.

غزوة بنى قينقاع

عن محمد بن إسحاق، قال: كان من أمر بنى قينقاع، أن رسول الله ﷺ جمعهم بسوق قينقاع، ثم قال: يامعشر اليهود، احذروا من الله - عزّ وجلّ - مثل مانزل بقريش من النقمة، وأسلموا؛ فإنكم قد عرفتم أنى نبى مرسل، تجدون ذلك فى كتابكم؛ وفى عهد الله إليكم. قالوا: يامحمد؛ إنك ترى أنا كقومك! لا يغرنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربتنا لتعلمن أنا نحن الناس.

وعن عاصم بن عمر بن قتادة، أن بنى قينقاع كانوا أول يهود نقضوا مابينهم وبين رسول الله ﷺ وحاربوا فيما بين بدر وأحد.

وعن الزهرى، أن عزوة رسول الله ﷺ بنى القينقاع كانت فى شوال من السنة الثانية من الهجرة.

وعن الزهرى، أن غزوة رسول الله ﷺ بنى القينقاع كانت فى شوال من السنة الثانية من الهجرة.

وعن عروة، قال: نزل جبريل على رسول الله ﷺ بهذه الآية: ﴿ **وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ** ﴾[1] ، فلما فرغ جبريل - عليه السلام - من هذه الآية، قال رسول الله ﷺ: إنى أخاف من بنى قينقـاع، قال عروة: فسار إليهم رسول الله ﷺ بهذه الآية، وحاصرهم خمس عشرة ليلة لايطلع منهم أحد. ثم نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فكتفوا وهو يريد قتلهم، فكلمه فيهم عبد الله بن أبى بن سلول حين أمكنه الله منهم، فقال: يامحمد، أحسن فى موالى - وكانوا حلفاء الخزرج - فأبطـأ عليه النبى ﷺ فقال: يامحمد، أحسن فى موالى، فأعرض عنه النبى ﷺ قال: فأدخل يده فى جيب رسول الله ﷺ

---

(١) الأنفال : ٥٨.

فقال رسول الله ﷺ: أرسلني، وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا فى وجهه ظلالاً - يعنى تلوّنا - ثم قال: ويحك أرسلنى! قال: لا والله لا أرسلك حتى تحسنَ إلى موالى. أربعمائة حاسرٍ وثلثمائة دارع قد منعونى من الأسود والأحمر، تحصدهم فى غداة واحدة؟ وإنى والله لا آمن وأخشى الدوائر. فقال رسول الله ﷺ: هُمْ لك.

وعن ابن قتادة، قال: فقال النبى ﷺ: خلوهم لعنهم الله ولعنه معهم! فأرسلوهم. ثم أمر بإجلائهم، وغنم الله - عزّ وجلّ - رسوله والمسلمين ماكان لهم من مال - ولم تكن لهم أرضون؛ إنما كانوا صاغة - فأخذ رسول الله ﷺ لهم سلاحًا كثيرًا وآلة صياغتهم؛ وكان الذى ولى إخراجهم من المدينة بذراريهم عبادة بن الصامت، فمضى بهم حتى بلغ بهم دباب؛ وهو يقول: الشرف الأبعد الأقصى فالأقصى! وكان رسول الله ﷺ استخلف على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر.

قال أبو جعفر: وفيها كان أول خمس خمسه رسول الله ﷺ فى الإسلام؛ فأخذ رسول الله ﷺ صفيه - أى: سهم الرئيس من الغنيمة - والخمس وسهمه، وفضّ - أى: قسم - أربعة أخماس على أصحابه، فكان أول خمس قبضه رسول الله ﷺ ، وكان لواء رسول الله ﷺ يوم بنى قينقاع لواءً أبيض، مع حمزة بن عبد المطلب، ولم تكن يومئذ رايات، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة، وحضرت الأضحى؛ فذكر أن رسول الله ﷺ ضحى وأهل اليسر من أصحابه يوم العاشر من ذى الحجة، وخرج بالناس إلى المصلى فصلى بهم، فذلك أول صلاة صلى رسول الله ﷺ بالناس بالمدينة بالمصلى فى عيد، وذبح فيه بالمصلى بيده شاتين، وقيل: ذبح شاة.

وعن جابر بن عبد الله، قال: لما رجعنا من بنى قينقاع ضحينا فى ذى الحجة صبيحة عشر، وكان أول أضحى رآه المسلمون، وذبحنا فى بنى سلمة فعدت فى بنى سلمة سبع عشرة أضحية.

أما ابن إسحاق فلم يوقت لغزوة رسول الله ﷺ التي غزاها بني قينقاع وقتًا، غير أنه قال: كان ذلك بين غزوة السويق وخروج النبي ﷺ من المدينة يريد غزو قريشٍ، حتى بلغ بني سليم وبحران، معدنا بالحجاز من ناحية الفرع.

وأما بعضهم، فإنه قال: كان بين غزوة رسول الله ﷺ بدرًا الأولى وغزوة بني قينقاع ثلاث غزوات وسريَّة أسراها. وزعم أن النبي ﷺ إنما غزاهم لتسع ليال خلون من صفر من سنة ثلاث من الهجرة، وأن رسول الله ﷺ غزا بعدما انصرف من بدر، وكان رجوعه إلى المدينة يوم الأربعاء لثماني ليالٍ بقين من رمضان، وأنه أقام بها بقية رمضان. ثم غزا قرقرة الكدرحين بلغه اجتماع بني سليم وغطفان؛ فخرج من المدينة يوم الجمعة بعدما ارتفعت الشمس، غُرَّة شوَّال من السنة الثانية من الهجرة إليها.

أما ابن إسحاق، فقال: لما قدم رسول الله ﷺ من بدر إلى المدينة، وكان فراغه من بدر في عقب رمضان ـ أو في أول شوال ـ لم يقم بالمدينة إلا سبع ليالٍ؛ حتى غزا بنفسه يريد بني سليم، حتى بلغ ماء من مياههم يقال له الكدر، فأقام عليه ثلاث ليال، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدًا، فأقام بها بقية شوال وذا القعدة، وفدى في إقامته تلك جل الأسارى من قريش.

وقال بعضهم: لما رجع النبي ﷺ من غزوة الكدر إلى المدينة، وقد ساق النعم والرِّعاء ولم يلق كيدًا. وكان قدومه منها ـ فيما زعم ـ لعشر خلون من شوال ـ بعث غالب بن عبد الله الليثي يوم الأحد لعشر ليالٍ مضين من شوال إلى بني سليم وغطفان في سرية، فقتلوا فيهم، وأخذوا النعم، وانصرفوا إلى المدينة بالغنيمة يوم السبت، لأربع عشرة ليلة بقين من شوال، واستشهد من المسلمين ثلاثة نفر، وإن رسول الله ﷺ أقام بالمدينة إلى ذي الحجة، وإن رسول الله ﷺ غزا يوم الأحد لسبع ليالٍ بقين من ذي الحجة غزوة السويق.

غزوة السّويق

لما رجع رسول الله ﷺ من غزوة الكُدْر إلى المدينة، أقام بها بقية شوال من سنة اثنتين من الهجرة، وذا القعدة. ثم غزا أبو سفيان بن حرب غزوة السويق في ذى الحجة. قال: وولى تلك الحجة المشركون من تلك السنة.

وعن عبيد الله بن كعب بن مالك ـ وكان من أعلم الأنصار ـ قال: كان أبو سفيان بن حرب حين رجع إلى مكة، ورجع فَلُّ[1] قريش إلى مكة من بدر، نذرألا يمسّ رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً. فخرج فى مائتى راكب من قريش، ليبر يمينه، فسلك النجدية حتى نزل بصدور قناة إلى جبل يقال له تَيْت، من المدينة على بريد أو نحوه. ثم خرج الليل حتى أتى بنى النضير تحت الليل، فأتل حيىّ بن أخطب، فضرب عليه بابه فأبى أن يفتح له وخافه، فأبى فانصرف إلى سلام بن مشكم ـ وكان سيد النضير فى زمانه ذلك، وصاحب كنزهم ـ ماكانوا يجمعونه من أموال يحفظونها للطوارئ ـ فاستأذن عليه فأذن له فقراه وسقاه، وبطن له ـ أعلمه سره ـ خبر الناس، ثم خرج فى عقب ليلته؛ حتى جاء أصحابه، فبعث رجالا من قريش إلى المدينة، فأتوا ناحية منها يقال لها العريض، فحرقوا فى أصوار ـ نخل مجتمعة ـ من نخل لها، ووجدوا رجلاً من الأنصار وحليفا له فى حرث لهما فقتلوهما ثم انصرفوا راجعين؛ ونذر بهم الناس، فخرج رسول الله ﷺ فى طلبهم، حتى بلغ قرقرة الكدر ثم انصرف راجعًا، وقد فاته أبو سفيان وأصحابه، وقد رأوا من مزاود القوم ماقد طرحوه فى الحرث؛ يتخففون منه للنجاة. فقال المسلمون حين رجع بهم رسول الله ﷺ: أنطمع أن تكون لنا غزوة؟ قال: نعم.

أما الواقدى فزعم أن غزوة السويق كانت فى ذى القعدة من سنة اثنتين من الهجرة.. وقال: خرج رسول الله ﷺ فى مائتى رجل من أصحابه من المهاجرين والأنصار.. غير أنه ذكر من قصة أبى سفيان أنه مر بالعُرَيْض، برجل معه أجير

(١) الفَلُّ: مفرد فلول، وهم القوم المنهزمون.

له يقال له معبد بن عمرو، فقتلهما وحرّق أبياتًا هناك وتبنًا، ورأى أن يمينه قد حلت، وجاء الصريخ إلى النبى ﷺ فاستنفر الناس، فخرجوا فى أثره فأعجزهم. قال: وكان أبوسفيان وأصحابه يلقون جرب الدقيق ويتخففون، وكان ذلك عامة زادهم، فلذلك سميت غزوة السويق.

واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر.

ومات فى هذه السنة - أعنى سنة اثنتين من الهجرة - فى ذى الحجة عثمان بن مظعون، فدفنه رسول الله ﷺ بالبقيع، وجعل عند رأسه حجرًا علامة لقبره.

وقيل: إن الحسن بن علىّ بن أبى طالب - عليه السلام - ولد فى هذه السنة.

أما الواقدى.. فزعم أن ابن أبى سبرة حدثه عن إسحاق بن عبد الله عن أبى جعفر، أن علىّ بن أبى طالب - عليه السلام - بنى بفاطمة - عليها السلام - فى ذى الحجة، على رأس اثنين وعشرين شهرًا. فإن كانت هذه الرواية صحيحة فالقول الأول باطل.

وقيل: إن فى هذه السنة كتب رسول الله ﷺ المعاقل - الديات - فكان معلقًا بسيفه.

ثم دخلت السنة الثالثة من الهجرة

غزوة ذى أمَر

لما رجع رسول الله ﷺ من غزوة السويق، أقام بالمدينة بقية ذى الحجة والمحرم، أو قريبًا منه، ثم غزا نجدًا يريد غطفان؛ وهى غزوة ذى أمر، فأقام بنجد صفرًا كله أو قريبًا من ذلك. ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدًا، فلبث بها شهر ربيع الأول كله إلا قليلا منه.

ثم غزا يريد قريشًا وبنى سُليم، حتى بلغ بحران (معدنًا بالحجاز من ناحية الفُرع) فأقام بها شهر ربيع الآخر وجمادى الأول، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدًا.

خبر كعب بن الأشرف

فى هذه السنة سَرَّى النبى ﷺ سريَّة إلى كعب بن الأشرف، وزعم الواقدى أن النبىَ وجه من وجه إليه فى شهر ربيع الأول من هذه السنة.

عن ابن إسحاق، قال: لما أصيب أصحاب بدر؛ وقدم زيد بن حارثة إلى أهل السافلة، وعبد الله بن رواحة إلى أهل العالية[1]، بشيرين، بعثهما رسول الله ﷺ إلى من بالمدينة من المسلمين بفتح الله - عزّ وجلّ - عليه وقتل من قتل من المشركين، كما حدث صالح بن أبى أمامة بن سهل.. فقال: كلٌّ قد حدثنى بعض حديثه، قال: قال كعب بن الأشرف - وكان رجلاً من طئ، ثم أحد بنى نبهان، وكانت أمه من بنى النضير، فقال حين بلغه الخبر: ويلكم أحقٌّ هذا؟! أترون أن محمدا قتل هؤلاء الذين يسمى هذان الرجلان - يعنى زيد بن حارثة، وعبد الله بن رواحة - وهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خيرٌ من ظهرها.

فلما تَيَقَّنَ عدوّ الله الخبر، خرج حتى قدم مكة، فنزل على المطلب بن أبى وداعة السهمى، وعنده عاتكة بنت أسيد أبى العيص بن.. عبد شمس، فأنزلته وأكرمته؛ وجعل يحرض على رسول الله ﷺ وينشد الأشعار، ويبكى على أصحاب القليب الذين أصيبوا ببدر من قريش. ثم رجع كعب بن الأشرف إلى المدينة، فشبب بأم الفضل بنت الحارث.

ثم شبب بنساء من نساء المسلمين حتى آذاهم، فقال النبى ﷺ: من لى من ابن الأشرف؟ فقال محمد بن مسلمة، أخو بنى عبد الأشهل: أنا لك به يارسول الله، أنا أقتله. قال: فافعل إن قدرت على ذلك، فرجع محمّد بن مسلمة، فمكث ثلاثا لايأكل ولايشرب. إلاّ ما يعلق به نفسه، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فدعاه فقال له: لم تركت الطعام والشراب؟ قال: يارسول الله، قلت قولا

---

(١) العالية: هى ماكان من جهة نجد من المدينة من قُراها وعمائرها إلى تهامة، أما ما كان من دون ذلك من تهامة فهو السافلة.

لا أدرى أفى به أم لا؟ قال: إنما عليك الجهد، قال: يارسول الله، إنه لابد لنا من أن نقول. قال: قولوا مابدا لكم، فأنتم فى حلٍّ من ذلك.

فاجتمع فى قتله محمد بن مسلمة وسلكان بن سلامة بن وقش - وهو أبو نائلة أحدُ بنى عبد الأشهل، وكان أخا كعب من الرضاعة - وعباد بن بشر بن وقش، أحد بنى عبد الأشهل، والحارث بن أوس بن معاذ، أحد بنى عبد الأشهل، وأبو عبس بن جبر، أخو بنى حارثة. ثم قدموا إلى ابن الأشرف قبل أن يأتوه سلكان بن سلامة أبا نائلة، فجاءه فتحدث معه ساعة، وتناشدا شعراً - وكان أبو نائلة يقول الشعر - ثم قال: ويحك يابن الأشرف! إنى قد جئتك لحاجة أريد ذكرها لك، فاكتم عليّ، قال: أفعل، قال: كان قدوم هذا الرجل بلاء علينا عادَتنا العرب ورمونا عن قوسٍ واحدة، وقطعت عنا السبل حتى ضاع العيال، وجهدت الأنفس، وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا! فقال كعب: أنا ابن الأشرف، أما والله لقد كنت أخبرتك يابن سلامة أن الأمر سيصير إلى ماكنت أقول، فقال سلكان: إنى قد أردت أن تبيعنا طعامًا ونرهنك ونوثق لك، وتحسن فى ذلك. قال: ترهنوننى أبناءكم! فقال: لقد أردت أن تفضحنا! إن معى أصحابًا لى على مثل رأيى، وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم، وتحسن فى ذلك، ونرهنك من الحلقة - السلاح كله - مافيه لك وفاء - وأراد سلكان ألا ينكر السلاح إذا جاءوا بها - فقال: إنّ فى الحلقة لوفاء، قال: فرجع سلكان إلى أصحابه، فأخبرهم خبره، وأمرهم أن يأخذوا السلام فينطلقوا فيجتمعوا إليه، فاجتمعوا عند رسول الله ﷺ.

وعن ابن عباس، قال: مشى معهم رسول الله ﷺ إلى بقيع الغَرْقَد، ثم وجههم وقال: انطلقوا على اسم الله، واللهم أعنْهم، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى بيته فى ليلة مقمرة، فأقبلوا حتى انتهوا إلى حصنه، فهتف به أبو نائلة - وكان حديث عهد بعرس - فوثب فى ملحفته - اللباس الذى فوق سائر اللباس - فأخذت امرأته بناحيتها، وقالت: إنك امرؤ محاربٌ؛ وإن صاحب الحرب لاينزل فى مثل هذه الساعة.

قال إنه أبو نائلة، لو وجدنى نائمًا لما أيقظنى، قال: والله إنى لأعرف فى صوته الشر. قال: يقول لها كعب: لو دعى الفتى لطعنة أجاب، فنزل فتحدث معهم ساعة، وتحدثوا معه، ثم قالوا له: هل لك يابن الأشرف، أن تتماشى إلى شعب العجوز - موضع بظاهر المدينة - فنتحدث به بقية ليلتنا هذه! قال: إن شئتم! فخرجوا يتماشون، فمشوا ساعة. ثم إن أبا نائلة شام يده فى فود رأسه، ثم شم يده، فقال: ما رأيت كالليلة طيب عطر قطّ. ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها، حتى اطمأن ثم مشى ساعة، فعاد لمثلها، فأخذ بفودى رأسه، ثم قال: اضربوا عدوّ الله؛ فاختلفت عليه أسيافهم، فلم تُغْنِ شيئا. قال محمدّ بن مسلمة: فذكرت مغوَلاً - السكين التى تكون فى السوط - فى سيفى حين رأيت أسيافنا لاتغنى شيئا، فأخذته، وقد صاح عدوّ الله صيحة لم يبق حولنا حصن إلاّ أوقدت عليه نار. قال: فوضعته فى ثُنْدؤته، ثم تحاملت عليه حتى بلغت عانته، ووقع عدوُّ الله، وقد أصيب الحارث بن أوس بن معاذ بجرح فى رأسه أو رجله، أصابه بعض أسيافنا.

فخرجنا حتى سلكنا على بنى أميّة بن زيد، ثم على بنى قريظة، ثم على بُعاث حتى أسندنا فى حرّة العريض - أى: صعدناها - وقد أبطأ علينا صاحبنا الحارث ابن أوس ونزفه الدم، فوقفنا له ساعة، ثم أتانا يتبع آثارنا. فاحتملناه فجئنا به رسول الله ﷺ آخر الليل وهو قائم يصلى، فسلمنا عليه، فخرج إلينا، فأخبرناه بقتل عدوّ الله، وتفل على جرح صاحبنا، ورجعنا إلى أهلنا، فأصبحنا وقد خافت يهود بوقعتنا بعدوّ الله، فليس بها يهودى إلاّ وهو يخاف على نفسه. فقال رسول الله ﷺ: مَنْ ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه، فوثب محيَّصَة بن مسعود على ابن سُنَيْنَة - رجل من تجار يهود كان يلابسهم ويبايعهم فقتله - وكان حُويصَة ابن مسعود إذ ذاك لم يُسلم - وكان أسن من محيصة - فلما قتله جعل حويّصة يضربه ويقول: أى عدوّ الله! قتلته؟! أما والله لرُبّ شحم فى بطنك من ماله! قال محيّصة! فقلت له: والله لو أمرنى بقتلك من أمرنى بقتله لضربت عنقك. قال: فوالله إن كان لأول إسلام حويصة، وقال: لو أمرك محمد بقتلى لقتلتنى!

قال: نعم والله، لو أمرني بقتلك لضربت عنقك. قال: والله إن دينًا بلغ بك هذا لعجب! فأسلم حويّصَة.

وزعم الواقدى أنهم جاءوا برأس ابن الأشرف إلى رسول الله ﷺ .

كما زعم أن فى ربيع الأول من هذه السنة تزوج عثمان بن عفان أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ وأدخلت عليه فى جمادى الآخرة، وأن فى ربيع الأول من هذه السنة غزا رسول الله ﷺ غزوة أنمار ـ ويقال لها: ذو أمَر.

وقال الواقدىّ: وفيها ولِدَ السائب بن يزيد ابن أخت النَّمِر.

غزوة القَرْدة

وفى جمادى الآخرة من هذه السنة، كانت غزوة القردة، وكان أميرهم زيد بن حارثة، وهى أول سرية خرج فيها زيد بن حارثة أميرًا. والقردة: ماء من مياه نجد.

وكانت قريش قد خافت طريقها التى كانت تسلك إلى الشام حين كان من وقعة بدر ماكان، فسلكوا طريق العراق، فخرج منهم تجار فيهم أبو سفيان بن حرب، ومعه فضة كثيرة؛ وهى عظم تجارتهم، واستأجروا رجلاً من بكر بن وائل يقال له فرات بن حيان، يدلهُم على ذلك الطريق، وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة، فلقيهم على ذلك الماء، فأصاب تلك العير ومافيها، وأعجزه الرجال، فقدم بها على رسول الله ﷺ.

أما الواقدى فزعم أن قريشًا قالت: قد عوّر علينا محمد متجرنا وهو على طريقنا. وقال أبو سفيان وصفوان بن أمية: إن أقمنا بمكة أكلنا رءوس أموالنا. قال أبو زمعة بن الأسود: فأنا أدلكم على رجل يسلك بكم النجدية؛ لو سلكها مغمض العينين لاهتدى. قال صفوان: من هو؟ فحاجتنا إلى الماء قليل؛ إنما نحن شاتون. قال: فرات بن حيّان؛ فدعوه فاستأجراه، فخرج بهم فى الشتاء، فسلك بهم على ذات عرق، ثم خرج بهم على غمرة، وانتهى إلى النبى ﷺ

خبر العير وفيها مال كثير، وآنية من فضة حملها صفوان بن أمية؛ فخرج زيد بن حارثة، فاعترضها، فظفر بالعير، وأفلت أعيانُ القوم؛ فكان الخمس عشرين ألفًا، فأخذه رسول الله ﷺ وقسّم الأربعة الأخماس على السريّة، وأتى بفرات ابن حيان العجلى أسيرًا، فقيل: إن أسلمت لم يقتلك رسول الله ﷺ فلما دعا به رسول الله ﷺ أسلم، فأرسله.

مقتل أبى رافع اليهودىّ

كان سبب قتله أنه كان يظاهر كعب بن الأشرف على رسول الله ﷺ وكان يؤذيه ويبغى عليه، وكان فى حصن له بأرض الحجاز، فبعث رسول الله ﷺ إلى أبى رافع رجالا من الأنصار، وأمّر عليهم عبد الله بن عقبة - أو عبد الله بن عتيك - فلما دنوا منه وقد غربت الشمس، وراح الناس بسرحهم، قال لهم عبد الله بن عقبة: اجلسوا مكانكم، فإنى أنطلق وأتلطف للبواب، لعلى أدخل! قال: فأقبل حتى إذا دنا من الباب، تقنع بثوبه، كأنه يقضى حاجة، وقد دخل الناس، فهتف به البواب: ياعبد الله، إن كنت تريد أن تدخل فادخل، فإنى أريد أن أغلق الباب. قال: فدخلت فكمنت تحت آرىٍّ حمار - محبس الدابة -؛ فلما دخل الناس أغلق الباب، ثم علق الأقاليد على وَدّ - الوتد بلغة تميم - قال: فقمت إلى الأقاليد فأخذتها، ففتحت الباب، وكان أبو رافع يسمر عنده فى علالى، فلمّا ذهب عنه أهل سمره، فصعدت إليه فجعلت كلما فتحت بابًا أغلقته علىّ من داخل. قلت: إن القوم نذروا بى لم يخلصوا إلىّ حتى أقتله. فانتهيت إليه؛ فإذا هو فى بيت مظلم وسط عياله؛ لا أرى أين هو من البيت! قلت: أبا رافع! قال: من هذا؟ فأهويت نحو الصوت، فأضربه ضربة بالسيف، وأنا دهش فما أغنى شيئًا، وصاح؛ فخرجت من البيت ومكثت غير بعيد. ثم دخلت إليه، فقلت: ماهذا الصوت يا أبا رافع؟ قال: لأمك الويل! إن رجلاً فى البيت ضربنى قبل بالسيف. فأضربه وأثخنه ولم أقتله، ثم وضعتُ ضبيب - حدّ - السيف فى بطنه، حتى أخرجته من ظهره، فعرفت أنى قد قتلته، فجعلت أفتح الأبواب بابًا

فبابًا، حتى انتهيت إلى درجة؛ فوضعت رجلى، وأنا أرى أنى انتهيت إلى الأرض فوقعت فى ليلة مقمرة، فانكسرت ساقى، فعصبتها بعمامتى، ثم إنى انطلقت حتى جلست عند الباب فقلت: والله لا أبرح الليلة حتى أعلم: أقتلته أم لا؟ قال: فلما صاح الديك، قام الناعى عليه على السّور، فقال: أنْعَى أبا رافع ربّاح أهل الحجاز!.. فانطلقت إلى أصحابى، فقلت: النجاء! قد قتل الله أبا رافع.

فانتهيت إلى النبى ﷺ فحدثته فقال: ابسط رجلك، فبسطتها، فمسحها فكأنما لم أشتكها قطّ.

لكن الواقدى.. فقد زعم أن هذه السرية التى وجهها رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى أبى رافع سلام بن أبى الحُقيق إنما وجهها إليه فى ذى الحجة من سنة أربع من الهجرة، وأن الذين توجهوا إليه فقتلوه، كانوا أبا قتادة، وعبد الله بن عتيك، ومسعود بن سنان، والأسود بن خزاعى، وعبد الله بن أنيس.

أما ابن إسحاق.. فقد قص قصة هذه السرية بقوله: كان سلام بن أبى الحُقيق ـ وهو أبو رافع ـ ممّن كان حزّب الأحزاب على رسول الله ﷺ وكانت الأوس قبل أحد قتلت كعب بن الأشرف فى عداوته رسول الله ﷺ وتحريضه عليه، فاستأذنت الخزرج رسول الله ﷺ فى قتل سلام بن أبى الحقيق؛ وهو بخيبر، فأذن لهم.

وعن عبد الله بن كعب بن مالك، قال: كان مما صنع الله به لرسوله أن هذين الحيين من الأنصار: الأوس والخزرج.. كانا يتصاولان ـ يتفاخران ـ مع رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ تصاوُل الفحلين، لاتصنع الأوس شيئًا فيه عن رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ غناء ـ كفاية وخير ـ إلا قالت الخزرج: والله لا يذهبون بهذه فضلاً علينا عند رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى الإسلام؛ فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها. وإذا فعلت الخزرج شيئًا، قالت الأوس

مثل ذلك. فلمّا أصابت الأوس كعب بن الأشرف فى عداوته لرسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ قالت الخزرج: لايذهبون بها فضلاً علينا أبدًا. فتذاكروا: من رجل لرسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى العداوة كابن الأشرف! فذكروا ابن أبى الحقيق وهو بخيبر؛ فاستأذنوا رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى قتله، فأذن لهم، فخرج إليه من الخزرج ثم من بنى سلمة خمسة نفر: عبد الله ابن عتيك، ومسعود بن سنان، وعبد الله بن أنيس، وأبو قتادة الحارث بن رِبعى، وخزاعىّ بن الأسود، حليف لهم من أسلمَ، فخرجوا، وأمر عليهم رسول الله ـ علية الصلاة والسلام ـ وعبد الله بن عتيك، ونهاهم أن يقتلوا وليدًا أو امرأة.

واكتملت القصة عند عبد الله بن كعب بقوله على لسان عبد الله بن أنيس: فقدمنا على رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأخبرناه بقتل عدو الله، واختلفنا عنده فى قتله، وكلنا يدّعيه، فقال ﷺ: هاتوا أسيافكم، فجئناه بها فنظر إليها، فقال لسيف عبد الله بن أنيس: هذا قتله أرى فيه أثر الطعام. فقال حسّان بن ثابت وهو يذكر قتل كعب بن الأشرف وسلاّم بن أبى الحقيق:

لله درُّ عصابـــةٍ لاقَـيْـتَـهُـم ... يابن الحُقَيْقِ وأنت يابن الأشرفِ
يَسْرُونَ بالبيض الخفاف إليكم ... مرحًا كأُسْدٍ فـى عريـن مُغْـرِفِ
حتى أتوكـم فـى محـل بلادكم ... فسقوكـم حتفـا ببيـض ذُفَّـفِ
مستبصـرين لنصـر دين نبيِّهـم ... مستضعفين لكـل أمرٍ مجحف

وفى هذه السنة تزوج النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ حفصة بنت عمر فى شعبان، وكانت قبله تحت خُنَيْس بن حذافة السهمى فى الجاهلية، فتوفى عنها.

وفيها كانت غزوة رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ أحدًا؛ وكانت فى شوّال يوم السبت لسبع ليالٍ خلون منه من سنة ثلاث من الهجرة.

غزوة أحد

لما أصيبت قريش يوم بدر من كفار قريش من أصحاب القليب، فرجع فلهم - المنهزمون - إلى مكة، ورجع أبو سفيان بن حرب بعيره، مشى عبد الله بن أبى ربيعة، وعكرمة بن أبى جهل، وصفوان بن أميَّة، فى رجال من قريش ممّن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر؛ فكلموا أبا سفيان بن حرب ومنْ كانت له فى تلك العير من قريش تجارة، فقالوا: يامعشر قريش، إن محمدًا قد وتركم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه؛ لعلنا أن ندرك منه ثأرًا بمن أصيب منَّا، ففعلوا، فاجتمعت قريش لحرب رسول الله - عليه الصلاة والسلام - حين فعل ذلك أبو سفيان وأصحاب العير بأحابيشها - جماعاتها - ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة؛ وكلّ أولئك قد استقووا - يستغيثون - على حرب رسول الله - عليه الصلاة والسلام .

وكان أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحىّ قد منّ عليه رسول الله - عليه الصلاة والسلام - يوم بدر. . وكان فقيرًا ذا بنات، وكان فى الأسارى، فقال: يارسول الله، إنى فقير ذو عيال وحاجة قد عرفتها، فامنن علىّ - صلى الله عليك - فمنّ عليه رسول الله - عليه الصلاة والسلام - فقال صفوان بن أمية: يا أبا عزّة، إنك امرؤٌ شاعرٌ، فأعِنَّا بلسانك فاخرج معنا.

فقال: إنّ محمدًا قد منَّ علىَّ فلا أريد أن أظاهر عليه، فقال: بلى فأعنا بنفسك، فلك الله إن رجعت أن أغنيك، وإن أصبت أن أجعل بناتك مع بناتى يصيبهن ما أصابهنّ من عسر ويسر، فخرج أبو عزّة يسير فى تهامة، ويدعو بنى كنانة، وخرج مسافع بن عبد مناف بن وهب؛ إلى بنى مالك بن كنانة يحرضهم ويدعوهم إلى حرب رسول الله - عليه الصلاة والسلام - ودعا جبير بن مطعم غلامًا له يقال له وحشىّ، كان حبشيًّا يقذف بحربة له قذف الحبشة، قلما يخطئ بها، فقال له: اخرج مع الناس، فإن أنت قتلت عمّ محمد بعمى طعيمة ابن عدىّ فأنت عتيق.

فخرجت قريش بحدّها وجدّها وأحابيشها، ومن معها من بنى كنانة وأهل تهامة، وخرجوا معهم بالظُّعن ـ النساء فى الهودج ـ التماس الحفيظة؛ ولئلا يفرّوا. فخرج أبو سفيان بن حرب ـ وهو قائد النّاس، معه هند بنت عتبة بن ربيعة ـ وخرج عكرمة بن أبى جهل بن هشام بن المغيرة بأم حكيم بنت الحارث ابن هشام بن المغيرة، وخرج الحارث بن هشام بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة، وخرج صفوان بن أميَّة بن خلف ببرزة ـ قال أبو جعفر: وقيل: ببَّرة ـ بنت مسعود بن عمرو بن عمير الثقفية؛ وهى أمّ عبد الله بن صفوان ـ وخرج عمرو بن العاص بن وائل بريطة بنت منبّه بن الحجّاج، وهى أمّ عبد الله بن عمرو بن العاص، وخرج طلحة بن أبى طلحة، وأبو طلحة عبد الله بن عبد العُزّى بن عبد الدار بسلافة بنت سعد بن شهيد ـ وهى أم بنى طلحة مسافع والجُلاس وكلاب؛ قتلوا يومئذ وأبوهم ـ وخرجت خناس بنت مالك بن المضرب إحدى نساء بنى مالك بن حِسْل، مع ابنها أبى عزيز بن عمير؛ وهى أمّ مصعب ابن عمير، وخرجت عمرة بنت علقمة إحدى نساء بنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة، وكانت هند بنت عُتْبة بن ربيعة كلما مرت بوحشىّ أو مرّ بها قالت: إيهٍ أبا دسمة ! اشف واشتفِ ـ وكان وحشىّ يكنى أبا دَسمة. فأقبلوا حتى نزلوا بعَينين بجبل ببطن السبخة؛ من قناة على شفير الوادى ممَّا يلى المدينة.

فلمّا سمع بهم رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ والمسلمون قد نزلوا حيث نزلوا، قال رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ للمسلمين: إنى قد رأيت بقرًا فأوّلتها خيرًا، ورأيت فى ذباب سيفى ثلمًا، ورأيت أنّى أدخلت يدى فى درع حَصينة فأوّلتها المدينة؛ فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا؛ فإن أقاموا أقاموا بشرّ مقام؛ وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها. ونزلت قريش منزلها من أحد يوم الأربعاء.

فأقاموا به ذلك اليوم ويوم الخميس ويوم الجمعة. وراح رسول الله ﷺ حين صلى الجمعة، فأصبح بالشِّعب من أحُد. فالتقوا يوم السبت للنصف من شوال؛ وكان رأى عبد الله بن أبى بن سلول مع رأى رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ

يرى رأى رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى ذلك: ألا يخرج إليهم؛ وكان رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ يكره الخروج من المدينة، فقال رجال من المسلمين ممن أكرم الله بالشهادة يوم أحُد وغيرهم ممَّن كان فاته بدر وحضوره: يا رسول الله، اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنّا جَبُنا عنهم وضعفنا، فقال عبد الله بن أبى بن سلول: يا رسول اللهﷺ، أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدوٍّ لنا قطّ إلاّ أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فدعهم يارسول الله؛ فإن أقاموا أقاموا بشرّ مجلس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا.

فلم يزل الناس برسول الله ﷺ الذين كان من أمرهم حب لقاء القوم، حتى دخل رسول الله ﷺ فلبس لأمته؛ وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة، وقد مات فى ذلك اليوم رجل من الأنصار يقال له مالك بن عمرو، أحد بنى النجار، فصلىَّ عليه رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ثم خرج عليهم، وقد ندم الناس، وقالوا: استكرَهنا رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولم يكن ذلك لنا.

ثم إن رسول الله ﷺ دعا بدرعه فلبسها، فلما رأوه قد لبس السلاح ندموا وقالوا: بئس ماصنعنا! نشير على رسول الله والوحى يأتيه! فقاموا فاعتذروا له، وقالوا: اصنع مارأيت، فإن شئت فاقعد ـ صلى الله عليك ـ فقال رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ما ينبغى لنبىّ إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل؛ فخرج رسول الله فى ألف رجل من أصحابه؛ حتى إذا كانوا بالشوط بين أحُد والمدينة تخاذل عنه عبد الله بن أبى بن سلول بثلث الناس، فقال: أطاعهم فخرج وعصانى، والله ما ندرى علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس! فرجع بمن اتبعه من الناس من قومه من أهل النفاق وأهل الريب، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام أخو بنى سلمة، يقول ياقوم أذكّركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم عندما حضر من عدّوهم! قالوا: لونعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم؛ ولكنَّا لانرى أن

يكون قتال، فلما استعصوا عليه، وأبوا إلا الانصراف عنه، قال: أبعدكم الله أعداء الله! فسيغنى الله عنكم! وحاول أبو جابر السُّلمى أن يدعوهم للثبات، قالوا: مانعلم قتالا؛ ولئن أطعتنا لترجعن معنا؛ وفى هذا قال الله ـ عزّ وجلّ: ﴿ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا ﴾[1].

وبقى رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى سبعمائة، وكان المشركون ثلاثة آلاف، والخيل مائتى فرس، والظعن خمس عشرة امرأة. وكان فى المشركين سبعمائة دارع، وكان فى المسلمين مائة دارع، ولم يكن معهم من الخيْل إلاّ فرسان: فرسٌ لرسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ وفرس لأبى بردة بن نيار الحارثى. فأدلج ـ سار فى آخر الليل ـ رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ من الشيخين حين طلعت الحمراء ـ وهما أطمان، كان يهودى ويهودية أعميان يقومان عليهما، فيتحدثان، فلذلك سميا الشيخين، وهو فى طرف المدينة ـ وعرض رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ المقاتلة بالشيخين بعد المغرب، فأجاز من أجاز، وردّ من ردّ.. وكان فيمن ردّ زيد بن ثابت وابن عمر، وأسيَد بن ظُهير، والبراء بن عازب، وعرابة بن أوس.. وهو الذى قال فيه الشماخ:

رأيت عرابة الأوسى ينمى　　　إلى الخيرات منقطع القرين
إذا ما رايةٌ رفعت لمجد　　　تلقاها عرابة باليمين

كما ردّ أبا سعيد الخُدْرِىّ، وأجاز سمرة بن جندب، و رافع بن خديج، وكان رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد استصغر رافعًا، فقام على خفين له فيهما رقاع، وتطاول على أطراف أصابعه؛ فلما رآه رسول الله ﷺ أجازه وكان دليل النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ حثمة الحارثى.

ومضى رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ حتى سلك فى حرّة بنى حارثة،

---
(١) آل عمران : ١٢٢.

فذبّ فرسٌ بذنبه(١) فأصاب كلاب سيف ـ مسمار فى قائم السيف وفيه ذؤابة لتعلقه بهاـ، فاستله، فقال رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ وكان يحبُّ الفأل ولا يعتاف ـ لصاحب السيف: شِمْ سيفك، فإنى أرى السيوف ستسلُّ اليوم. ثم قال رسول الله لأصحابه: مَنْ رجُلٌ يخرج بنا على القوم من كثب، من طريق لا يمرُّ بنا عليهم؟ فقال أبو حثمة أخو بنى حارثة بن الحارث: أنا يارسول الله، فقدّمه فنفذ به فى حَرّة بنى حارثة وبين أموالهم حتى سلك به فى مال المربع بن قيظى ـ وكان رجلا منافقًا ضرير البصر ـ فلما سمع حسّ رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ومن معه من المسلمين قام يحثى فى وجوههم التراب، ويقول: إن كانت رسول الله؛ فإنى لا أحلُّ لك أن تدخل حائطى؛ وأخذ حفنة من تراب فى يده، ثم قال: لو أعلم أنى لا أصيب بها غيرك يامحمد لضربت بها وجهك. فابتدره القوم ليقتلوه، فقال رسول الله ﷺ: لاتفعلوا؛ فهذا الأعمى البصر الأعمى القلب.

وقد بدر إليه سعد بن زيد أخو بنى عبد الأشهل حين نهى رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ عنه، فضربه بالقوس فى رأسه فشجّه، ومضى رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ على وجهه، حتى نزل الشعب من أحد فى عدوة الوادى إلى الجبل، فجعل ظهره وعسكره إلى أحُد، وقال: لا يقاتلنّ أحد حتى نأمره بالقتال؛ وقد سرّحت قريش الظهْر ـ الإبل ـ والكراع ـ الخيل ـ فى زروع كانت بالصَّمغة ـ موقع قرب أحد ـ من قناة للمسلمين. فقال رجل من المسلمين حين نهى رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن القتال: أترعى زروع بنى قيلة ـ أى: الأوس والخزرج ـ ولَمَّا نضارب! وتعبأ رسول الله ﷺ للقتال فى سبعمائة رجل، وتعبَّأت قريش وهم ثلاثة آلاف رجل؛ ومعهم مائتا فرس قد جنبُوها، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد وعلى ميسرتها عكرمة بن أبى جهل، وأمر رسول الله ﷺ على الرماة عبد الله بن جبير، أخا بنى عمرو بن عوف وهو يومئذ معلم بثياب بيض، والرماة خمسون رجلا، وقال: انضح عنا الخيل ـ أى:

(١) أى حرَّكَ ذيله ليذبَّ به الطير والهوام.

ادفعها ـ بالنبل لايأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا؛ فاثبت مكانك لانؤتين من قبلك، وظاهر رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ بين درعين ـ أى: لبس درعًا فوق درع ـ فلما لقى القوم هزم المشركين ـ كما يقول البراء ـ حتى رأيت النساء قد رفعْن عَن سوقهنّ، وبدت خلاخيلهن، فجعلوا يقولون: الغنيمة الغنيمة! فقال عبد الله: مهـلا، أما علمتم ماعهد إليكم رسـول الله ـ عليـه الصـلاة والسلام ـ فأبوا، فانطلقوا، فلما أتوهم صرف الله وجوههم؛ فأصيب من المسلمين سبعون.

وعن ابن عباس، قال: أقبل أبو سفيان فى ثلاث ليال خلون من شوّال، حتى نزل أحدًا، وخرج النبىّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ فأذن فى الناس فاجتمعوا، وأمر الزبير على الخيل؛ ومعه يومئذ المقداد بن الأسود الكندى، وأعطى رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ اللواء رجلاً من قريش يقال له مصعب بن عمير، وخرج حمـزة بن عبـد المطلـب بالحسَّر ـ الجيـش ـ وبعـث حمـزة بين يديـه، وأقبل خالد بن الوليد على خيل المشركين، ومعه عكرمة بن أبى جهل، فبعث رسول الله ﷺ الزّبير، وقال: استقبل خالد بن الوليد؛ فكن بإزائـه حـتى أوذنك، وأمر بخيل أخرى، فكانوا من جانب آخر، فقال: لا تبرحن حتى أوذنكم، وأقبل أبو سفيان يحمل اللات والعُزّى، فأرسل النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى الزبير أن يحمل، فحمل على خالد بن الوليد، فهزمه الله ومن معه، فقال: ﴿ **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ** ﴾ إلى قوله: ﴿ **مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ** ﴾(١).

وإن الله ـ عزّ وجلّ ـ وَعَدَ المؤمنين أن ينصرهم؛ وأنه معهم. وأن رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعث ناسًا من الناس؛ فكانوا من ورائهم، فقال رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام : كونوا هاهنا، فردُّوا وجه من فرّ منّا، وكونوا حرّاسًا لنا من قبل ظهورنا. . وأن رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ لمّا هزم القوم هو وأصحابه، قال الذين كانوا جُعلوا من ورائهم بعضهم لبعض، ورأوا

(١) آل عمران : ١٥٢.

النساء مصعدات فى الجبل، ورأوا الغنائم: انطلقوا إلى رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فأدركوا الغنيمة قبل أن يسبقونا إليها؛ وقالت طائفة أخرى: بل نطيع رسول الله ﷺ فنثبت مكاننا؛ فذلك قوله لهم: ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا ﴾ الذين أرادوا الغنيمة، ﴿ ومِنكُم مَّن يُرِيد الآخِرَةَ ﴾ الذين قالوا: نطيع رسول الله ونثبت مكاننا، فكان ابن مسعود يقول: ماشعرت أن أحدًا من أصحاب النبى ﷺ كان يريد الدنيا وعرَضها؛ حتى كان يومئذ.

ثم إن طلحة بن عثمان صاحب لواء المشركين قام فقال: يامعشر أصحاب محمد، إنكم تزعمون أن الله يعجّلنا بسيوفكم إلى النار، ويعجّلكم بسيوفنا إلى الجنّة؛ فهل منكم أحدٌ يعجله الله بسيفى إلى الجنة، أو يعجّلنى بسيفه إلى النار؟! فقام إليه علىّ بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ فقال: والذى نفسى بيده لا أفارقك حتى أعجلك بسيفى إلى النار، أو تعجلنى بسيفك إلى الجنة، فضربه علىّ فقطع رجله فسقط، فانكشفت عورته، فقال: أنشدك الله والرحم يابن عم! فتركه، فكبر رسول الله ﷺ وقال لعلىّ: مامنعك أن تجهز عليه؟ قال: إنَّ ابن عمِّى ناشدنى حين انكشفت عورته فاستحييت منه. ثم شدّ الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود على المشركين فهزماهم، وحمل النبىّ ﷺ وأصحابه فهزموا أبا سفيان. فلما رأى ذلك خالد بن الوليد ـ وهو على خيل المشركين ـ حمل، فَرَمَتْهُ الرماة فانقمع ـ أى: اختفى ـ فلمّا نظر الرّماة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه فى جوف عسكر المشركين ينتهبونه؛ بادروا الغنيمة، فقال بعضهم: لانترك أمر رسول الله ﷺ، وانطلق عامّتهم فلحقوا بالعسكر، فلما رأى خالد قلة الرماة صاح فى خيله، ثم حمل فقتل الرّماة، وحمل على أصحاب النبى ﷺ، فلما رأى المشركون أن خيلهم تقاتل، تنادوا فشدوا على المسلمين، فهزموهم وقتلوهم.

قال الزبير: عرض رسول الله ﷺ سيفا فى يده يوم أحُد، فقال: من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فقمت فقلت: أنا يارسول الله. فأعرض عنى، ثم قال: من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فقمت فقلت: أنا يارسول الله. فأعرض عنى، ثم قال:

من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فقال أبو دجانة سماك بن خرشة، فقال: أنا آخذه بحقّه؛ وماحقُّه؟ قال: حقُّه ألا تقتل به مسلمًا، وألا تَفرَّ به عن كافر، فدفعه إليه. وكان إذا أراد القتال أُعلم بعصابة له حمراء يعصبها على رأسه. فقلت: لأنظرن اليوم ما يصنع. فلما أخذ السيف من رسول الله ﷺ أخذ عصابته تلك، فعصب بها رأسه، فجعل لا يرتفع له شيء إلا هتكه وأفراه؛ حتى انتهى إلى نسوة في سفح جبل، معهنّ دُفوف لهنّ؛ فيهن امرأة تقول:

نحـــنُ بنـــات طـــارق إن تقبلوا نعانـــــق

ونبســـــط النمـــارقْ أو تدبــروا نفـــــارق

فــراق غـــير وامـــق

فرفع السيف ليضربها، ثم كف عنها. قلت: كل عملك قد رأيت، أرأيت رفعُك للسيّف عن المرأة بعدما أهويت به عليها؟! فقال: أكرمت سيف رسول الله أن أقتل به امرأة.. ثم جعل يتبختر بين الصفين. فرآه رسول الله ﷺ فقال: إنها لمشية يبغضها الله ـ عزّ وجلّ ـ إلا في هذا الموطن.

وقد أرسل أبو سفيان رسولاً، فقال: يامعشر الأوس والخزرج، خلّوا بيننا وبين ابن عمّنا ننصرف عنكم، فإنه لاحاجة لنا بقتالكم. فردّوه بما يكره.

وكان يقول لأصحاب اللواء من بني عبد الدار يحرضهم بذلك على القتال: يابني عبد الدار، إنكم وليتم لواءنا يوم بدر، فأصابنا مارأيتم؛ وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم؛ إذا زالت زالوا، فإمّا أن تكفونا لواءنا؛ وإما أن تخلّوا بيننا وبينه فسنكفيكموه. فهموا به وتواعدوه، وقالوا: نحن نسلم إليك لواءنا ستعلم غدًا إذا التقينا كيف نصنع؟ وذلك هو الذي أراده أبو سفيان.. فلما التقى الناس، ودنا بعضهم من بعض، قامت هند بنت عتبة في النسوة اللواتي معها، وأخذن الدفوف يضربن خلف الرجال ويحرضنهم، فقالت هند فيما تقول:

وَيْهًا بنى عبد الـــــدار! وَيْهًا حماة الأدبـــــار!

ضـــربًا بكـــل بتّـار

واقتتل الناس حتى حميت الحرب، وقاتل أبو دجانة حتى أمعن فى الناس، وحمزة بن عبد المطلب، وعلىّ بن أبى طالب فى رجال من المسلمين، فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ نصره، وصدقهم وعده، فحسوهم ـ أى: استأصلوهم ـ بالسيوف حتى كشفوهم، وكانت الهزيمة لاشك فيها، حتى مالت الرماة إلى العسكر حين أرادوا النهب، وخلوا ظهورنا للخيل، فأتينا من أدبارنا وصرخ صارخ: ألا إن محمدًا قد قتل! فانكفأنا ـ رجعنا ـ وانكفأ علينا القوم؛ بعد أن أصبنا أصحاب اللواء حتى مايدنو منه أحدٌ من القوم.

وكان اللواء مع صواب ـ غلام لبنى أبى طلحة، حبشى، وكان آخر من أخذه منهم ـ فقاتل حتى قطعت يداه، ثم برك عليه، فأخذ اللواء بصدره وعنقه حتى قتل عليه؛ وهو يقول: اللهم هل أعذرت! ولم يزل اللواء صريعاحتى أخذته عمرة بنت علقمة الحارثية، فرفعته لقريش، فلاثوا به ـ أى: اجتمعوا حوله ـ وقال حسان بن ثابت فى قطع يد صواب حين تقاذفوا بالشعر:

فخرتـم باللـواء وشـــر فخـر ... لـواءٌ حـين رد إلـى صـواب

جَعَلْتُمْ فَخْـرَكُـمْ فيها لِعَبْـدٍ ... مِنَ الأمِ مَنْ وَطِى عَفْرَ التراب

ظننتم والسفيه له ظنون ... وما إنْ ذاك من أمر الصواب

بـأن جـــلادَنَا يـوم التقينا ... بمكـة بَيْعُكُـمْ حُمْـرَ العيـاب

أقَرَّ العـينَ أنْ عُصِبَـتْ يـداه ... وما إن تُعْصَبَانِ على خضاب

وعن أبى رافع، قال: لما قتل علىّ بن أبى طالب أصحاب الألوية، أبصر رسول الله ﷺ جماعة من مشركى قريش، فقال لعلىّ: احمل عليهم، فحمل عليهم؛ ففرق جمعهم، وقتل عمرو بن عبد الله الجمحى. ثم أبصر رسول الله

ﷺ جماعة من مشركى قريش، فقال لعلىّ: احمل عليهم، فحمل عليهم ففرق جماعتهم؛ وقتل شيبة بن مالك أحد بنى عامر بن لؤى، فقال جبريل: يارسول الله، إنّ هذه لَلْمُوَاسَاةُ، فقال رسول الله ﷺ: إنه منى وأنا منه، فقال جبريل: وأنا منكما، قال: فسمعوا صوتًا:

لاسـيف إلا ذو الفقـار ولا فتـى إلاّ علـىّ

فلما أُتِىَ المسلمون من خلفهم انكشفوا وأصاب منهم المشركون، وكان المسلمون لَمّا أصابهم ما أصابهم من البلاء أثلاثًا، ثلث قتيل، وثلث جريح، وثلث منهزم، وقد جهدته الحرب حتى مايدرى مايصنع، وأصيبت رباعية ـ هى السن التى بين الثنية والناب ـ رسول الله ﷺ السفلى، وشقت شفته، وكلم فى وجنتيه وجبهته فى أصول شعره، وعلاه بن قميئة بالسيف على شقه الأيمن، وكان الذى أصابه عتبة بن أبى وقاص.

وقال أنس بن مالك: لما كان يوم أحد، كسرت رباعية رسول الله ﷺ وشج، فجعل الدم يسيل على وجهه، وجعل يمسح الدم عن وجهه، ويقول: كيف يفلح قومٌ خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ﴾(١).

وقال رسول الله ﷺ حين غشيه القوم: من رجل يشرى لنا نفسه!

فقام زياد بن السكن فى نفر خمسة من الأنصار، وبعض الناس يقول: إنما هو عمارة بن زياد بن السكن، فقاتلوا دون رسول الله ﷺ رجلاً ثم رجلاً، يقتلون دونه؛ حتى كان آخرهم زيادٌ ـ أو عمارة بن زياد بن السكن ـ فقاتل حتى أثبتته الجراحة، ثم فاءت من المسلمين فئة حتى أجهضوهم ـ أى: أزالوهم وغلبوهم ـ عنه، فقال رسول الله ﷺ: أدنوه منى، فأدنوه منه، فوسده قدمه، فمات وخده على قدم رسول الله ﷺ، وترس دون رسول الله ﷺ أبو دجانة بنفسه يقع النبل

(١) آل عمران: ١٢٨.

فى ظهره وهو منحنٍ عليه؛ حتى كثرت فيه النبل، ورمى سعد بن أبى وقاص دون رسول الله ﷺ، فقال سعد: فلقد رأيته يناولنى ويقول: ارم فداك أبى وأمى! حتى إنه ليناولنى السهم مافيه نصل، فيقول: ارم به!

عن ابن إسحاق، قال: رمى رسول الله ﷺ عن قوسه حتى اندقت طرفها. فأخذها قتادة بن النعمان، فكانت عنده، وأصيبت يومئذ عين قتادة؛ حتى وقعت على وجنته. فردها رسول الله ﷺ بيده؛ فكانت أحسن عينيه وأحدهما.

وقاتل مصعب بن عمير دون رسول الله ﷺ ومعه لواؤه حتى قتل، وكان الذى أصابه ابن قميئة الليثى. وهو يظن أنه رسول الله ﷺ، فرجع إلى قريش، فقال: قتلت محمدًا. فلما قتل مصعب بن عمير أعطى رسول الله ﷺ اللواء علىّ بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ وقاتل حمزة بن عبد المطلب حتى قتل أرطأة ابن عبد شرحبيل بن هاشم بن عبد مناف...؛ وكان أحد النفر الذين يحملون اللواء، ثم مر به سباع بن عبد العُزى الغبشانى ـ وكان يكنى بأبى نهيار ـ فقال له حمزة بن عبد المطلب: هلم إلى يابن مقطعة البظور ـ وكانت أمه أم أنمار مولاة شريق بن عمرو بن وهب الثقفى، وكانت ختانة بمكة ـ فلما التقيا ضربه حمزة فقتله، فقال وحشى، غلام جبير بن مطعم: والله إنى لأنظر إلى حمزة يهدّ الناس بسيفه ـ أى: يقطعهم ـ ما يليق ـ أى: ما يترك ومايبقى ـ شيئًا يمر به؛ مثل الجمل الأورق؛ إذ تقدمنى إليه سباع بن عبد العزى، فقال له حمزة: هلم إلى يابن مقطعة البظور! فضربه، فكأنما أخطأ رأسه، وهززت حربتى حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه فوقعت فى لبته حتى خرجت من بين رجليه، وأقبل نحوى، فغلب فوقع؛ فأمهلته حتى إذا مات جئت فأخذت حربتى؛ ثم تنحيت إلى العسكر، ولم يكن لى بشىء حاجة غيره. وقد قتل عاصم بن ثابت ابن أبى الأقلح أخو بنى عمرو بن عوف مسافع بن طلحة وأخاه كلاب بن طلحة، كلاهما يشعره سهما ـ أى: خالطه به ـ فيأتى أمه سلافة فيضع رأسه فى حجرها، فتقول: يابنى، من أصابك؟ فيقول: سمعت رجلا حين رمانى يقول: خذها وأنا ابن الأقلح! فتقول: أقلحى؟! فنذرت لله إن الله أمكنها من رأس

عاصم أن تشرب فيه الخمر، وكان عاصم قد عاهد الله ألا يمس مشركًا أبدًا ولايمسه.

عن محمد بن إسحاق قال: انتهى أنس بن النضر، عم أنس بن مالك، إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله فى رجال من المهاجرين والأنصار، وقد ألقوا بأيديهم، فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل محمد رسول الله، قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا كرامًا على مامات عليه رسول الله ﷺ، ثم استقبل القوم، فقاتل حتى قتل؛ وبه سمى أنس بن مالك.

وعن أنس بن مالك، قال: لقد وجدنا بأنس بن النضر يومئذ سبعين ضربة وطعنة فما عرفه إلا أخته، عرفته بحسن بنانه.

وعن محمد بن إسحاق، قال: كان أول من عرف رسول الله ﷺ بعد الهزيمة وقول الناس: قتل رسول الله ﷺ، كعب بن مالك، أخو بنى سلمة، قال: عرفت عينيه تزهران تحت المغفر، فناديت بأعلى صوتى: يامعشر المسلمين أبشروا! هذا رسول الله ﷺ، فأشار إلىّ رسول الله ﷺ أن أنصت، فلما عرف المسلمون رسول الله ﷺ نهضوا به، ونهض نحو الشعب، معه علىّ بن أبى طالب، وأبو بكر بن أبى قحافة، وعمر بن الخطاب، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، والحارث بن الصمة، فى رهط من المسلمين. فلما أسند رسول الله ﷺ فى الشعب - أى: رقى فى الشعب - أدركه أُبىّ بن خلف وهو يقول: أين محمّد؟! لانجوت إن نجوت! فقال القوم: يارسول الله، أيعطف عليه رجل منا؟ قال: دعوه، فلما دنا تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة - قال: فلما أخذها رسول الله ﷺ انتفض بها انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الشّعْراء - ذباب أحمر يؤذى الإبل - عن ظهر البعير إذ انتفض بها؛ ثم استقبله فطعنه فى عنقه طعنة تدأدأ - تدحرج - منها عن فرسه مرارًا.

فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى فم الشعب، خرج علىّ بن أبى طالب حتى ملأ درقته من المهراس - ماء بجبل أحد - ثم جاء به إلى رسول الله ﷺ ليشرب منه،

فوجد له ريحا فعافه، ولم يشرب منه، وغسل عن وجهه الدم، وصبّ على رأسه، وهو يقول: اشتد غضب الله على مَنْ دَمَّى وجه نبيه.

عنَ سعد بن أبى وقاص.. كان يقول: والله ماحرصت على قتل رجل قط ماحرصت على قتل عتبة بن أبى وقاص؛ وإن كان ماعلمت لَسَيِّئَ الخلق، مبغضًا فى قومه؛ ولقد كفانى منه قول رسول الله ﷺ: «اشتد غضب الله على مَنْ دَمَّى وجه رسول الله».

وفشا فى الناس أن رسول الله ﷺ قد قتل، فقال بعض أصحاب الصخرة: ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبى، فيأخذ لنا أمنة من أبى سفيان؟ ياقوم: إن محمدًا قد قتل، فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم. قال أنس بن النضر: ياقوم إن كان محمد قد قتل؛ فإن رب محمد لم يقتل. فقاتلوا على ماقاتل عليه محمد: اللهم إنى أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليكَ مما جاء به هؤلاء! ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل، وانطلق رسول الله ﷺ يدعو الناس حتى انتهى إلى أصحاب الصخرة؛ فلما رأوه وضع رجل سهما فى قوسه، فأراد أن يرميه، فقال: أنا رسول الله، ففرحوا بذلك حين وجدوا رسول الله ﷺ حيًّا، وفرح رسول الله ﷺ حين رأى أن فى أصحابه من يمتنع به، فلما اجتمعوا وفيهم رسول الله ﷺ ذهب عنهم الحزن، فأقبلوا يذكرون الفتح، ومافاتهم منه، ويذكرون أصحابهم الذين قتلوا، فقال الله ـ عزّ وجلّ ـ للذين قالوا: «إن محمدا قد قتل، فارجعوا إلى قومكم»: ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** ﴾(١).

فأقبل أبو سفيان حتى أشرف عليهم، فلما نظروا إليه نسوا ذلك الذى كانوا عليه، وأهمهم أبو سفيان، فقال رسول الله ﷺ: ليس لهم أن يعلونا؛ اللهم إن

---

(١) آل عمران : ١٤٤.

تقتل هذه العصابة لاتعبد! ثم ندب أصحابه، فرموهم بالحجارة حتى أنزلوهم؛ فقال أبو سفيان يومئذ: اعلُ هبلُ، حنظلة بحنظلة، ويومٌ بيوم بدر. وقتلوا يومئذ حنظلة بن الراهب، وكان جنبًا فغسلته الملائكة، وكان حنظلة بن أبى سفيان قتل يوم بدر، وقال أبو سفيان: لنا العُزى ولاعزى لكم! فقال رسول الله ﷺ لعمر: قال: الله مولانا ولامولى لكم. فقال أبو سفيان: أفيكم محمد! أما إنها قد كانت فيكم مثلة؛ ما أمرت بها ولانهيت عنها؛ ولاسرتنى ولاساءتنى؛ فذكر الله ـ عزّ وجلّ ـ إشراف أبى سفيان عليهم، فقال: ﴿ **فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ** ﴾، والغم الأول: ما فاتهم من الغنيمة والفتح، والغم الثانى: إشراف العدو عليهم: ﴿ **لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ** ﴾ من الغنيمة ﴿ **وَلا مَا أَصَابَكُمْ** ﴾[1] من القتل حين تذكرون. فشغلهم أبو سفيان[2].

وقد كان حنظلة بن أبى عامر الغسيل، التقى هو وأبو سفيان بن حرب، فلما استعلاه حنظلة رآه شداد بن الأسود ـ وكان يقال له: ابن شعوب ـ قد علا أبا سفيان، فضربه شداد فقتله، فقال رسول الله ﷺ: إن صاحبكم ـ يعنى حنظلة ـ لتغسله الملائكة، فسلوا أهله: ماشأنه؟ فسئلت صاحبته، فقالت: خرج وهو جنب حين سمع الهائعة ـ أى: الصوت الذى تفزع منه وتخافه من العدو ـ فقال رسول الله ﷺ: لذلك غسلته الملائكة.

وقد وقفت هند بنت عتبة والنسوة يجدعن الآذان والأنوف؛ حتى اتخذت هند من آذان الرجال وأُنُفِهِمْ خدمًا ـ خلْخالاً ـ وقلائد، وأعطت خدمها وقلائدها وقرطتها وحشيًّا، غلام جبير بن مطعم، وبقرت عن كبد حمزة فلاكتها فلم

(١) آل عمران: ١٥٣.

(٢) تفسير الطبرى: ٧: ٣٠٧، ٣٠٨.

تستطع أن تسيغها فلفظتها. ثم علت على صخرة مشرفة، فصرخت بأعلى صوتها بما قالت من الشعر حين ظفروا بما أصابوا من أصحاب رسول الله ﷺ. قال عمر ابن الخطاب لحسان: يابن الفريعة، لو سمعت ماتقول هند ورأيت أشرها، قائمة على صخرة ترتجز بنا، وتذكر ماصنعت بحمزة! فقال له حسان: والله إنى لأنظر إلى الحربة تهوى وأنا على رأس فارع ـ يعنى أطمة ـ فقلت: والله إن هذه لسلاح ماهى بسلاح العرب؛ وكأنها إنما تهوى إلى حمزة؛ ولا أدرى. أسمعنى بعض قولها أكفيكموها، قال: فأنشده عمر بعض ما قالت، فقال حسان يهجو هندًا:

لعن الإلهُ وزوجَهَا معها ... هند الهنود عظيمة البظر
أَخْرَجْتِ مُرْقِصَةً إلى أُحُد ... فى القوم مُقتبةً على بكر
....
زعم الولائدُ أنها وَلَدَتْ ... ولدًا صغيرًا كان من عَهْرِ

وعن ابن إسحاق، قال: لما أجاب عمرُ أبا سفيان، قال له أبو سفيان: هلمَّ ياعمر، فقال لهَ رسول الله ﷺ: إيته فانظر ماشأنه؟ فجاءه فقال له أبو سفيان: أنشدك الله ياعمر، أقتلنا محمدًا؟ فقال عمر: اللهم لا، وإنه ليسمع كلامك الآن، فقال: أنت أصدق عندى من ابن قميئة وأبر؛ لقول ابن قميئة لهم: إنى قتلت محمدًا، ثم نادى أبو سفيان، فقال: إنه قد كان فى قتلاكم مُثَلٌ والله ما رضيت ولا سخطت، ولانهيت ولا أمرت.

وقد كان الْحُلَيْسُ بن زبَّان أخو بنى الحارث بن عبد مناة، وهو يومئذ سيد الأحابيش، قد مر بأبى سفيان بن حرب، وهو يضرب فى شدق حمزة بزج الرمح، وهو يقول: ذق عُقَقُ! ـ عاق ـ فقال الحليس: يابنى كنانة، هذا سيد قريش يصنع بابن عمِّه كما ترون لحمًا! فقال: اكتمها، فإنها كانت زلّة؛ فلما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى: إن موعدكم بدر للعام المقبل، فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه: قل نعم هى بيننا وبينك موعد.

ثم بعث رسول الله ﷺ عليّ بن أبى طالب ـ عليه السلام ـ فقال: اخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون، وماذا يريدون! فإن كانوا قد اجتنبوا الخيل، وامتطوا الإبل؛ فإنهم يريدون مكة؛ وإن ركبوا الخيل، وساقوا الإبل؛ فهم يريدون المدينة؛ فوالذى نفسى بيده؛ لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها، ثم لأناجزنهم. قال عليّ: فخرجت فى آثارهم أنظر ماذا يصنعون؛ فلما اجتنبوا الخيل وامتطوا الإبل توجهوا إلى مكة؛ وقد كان رسول الله ﷺ قال: أى ذلك كان فأخفه حتى تأتينى. قال عليّ ـ عليه السلام ـ: فلما رأيتهم قد توجهوا إلى مكة أقبلت أصيح؛ ما أستطيع أن أكتم الذى أمرنى به رسول الله ﷺ لما بى من الفرح، إذ رأيتهم انصرفوا إلى مكة عن المدينة.

وفرغ الناس لقتلاهم، فقال رسول الله ﷺ: من رجل ينظر لى مافعل سعد ابن الربيع؟ وسعد أخو بنى الحارث بن الخزرج. أفى الأحياء هو أم فى الأموات؟ فقال رجل من الأنصار: أنا أنظر لك يارسول الله مافعل؛ فنظر فوجده جريحًا فى القتلى به رمق، قال: فقلت له: إن رسول الله ﷺ أمرنى أن أنظر له: أفى الأحياء أنت أم فى الأموات؟ قال: فأنا فى الأموات، أبلغ رسول الله عنى السلام، وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله خير ماجُزِىَ نبى عن أمته؛ وأبلغ عنى قومك السلام، وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لاعذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وفيكم عين تطرف. ثم لم أبرح حتى مات؛ فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته خبره. وخرج رسول الله يلتمس حمزة بن عبد المطلب، فوجده ببطن الوادى قد بُقِر بطنه عن كبده، ومثل به، فَجُدِعَ أنفه وأذناه.. فقال: لولا أن تحزن صفية أو تكون سنة من بعدى لتركته حتى يكون فى أجواف السباع وحواصل الطير؛ ولئن أنا أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلنَّ بثلاثين رجلاً منهم؛ فلما رأى المسلمون حزن رسول الله ﷺ وغيظه على مافعل بعمّه، قالوا: والله لئن ظهرنا عليهم يومًا من الدهر لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط!

فأنزل الله - عزّ وجلّ - فى ذلك من قول رسول الله ﷺ وقول أصحابه: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾[1] إلى آخر السورة، وعن ابن عباس، قال: فعفا رسول الله ﷺ وصبر ونهى عن المثلة.

وقال ابن إسحاق: وأقبلت صفية بنت عبد المطلب لتنظر إلى حمزة - وكان أخاها لأبيها وأمها - فقال رسول الله ﷺ لابنها الزبير بن العوام: القها فأرجعها، لاترى ما بأخيها، فلقيها الزبير فقال لها: يا أمه؛ إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعى، فقالت: ولم، وقد بلغنى أنه مثلى بأخى وذلك فى الله قليل! فما أرضانا بما كان من ذلك! لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله، فلما جاء الزبير رسول الله ﷺ فأخبره بذلك، قال: خل سبيلها، فأتته فنظرت إليه وصلت عليه؛ واسترجعت واستغفرت له، ثم أمر رسول الله ﷺ به فدفن.

وحدث خلال القتال فى أُحُد مفارقات إن دلت على شيء فإنما تدل على شدة الأمور حتى اختلط الحابل بالنابل.. فقد وقع اليمان - أبو حذيفة - وثابت بن وقش بن زعوراء فى الآطام مع النساء والصبيان - وهما شيخان كبيران - فقال أحدهما لصاحبه: لا أبا لك! ماتنتظر؟ فوالله إن بقى لواحد منا من عمره إلا ظِمْءُ حمار، إنما نحن هامة اليوم أو غدا؛ أفلا نأخذ أسيافنا، ثم نلحق برسول الله ﷺ لعل الله - عزّ وجلّ - يرزقنا شهادة مع رسول الله ﷺ فأخذا أسيافهما، ثم خرجا حتى دخلا فى الناس، ولم يعلم بهما؛ فأما ثابت بن وقش فقتله المشركون، وأما اليمان، فاختلف عليه أسياف المسلمين فقتلوه، ولا يعرفونه. فقال حذيفة: أبى ! قالوا: والله إن عرفناه. وصدقوا، قال حذيفة: يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين! فأراد رسول الله ﷺ أن يَدِيَهُ - أى: يؤدى ديته - فتصدق حذيفة بديته على المسلمين، فزادته عند رسول الله ﷺ خيرًا.

وكان ممن قتل يوم أُحد مخيريق اليهودى، وكان أحد بنى ثعلبة بن الْفِطْيَوْن،

(١) النحل: ١٢٦.

لما كان ذلك اليوم قال: يامعشر يهود؛ والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم لحقٌ. قالوا: إن اليوم يوم السبت، فقال: لاسبت.. فأخذ سيفه وعدَّته، وقال: إن أصبت فمالى لمحمد يصنع فيه ماشاء، ثم غدا إلى رسول الله ﷺ فقاتل معه حتى قتل؛ فقال رسول الله ﷺ: مخيريق خير يهود.

وقد احتمل ناس من المسلمين قتلاهم إلى المدينة. فدفنوهم بها، ثم نهى رسول الله ﷺ عن ذلك، وقال: ادفنوهم حيث صرعوا. وقال يومئذ حين أمر بدفن القتلى: انظروا عمرو بن الجموح وعبد الله بن حرام. فإنهما كانا متصافيين فى الدنيا، فاجعلوهما فى قبر واحد.. فلما احتفر معاوية القناة أُخْرِجَا وهما ينثنيان كأنما دفنا بالأمس.

ثم انصرف رسول الله ﷺ راجعًا إلى المدينة، فلقيته حمنة بنت جحش، فَنُعِيَ لها أخوها عبد الله بن جحش، فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعى لها خالها حمزة بن عبد المطلب، فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير، فصاحت وولولت، فقال رسول الله ﷺ: إن زوج المرأة منها لبمكان؛ لما رأى من تثبتها عند أخيها وخالها، وصياحها على زوجها.

ومرّ رسول الله ﷺ بدار من دور الأنصار من بنى عبد الأشهل وظَفَر، فسمع البكاء والنوائح على قتلاهم؛ فذرفت عينا رسول الله ﷺ فبكى، ثم قال: لكن حمزة لابواكى له! فلما رجع سعد بن معاذ وأسيد بن حضير إلى دار بنى عبد الأشهل أمر نساءهم أن يتحزمن ثم يذهبن فيبكين على عم رسول الله ﷺ .

وعن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبى وقاص، قال: مر رسول الله ﷺ بامرأة من بنى دينار، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأحُد؛ فلما نعوا لها قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيرًا يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين؛ قالت: أرنيه حتى أنظر إليه، فأشير لها إليه حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل ـ أى: صغيرة.

قال أبو جعفر: فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى أهله ناول سيفه ابنته فاطمة،

فقال: اغسلى عن هذا دمُه يابنية، وناولها علىّ ـ عليه السلام ـ سيفه، وقال: وهذا فاغسلى عنه، فوالله لقد صدقنى اليوم. فقال رسول الله ﷺ: لئن كنت صدِقت القتال لقد صدق معك سهل بن حنيف وأبو دُجانة سماك بن خَرَشَة.

غزوة حمراء الأسد

وكان رجوع رسول الله ﷺ إلى المدينة يوم السبت؛ وذلك يوم الوقعة بأحُد؛ للنصف من شوال؛ فلما كان الغد من يوم أحُد، أذن مؤذن رسول الله ﷺ فى الناس بطلب العدوّ؛ وأذّن مؤذنه: ألاّ يخرجنّ معنا أحد إلاّ من حضر يومنا بالأمس. فكلمه جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام، فقال: يارسول الله، إن أبى كان خلفنى على أخوات لى سبع، وقال لى: يابُنى؛ إنه لاينبغى لى ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهن، ولست الذى أوثرك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسى؛ فتخلف على أخواتك. فتخلفت عليهن. فأذن له رسول الله ﷺ فخرج معه؛ وإنما خرج رسول الله ﷺ مرهبًا للعدوّ؛ وليبلغهم أنه خرج فى طلبهم؛ ليظنوا به قوة، وأن الذى أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم.

وقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ من بنى عبد الأشهل كان شهد أحُدًا: شهدت مع رسول الله ﷺ أنا وأخ لى، فرجعنا جريحين؛ فلما أذّن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج فى طلب العدو، قلت لأخى وقال لى: أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ، والله مالنا مِن دابة نركبها، وما منا إلا جريح ثقيل؛ فخرجنا مع رسول الله ﷺ وكنت أيسر جرحًا منه، فكنت إذا غُلِبَ حملته عقبة ـ نوبة ـ ومشى عقبة، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون، فخرج رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى حمراء الأسد؛ وهى من المدينة على ثمانية أميال، فأقام بها ثلاثًا: الاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، ثم رجع إلى المدينة.

وقد مر به معبدٌ الخزاعى، وكانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عيبة ـ أى: موضع سر ـ رسول الله ﷺ بتهامة، صفقتهم معه، لايخفون عليه شيئًا كان بها ـ ومعبد يومئذ مشرك ـ فقال: يامحمد؛ أما والله لقد عزّ علينا ما أصابك فى أصحابك، ولوددنا أن الله كان أعفاك فيهم! ثم خرج من عند رسول الله ﷺ

بحمراء الأسد؛ حتى لقى أبا سفيان بن حرب ومن معه بالرّوحاء، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله وأصحابه، وقالوا: أصبنا حدّ أصحابه وقادتهم وأشرافهم؛ ثم رجعنا قبل أن نستأصلهم، لنكرنَّ على بقيتهم؛ فلنفرغن منهم. فلما رأى أبو سفيان معبدا، قال: ماوراءك يامعبد؟ قال: محمد قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط؛ يتحرقون عليكم تحرقًا؛ قد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم، وندموا على ماصنعوا، فيهم من الحنق عليكم شىء لم أر مثله قط. قال: فوالله لقد أجمعنا الكَرَّة عليهم لنستأصل بقيتهم، قال: فإنى أنهاك عن ذلك.

فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه. ومر به ركب من عبد القيس، فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة، قال: ولم؟ قالوا: نريد الميرة، قال: فهل أنتم مبلغون عنى محمدًا رسالة أرسلكم بها إليه، وأُحَمِّل لكم إبلكم هذه غدًا زبيبًا بعكاظ إذا وافيتموها؟ قالوا: نعم؛ قال: فإذا جئتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا المسير إليه وإلى أصحابه، لنستأصل بقيتهم. فمر الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد، فأخبروه بالذى قال أبو سفيان، فقال رسول الله ﷺ وأصحابه: حسبنا الله ونعم الوكيل.

ثم انصرف رسول الله إلى المدينة بعد الثالثة؛ فزعم بعض أهل الأخبار أنه ظفر فى وجهه إلى حمراء الأسد بمعاوية بن المغيرة بن أبى العاص. وأبى عزّة الجمحى؛ وكان رسول الله ﷺ خلّف على المدينة حين خرج إلى حمراء الأسد ابن أم مكتوم.

ذكر الأحداث التى كانت فى سنة أربع من الهجرة

غزوة الرجيع

ثم دخلت السنة الرابعة من الهجرة، فكان فيها غزوة الرجيع فى صفر. وكان من أمرها ماحدثنا به عاصم بن عمر بن قتادة، قال: قدم على رسول الله ﷺ بعد أحد رهط من عَضَل والقارة فقالوا له: يارسول الله؛ إن فينا إسلامًا وخيرًا،

فابعث معنا نفرًا من أصحابك يفقهوننا فى الدين، ويقرئوننا القرآن، ويعلموننا شرائع الإسلام. فبعث رسول الله ﷺ نفرًا ستّة من أصحابه: مرثد بن أبى مرثد الغنوى حليف حمزة بن عبد المطلب، وخالد بن البكير حليف بنى عدىّ بن كعب، وعاصم بن ثابت بن أبى الأقلح أخا بنى عمرو بن عوف، وخبيب بن عدى أخا بنى جَحْجَبَى بن كلفة بن عمرو بن عوف، وزيد بن الدثنة أخا بنى بياضة بن عامر، وعبد الله بن طارق حليفًا لبنى ظفر من بلىّ.

وأمر رسول الله ﷺ على القوم مرثد بن أبى مرثد، فخرجوا مع القوم؛ حتى إذا كانوا على الرجيع (ماء لهذيل بناحية من الحجاز من صدور الهدأة) غدروا بهم، فاستصرخوا عليهم هذيلا، فلم يرع القوم وهم فى رحالهم إلا بالرجال فى أيديهم السيوف، قد غشوهم. فأخذوا أسيافهم ليقاتلوا القوم، فقالوا لهم: إنا والله مانريد قتلكم، ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئًا من أهل مكة، ولكن عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم. فأما مرثد وخالد بن البكير وعاصم بن ثابت، فقالوا: والله لانقبل من مشرك عهدًا ولاعقدا أبدًا؛ فقاتلوهم حتى قتلوهم جميعًا. وأما زيد بن الدثنة وخبيب بن عدى وعبد الله بن طارق فلانوا ورقوا ورغبوا فى الحياة، فأعطوا بأيديهم ـ أى: انقادوا ـ فأسروهم، ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها حتى إذا كانوا بالظهران، انتزع عبد الله بن طارق يده من القيران ـ الحبل الذى يربط به الأسير ـ ثم أخذ سيفه واستأخر عنه القوم، فرموه بالحجارة حتى قتلوه، فقبره بالظهران.

وأما خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة، فقدموا بهما مكة، فباعوهما فابتاع خبيبًا حجير بن أبى إهاب التميمى حليف بنى نوفل لعقبة بن الحارث بن عامر بن نوفل ليقتله بأبيه. وأما زيد بن الدثنة، فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية ابن خلف، وكانت هذيل حين قتل عاصم بن ثابت قد أرادوا رأسه ليبيعوه من سلافة بنت سعد بن شهيد، وكانت قد نذرت حين أصاب ابنها يوم أُحُد: لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن فى قحفه الخمر، فمنعته الدبر ـ أى: الزنابير والنحل ـ فلما حالت بينهم وبينه، قالوا: دعوه حتى يمسى فتذهب عنه، فنأخذه،

فبعث الله الوادى. فاحتمل عاصمًا فذهب به، وكان عاصم قد أعطى الله عهدًا ألا يمسه مشركٌ أبدًا ولايمس مشركا أبدًا، تنجسًا منه. فكان عمر بن الخطاب يقول حين بلغه أن الدبر منعته: عجبًا؛ لحفظ الله العبد المؤمن! كان عاصم نذر ألا يمسه مشرك، ولايمس مشركا أبدًا فى حياته، فمنعه الله بعد وفاته كما امتنع منه فى حياته.

أما عمرو بن أسيد فقص من خبر هذه السرية شيئًا غير ذلك.. عن أبى هريرة، قال: بعث رسول الله ﷺ عشرة رهط، وأمر عليهم عاصم بن ثابت، فخرجوا حتى إذا كانوا بالهدأة ذكروا لحىّ من هذيل يقال لهم: بنو لحيان، فبعثوا إليهم مائة رجل راميًا؛ فوجدوا مأكلتهم حيث أكلوا التمر، فقالوا: هذه نوى يثرب، ثم اتبعوا آثارهم، حتى إذا أحسّ بهم عاصم وأصحابه التجئوا إلى جبل، فأحاط بهم الآخرون، فاستنزلوهم، وأعطوهم العهد، فقال عاصم: والله لاأنزل على عهد كافرٍ، اللهم أخبر نبيك عنا. ونزل إليهم ابن الدثنة البياضى، وخبيب، ورجل آخر، فأطلق القوم أوتار قسيهم، ثم أوثقوهم، فجرحوا رجلاً من الثلاثة، فقال: هذا والله أول الغدر؛ والله لاأتبعكم. فضربوه فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وابن الدثنة إلى مكة، فدفعوا خبيبًا إلى بنى الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيب هو الذى قتل الحارث بأحد؛ فبينما خبيب عند بنات الحارث، إذ استعار من إحدى بنات الحارث موسى يستحد ـ أى: يحلق شعر عانته ـ بها للقتل، فما راع المرأة ـ ولها صبى يدرج ـ إلا بخبيب قد أجلس الصبى على فخذه، والموسى فى يده، فصاحت المرأة، فقال خبيب: أتخشين أنى أقتله! إن الغدر ليس من شأننا. فقالت المرأة: مارأيت أسيرًا قط خيرًا من خبيب، لقد رأيته ومابمكة من ثمرة؛ وإن فى يده لقطفًا من عنب يأكله؛ إن كان إلا رزقًا رزقه الله خبيبًا.

وبعث حىّ من قريش إلي عاصم ليؤتوا من لحمه بشىء، وقد كان لعاصم فيهم آثار بأحُد؛ فبعث الله عليه دبرًا، فحمت لحمه، فلم يستطيعوا أن يأخذوا من لحمه شيئًا، فلما خرجوا بخبيب من الحرم ليقتلوه، قال: ذرونى أصلى

ركعتين، فتركوه فصلى سجدتين، فجرت سنة لمن قتل صبراً أن يصلى ركعتين. ثم قال خبيب: لولا أن يقولوا جزع لزدت، وما أبالى على أى شقٍ كان الله مصرعى. ثم قال:

وذلك فى ذات الإله وإن يشأ   يبارك على أوصال [شلو] ممزع[1]

اللهم أحصهم عددًا ـ أى: أهلكهم بحيث لاتبقى من عددهم أحدًا ـ وخذهم بددًا.

ثم خرج به أبو سروعة بن الحارث بن عامر بن نوفل؛ فضربه فقتله.

وعن أميّة أن رسول الله ﷺ بعثه وحده عينًا إلى قريش، قال: فجئت إلى خشبة خبيب وأنا أتخوف من العيون، فرقيت فيها، فحللت خبيبًا، فوقع إلى الأرض، فانتبذت غير بعيد ـ أى: تنحيت ـ ثم التفت فلم أر لخبيب رمّة؛ فكأنما الأرض ابتلعته، فلم تذكر لخبيب رمّة حتى الساعة.

وأما زيد بن الدثنة؛ فإن صفوان بن أمية بعث به مع مولى يقال له نسطاس إلى التنعيم، وأخرجه من الحرم ليقتله، واجتمع إليه رهط من قريش، فيهم أبو سفيان بن حرب، فقال له أبو سفيان حين قدم ليقتل: أنشدك الله يازيد، أتحب أن محمدًا عندنا الآن مكانك نضرب عنقه، وأنك فى أهلك! قال: والله ما أحب أن محمدًا الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس فى أهلى. فقال أبو سفيان: ما رأيت فى الناس أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمدٍ محمدًا، ثم قتله نسطاس.

ذكر الخبر عن عمرو بن أمية الضمرى
إذ وجهه رسول الله ﷺ لقتل أبى سفيان بن حرب

لما قتل من وجهه النبى ﷺ إلى عضل والقارة من أهل الرجيع، وبلغ خبرهم رسول الله ﷺ، بعث عمرو بن أميّة الضمرىّ إلى مكة مع رجل من الأنصار،

(١) شلو: جسد.

وأفرهما بقتل أبى سفيان بن حرب. . قال لهما: ائتيا أبا سفيان بن حرب فاقتلاه. . يقول عمرو بن أفية: فخرجت أنا وصاحبى وفعى بعير لى، وليس فع صاحبى بعير، وبرجله علة. فكنت أحمله على بعيرى؛ حتى جئنا بطن يأجج، فعقلنا بعيرنا فى فناء شعب، فأسندنا فيه، فقلت لصاحبى: انطلق بنا إلى دار أبى سفيان؛ فإنى فحاول قتله. فانظر؛ فإن كانت فحاولة أو خشيت شيئًا فالحق ببعيرك فاركبه، والحق بالمدينة فأت رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، وخلِّ عنى؛ فإنى رجل عالم بالبلد، جرىء عليه، نجيب الساق. فلما دخلنا فكة وفعى فثل خافية النسر ـ يعنى خنجره ـ قد أعددته إن عانقنى إنسان قتلته به، فقال لى صاحبى: هل لك أن نبدأ فنطوف بالبيت أسبوعًا، ونصلّى ركعتين؟ فقلت: أنا أعلم بأهل فكة فنك؛ إنهم إذا أظلموا رشوا أفنيتهم، ثم جلسوا بها، وأنا أعرف بها فن الفرس الأبلق. وواصل كلافه فقال: فلم يزل بى حتى أتينا البيت، فطفنا به أسبوعًا، وصلينا ركعتين، ثم خرجنا فمررنا بمجلس فن فجالسهم، عرفنى رجل فنهم، فصرخ بأعلى صوته: هذا عمرو بن أفية! فبادرتنا أهل فكة وقالوا: تالله فاجاء بعمرو خير! والذى يحلف به فاجاءها قط إلا لشر ـ وكان عمرو رجلاً فاتكًا فتشيطنًا فى الجاهلية ـ فقافوا فى طلبى وطلب صاحبى، فقلت له: النجاء! هذا والله الذى كنت أحذر؛ أفّا الرجل فليس إليه سبيل، فانج بنفسك، فخرجنا نشتد حتى أصدعنا فى الجبل، فدخلنا فى غار، فبتنا فيه ليلتنا، وأعجزناهم، فرجعوا وقد استترت دونهم بأحجار حين دخلت الغار، وقلت لصاحبى: أفهلنى حتى يسكن الطلب عنا؛ فإنهم والله ليطلبنًا ليلتهم هذه ويوفهم هذا حتى يمسوا. قال: فوالله إنى لفيه إذ أقبل عثمان بن فالك بن عبيد الله التيمى، يتخيل بفرس له ـ أى: يعجب بنفسه ـ فلم يزل يدنو ويتخيل بفرسه حتى قام علينا بباب الغار. فقلت لصاحبى: هذا والله ابنُ فالك، والله لئن رآنا ليُعلمن بنا أهل فكة. قال: فخرجت إليه فوجأته بالخنجر تحت الثدى، فصاح صيحة أسمع أهل فكة، فأقبلوا إليه، ورجعت إلى فكانى، فدخلت فيه، وقلت لصاحبى: فكانك!. . واتبع أهل فكة الصوت يشتدون، فوجدوه وبه رفق، فقالوا: ويلك فن ضربك! قال:

عمرو بن أمّية. . ثم مات وما أدركوا ما يستطيع أن يخبرهم بمكاننا، فقالوا: والله لقد علمنا أنه لم يأت لخير، وشغلهم صاحبهم عن طلبنا، فاحتملوه؛ ومكثنا فى الغار يومين حتى سكن عنّا الطلب. ثم خرجنا إلى التنعيم؛ فإذا خشبة خبيب، فقال لى صاحبى: هل لك فى خبيب تنزله عن خشبته؟ فقلت: أين هو؟ قال: هو ذاك حيث ترى. فقلت: نعم، فأمهلنى وتنحّ عنّى، قال: وحوله حرس يحرسونه! فقلت للأنصاريّ: إن خشيت شيئًا فخذ الطريق إلى جملك فاركبه والحق برسول الله ﷺ فأخبره الخبر. . . فاشتددت إلى خشبته فاحتللته واحتملته على ظهرى، فوالله ما مشيت إلا نحو أربعين ذراعًا حتى نذروا بى، فطرحته، فما أنسى وجبته حين سقط، فاشتدوا فى أثرى، فأخذت طريق الصفراء فأعيوا، فرجعوا، وانطلق صاحبى إلى بعيره فركبه، ثم أتى النبى ﷺ فأخبره أمرنا، وأقبلت أمشى حتى إذا أشرفت على الغليل ـ جمع غلان وهى منابت الطلح ـ غليل ضجنان ـ موضع ـ دخلت غارًا فيه، ومعى قوسى وأسهمى، فبينا أنا فيه إذ دخل علىّ رجل من بنى الديل بن بكر، أعور طويل يسوق غنما له، فقال: من الرجل؟ فقلت: رجل من بنى بكر، قال: وأنا من بنى بكر، ثم أحد بنى الديل. ثم اضطجع معى فيه، فرفع عقيرته يتغنى ويقول:

ولست بمسلم ما دمت حيـــا ولست أديــن ديــن المسلمينـا

فقلت: سوف تعلم! فلم يلبث الأعرابى أن نام وغط، فقمت إليه فقتلته أسوأ قتْلَة قتلها أحد أحدًا، قمت إليه فجعلت سية قوسى فى عينه الصحيحة، ثم تَحاملت عليها حتى أخرجتها من قفاه. . ثم أخرج مثل السبع، وأخذت المحجة كأنى نسر، وكان النجاء، حتى أخرج على بلد قد وصفه، ثم على ركوبة، ثم على النقيع، فإذا رجلان من أهل مكة بعثتهما قريش يتحسسان من أمر رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فعرفتهما فقلت: استأسرا، فقالا: أنحن نستأسر لك؟! فأرمى أحدهما بسهم فأقتله، ثم قلت للآخر: استأسر، فاستأسر، فأوثقته، فقدمت به على رسول الله ﷺ وقد شددت إبهام أسيرى بوتر قوسى، فنظر النبى

ﷺ إليه فضحك حتى بدت نواجذه، ثم سألنى فأخبرته الخبر، فقال لى خيراً ودعا لى بخير.

وفى هذه السنة تزوج رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ زينب بنت خزيمة أم المساكين من بنى هلال فى شهر رمضان، ودخل بها فيه، وكان أصدقها اثنتى عشرة أوقية ونشًا ـ وزن نواة من ذهب ـ وكانت قبله عند الطفيل بن الحارث، فطلقها.

ذكر خبر بئر معونة

أقام رسول الله ﷺ بالمدينة بقية شوال وذا القعدة وذا الحجة والمحرم، وولى تلك الحجة المشركون. ثم بعث أصحاب بئر معونة فى صفر على رأس أربعة أشهر من أحد، إذ قدم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة ـ وكان سيد بنى عامر بن صعصعة ـ على رسول الله ﷺ المدينة، وأهدى له هدية، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبلها، وقال: يا أبا براء، لا أقبل هدية مشرك، فأسلم إن أردت أن أقبل هديتك. ثم عرض عليه الإسلام، وأخبره بما له فيه، وما وعد الله المؤمنين من الثواب، وقرأ عليه القرآن فلم يسلم ولم يبعد، وقال: يامحمد، إن أمرك هذا الذى تدعو إليه حسنٌ جميل، فلو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك. فقال رسول الله ﷺ: إنى أخشى عليهم أهل نجد! فقال أبو براء: أنا لهم جارٌ، فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك. فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو أخا بنى ساعدة المعنق ـ أى: المسرع لأنه أسرع إلى الشهادة ـ ليموت فى أربعين رجلاً من أصحابه من خيار المسلمين.

وعن أنس بن مالك، قال: بعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو فى سبعين راكبًا، فساروا حتى نزلوا بئر معونة ـ وهى أرض بين أرض بنى عامر وحرة بنى سليم، كلا البلدين منها قريب، وهى إلى حرة بنى سليم أقرب ـ فلما نزلوها بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل، فلما أتاه لم

ينظر فى كتابه، حتى عدا على الرجل فقتله، ثم استصرخ عليهم بنى عامر، فأبوا أن يجيبوه إلى مادعاهم إليه، وقالوا: لن نخفر أبا براء؛ قد عقد لهم عقدًا وجوارًا، فاستصرخ عليهم قبائل من بنى سليم: عصية، ورعلاً، وذكوان؛ فأجابوه إلى ذلك، فخرجوا حتى غشوا القوم، فأحاطوا بهم فى رحالهم، فلما رأوهم أخذوا السيوف، ثم قاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم، إلاّ كعب بن زيد أخا بنى دينار بن النجّار، فإنهم تركوه وبه رمقٌ، فارتث - وقع وبه جراح - من بين القتلى، فعاش حتى قتل يوم الخندق.

وكان فى سرح القوم عمرو بن أمية الضمرى، ورجل من الأنصار أحد بنى عمرو بن عوف، لم ينبئهما بمصاب أصحابهما إلا الطير تحوم على العسكر، فقالا: والله إن لهذه الطير لشأنًا، فأقبلا لينظرا إليه، فإذا القوم فى دمائهم، وإذا الخيل التى أصابتهم واقفة، فقال الأنصارى - المنذر بن محمد بن عقبة - لعمرو ابن أمية: ماذا ترى؟ قال: أرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر. قال الأنصارى: لكنى ماكنت لأرغب بنفسى عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو، وماكنت لتخبرنى عنه الرجال. ثم قاتل القوم حتى قُتل، وأخذوا عمرو بن أمية أسيرا، فلما أخبرهم أنه من مضر، أطلقه عامر بن الطفيل، وجز ناصيته، وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه. فخرج عمرو بن أمية حتى إذا كان بالقرقرة من صدر قناة، أقبل رجلان من بنى عامر حتى نزلا معه فى ظل هو فيه، وكان مع العامريين عقد من رسول الله - عليه الصلاة والسلام - وجوار لم يعلم به عمرو بن أمية، وقد سألهما حين نزلا: ممن أنتما؟ فقالا: من بنى عامر، فأمهلهما حتى إذا ناما عدا عليهما فقتلهما، وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثؤرة، ثأرًا - من بنى عامر، بما أصابوا من أصحاب رسول الله - عليه الصلاة والسلام - فلما قدم عمرو بن أمية على رسول الله ﷺ أخبره الخبر، فقال رسول الله - عليه الصلاة والسلام: لقد قتلت قتيلين لأدينّهما. ثم قال رسول الله - عليه الصلاة والسلام - هذا عمل أبى براء، قد كنت لهذا كارهًا متخوفًا. فبلغ ذلك أبا براء فشق عليه إخفار عامر إياه، وما أصاب رسول الله ﷺ بسببه وجواره، وكان فيمن أصيب عامر بن فهيرة. فكان عامر بن الطفيل يقول: إن الرجل منهم لما

قتل رأيته رفع بين السماء والأرض حتى رأيت السماء من دونه. قالوا: هو عامر ابن فهيرة.

وكان فيمن حضرها يومئذ مع عامر رجل من بني جبار بن سلمى بن مالك ابن جعفر، ثم أسلم بعد ذلك، فكان يقول: مما دعاني إلى الإسلام أني طعنت يومئذ بالرمح بين كتفيه، فنظرت إلى سنان الرمح حين خرج من صدره، فسمعته يقول حين طعنته: فزت والله! قال: فقلت في نفسي: ما فاز! أليس قد قتلت الرجل؟! حتى سألت بعد ذلك عن قوله، فقالوا الشهادة، فقلت: فاز لعمر الله!
فقال حسان بن ثابت يحرض بني أبي البراء على عامر بن الطفيل:

بنـي أمّ البنينَ ألَـمْ يرُعْكُـمْ ... وأنـتُـمْ من ذَوَائب أهْـل نجْـد
تهكُّـــمُ عامـــر بأبـى بـــراءٍ ... ليخفـره، ومـــا خطـأ كَعَـمْـدِ

وقال كعب بن مالك في ذلك أيضًا:

لقد طارت شعاعًا كلّ وجْه ... خفـارة مـا أجـار أبـو بـــراء
أعامر عامـر السـوءات قدْمـًا ... فلا بالعقل فزت ولا السنــاء
أأخفـرت النـبي وكنت قَدمـا ... إلى السوءات تجرى بالعــراء

فلما بلغ ربيعة بن عامر أبا البراء قول حسان وقول كعب، حمل على عامر بن الطفيل فطعنه، فشطب الرمح عن مقتله، فخر عن فرسه. فقال: هذا عمل أبي براء! إن مت فدمي لعمي ولا يتبعن به، وإن أعش فسأرى رأيي فيما أتى إليّ.

حدث أنس بن مالك فقال: إن الله ـ عزّ وجلّ ـ أنزل فيهم قرآنا: «بلغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا، فرضي عنا، ورضينا عنه»، ثم نسخت، فرفعت بعد ما قرأناه زمانًا، وأنزل الله ـ عزّ وجلّ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ ﴾[1].

(١) آل عمران: ١٦٩، ١٧٠.

وفي هذه السنة - أعني السنة الرابعة من الهجرة - أجلى النبي - عليه الصلاة والسلام - بني النضير من ديارهم.

ذكر خبر جلاء بني النضير

قيل: إن عامر بن الطفيل كتب إلى رسول الله ﷺ إنك قتلت رجلين لهما منك جوار وعهد، فابعث بديتهما. فانطلق رسول الله ﷺ إلى قباء ثم مال إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر اللذين قتل عمرو بن أمية الضمري، وكان بين بني النضير وبين بني عامر حلف وعقد، فلما أتاهم رسول الله - عليه الصلاة والسلام - يستعينهم في دية ذينك القتيلين ، قالوا: نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا هذا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله - عليه الصلاة والسلام - إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد، فقالوا: من رجل يعلو هذا البيت، فيلقي عليه صخرة فيقتله بها فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم، فقال: أنا لذلك، فصعد ليلقي عليه الصخرة - كما قال، ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فيهم أبو بكر وعمر وعلي، فأتى رسول الله - عليه الصلاة والسلام - الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وقال لأصحابه: لا تبرحوا حتى آتيكم، وخرج راجعًا إلى المدينة، فلما استلبث رسول الله ﷺ أصحابه، قاموا في طلبه، فلقوا رجلاً مقبلا من المدينة فسألوه عنه فقال: رأيته داخلاً المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود قد أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم، والسير إليهم.

ثم سار بالناس إليهم؛ حتى نزل بهم، فتحصنوا منه الحصون، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخل والتحريق فيها، فنادوه: يامحمد، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها.. وظل محاصرًا لهم خمسة عشر يومًا حتى بلغ منهم كل مبلغ، فأعطوه ما أراد منهم،

فصالحهـم على أن يحقن لهم دماءهم، وأن يخرجهم من أرضهم وأوطانهم، ويسيّرهم إلى أذرعات الشام، وجعل لكل ثلاثة منهم بعيراً وسقاءً. . إلاّ الحلقة ـ أى: السلاح.

وقد كان رهطٌ من بنى عوف بن الخزرج منهم عبد الله بن أبى بن سلول ووديعة ومالك بن أبى قوقل، وسويد وداعس قد بعثوا إلى بنى النضير: أن اثبتوا وتمنعوا، فإنّا لن نسلمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم، فتربصوا فلم يفعلوا، وقذف الله فى قلوبهم الرعب، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم، ويكف عن دمائهم؛ على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم؛ إلاّ الحلقة. ففعل فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف ـ أى: عتبة بأعلى الباب ـ بابه؛ فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به. فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام؛ فكان أشرافهم ممن سار منهم إلى خيبر سلاّم بن أبى الحقيق، وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق، وحُيَىّ بن أخطب، فلما نزلوها دان لهم أهلها.

وحدّث عبد الله بن أبى بكر، قال: استقلوا بالنساء والأبناء والأموال، معهم الدفوف والمزامير والقيان يعزفن خلفهم، وإن فيهم يومئذ لأم عمرو، صاحبة عروة بن الورد العبسىّ، التى ابتاعوا منه، وكانت إحدى نساء بنى غفار بزهاء ـ أى: كبر وإعجاب ـ وفخر، مارُئى مثله من حى من الناس فى زمانهم؛ وخلوا الأموال لرسول الله ﷺ، فكانت لرسول الله ﷺ خاصة يضعها حيث يشاء، فقسمها ﷺ على المهاجرين الأولين دون الأنصار، إلاّ أن سهل بن حنيف وأبا دجانة سماك بن خرشة ذكرا فقراً فأعطاهما رسول الله ﷺ، ولم يسلم من بنى النضير إلاّ رجلان: يامين بن عمير بن كعب بن عمرو بن جحاش، وأبو سعد بن وهب، أسلما على أموالهما فأحرزاها.

واستخلف رسول الله ﷺ إذ خرج لحرب بنى النضير ابن أم مكتوم، وكانت رايته يومئذ مع علىّ بن أبى طالب عليه السلام.

وفى هذه السنة مات عبد الله بن عثمان بن عفان، فى جمادى الأولى منها، وهو ابن ست سنين، وصلى عليه رسول الله ﷺ ونزل فى حفرته عثمان بن عفان.

وفيها ولد الحسين بن على - عليه السلام - لليال خلون من شعبان.

غزوة ذات الرقاع

واختلف فى التى كانت بعد غزوة النبى ﷺ بنى النضير من غزواته، فحدثنا محمد بن إسحاق، قال: ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة بعد غزوة بنى النضير شهرى ربيع، وبعض شهر جمادى. ثم غزا نجدًا يريد بنى محارب وبنى ثعلبة من غطفان - حتى نزل نخلاً، وهى غزوة ذات الرقاع - سبب التسمية أنهم رقعوا فيها راياتهم، ويقال: إن السبب لتسميتها يرجع إلى موضع لها بهذا الاسم - فلقى بها جمعًا من غطفان، فتقارب الناس، ولم يكن بينهم حرب، وقد خاف الناس بعضهم بعضًا، حتى صلَّى رسول الله ﷺ بالمسلمين صلاة الخوف، ثم انصرف بالمسلمين.

أما الواقدى؛ فإنه زعم أن غزوة رسول الله ﷺ ذات الرقاع، كانت فى المحرم سنة خمس من الهجرة. قال: وإنما سميت ذات الرقاع؛ لأن الجبل الذى سميت به ذات الرقاع جبل به سواد وبياض وحمرة، فسميت الغزوة بذلك الجبل، واستخلف رسول الله ﷺ فى هذه الغزوة على المدينة عثمان بن عفان.

وعن أبى هريرة، قال: خرجنا مع رسول الله - عليه الصلاة والسلام - إلى نجد، حتى إذا كنا بذات الرقاع من نخل، لقى جمعًا من غطفان، فلم يكن بيننا قتال، إلا أن الناس قد خافوهم، ونزلت صلاة الخوف، فصدع أصحابه صدعين، فقامت طائفة مواجهة العدو، وقامت طائفة خلف رسول الله - عليه الصلاة والسلام - فكبر رسول الله ﷺ فكبروا جميعًا، ثم ركع بمن خلفه وسجد بهم، فلما قاموا مشوا القهقرى إلى مصاف أصحابهم، ورجع الآخرون، فصلوا لأنفسهم ركعة، ثم قاموا فصلى بهم رسول الله - عليه الصلاة والسلام - ركعة

وجلسوا، ورجع الذين كانوا مواجهين العدو، فصلوا الركعة الثانية، فجلسوا جميعًا، فجمعهم رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فسلم عليهم.

وقد إختلفت الرواية فى صفة صلاة رسول الله ﷺ هذه الصلاة ببطن نخل اختلافا متفاوتًا، كرهت ذكره فى هذا الموضع خشية إطالة الكتاب، وسأذكره إن شاء الله فى كتاب صلاة الخوف بكتابنا المسمى «بسيط القول فى أحكام شرائع الإسلام»، وقد سئل جابر بن عبد الله عن إقصار الصلاة: أى يوم أنزل، أو فى أى يوم هو؟ فقال جابر: انطلقنا نتلقى عير قريش آتية من الشام، حتى إذا كنا بنخل جاء رجل من القوم إلى رسول الله ﷺ فقال: يامحمد، قال: نعم. قال: هل تخافنى؟ قال: لا ﷺ، قال: فمن يمنعك منى؟ قال: الله يمنعنى منك، قال: فسل السيف ثم تهدده وأوعده. ثم نادى بالرحيل وأخذ السلاح. ثم نودى بالصلاة، فصلى نبى الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ بطائفة من القوم، وطائفة أخرى تحرسهم، فصلى بالذين يلونه ركعتين، ثم تأخر الذين يلونه على أعقابهم، فقاموا فى مصاف أصحابهم، ثم جاء الآخرون فصلى بهم ركعتين، والآخرون يحرسونهم. ثم سلم، فكانت للنبى ﷺ أربع ركعات، وللقوم ركعتين ركعتين، فيومئذ أنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ** ﴾[١].

وعن جابر بن عبد الله الأنصارى، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة ذات الرقاع من نخل، فأصاب رجل من المسلمين امرأة من المشركين، فلما انصرف رسول الله ﷺ قافلا أتى زوجها وكان غائبًا، فلما أخبر الخبر، حلف ألا ينتهى حتى يهريق فى أصحاب محمّد دمًا، فخرج يتبع أثر رسول الله ﷺ فنزل رسول الله ﷺ منزلاً، فقال: من رجلٌ يكلؤنا ليلتنا هذه؟ فانتدب رجل من المهاجرين ورجلٌ من الأنصار، فقالا: نحن يارسول الله، قال: فكونا بفم الشعب ـ وكان رسول الله ﷺ وأصحابه قد نزلوا الشعب، من بطن الوادى ـ فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب، قال الأنصارى للمهاجرى: أى الليل تحب أن

(١) المائدة : ١١.

أكفيكه؟ أوّله أو آخره؟ قال: بل اكفنى أوّله؛ فاضطجع المهاجرى فنام، وقام الأنصارى يصلّى، وأتى زوج المرأة، فلما رأى شخص الرجل عرف أنه ربيئة القوم، فرمى بسهم فوضعه فيه فنزعه؛ فوضعه وثبت قائمًا يصلى، ثم رماه بسهم آخر، فوضعه فيه، فنزعه، فوضعه وثبت قائما يصلى، ثم عاد بالثالث فوضعه فيه، فنزعه فوضعه، ثم ركع وسجد، ثم أهبّ صاحبه، فقال: اجلس، فقد أتيت. قال: فوثب المهاجرى، فلما رآهما الرجل، عرف أنهم قد نذروا به، ولما رأى المهاجرى مابالأنصاريّ من الدماء، قال: سبحان الله! أفلا أهببتنى أول مارماك؟ قال: كنت فى سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها حتى أنفدها، فلما تتابع علىَّ الرمىُ ركعتُ فآذنتك، وايم الله لولا أن أضيع ثغرًا أمرنى رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسى قبل أن أقطعها أو أنفذها.

ذكر الخبر عن غزوة السويق

لما قدم رسول الله ﷺ المدينة من غزوة ذات الرقاع، أقام بها بقية جمادى الأولى وجمادى الآخرة ورجب، ثم خرج فى شعبان إلى بدر لميعاد أبى سفيان حتى نزله، فأقام عليه ثمانى ليالٍ ينتظر أبا سفيان، وخرج أبو سفيان فى أهل مكة، حتى نزل مجنة من ناحية مر الظهران - وبعض الناس يقول: قد قطع عسفان - ثم بدا له الرجوع، فقال: يامعشر قريش، إنه لايصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن؛ فسماهم أهل مكة جيش السويق، يقولون: إنما خرجتم تشربون السويق.

فأقام رسول الله ﷺ على بدر ينتظر أبا سفيان لميعاده، فأتاه مخشيّ بن عمرو الضمرى، وهو الذى وادعه على بنى ضمرة فى غزوة ودان، فقال: يامحمد، أجئت للقاء قريش على هذا الماء؟ قال: نعم، يا أخا بنى ضمرة؛ وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ماكان بيننا وبينك ثم جالدناك، حتى يحكم الله بيننا وبينك. فقال: لا والله يامحمد، مالنا بذلك منك من حاجة، وأقام رسول الله ﷺ ينتظر أبا سفيان، فمر به معبد بن أبى معبد الخزاعى، وقد رأى مكان رسول الله ﷺ وناقته تهوى به - تسرع - فقال:

قد نفرت من رفقتى محمد وعجوة من يثرب كالعنجُدِ
تهوى على دين أبيها الأتلد قد جعلت ماء قُدَيْدٍ موعدى

ندبَ رسول الله ﷺ أصحابه لغزوة بدر لموعد أبى سفيان الذى كان وعده الالتقاء فيه يوم أحُد رأس الحول للقتال فى ذى القعدة. وقال الواقدى: كان نعيم بن مسعود الأشجعى قد اعتمر، فقدم على قريش، فقالوا: يانعيم، من أين كان وجهك؟ قال: من يثرب. قالوا: وهل لمحمد حركة؟ قال: تركته على تعبئة لغزوكم، ـ وذلك قبل أن يسلم نعيم ـ فقال له أبو سفيان: يانعيم إن هذا عام جدب، ولايصلحنا إلا عام ترعى فيه الإبل الشجر، ونشرب فيه اللبن، وقد جاء أوان موعد محمد، فالحق بالمدينة فثبطهم وأعلمهم أنّا فى جمع كثير، ولاطاقة لهم بنا؛ فيأتى الخلف منهم أحبّ إلىّ من أن يأتى من قبلنا، ولك عشر فرائض أضعها لك فى يد سهيل بن عمرو يضمنها. فجاء سهيل بن عمرو إليهم، فقال نعيم لسهيل: يا أبا يزيد، أتضمن هذه الفرائض وأنطلق إلى محمد فأثبطه؟ فقال: نعم، فخرج نعيم حتى قدم المدينة، فوجد الناس يتجهزون، فتدسّس لهم، وقال: ليس هذا برأى، ألم يجرح محمد فى نفسه! ألم يقتل أصحابه؟ قال: فثبط الناس؛ حتى بلغ رسول الله ﷺ فتكلم، فقال: والذى نفسى بيده، لو لم يخرج معى أحد لخرجت وحدى.

ثم أنهج الله ـ عزّ وجلّ ـ للمسلمين بصائرهم؛ فخرجوا بتجارات، فأصابوا الدرهم درهمين، ولم يلقوا عدواً، وهى بدر الموعد؛ وكانت موضع سوق لهم فى الجاهلية، يجتمعون إليها فى كل عام ثمانية أيام.

قال أبو جعفر: واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة عبد الله بن رواحة.

قال الواقدى: وفى هذه السنة تزوج رسول الله ﷺ أمَّ سلمة بنت أبى أميّة فى شوال، ودخل بها.

وفيها أمَر رسول الله ﷺ زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب يهود؛ وقال: إنى لا آمن أن يبدلوا كتابى.

وولى الحج فى هذه السنة المشركون.

ثم كانت السنة الخامسة من الهجرة

فى هذه السنة تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش. فقد جاء رسول الله ﷺ بيت زيد بن حارثة، وكان زيد إنّما يقال له: زيد بن محمد، ربّما فقده رسول الله ﷺ الساعة، فيقول: أين زيد؟ فجاء منزله يطلبه فلم يجده، وقامت إليه زينب بنت جحش زوجته فضلا ـ أى: تلبس ثوبًا واحدًا ـ فأعرض عنها رسول الله ﷺ فقالت: ليس هو هاهنا يارسول الله، فادخل بأبى أنت وأمّى! فأبى رسول الله ﷺ أن يدخل؛ وإنما عجلت زينب أن تلبس إذ قيل لها: رسول الله ﷺ على الباب، فوثبت عجلة، فولّى وهو يهمهم بشىء لايكاد يفهم، إلاّ أنه أعلن: سبحان الله العظيم! سبحان الله مصرّف القلوب! قال: فجاء زيد إلى منزله، فأخبرته امرأته أن رسول الله ﷺ أتى منزله، فقال زيد: ألا قلت له: ادخل! فقالت: قد عرضت عليه ذلك فأبى، قال: فسمعته يقول شيئًا؟ قالت: سمعته يقول حين ولّى: سبحان الله العظيم، سبحان الله مصرّف القلوب! فخرج زيد حتى أتى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله؛ بلغنى أنك جئت منزلى؛ فهلاّ دخلت بأبى أنت وأمى يارسول الله؟! لعلّ زينب أعجبتك فأفارقها! فقال رسول الله ﷺ: أمسك عليك زوجك، فما استطاع زيد إليها سبيلاً بعد ذلك اليوم، فكان يأتى رسول الله ﷺ فيخبره، فيقول له رسول الله ﷺ: أمسك عليك زوجَك، ففارقها زيد واعتزلها وحلَّت، فبينا رسول الله ﷺ يتحدث مع عائشة؛ إذ أخذت رسول الله ﷺ غشيةٌ، فسُرِىَ عنه وهو يبتسم ويقول: من يذهب إلى زينب يبشرها، يقول: إن الله زوجنيها؟ وتلا رسول الله ﷺ: ﴿ **وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ** ﴾[1].. القصة كلها.

(١) الأحزاب : ٣٧.

وقال ابن كثير فى تفسيره لهذه الآيات.. «يقول تعالى مخبراً عن نبيه ﷺ أنه قال لمولاه زيد بن حارثة =

= رضى الله عنه، وهو الذى: ﴿ أنعم الله عليه ﴾ أى: بالإسلام ومتابعة الرسول ﴿ وأنعمت عليه ﴾ أى: بالعتق من الرق، وكان سيدا كبير الشأن جليل القدر، حبيبا إلى النبى يقال له (الحِبُّ) ويقال لابنه أسامة (الحِبّ بن الحب). وكان رسول الله ﷺ قد زوجه بابنة عمته (زينب بنت جحش) الأسدية ـ رضى الله عنها ـ، وأصدقها عشرة دنانير وستين درهما وخمارا وملحفة ودرعا، فمكثت عنده قريبا من سنة أو فوقها، ثم وقع بينهما فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ، فجعل رسول الله يقول له: «أمسك عليك زوجك واتق الله»، قال تعالى: ﴿ وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾ أى أن الله تعالى: كما قال على بن الحسين ـ أعلم نبيّه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها، فلما أتاه زيد رضى الله عنه ليشكوها إليه قال: «اتق الله وأمسك عليك زوجك» فقال: قد أخبرتك أنى مزوّجكها، وتخفى فى نفسك ما الله مبديه.

وقوله تعالى: ﴿ فلما قضى زيد منها وطرًا زوجناكها ﴾ أى: لما فرغ منها وفارقها زوّجناكها، وكان الذى ولى تزويجها منه الله ـ عزّ وجلّ ـ، بمعنى أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولىّ ولا عقد ولامهر ولاشهود من البشر. ويفصّل أنس رضى الله عنه ذلك فقال: «لما انقضت عدة زينب رضى الله عنها قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة: «اذهب فاذكرها علىّ»، فانطلق حتى أتاها وهى تخمر عجينها قال: فلما رأيتها عظمت فى صدرى، حتى ما أستطيع أن أنظر إليها وأقول: إن رسول الله ﷺ ذكرها، فوليتها ظهرى ونكصت على عقبى، وقلت: يازينب أبشرى، أرسلنى رسول الله ﷺ بذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئًا حتى أؤمر ربى عز وجل، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن، ولقد رأيتنا حين دخلت على رسول الله وأطعمنا عليها الخبز واللحم، فخرج الناس وبقى رجال يتحدثون فى البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله ﷺ واتبعته، فجعل ﷺ يتتبع حجر نسائه يسلم عليهن ويقلن: يارسول الله كيف وجدت أهلك؟ فما أدرى أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبر، فانطلق حتى دخل البيت فذهبت أدخل معه، فألقى الستر بينى وبينه، ونزل الحجاب، ووعظ القوم بما وعظوا به ﴿ لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم ﴾ الآية.

وقد روى البخارى رحمه الله عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه: «أن زينب بنت جحش ـ رضى الله عنها ـ كانت تفخر على أزواج النبى ـ ﷺ، فتقول: زوّجكن أهاليكن، وزوّجنى الله تعالى من فوق سبع سموات».

وقال ابن الجوزى: المعنى زوّجناك زينب ـ وهى امرأة زيد الذى تبنيته ـ لكيلا يظن أن امرأة المتبنى لا يحل نكاحها. ﴿ وكان أمر الله مفعولا ﴾ أى: وكان أمر الله لك، ووحيه إليك بتزوج زينب مقدرا محتما كائنا لامحالة.

ويدافع الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه «حياة محمد» مفندا أباطيل هذه الفرية بقوله: «زينب بنت جحش هى ابنة أميمة بنت عبد المطلب عمّة رسول الله ﷺ، وأنها رُبيت بعينه وعنايته، وأنها كانت لذلك منه بمقام البنت أو الأخت الصغرى، وأنه كان يعرفها ويعرف أهى ذات مفاتن أم ليست كذلك قبل أن تتزوج زيدًا، وأنه شهدها فى نموها تحبو من الطفولة إلى الصبا وإلى الشباب، وأنه هو الذى خطبها على زيد مولاه. إذا عرفت ذلك تداعت أمام نظرك كل تلك الخيالات والأقاصيص من أنه مر ببيت زيد ولم يكن فيه، فرأى زينب فبهره حسنها وقال: سبحان مقلّب القلوب! أو أنه لما فتح باب زيد عبث الهواء =

قالت عائشة: فأخذنى ما قرُب ومابعد لما يبلغنا من جمالها؛ وأخرى هى أعظم الأمور وأشرفها، ماصنع الله لها؛ زوجها، فقلت: تفخر علينا بهذا!

قالت عائشة: فخرجت سلمى خادم رسول الله ﷺ تخبرها بذلك، فأعطتها أوضاحًا عليها ـ أى: حليـًّـا من الفضة عليها .

غزوة دومة الجندل

غزا دومة الجندل فى شهر ربيع الأول، وكان سببها أن رسول الله ﷺ بلغه أن جمعًا تجمعوا بها ودنوْا من أطرافه. فغزاهم رسول الله ﷺ حتى بلغ دومة الجندل، ولم يلق كيدًا، وخلّف على المدينة سباع بن عرفطة الغفارىّ.

وفيها ـ كذلك ـ وادع رسول الله ﷺ عيينة بن حصن أن يرعى بتغلمين وماوالاها. وذلك أن بلاد عيينة أجدبت، فوادع رسول الله ﷺ أن يرعى بتغلمين إلى المراض؛ وكان ماهنالك قد أخصب بسحابة وقعت، فوادعه رسول الله ﷺ أن يرعى فيما هنالك. .

وفيها توفيت أم سعد بن عبادة وسعد غائب مع رسول الله ﷺ إلى دومة الجندل.

ذكر الخبر عن غزوة الخندق

عن ابن إسحاق: وكان الذى جرّ غزوة رسول الله ﷺ الخندق فى شوّال ـ فيما قيل ـ ماكان من إجلاء رسول الله ﷺ بنى النضير عن ديارهم.

كان من الحديث عن الخندق أن نفرًا من اليهود منهم سلام بن أبى الحقيق النضرى، وحيىّ بن أخطب النضرى، وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق النضرى،

= بالستار الذى على غرفة زينب، فألفاها فى قميصها ممددة وكأنها «مدام ركافييه!» فانقلب قلبه فجأة ونسى سودة وعائشة وحفصة وزينب بنت خزيمة وأم سلمة. . ولو أن شيئًا من حبّها علق بقلبه لخطبها إلى أهلها على نفسه بدل أن يخطبها على زيد. وهذه الصلة بين زينب ومحمد، وهذا التصوير الذى صورناها به، لايدعان بعدهما لتلك القصة الخيالية التى يروون أى أساس من الحق أو أى حظ من البقاء. (المحقق).

وهوذة بن قيس الوائلى، وأبو عمار الوائلى، فى نفر من بنى النضر ونفر من بنى وائل؛ هم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة؛ فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فقالت لهم قريش: يامعشر يهود؛ إنكم أهلُ الكتاب الأول، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه، قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه. قال: فهم الذين أنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ فيهم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾ إلى قوله: ﴿ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾[1].

فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ماقالوا ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ، فأجمعوا لذلك واتعدوا له.

ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا غطفان من قيس عيلان، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه؛ وأن قريشًا تابعوهم على ذلك وأجمعوا فيه، فأجابوهم.

فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة ابن حصن بن حذيفة بن بدر فى بنى فزارة، والحارث بن عوف بن أبى حارثة المُرى فى بنى مرّة، ومسعود بن رخيلة بن نويرة بن طريف بن سحمة.... بن غطفان؛ فيمن تابعه من قومه من أشجع.

فلما سمع بهم رسول الله ﷺ وبما أجمعوا له من الأمر، ضرب الخندق على المدينة فحدِّثت عن محمد بن عمر، قال: كان الذى أشار على رسول الله ﷺ بالخندق سلمان، وكان أول مشهد شهده سلمان مع رسول الله ﷺ وهو يومئذ حر، وقال: يارسول الله؛ إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا.

---

(١) النساء: ٥١ ، ٥٥.

فعمل رسول الله ﷺ ترغيبًا للمسلمين فى الأجر، وعمل فيه المسلمون: فدأب فيه ودأبوا، وأبطأ عن رسول الله ﷺ وعن المسلمين فى عملهم رجالٌ من المنافقين، وجعلوا يورون بالضعف من العمل - أى: يستترون - ويتسللون إلى أهاليهم بغير علم رسول الله ﷺ ولا إذن. وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته نائبة من الحاجة التى لابد منها يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ويستأذنه فى اللحوق بحاجته؛ فيأذن له، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبة فى الخير، واحتسابًا له؛ فأنزل الله - عزّ وجلّ: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ** ﴾ إلى قوله: ﴿**وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾(١).

فنزلت هذه الآية فى كلّ من كان من أهل الحسبة من المؤمنين والرغبة فى الخير؛ والطاعة لله ولرسوله ﷺ، ثم قال - يعنى المنافقين الذين كانوا يتسللون من العمل، ويذهبون بغير إذن رسول الله ﷺ: ﴿ **لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا** ﴾ إلى قوله: ﴿ **قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ** ﴾(٢).

أى: قد علم ما أنتم عليه من صدق أو كذب، وعمل المسلمون فيه حتى أحكموه؛ وارتجزوا فيه برجُل من المسلمين يقال له جعيل، فسماه رسول الله ﷺ «عمرًا»، فقالوا:

سماه من بعد جعيل عمرا وكان للبائس يوما ظهرا(٣)

فإذا مروا بعمرو، قال رسول الله ﷺ: «عمرا»، وإذا قالوا «ظهرا»، قال ﷺ: «ظهرا».

---

(١) النور: ٦٢.

(٢) النور: ٦٣، ٦٤.

(٣) الظهر: القوة والمعونة.

فحدثنا محمد بن بشار، قال...... خط رسول الله ﷺ الخندق عام الأحزاب من أجم الشيخين ـ جمع آجام، وهى حصون لموضع بالمدينة اسمه الشيخان ـ طرف بنى حارثة؛ حتى بلغ المذاد ـ موضع بالمدينة ـ ثم قطعه أربعين ذراعًا بين كلٍّ عشرة، فاحتقّ المهاجرون والأنصار ـ اختصموا فى الحق ـ فى سلمان الفارسى.. وكان رجلاً قويًّا ـ فقالت الأنصار: سلمان منّا أهل البيت. قال عمرو بن عوف: فكنت أنا وسلمان، وحذيفة بن اليمان، والنعمان بن مقرّن المزنّى، وستة من الأنصار فى أربعين ذراعًا، فحفرنا تحت ذوباب حتى بلغنا الندى، فأخرج الله ـ عزّ وجلّ ـ من بطن الخندق صخرة بيضاء مروة ـ حجارة بيض براقة تكون فيها النار وتقدح منها، المفرد: مروة ـ فكسرت حديدنا، وشقت علينا. فقلنا: ياسلمان، ارق إلى رسول الله ﷺ فأخبره خبر هذه الصخرة، فإمــا أن نعدل عنها فإن المعدل قريب، وإمّا أن يأمرنا فيها بأمره؛ فإنّا لانحب أن نجاوز خطه.

فرقى سلمان حتى أتى رسول الله ﷺ وهو ضاربٌ عليه قبّة؛ فقال: يارسول الله، بأبينا أنت وأمّنا، خرجت صخرة بيضاء من الخندق مروة، فكسرت حديدنا، وشقت علينا حتى مانحيك فيها قليلاً ولا كثيرًا، فمُرنا فيها بأمرك، فإنا لانحب أن نجاوز خطك. فهبط رسول الله ﷺ مع سلمان فى الخندق، ورقينا نحن التسعة على شقة الخندق، فأخذ رسول الله ﷺ المعول من سلمان، فضرب الصخرة ضربة صدعها، وبرقت منها برقة أضاء مابين لابتيها ـ يعنى لابتى المدينة ـ حتى لكأن مصباحًا فى جوف بيت مظلم. فكبر ﷺ تكبير الفتح، وكبر المسلمون. ثم ضربها الثانية، فصدعها وبرق منها برقة أضاء منها مابين لابتيها، حتى لكأن مصباحًا فى جوف بيت مظلم، فكبّر رسول الله ﷺ تكبير فتح وكبّر المسلمون، ثم ضربها الثالثة فكسرها، وبرق منها برق أضاء مابين لابتيها؛ حتى لكأن مصباحًا فى جوف بيت مظلم، فكبّر رسول الله ﷺ تكبير فتح وكبّر المسلمون، ثم أخذ بيد سلمان فرقى، فقال سلمان: بأبى أنت وأمى يارسول الله! لقد رأيت شيئًا ما رأيته قط! فالتفت رسول الله ﷺ إلى القوم، فقال: هل رأيتم

مايقول سلمان؟ قالوا: نعم يارسول الله، بأبينا أنت وأمنا، قد رأيناك تضرب فيخرج برق كالموج، فرأيناك تكبّر فنكبّر، ولا نرى شيئًا غير ذلك. قال: صدقتم، ضربت ضربتي الأولى، فبرق الذى رأيتم، أضاءت لى منها قصور الحيرة ومدائن كسرى، كأنها أنياب الكلاب، فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها، ثم ضربت ضربتى الثانية، فبرق الذى رأيتم؛ أضاءت لى منها قصور الحُمر من أرض الروم، كأنها أنياب الكلاب، فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها، ثم ضربت ضربتى الثالثة، فبرق منها الذى رأيتم، أضاءت لى منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب، فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها، فأبشروا، يبلغهم النصر، وأبشروا، يبلغهم النصر، وأبشروا، يبلغهم النصر! فاستبشر المسلمون، وقالوا: الحمد لله موعد صادق بارّ، وعدنا النصر بعد الحصر. فطلعت الأحزاب، فقال المؤمنون: ﴿ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾(١).

وقال المنافقون: ألا تعجبون! يحدّثكم ويمنيكم ويعدكم الباطل! يخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم، وأنتم تحفرون الخندق ولاتستطيعون أن تبرزوا! وأنزل القرآن: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا ﴾(٢).

عن أبى هريرة، أنه كان يقول حين فتحت هذه الأمصار فى زمن عمر وعثمان ومابعده: افتتحوا مابدا لكم! فوالذى نفس أبى هريرة بيده؛ ما افتتحتم من مدينة ولا تفتتحونها إلى يوم القيامة إلا وقد أعطى محمد مفاتيحها قبل ذلك.

وعن ابن إسحاق، قال: كان أهل الخندق ثلاثة آلاف، ولما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق، أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة بين الجرف

---

(١) الأحزاب : ٢٢.

(٢) الأحزاب : ١٢.

والغابة ـ اسم موضع ـ في عشرة آلاف من أحابيشهم، ومن تابعهم من كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تابعهم من أهل نجد، حتى نزلوا بذنب نقمى إلى جانب أحد.

وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون؛ حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع، في ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب هنالك عسكره، وأمر بالذراريّ والنساء. فرفعوا في الآطام ـ أي: الحصون ـ وخرج عدوّ الله حييّ بن أخطب، حتى أتى كعب بن أسد القرظيّ صاحب عقد بني قريظة وعهدهم؛ وكان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه، وعاهده على ذلك وعاقده، فلمّا سمع كعبٌ بحيي بن أخطب، أغلق دونه حصنه، فاستأذن عليه، فأبى أن يفتح له، فناداه حُيَيّ: ياكعب، افتح لي. قال: ويحك ياحُيي! إنك امرؤ مشئوم، إني قد عاهدت محمدًا فلستُ بناقض مابيني وبينه، ولم أرَ منه إلا وفاءً وصدقًا. قال: ويحك!! افتح لي أكلمك، قال: ما أنا بفاعل؛ قال: والله إن أغلقت دوني إلا على جشيشتك ـ طعام من البُر يطحن غليظًا ـ أن آكل معك منها؛ فأحفظ الرجل ـ أي: أغضبه ـ ففتح له، فقال: ويحك ياكعب! جئتك بعز الدهر وببحر طام، جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقمى إلى جانب أحُد، فقد عاهدوني وعاقدوني ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدا ومن معه. فقال له كعب بن أسد: جئتني والله بذلٍّ الدهر! بجهام قد هراق ماءه يرعد ويبرق، ليس فيه شيء! ويحك فدعني ومحمداً وما أنا عليه؛ فلم أرَ من محمد إلا صدقًا ووفاءًا! فلم يزل حييّ بكعب يفتله في الذروة والغارب، حتى سمح له، على أن أعطاه عهدا من الله وميثاقا: لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك. فنقض كعب بن أسد عهده، وبرئ مما كان عليه فيما بينه وبين رسول الله ﷺ.

فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ الخبر وإلى المسلمين، بعث سعد بن معاذ أحد بني عبد الأشهل ـ وهو يومئذ سيد الأوس ـ وسعد بن عبادة، أحد بني ساعدة

بن كعب بن الخزرج ـ وهو يومئذ سيد الخزرج ـ ومعهما عبد الله بن رواحة أخو بلحارث بن الخزرج، وخوّات بن جبير، أخو بنى عمرو بن عوف، فقال: انطلقوا حتى تنظروا: أحَقٌ ما بلغنا من هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقًّا فالحنوا لى لحنًا نعرفه، ولا تفتوا فى أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس.

فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث مابلغه عنهم؛ ونالوا من رسول الله ﷺ وقالوا: لاعقد بيننا وبين محمد ولاعهد، فشاتمهم سعد بن عبادة وشاتموه، وكان رجلا فيه حَدٌّ ـ غضب ـ فقال له سعد بن معاذ: دع عنك مشاتمتهم، فما بيننا وبينهم أربى من ـ أعظم من ـ المشاتمة. ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله ـ ﷺ فسلموا عليه، ثم قالوا: عضل والقارة ـ أى: كغدر عضل والقارة ـ بأصحاب رسول الله ﷺ أصحاب الرجيع؛ خبيب بن عدى وأصحابه.

فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر، أبشروا معشر المسلمين، وعظم ذلك عند البلاء، واشتد الخوف، وأتاهم عدوّهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق من بعض المنافقين، حتى قال معتب بن قشير، أخو بنى عمرو بن عوف: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لايقدر أن يذهب إلى الغائط! وحتى قال أوس بن قيظىّ، أحد بنى حارثة بن الحارث: يارسول الله، إن بيوتنا لعورة من العدو ـ وذلك عن ملأ من رجال قومه ـ فأذن لنا فلنرجع إلى دارنا، فإنها خارجة من المدينة.

فأقام رسول الله ﷺ، وأقام المشركون عليه بضعًا وعشرين ليلة، قريبًا من شهر، ولم يكن بين القوم حرب إلا الرمى بالنبل والحصار.

فلما اشتد البلاء على الناس بعث رسول الله ﷺ إلى عيينة بن حصن، وإلى الحارث بن عوف بن أبى حارثة المرى ـ وهما قائدا غطفان ـ فأعطاهما ثلث ثمار المدينة؛ على أن يرجعا بمن معهما عن رسول الله ﷺ، فجَرى بينه وبينهم

الصلح، إلاّ المراوضة فى ذلك، ففعلا، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل، بعث إلى سعد بن مُعاذ وسعد بن عبادة؛ فذكر ذلك لهما، واستشارهما فيه فقالا: يارسول الله، أمرٌ تحبه فتصنعه! أم شىء أمركَ الله - عزّ وجلّ - به، لابدّ لنا من عمل به، أم شىء تصنعه لنا؟ قال: لا، بل لكم.. والله ما أصنع ذلك إلاّ أنّى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم لأمر مّا ساعة. فقال له سعد بن معاذ: يارسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على شرك بالله - عزّ وجلّ - وعبادة الأوثان، ولانعبد الله ولانعرفه؛ وهم لايطمعون أن يأكلوا منا تمرة إلا قرى - وهو ما يصنع للضيف من طعام - أو بيعًا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك، نعطيهم أموالنا؟ مالنا بهذا من حاجة، والله لانعطيهم إلاّ السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. فقال رسول الله ﷺ: فأنت وذاك! فتناول سعد الصحيفة؛ فمحا مافيها من الكتاب، ثم قال: ليجهدوا علينا.

فأقام رسول الله ﷺ والمسلمون وعدوهم مُحاصروهم؛ لم يكن بينهم قتال إلاّ أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد وُدّ، أخو بنى عامر بن لؤىّ، وعكرمة ابن أبى جهل، وهبيرة بن أبى وهب المخزوميان، ونوفل بن عبد الله، وضرار بن الخطاب بن مرداس، أخو بنى محارب بن فهر، قد تلبسوا للقتال، وخرجوا على خيلهم، ومروا على بنى كنانة، فقالوا: تهيئوا يابنى كنانة للحرب، فستعلمون اليوم من الفرسان! ثم أقبلوا نحو الخندق، حتى وقفوا عليه، فلما رأوه قالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها، ثم تيمموا مكانا من الخندق ضيقًا، فضربوا خيولهم، فاقتحمت منه؛ فجالت بهم فى السبخة، بين الخندق وسلع، وخرج على بن أبى طالب فى نفر من المسلمين، حتى أخذ عليهم الثغرة التى أقحموا منها خيلهم، وأقبلت الفرسان تعنق - تسرع - نحوهم. وقد كان عمرو بن عبد ود قاتل يوم بدر، حتى أثبتته الجراحة، فلم يشهد أحدًا، فلما كان يوم الخندق خرج معلمًا - جعل له علامة يعرف بها - ليُرى مكانهُ؛ فلما وقف هو وخيله، وقال له علىّ: ياعمرو، إنك كنت تعاهد الله ألا يدعوك رجلٌ من قريش

إلى خلتين إلا أخذت منه إحداهما! قال: أجل! قال له علىٌّ بن أبى طالب: فإنى أدعوك إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ وإلى رسوله وإلى الإسلام، قال: لاحاجة لى بذلك؛ قال: فإنى أدعوك إلى النزال، قال: ولم يا بن أخى؛ فوالله ما أحب أن أقتلك! قال علىّ: ولكنىّ والله أحبُّ أن أقتلك. فحمى عمرو عند ذلك، فاقتحم عن فرسه فعقره ـ أى: ضرب وجهه ـ ثم أقبل على علىٍّ، فتنازلا وتجاولا، فقتله علىّ ـ عليه السلام ـ وخرجت خيله منهزمة، حتى اقتحمت من الخندق هاربة، وقتل مع عمرو رجلان: منبه بن عثمان بن عبيد بن عبد الدار، أصابه سهم فمات منه بمكة، ومن بنى مخزوم: توفل بن عبد الله بن المغيرة؛ وكان اقتحم الخندق فتورط فيه، فرموه بالحجارة، فقال: يامعشر العرب، قتلة أحسن من هذه! فنزل إليه علىّ فقتله، فغلب المسلمون على جسده، فسألوا[1] رسول الله ﷺ أن يبيعهم جسده، فقال ﷺ: لاحاجة لنا بجسده ولاثمنه، فشأنكم به، فخلى بينهم وبينه.

وكانت عائشة أم المؤمنين فى حصن بنى حارثة يوم الخندق، وكان من أحرز حصون المدينة، وكانت أم سعد بن مُعاذ معها فى الحصن. قالت عائشة: وذلك قبل أن يُضرب علينا الحجاب، فمرّ سعدٌ وعليه درعٌ مقلصة ـ قصيرة مرتفعة ـ قد خرجت منها ذراعه كلها، وفى يده حربته يرفدُ ـ يسرع ـ بها ويقول:

لبث قليلا يشهد الهيجا حمل　　　لابأس بالموت إذا حان الأجل

قالت له أمّه: الحق يابنى، فقد والله أخرت. قالت عائشة: فقلت لها: يا أمّ سعد؛ والله لوددت أن درع سعد كانت أسبغ مما هى ـ أى: أكمل ـ وخفت عليه حيث أصاب السهم منه.

فرُمى سعد بن معاذ بسهم، فقطع منه الأكحل ـ هو عرق فى الذراع ـ رماه حبانُ بن قيس بن العرقة أحد بنى عامر بن لؤى، فلما أصابه قال: خذها وأنا ابن

(١) أى: سأل المشركون رسول الله.

العرقة، فقال سعد: عرّق الله وجهك فى النار! اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئًا فأبقنى لها، فإنه لاقوم أحبّ إليّ أن أجاهرهم من قوم آذوا رسولك، وكذبوه وأخرجوه، اللهم إن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لى شهادة ولاتمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة.

وعن عباد بن عبد الله بن الزبير، قال: كانت صفية بنت عبد المطلب فى حصن حسّان بن ثابت، قالت: وكان حسّان معنا فيه مع النساء والصبيان، فمرّ بنا رجلٌ من يهود، فجعل يُطيف بالحصن، وقد حاربت بنو قريظة وقطعت مابينها وبين رسول الله ﷺ ليس بيننا وبينهم أحدٌ يدفع عنّا، ورسول الله ﷺ والمسلمون فى نحور عدوّهم لايستطيعون أن ينصرفوا إلينا عنهم إن أتانا آت، فقلت: ياحسّان إن هذا اليهودى ـ كما ترى ـ يُطيف بالحصن، وإنى والله ما آمنه أن يدل على عوراتنا من وراءنا من يهود، وقد شغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه، فانزل إليه فاقتله. فقال: يغفر الله لك يابنت عبد المطلب، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا! قالت: فلما قال لى ذلك ولم أر شيئًا، احتجزت ـ أى : شددت وسطى ـ ثم أخذت عمودًا، ثم نزلت من الحصن إليه فضربته بالعمود حتى قتلته، فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن، فقلت: ياحسان انزل إليه فاسلبه؛ فإنه لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجلٌ، قال: مالى بسلبه من حاجة يابنت عبد المطلب.

قال ابن إسحاق: وأقام رسول الله ﷺ وأصحابه فيما وصف الله ـ عزّ وجلّ ـ من الخوف والشدة، لتظاهر عدوهم عليهم، وإتيانهم من فوقهم ومن أسفل منهم!

أتى نعيم بن مسعود. . بن غطفان رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله، إنى قد أسلمت، وإن قومى لم يعلموا بإسلامى، فمرنى بما شئت. فقال له رسول الله ﷺ: إنما أنت فينا رجلٌ واحد؛ فخذّل عنا إن استطعت؛ فإن الحرب خدعة. فخرج نعيم حتى أتى بنى قريظة ـ وكان لهم نديمًا فى الجاهلية ـ فقال لهم: يابنى

قريظة، قد عرفتم ودّى إياكم، وخاصة مابينى وبينكم، قالوا: صدقت، لست عندنا بمتّهم. فقال لهم: إن قريشًا وغطفان قد جاءوا لحرب محمّد، وقد ظاهرتموهم عليه، وإن قريشًا وغطفان ليسوا كهيئتكم؛ البلد بلدكم، به أموالكم وأولادكم ونساؤكم؛ لاتقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره، وإن قريشًا وغطفان أموالهم وأبناؤهم ونساؤهم وبلدهم بغيره، فليسوا كهيئتكم، إن رأوْا منهزة وغنيمة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم؛ ولاطاقة لكم به إن خلا بكم؛ فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم يكونون بأيديكم، ثقة لكم على أن يقاتلوا معكم محمدًا؛ حتى تناجزوه، فقالوا: لقد أشرت برأى ونصح.

ثم خرج حتى أتى قريشًا، فقال لأبى سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش: يامعشر قريش، قد عرفتم ودّى وإياكم، وفراقى محمدًا؛ وقد بلغنى أمرٌ رأيت حقًّـا علىّ أن أبلغكموه نصحًا لكم، فاكتموا علىّ. قالوا: نفعل، قال: فاعلموا أن معشر يهود قد ندموا على مافعلوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه أن قد ندمنا على مافعلنا، فهل يرضيك عنا أن نأخذ من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم، فنعطيكهم، فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقى منهم؟ فأرسل إليهم أن نعم؛ فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهنًا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحدًا.

ثم خرج حتى أتى غطفان، فقال: يامعشر غطفان؛ أنتم أصلى وعشيرتى وأحبّ الناس إلىّ، ولا أراكم تتهموننى! قالوا: صدقت، قال: فاكتموا علىّ، قالوا: نفعل، قم قال لهم مثل ماقال لقريش؛ وحذرهم ماحذرهم.

فلما كانت ليلة السبت فى شوال سنة خمس؛ وكان مما صنع الله ـ عزّ وجلّ ـ لرسوله أن أرسل أبو سفيان ورءوس غطفان إلى بنى قريظة عكرمة بن أبى جهل، فى نفر من قريش وغطفان، فقالوا لهم: إنّا لسنا بدار مقام، قدِ هلك الخفّ والحافر، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدًا، ونفرغ مما بيننا وبينه، فأرسلوا إليهم أن اليوم السبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئًا، وقد كان أحدث فيه بعضنا

حدثًا فأصابه مالم يخف عليكم، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم حتى تعطونا رهنًا من رجالكم، يكونون بأيدينا ثقة لنا؛ حتى نناجز محمدًا، فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب، واشتدّ عليكم القتال، أن تشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل فى بلدنا، ولاطاقة لنا بذلك من محمد. فلمّا رجعت إليهم الرسل بالذى قالت بنو قريظة، قالت قريش وغطفان: تعلمون والله أن الذى حدثكم نعيم بن مسعود لحق. فأرسلوا إلى بنى قريظة، إنّا والله لاندفع إليكم رجلاً واحدًا من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا، فقالت بنو قريظة حين انتهت الرُسُل إليهم بهذا: إنّ الذى ذكر لكم نعيم بن مسعود لحقّ، مايريد القوم إلاّ أن يقاتلوا؛ فإن وجدوا فرصة انتهزوها؛ وإن كان غير ذلك تشمَّروا إلى بلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل فى بلادكم. فأرسلوا إلى قريش وغطفان: إنا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا، فأبوا عليهم، وخذل الله بينهم، وبعث الله ـ عزّ وجلّ ـ عليهم الريح فى ليالٍ شاتية شديدة البرد، فجعلت تكفأ قدورهم، وتطرح أبنيتهم، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ ما اختلف من أمرهم، وما فرق الله من جماعتهم، دعا حذيفة بن اليمان، فبعثه إليهم لينظر مافعل القوم ليلا.

قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله، رأيتم رسول الله وصحبتموه! قال: نعم يابن أخى، قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجهد. فقال الفتى: والله لو أدركناه لما تركناه يمشى على الأرض، ولحملناه على أعناقنا. فقال حذيفة: يابن أخى، والله لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق، وصلّى هويًّا من الليل ـ الهزيع الأخير ـ ثم التفت إلينا، فقال: من رجل يقوم فينظر لنا مافعل القوم ثم يرجع ـ يشرط الله أنه يرجع ـ أدخله الله الجنة! فما قام رجل. فعاد إلى الصلاة وأعاد علينا الطلب مرتين.. فما قام رجل من شدة الجوع وشدة البرد. فلمّا لم يقم أحد فى المرة الثالثة، دعانى رسول الله ﷺ فلم يكن لى بدّ من القيام حين دعانى، فقال: ياحذيفة اذهب فادخل فى القوم فانظر مايفعلون، ولاتحدثنّ شيئًا حتى تأتينا، قال: فذهبت فدخلت فى القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ماتفعل؛ لاتقر لهم قدرًا ولانارًا ولابناء. فقام

أبو سفيان بن حرب، فقال: يامعشر قريش، لينظر امرؤ جليسه. قال: فأخذت بيد الرجل الذى كان إلى جنبى، فقلت: من أنت؟ قال: أنا فلان بن فلان. ثم قالِ أبو سفيان: يامعشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مُقام، لقد هلك الكُراع والخُفّ، وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذى نكره، ولقينا من هذه الريح ماترون؛ والله ماتطمئن لنا قِدْرٌ، ولا تقوم لنا نار، ولايستمسك لنا بناءٌ؛ فارتحلوا فإنى مرتحل.

ثم قام إلى جمله وهو معقول، فجلس عليه، ثم ضربه فوثب به على ثلاث، فما أطلق عقاله إلا وهو قائم، ولولا عهد رسول الله ﷺ إلىَّ ألاّ أحدث شيئًا حتى آتيه، ثم شئت لقتلته بسهم. قال حذيفة: فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلى فى مرطٍ لبعض نسائه مُرحَّل؛ فلما رآنى أدخلنى بين رجليه وطرح علىّ طرف المرْط ـ كساء يؤتزر به من الصوف أو الخز أو الكتان ـ ثم ركع وسجد، فأذلقته. فلما سلم أخبرته الخبر، وسمعت غطفان بما فعلت قريش، فانشمروا راجعين إلى بلادهم. فلما أصبح نبى الله ﷺ انصرف عن الخندق راجعًا إلى المدينة والمسلمون، ووضعوا السلاح.

غزوة بنى قريظة

فلما كانت الظهر، أتى جبريل رسول الله ﷺ وقد لفّ رأسه بعمامة من إستبرق على بغلة عليها السرج، عليها قطيفة من ديباج، فقال: أقد وضعت السلاح يارسول الله؟ قال: نعم. قال جبريل: ما وضعت الملائكة السلاح ومارجعت الآن إلاّ من طلب القوم؛ إن الله يأمرك يامحمد بالسير إلى بنى قريظة، وأنا عامد إلى بنى قريظة.

فأمر رسول الله ﷺ مناديًا، فأذّن فى الناس: إن من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلّينّ العصر إلاّ فى بنى قريظة.

وقدَّم رسول الله ﷺ علىّ بن أبى طالب برايته إلى بنى قريظة، وابتدرها الناس، فسار علىّ ـ عليه السلام ـ حتى إذا دنا من الحصون، سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ منهم، فرجع حتى لقى رسول الله ﷺ بالطريق، فقال:

يارسول الله، لاعليك إلاّ أن تدنو من هؤلاء الأخابث! قال: لم؟ أظنك سمعت لى منهم أذًى! قال: نعم يارسول الله، لو قد رأونى لم يقولوا من ذلك شيئًا. فلما دنا رسول الله ﷺ من حصونهم، قال: يا إخوان القردة، هل أخزاكم الله، وأنزل بكم نقمته! قالوا: يا أبا القاسم، ماكنت جهولا. ومرّ رسول الله ﷺ على أصحابه بالصورين قبل أن يصل إلى بنى قريظة، فقال: هل مر بكم أحد؟ فقالوا: نعم يارسول الله، قد مر بنا دحية بن خليفة الكلبى، على بغلة بيضاء، عليها رحالة عليها قطيفة ديباج، فقال رسول الله ﷺ: ذلك جبريل، بعث إلى بنى قريظة يزلزل بهم حصونهم، ويقذف الرعب فى قلوبهم. فلما أتى رسول الله ﷺ بنى قريظة، نزل على بئر من آبارها فى ناحية من أموالهم، يقال لها بئر «أنا»؛ فلاحق به الناس، فأتاه رجال من بعد العشاء الآخرة، ولم يصلوا العصر، لقول رسول الله ﷺ: لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة، لشىء لم يكن لهم منه بد من حربهم، وأبوا أن يصلوا، لقول النبى ﷺ: حتى تأتوا بنى قريظة، فصلوا العصر بها بعد العشاء الآخرة. فما عابهم الله بذلك فى كتابه؛ ولاعنفهم به رسول الله ﷺ.

وحاصرهم رسول الله ﷺ خمسًا وعشرين ليلة، حتى جهدهم الحصار؛ وقذف الله فى قلوبهم الرعب ـ وقد كان حيىُّ بن أخطب دخل على بنى قريظة فى حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان، وفاءٌ لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه ـ فلما أيقنوا أنّ رسول الله ﷺ غيرُ منصرف عنهم حتى يناجزهم، قال كعب بن أسد لهم: يامعشر يهود، إنه قد نزل بكم من الأمر ماترون، وإنى عارض عليكم خلاّلا ثلاثًا فخذوا أيها شئتم! قالوا: وماهنّ؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه؛ فوالله لقد كان تبين لكم أنه لنبى مرسل، وأنه للذى كنتم تجدونه فى كتابكم، فتأمنوا على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم، قالوا: لانفارق حكم التوراة أبدًا، ولانستبدل به غيره. قال: فإذا أبيتم هذه علىَّ فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين السيوف، ولم نترك وراءنا ثقلاً يهمنا؛ حتى يحكم الله بيننا وبين محمد؛ فإن نهلك نهلك،

ولم نترك وراءنا شيئا نخشى عليه، وإن نظهر فلعمرى لنجدن النساء والأبناء. قالوا: نقتل هؤلاء المساكين، فما خير العيش بعدهم؟! قال: فإذا أبيتم هذه علىّ فإن الليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها؛ فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرّةً. قالوا: نفسد سبتنا، ونحدث فيه مالم يكن أحدث فيه من كان قبلنا، إلاّ من قد علمت فأصابه من المسخ مالم يخف عليك. قال: مابات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازمًا.

ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا أبا لُبابة بن عبد المنذر؛ أخا عمرو بن عوف - وكانوا حلفاء الأوس - نستشيره فى أمرنا، فأرسله رسول الله ﷺ إليهم، فلما رأوه قام إليه الزجال، وخفّ إليه النساء والصبيان يبكون فى وجهه، فرقّ لهم وقالوا له: يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟! قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه: إنه الذبح، قال أبو لبابة: فوالله مازالت قدماى حتى عرفت أنى خنت الله ورسوله.

ثم انطلق أبو لبابة على وجهه، ولم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط فى المسجد إلى عمود من عمده، وقال: لاأبرح مكانى هذا حتى يتوب الله علىّ مما صنعت؛ وعاهد الله ألا يطأ بنى قريظة أبدًا. وقال: لايرانى الله فى بلد خنت الله ورسوله فيه أبدًا. فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره، وأبطأ عليه - وكان قد استبطأه - قال: أما لو جاءنى لاستغفرت له؛ فأما إذ فعل مافعل، فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه.

حدثنا محمد بن إسحاق، أن توبة أبى لبابة أنزلت على رسول الله ﷺ وهو فى بيت أم سلمة، قالت أم سلمة: فسمعت رسول الله ﷺ من السحر يضحك، فقلت: مم تضحك يارسول الله، أضحك الله سنك! قال: تيب على أبى لبابة، فقلت: ألا أبشره بذلك يارسول الله! قال: بلى إن شئت، قال: فقامت على باب حجرتها - وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب - فقالت: يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك. قال: فثار الناس إليه ليطلقوه، فقال:

لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يطلقنى بيده، فلمّا مرَّ عليه خارجًا إلى الصبح أطلقه.

ثمَ إن ثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية، وأسعد بن عبيد ـ وهم نفر من بنى هدل؛ ليسوا من بنى قريظة ولا النضير، نسبهم فوق ذلك.. هم بنو عم القوم ـ أسلموا تلك الليلة التى نزلت فيها قريظة على حكم رسول الله ﷺ وخرج فى تلك الليلة عمرو بن سعدى القرظىّ، فمر بحرس رسول الله ﷺ وعليه محمد ابن مسلمة الأنصارى تلك الليلة، فلما رآه قال: من هذا؟ قال: عمرو بن سعدى ـ وكان عمرو قد أبى أن يدخل مع بنى قريظة فى غدرهم برسول الله ﷺ وقال: لا أغدر بمحمد أبدًا، فقال محمد بن مسلمة حين عرفه: اللهم لا تحرمنى عثرات الكرام. ثم خلى سبيله، فخرج على وجهه حتى بات فى مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة تلك الليلة. ثم ذهب فلا يدرى أين ذهب من أرض الله إلى يومه هذا! فذكر لرسول الله ﷺ شأنه، فقال: ذاك رجل نجاه الله بوفائه.

وبعض الناس يزعم أنه كان أوثق بحبل فيمن أوثق من بنى قريظة حين نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فأصبح حبله ملقى لا يدرى أين ذهب، فقال رسول الله ﷺ فيه تلك المقالة. والله أعلم.

قال ابن إسحاق: فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فتواثبت الأوس، فقالوا: يارسول الله، إنَّهم موالينا دون الخزرج، وقد فعلت فى موالى الخزرج بالأمس ماقد علمت. وقد كان رسول الله ﷺ قبل بنى قريظة حاصر بنى قينقاع، وكانوا حلفاء الخزرج، فنزلوا على حكمه؛ فسأله إياهم عبد الله بن أبىّ ابن سلول، فوهبهم له. فلما كلمه الأوس قال رسول الله ﷺ: ألا ترضَوْن يامعشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم! قالوا: بلى، قال: فذاك إلى سعد بن معاذ ـ وكان سعد بن معاذ قد جعله رسول الله ﷺ فى خيمة امرأة من أسلم يقال لها «رفيدة» فى مسجده، كانت تداوى الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين، وكان رسول الله ﷺ قد قال لقومه حين أصابه

السهم بالخندق: اجعلوه فى خيمة رفيدة، حتى أعوده من قريب ـ فلما حكَّمه رسول الله ﷺ فى بنى قريظة، أتاه قومه، فاحتملوه على حمار قد وطئوا له بوسادة من أدم ـ وكان رجلاً جسيمًا ـ ثم أقبلوا معه إلى الرسول ﷺ وهم يقولون: يا أبا عمرو، أحسن فى مواليك، فإن رسول الله ﷺ إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم. فلما أكثروا عليه قال: قد أنى لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم. فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بنى عبد الأشهل، فنعى لهم رجال بنى قريظة قبل أن يصل إليهم سعد بن معاذ عن كلمته التى سمع منه.

فلما طلع ـ يعنى سعدًا ـ قال رسول الله ﷺ: قوموا إلى خيركم فأنزلوه، فقال رسول الله ﷺ: احكم فيهم، قال: فإنى أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم، وأن تسبى ذراريُّهم، وأن تقسم أموالهم. فقال: لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله.

أما ابن إسحاق فإنه قال: لما انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ والمسلمون، قال رسول الله ﷺ: قوموا إلى سيدكم، فقاموا إليه، فقالوا: يا أبا عمرو، إنّ رسول الله ﷺ قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم، فقال سعد: عليكم بذلك.. عهد الله وميثاقه أن الحكم فيها ما حكمت! قالوا: نعم، قال: وعلى من هاهنا؟ فى الناحية التى فيها رسول الله ﷺ ـ وهو معرض عن رسول الله ﷺ إجلالاً له ـ فقال ﷺ: نعم، قال سعد: فإنى أحكم فيهم بأن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبَى الذرارى والنساء.

فقال رسول الله ﷺ لسعد: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة ـ أى: سماوات .

ثم استنزلوا، فحبسهم رسول الله ﷺ فى دار ابنة الحارث: امرأة من بنى النجار، ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة التى هى سوقها اليوم، فخندق بها خنادق، ثم بعث إليهم فضرب أعناقهم فى تلك الخنادق؛ يخرج بهم إليه أرسالا؛ وفيهم عدوّ الله حيىُّ بن أخطب، وكعب بن أسد؛ رأس القوم، وهم ستمائة أو سبعمائة؛ المكثر لهم يقول: كانوا من الثمانمائة إلى التسعمائة. وقد

قالوا لكعب بن أسد - وهم يُذهب بهم إلى رسول الله، ﷺ طائفة بعد طائفة: ياكعب، ماترى مايصنع بنا! فقال كعب: فى كل موطن لاتعقلون، ألا ترون الداعى لاينزع، وأنه من ذهب به منكم لايرجع، هو والله القتل! فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول الله ﷺ وأتى بحُيىّ بن أخطب عدوّ الله وعليه حُلة له فقاحية - بلون الورد فى بدء تفتحه - قد شققها عليه من كل ناحية كموضع الأنملة، أنملة أنملة، لئلا يسلبها، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل. فلمّا نظر إلى رسول الله ﷺ قال: أيها الناس: أمَا والله مالمت نفسى فى عداوته ولكنه من يخذل الله يُخْذَلْ. ثم أقبل على الناس: إنه لا بأس بأمر الله، كتاب الله وقدره، وملحمة قد كتبت على بنى إسرائيل. ثم جلس فضربت عنقه، فقال جبل بن جوال الثعلبى:

لَعَمْرُكَ مالامَ ابْنُ أَخْطَبَ نَفْسَهُ ... ولكنه مَنْ يَخْذُلِ الله يُخْذَلِ
لَجاَهدَ حتى أَبْلَغَ النَّفْسَ عُذْرَهَا ... وَقَلْقَلَ يَبْغِـى العِـزَّ كُلَّ مُقَلْقَلِ

قال ابن إسحاق: ثم إن رسول الله ﷺ قسم أموال بنى قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين، وأعلم فى ذلك اليوم سهمان الخيل وسهمان الرجال، وأخرج منها الخمس، فكان للفارس ثلاثة أسهم؛ للفرس سهمان ولفارسه سهم، وللراجل ممن ليس له فرسٌ سهم، وكانت الخيل يوم بنى قريظة ستة وثلاثين فرسًا، وكان أول فىء فيه السهمان، وأخرج منه الخمس، فعلى سنتها ومامضى من رسول الله ﷺ فيها وقعت المقاسم، ومضت السنة فى المغازى؛ ولم يكن يسهم للخيل إذا كانت مع الرجل إلاّ لفرسين.

ثم بعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأنصارى، أخا بنى عبد الأشهل بسبايا من بنى قريظة إلى نجد، فابتاع له بهم خيلاً وسلاحًا، وكان رسول الله ﷺ قد اصطفى لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن خناقة إحدى نساء بنى عمرو بن قريظة، فكانت عند رسول الله ﷺ حتى توفى عنها وهى فى ملكه، وقد كان عرض عليها أن يتزوجها، ويضرب عليها الحجاب، فقالت: يارسول الله، بل

تتركنى فى ملكك فهو أخف علىّ وعليك، فتركها؛ وقد كانت حين سباها رسول الله ﷺ قد تعصَّت بالإسلام، وأبت إلا اليهودية، فعزلها رسول الله ﷺ، ووجد لذلكِ فى نفسه من أمرها؛ فبينا هو مع أصحابه إذ سمع وقع نعلين خلفه، فقال: إنّ هذا لثعلبة بن سعية يبشرنى بإسلام ريحانة، فجاء فقال: يارسول الله، قد أسلمت ريحانة، فسرّه ذلك.

فلما انقضى شأن بنى قريظة انفجر جرح سعد بن معاذ، وذلك أنه دعا ـ بعد أن حكم فى بنى قريظة ماحكم ـ فقال: اللهمّ إنك قد علمت أنه لم يكن قوم أحبَّ إلىّ أن أقاتل أو أجاهد من قوم كذبوا رسولك.

اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش على رسولك شيئًا فأبقنى لها، وإن كنت قد قطعت الحرب بينه وبينهم فاقبضنى إليك. فانفجر كَلْمه، فرجعه رسول الله ﷺ إلى خيمته التى ضربت عليه فى المسجد، فحضره رسول الله ﷺ وأبو بكر، وعمر.. تقول عائشة: فوالذى نفس محمد بيده، إنى لأعرف بكاء أبى بكر من بكاء عمر، وإنى لفى حجرتى، وكانوا كما قال الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾[1].

أمّا رسول الله ﷺ فكانت عينه لاتدمع على أحد، ولكنه كان إذا اشتدّ وجده على أحد، أو إذا وجد فإنما هو آخذ بلحيته.

حدثنا ابن إسحاق، قال: لم يقتل من المسلمين يوم الخندق إلا ستة نفر، وقتل من المشركين ثلاثة نفر، وقتل يوم بنى قريظة ـ خلاد بن سويد.. بن الخزرج، طرحت عليه رحىً فشدخته شدخًا شديدًا، ومات أبو سنان بن محصن، أخو بنى أسد بن خزيمة، ورسول الله ﷺ محاصر بنى قريظة، فدفن فى مقبرة بنى قريظة. ولما انصرف رسول الله ﷺ عن الخندق، قال: الآن نغزوهم ـ يعنى قريشا ـ ولايغزوننا، فكان كذلك حتى فتح الله تعالى على رسول الله ﷺ مكة.

---

(١) الفتح : ٢٩.

وكان فتح بنى قريظة فى ذى القعدة أو فى صدر ذى الحجة، فى قول ابن إسحاق. أما الواقدى فإنه قال: غزاهم رسول الله ﷺ فى ذى القعدة، لليال بقين منه، وزعم أن رسول الله ﷺ أمر أن يشق لبنى قريظة فى الأرض أخاديد ثم جلس؛ فجعل علىّ والزبير يضربان أعناقهم بين يديه، وزعم أن المرأة التى قتلها النبى ﷺ يومئذ كانت تسمى بنانة، امرأة الحكم القرظىّ، كانت قتلت خلاد ابن سويد، رمت عليه رحًى، فدعا له رسول الله ﷺ فضرب عنقها بخلاد بن سويد.

واختلف فى وقت غزوة النبى ﷺ بنى المصطلق، وهى الغزوة التى يقال لها غزوة المريسيع ـ والمريسيع: اسم ماء من مياه خزاعة بناحية قديد إلى الساحل ـ فقال ابن إسحاق: إن رسول الله ﷺ غزا بنى المصطلق من خزاعة، فى شعبان سنة ست من الهجرة.

وقال الواقدى: غزا رسول الله ﷺ المريسيع فى شعبان سنة خمس من الهجرة. وزعم أن غزوة الخندق وغزوة بنى قريظة كانتا بعد المريسيع لحرب بنى المصطلق من خزاعة.

وزعم ابن إسحاق أن النبى ﷺ انصرف بعد فراغه من بنى قريظة؛ وذلك فى آخر ذى القعدة أو فى صدر ذى الحجة، فأقام بالمدينة ذا الحجة والمحرم وصفرًا وشهرى ربيع، وولى الحجة فى سنة خمس المشركون.

ذكر الأحداث التى كانت فى سنة ست من الهجرة

غزوة بنى لحيان

قال أبو جعفر: خرج رسول الله ﷺ فى جمادى الأولى على رأس ستّة أشهر من فتح بنى قريظة إلى بنى لحيان، يطلب بأصحاب الرجيع: خبيب بن عدىّ وأصحابه؛ وأظهر أنه يريد الشام ليصيب من القوم غرة. فخرج من المدينة، فسلك على غراب (جبل بناحية المدينة على طريقه إلى الشام) ثم على مَخيض،

ثم على البتراء، ثم عدل ذات اليسار، ثم على يَيْن، ثم على صخيرات اليمام، ثم استقام به الطريق على المحجة من طريق مكة، فأغذ السير سريعًا؛ حتى نزل على غران؛ وهى منازل بنى لحيان ـ وغران وادٍ بين أمج وعسفان ـ إلى بلد يقال له ساية، فوجدهم قد حذروا وتمنعوا فى رؤوس الجبال، فلما نزلها رسول الله ﷺ وأخطأه من غرتهم ما أراد، قال: لو أنا هبطنا عسفان لرأى أهل مكة أنا قد جئنا مكة. فخرج فى مائتى راكب من أصحابه حتى نزل عسفان، ثم بعث فارسين من أصحابه؛ حتى بلغا كراع الغميم، ثم كرا وراح قافلا.

قال ابن إسحاق: ثم قدم رسول الله ﷺ المدينة، فلم يقم إلا ليالى قلائل حتى أغار عيينة بن حصن بن حذيفة.. الفزارىّ فى خيل لغطفان على لقاح رسول الله ﷺ بالغابة؛ وفيها رجلٌ من بنى غفار وامرأته، فقتلوا الرجل واحتملوا المرأة فى اللقاح ـ أى: الإبل الحوامل ذوات الألبان.

غزوة ذى قَرَد

كلٌّ قد حدَّث فى غزوة ذى قرد بعض الحديث، وأوّل من علم بهم سلمة بن الأكوع الأسلمى، الذى غدا يريد الغابة متوشحًا قوسه ونبله، ومعه غلام لطلحة ابن عبيد الله.. قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ إلى المدينة ـ يعنى بعد صلح الحديبية ـ فبعث رسول الله ﷺ بإبله المعدة للركوب مع رباح غلام رسول الله، وخرجتُ معه بفرس لطلحة بن عبيد الله. فلما أصبحنا إذا عبد الرحمـٰن بن عيينة قد أغار على إبل رسول الله ﷺ فاستاقه أجمع، وقتل راعيه. قلت: يارباح، خذ هذا الفرس وأبلغه طلحة. وأخبر رسول الله أن المشركين قد أغاروا على سرحه. ثم قمت على أكمة فاستقبلت المدينة، فناديت ثلاثة أصوات، ياصاحباه! ثم خرجت في آثار القوم أرميهم بالنبل، وأرتجز وأقول: «أنا ابن الأكوع، اليوم يوم الرضع». فوالله مازلت أرميهم وأعقر بهم ـ أى: أقتل مركوبهم ـ فإذا رجع إلىّ فارس منهم أتيت شجرة وقعدت فى أصلها، فرميته فعقرت به، وإذا تضايق الجبل فدخلوا فى متضايق، علوت الجبل ثم أردّيهم بالحجارة؛ فوالله مازلت

كذلك حتى ماخلق الله بعيراً من إبل رسول الله ﷺ إلا جعلته وراء ظهرى،، وخلوا بينى وبينه وحتى ألقوا أثر من ثلاثين رمحًا وثلاثين بردة، يستخفون بها ـ أى: يلقونها ليكونوا خفافًا ويسهل فرارهم ـ لا يلقون شيئًا إلا جعلت عليه آرمًا ـ أى: أعلامًا ـ حتى يعرفه رسول الله ﷺ وأصحابه، حتى إذا انتهوا إلى متضايق من ثنية ـ أى : عقبة فى طريق الجبل ـ وإذا هم قد أتاهم عيينة بن حصن بن بدر ممداً، فقعدوا يتضحون ـ أى: يتغدون، وقعدت على قرن فوقهم ـ أى: جبل صغير منقطع عن الجبل الكبير ـ فنظر عيينة فقال: ما الذى أرى؟ قالوا: لقينا من هذا البرح ـ أى: الشدة ـ لا والله ما فارقنا هذا منذ غَلَّسَ، يرمينا حتى استنقذ كل شىء فى أيدينا. قال: فليقم منكم أربعة إليه. فعمد إلىّ أربعة منهم. فلما أمكنونى من الكلام، قلت: أتعرفونى؟ قالوا: من أنت؟ قلت: سلمة بن الأكوع؛ والذى كَرَّمَ وجه محمد لا أطلب أحدًا منكم إلا أدركته، ولايطلبنى رجل منكم فيدركنى. قال أحدهم: أنا أظن، قال: فرجعوا فما برحت مكانى ذاك حتى نظرت إلى فوارس رسول الله ﷺ يتخللون الشجر؛ أولهم الأخرم الأسدى، وعلى أثره أبو قتادة الأنصارى، وعلى أثره المقداد بن الأسود الكندى، فأخذت بعنان فرس الأخرم، فولّوا مدبرين، فقلت: يا أخرم؛ إن القوم قليل، فاحذرهم لايقتطعوك حتى يلحق بنا رسول الله وأصحابه. فقال: ياسلمة، إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر، وتعلم أن الجنة حق والنار حق، فلا تحل بينى وبين الشهادة. قال: فخليته، فالتقى هو وعبد الرحمٰن بن عيينة، فعقر الأخرم بعبد الرحمٰن فرسه، فطعنه عبد الرحمٰن فقتله، وتحول عبد الرحمٰن على فرسه، ولحق أبو قتادة عبد الرحمٰن فطعنه وقتله، وعقر عبد الرحمٰن بأبى قتادة فرسه، وتحوّل أبو قتادة على فرس الأخرم، فانطلقوا هاربين. قال سلمة: فوالذى كرم وجه محمد لتبعتهم أعدو على رجلىّ، حتى ما أرى ورائى من أصحاب محمد ـ ﷺ ولاغبارهم شيئًا.

ويعدلون قبل غروب الشمس إلى شعب فيه ماء يقال له ذو قرد يشربون منه وهم عطاش، فنظروا إلىّ أعدو فى آثارهم؛ فحليتهم ـ أى: طردتهم ـ فما ذاقوا منه قطرة.

ويصعدون في عقبة ذي أثير، ويعطف عليّ واحدٌ فأرشقه بسهم فيقع في نفض - عظيم رقيق - كتفه، فقلت:

خذها وأنا ابن الأكوع   واليوم يوم الرُّضَّع

فقال: أكوعي غدوة! قلت: نعم ياعدوّ نفسه؛ وإذا فرسان على الثنية، فجئت بهما أقودهما إلى رسول الله، ولحقني عامر عمي بعدما أظلمت وسطيحة - إناء جلدي - فيها مذقة - قليل - من لبن وسطيحة فيها ماء، فتوضأت وصليت وشربت، ثم جئت إلى رسول الله ﷺ وهو على الماء الذي جليتهم عنه، عند ذي قرد، وإذا رسول الله قد أخذ تلك الإبل التي استقذت من العدو، وكل رمح وكل بردة، وإذا بلال نحر ناقة من الإبل التي استنقذت من العدو فهو يشوي لرسول الله من كبدها وسنامها، فقلت: يارسول الله، خلني فلأنتخب مائة رجل من القوم، فأتبع القوم فلا يبقى منهم عين. فضحك رسول الله ﷺ حتى بدا وقد بانت نواجذه في ضوء النار. ثم قال: أكنت فاعلاً! فقلت: إي والذي أكرمك!

فلما أصبحنا قال رسول الله: إنهم ليقرون - يضافون - بأرض غطفان. فجاء رجل من غطفان، فقال: نحر لهم فلان جزورًا، فلما كشطوا عنها جلدها رأوا غبارًا؛ فقالوا: أتيتم فخرجوا هاربين، فلما أصبحنا قال رسول الله ﷺ: خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رجالتنا سلمة بن الأكوع، ثم أعطاني رسول الله ﷺ سهمين، سهم الفارس، وسهم الراجل، فجمعها لي إلى المدينة، فبينما نحن نسير؛ وكان رجل من الأنصار لايسبق شدًا - أي: عدوًا على الرجلين - فجعل يقول: ألا من مسابق؟! فقال ذلك مرارًا؛ فلمّا سمعته قلتُ: أما تكرم كريمًا ولاتهاب شريفًا! فقال: لا؛ إلاّ أن يكون رسول الله، فقلت: يارسول الله، بأبي أنت وأمي! ائذن لي فلأسابق الرجل! قال: إن شئت، قال: فظفرت فعدوت، فربطت شرفًا أو شرفين - ما ارتفع من الأرض - فألحقه وأصكه بين كتفيه، فقلت: سبقتك والله! فقال: إنّي أظن، فسبقته إلى المدينة، فلم نمكث بها إلا ثلاثًا حتى خرجنا إلى خيبر.

ذكر غزوة بنى المصْطَلق

بلغ رسول الله ﷺ أنّ بنى المُصْطلق يجتمعون له، وقائدهم الحارث بن أبى ضرار، أبو جويرية بنت الحارث، زوج النبى ﷺ، فلما سمع بهم رسول الله خرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم، يقال له: المريسيع، من ناحية قديد إلى الساحل، فتزاحف الناس واقتتلوا قتالاً شديدًا، فهزم الله بنى المصطلق، وقتل من قتل منهم، ونفل رسول الله ﷺ أبناءهم ونساءهم وأموالهم؛ فأفاءهم الله عليه.

وقد أصيب رجلٌ من المسلمين من بنى كلب بن عوف، يقال له هشام بن صبابة، أصابه رجَلٌ من الأنصار من رهط عبادة بن الصامت؛ وهو يرى أنه من العدوّ، فقتله خطأ.

فبينا الناس على ذلك الماء وردت واردة الناس، ومع عمر بن الخطاب أجيرٌ له من بنى غفار يقال له جهجاه بن سعيد، يقود له فرسه، فازدحم جهجاه وسنان الجهنى حليف بنى عوف بن الخزرج على الماء، فاقتتلا، فصرخ الجهنى: يامعشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يامعشر المهاجرين، فغضب عبد الله بن أبىّ بن سلول، وعنده رهط من قومه، فيهم زيد بن أرقم غلام حديث السن، فقال: أقد فعلوها؟! قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا، والله ماعدونا وجلابيب قريش ـ من أسلموا ـ ماقال القائل: «سَمِّنْ كلبك يأكلك»؛ أما ولله رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل! ثم أقبل على من حضره من قومه، فقال: هذا مافعلتم بأنفسكم! أحللتموهم بلادهم، وقاسمتموهم أموالكم! أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم.

فسمع ذلك زيد بن أرقم، فمشى به إلى رسول الله ﷺ وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ من عدوّه. فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب، فقال: يارسول الله، مُر به عباد بن بشر بن وقش فليقتله، فقال رسول الله ﷺ: فكيف ياعمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه! لا، ولكن أذِّن بالرحيل ـ وذلك فى ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها فارتحل الناس، وقد مشى عبد الله بن

أبى بن سلول إلى رسول الله ﷺ حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ماسمع منه. فحلف بالله: ماقلت ماقال، ولاتكلمت به - وكان عبدُ الله بن أبى فى قومه شريفًا عظيمًا - فقال من حضر رسول الله ﷺ من أصحابه من الأنصار: يارسول الله، عسى أن يكون الغلام أوهم فى حديثه ولم يحفظ ماقال الرجل! حدبًا - أى: حذرا - على عبد الله بن أبى ودفعا عنه.

فلما استقل رسول الله ﷺ وسار، لقيه أسيد بن حضير، فحياه تحية النبوة، وسلم عليه، ثم قال: يارسول الله، لقد رحت فى ساعة منكرة ماكنت تروح فيها! فقال له رسول الله ﷺ: أو مابلغك ماقال صاحبكم؟! قال: وأى صاحب يارسول الله؟! قال: عبد الله بن أبىّ، قال: وماقال؟ قال: زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعزّ منها الأذلّ، قال أسيد: فأنت والله يارسول الله تخرجه إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز! ثم قال: يارسول الله، ارفق به فوالله لقد جاء الله بك؛ وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه؛ فإنه ليَرى أنك قد استلبته ملكًا.

ثم متن - مشى - رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس؛ فلم يكن إلا أن وجدوا مس الأرض وقعوا نيامًا؛ وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس من حديث عبد الله بن أُبَىّ.

ثم راح بالناس، وسلك الحجاز حتى نزل على ماء بالحجاز فويق النقيع، يقال له نقعاء، فلما راح رسول الله ﷺ هبت على الناس ريحٌ شديدة آذتهم، وتخوفوها، فقال رسول الله ﷺ: لاتخافوا، فإنما هبت لموت عظيم من عظماء الكفار، فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن زيد بن التابوت، أحد بنى قينقاع - وكان عن عظماء اليهود وكهفًا للمنافقين - قد مات فى ذلك اليوم.

ونزلت السورة التى ذكر الله فيها المنافقين فى عبد الله بن أبى بن سلول ومن كان معه على مثل أمره، فقال: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ ﴾[1]، فلما

(١) المنافقون: ١.

سهمها خرج بها معه؛ فلما كانت غزوة بنى المصطلق، أقرع بين نسائه كما كان يصنع؛ فلما كانت غزوة بنى المصطلق، أقرع بين نسائه كما كان يصنع؛ فخرج سهمى عليهن، فخرج بى رسول الله ﷺ وكان النساء إذا ذاك إنما يأكلن العلق - طعام خفيف - لم يُهَبِّجْهُنَّ - يسبب انتفاخًا - فيثقلن، وكنت إذا رحل بعيرى جلست فى هودجى، ثم يأتى القوم الذين يرحلون هودجى فى بعيرى ويحملونى فيأخذون بأسفل الهودج، فيرفعونه فيضعونه على ظهر البعير، فيشدونه بحباله ثم يأخذون برأس البعير، فينطلقون به. فلما فرغ رسول الله ﷺ من سفره ذلك، وجه قافلا، حتى إذا كان قريبًا من المدينة نزل منزلاً، فبات فيه بعض الليل، ثم أذن فى الناس بالرحيل، فلما ارتحل الناس خرجت لبعض حاجتى وفى عنقى عقد لى فيه خرز بلدة ظفار، فلما فرغت انسل من عنقى ولا أدرى؛ فلما رجعت إلى الرحل ذهبت ألتمسه فى عنقى فلم أجده، وقد أخذ الناس فى الرحيل.

قالت: فرجعت عودى على بدئى إلى المكان الذى ذهبت إليه، فالتمسته حتى وجدته، وجاء خلافى القوم الذين كانوا يرحلون لى البعير، وقد فرغوا من رحلته، فأخذوا الهودج، وهم يظنون أنّى فيه كما كنت أصنع، فاحتملوه، فشدّوه على البعير، ولم يشكوا أنى فيه. ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به، ورجعت إلى العسكر ومافيه داع ولامجيب، قد انطلق الناس، فَتَلَفَّفْتُ بجلبابى ثم اضطجعت فى مكانى الذى ذهبت إليه؛ وعرفت أن لو قد افتقدونى قد رجعوا إلىّ. فوالله إنى لمضطَجعة، إذ مرّ بى صفوان بن المعطل السلمى - وكان يعمل على ساقة العسكر، يلتقط مما يسقط من متاع المسلمين حتى يأتيهم به - وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته، فلم يبت مع الناس فى العسكر، فلما رأى سوادى أقبل حتى وقف علىّ فعرفنى - وقد كان يرانى قبل أن يضرب علينا الحجاب - فلما رآنى قال: إنا لله وإنّا إليه راجعون! أظعينة رسول الله؟ وأنا متلفّفة فى ثيابى. قال: ماخلّفَك رحمك الله؟.. فما كلمتُه، ثم قرّب البعير، فقال: اركبى رحمك الله! واستأخر عنّى. فركبتُ وجاء فأخذ برأس البعير،

فانطلق بى سريعًا يطلب الناس؛ فوالله ما أدركنا الناس، وما افتُقدت حتى أصبحت، ونزل الناس، فلما اطمأنّوا طلع الرجل يقودنى، فقال أهل الإفك فِيَّ ماقالوا! فارتج العسكر، ووالله ما أعلم بشىء من ذلك. ثم قدمنا المدينة، فلم أمكث أن اشتكيت شكوى شديدة، ولايبلغنى شىء من ذلك؛ فلم أمكث أن اشتكيت شكوى شديدة، ولايبلغنى شىء من ذلك؛ وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ وإلى أبوىَّ، ولا يذكران لى من ذلك قليلاً ولا كثيرًا، إلاّ أنى أنكرت من رسول الله ﷺ بعض لطفه بى؛ كنت إذا اشتكيت رحمنى ولطف بى، فلم يفعل ذلك فى شكواى تلك، فأنكرت منه، وكان إذا دخل علىَّ وأمّى تُمرضنى، قال: كيف تيكم؟ لايزيد على ذلك. قالت: حتى وجدت فى نفسى مما رأيت من جفائه عنى، فقلت له: يارسول الله، لو أذنت لى فانتقلت إلى أمى فمرضتنى! قال: لاعليك! فانتقلت إلى أمّى، ولا أعلم بشىء مما كان، حتى نقِهت من وجعى بعد بضع وعشرين ليلة.. وكنا قومًا عربا لانتخذ فى بيوتنا هذه الكنف التى تتخذها الأعاجم، نعافها ونكرهها؛ إنما كنا نخرج فى فسح المدينة؛ وإنما كان النساء يخرجن كل ليلة فى حوائجهن؛ فخرجت ليلة لبعض حاجتى، ومعى أمّ مسطح بنت أبى رهم بن المطلب بن عبد مناف، وكانت أمها بنت صخر ابن عامر بن كعب.. خالة أبى بكر. فوالله إنها لتمشى معى، إذ عثرت فى مرطها ـ ردائها ـ فقالت: تعِس مسطح! قلت: بئس لعمر الله ماقلت لرجل من المهاجرين قد شهد بدرًا! قلت: أو مابلغك الخبر يابنت أبى بكر؟! قلت: وما الخبر؟.. فأخبرتنى بالذى كان من قول أهل الإفك. قلت: وقد كان هذا؟! قالت: نعم والله لقد كان، فوالله ماقدرت على أن أقضى حاجتى، ورجعت فما زلت أبكى حتى ظننت أن البكاء سيصدع ـ سيشقّ ـ كبدى.. وقلت لأمى: يغفر الله لك! تحدّث الناس بما تحدثوا به وبلغك ما بلغك، ولاتذكرين لى من ذلك شيئًا! قالت: أى بنية خفضى الشأن ـ هوِّنيه عليك ـ فوالله قلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلاّ وكثَّر الناس عليها.

وقد قام رسول الله ﷺ فى الناس يخطبهم ولا أعلم بذلك. ثم قال: أيها

الناس، مابالُ رجال يؤذوننى فى أهلى، ويقولون عليهنّ غير الحق! والله ماعلمت منهن إلا خيرًا، ويقولون ذلك لرجل والله ماعلمت منه إلا خيرا؟ ومادخل بيتًا من بيوتى إلا وهو معى. . وكان كُبْرُ ذلك (إثمه) عند عبد الله بن أبىّ بن سلول فى رجال من الخزرج؛ مع الذى قال مسطح وحمنة بنت جحش ـ وذلك أن أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله ﷺ ولم تكن من نسائه امرأة تناصبنى فى المنزلة عنده غيرها، فأما زينب فعصمها الله، وأمّا حمنة بنت جحش، فأشاعت من ذلك ما أشاعت ، تضارّنى (أى: تضادّنى) لأختار زينب بنت جحش ـ فشقيت بذلك.

فلما قال رسول الله ﷺ تلك المقالة، قال أسيد بن حضير أخو بنى عبد الأشهل: يارسول الله، إن يكونوا من الأوس نكفكهم، وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا بأمرك؛ فوالله إنهم لأهلٌ أن تضرب أعناقهم. فقام سعد بن عبادة ـ وكان قبل ذلك يُرى رجلاً صالحًا ـ فقال: كذبت لعمر الله لاتضرب أعناقهم! أما والله ماقلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج، ولو كانوا من قومك ماقلت هذا! قال أسيد: كذبت لعمر الله! ولكنك منافق تجادل عن المنافقين! وتنافر الناس حتى كاد أن يكون بين هذين الحيَّين من الأوس والخزرج شرّ، ونزل رسول الله ﷺ فدخل علىّ، فدعا على بن أبى طالب وأسامة بن زيد فاستشارهما، فأمّا أسامة فأثنى خيرًا وقاله، ثم قال: يارسول الله، أهلك ولانعلم عليهن إلا خيرًا، وهذا الكذب والباطل. وأمّا علىٌّ فإنه قال: يارسول الله، إن النساء لكثير؛ وإنك لقادر على أن تستخلف؛ وسل الجارية فإنها تصدقك. فدعا رسول الله ﷺ بريرة يسألها. قالت: فقام إليها علىٌّ فضربها ضربًا شديدًا؛ وهو يقول: اصدقى رسول الله؛ قالت: والله ما أعلم إلاّ خيرًا، وماكنت أعيب على عائشة؛ إلا أنى كنت أعجن عجينى فآمرها أن تحفظه فتنام عنه، فيأتى الداجن فيأكله[1].

---

(١) فى سيرة ابن هشام: «فتأتى الشاة فتأكله».

ثم دخل عليَّ رسولُ الله ﷺ وعندى أبواى، وعندى امرأة من الأنصار وأنا أبكى وهى تبكى معى؛ فجلس فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ياعائشة؛ إنه قد كان مابلغك من قول الناس، فاتقى الله، وإن كنت قارفت سوءًا ـ أى: دخلت فى السوء ـ مما يقول الناس فتوبى إلى الله؛ فإن الله يقبل التوبة عن عباده؛ قالت: فوالله ماهو إلاّ أن قال ذلك، تقلص دمعى[1]، حتى ما أحس منه شيئًا، وانتظرت أبوىّ أن يجيبا رسول الله ﷺ فلم يتكلّما. قالت: وايم الله لأنا كنت أحقر فى نفسى وأصغر شأنًا من أن ينزل الله ـ عزّ وجلّ ـ فىَّ قرآنًا يقرأ به فى المساجد؛ ويصلى به، ولكنّى قد كنت أرجو أن يرى رسول الله فى نومه شيئًا يكذب الله به عنّى، لما يعلم من براءتى، أو يخبر خبرًا؛ فأمّا قرآنٌ ينزل فىّ، فوالله لنفسى كانت أحقر عندى من ذلك.. فلمّا لم أر أبوىّ يتكلمان، قلت: ألا تجيبان رسول الله! فقالا لى: والله ماندرى بماذا نجيبه! قالت: وايم الله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم مادخل على آل أبى بكر فى تلك الأيام! فلما استعجما علىّ استعبرت فبكيت، ثم قلت: والله لاأتوب إلى الله مما ذكرت أبدًا؛ والله لئن أقررت بما يقول الناس ـ والله يعلم أنى منه بريئة ـ لتصدّقنى؛ لأقولنّ مالم يكن؛ ولئن أنا أنكرت ما تقولون لاتصدقوننى. قالت: ثم التمست اسْم يعقوب فما أذكره؛ ولكنى أقول كما قال أبو يوسف: ﴿ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ** ﴾[2].

فوالله مابرح رسول الله ﷺ مجلسه حتى تغشاه من الله ماكان يتغشاه، فسجِّى بثوبه، ووضعت وسادة من أدم تحت رأسه؛ فأما أنا حين رأيت من ذلك مارأيت؛ فوالله مافزعت كثيراً ولا باليت؛ قد عرفت أنّى بريئة، وأن الله غير ظالمى، وأمّا أبواى؛ فوالذى نفس عائشة بيده، ماسرى عن رسول الله ﷺ حتى ظننت لتخرجنّ أنفسهما فرقًا أن يأتى من الله تحقيق ماقال الناس. ثم سُرى عن رسول الله ﷺ فجلس، وإنه ليتحدر منه مثل الجمان فى يوم شات، فجعل يمسح

(١) أي : جَفّ.

(٢) يوسف : ١٨.

العرق عن جبينه، ويقول: أبشرى ياعائشة؛ فقد أنزل الله براءتك، قالت: فقلت: بحمد الله وذمكم. ثم خرج إلى الناس فخطبهم، وتلا عليهم ما أنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ من القرآن فِىّ. ثم أمر بمسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش ـ وكانوا ممّن أفصح بالفاحشة ـ فضربوا حدَّهم.

وعن بعض رجال بنى النجار، أن أبا أيوب خالد بن زيد، قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب، أما تسمع ما يقول الناس فى عائشة؟ قال: بلى؛ وذلك الكذب؛ أكنت يا أم أيوب فاعلةً ذلك! قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال: فعائشة والله خيرٌ منك. قال: فلما نزل القرآن ذكر الله من قال من الفاحشة ما قال من أهل الإفك: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُم**.. ﴾[1] الآية، وذلك حسان بن ثابت فى أصحابه الذين قالوا ما قالوا.

ثم قال الله ـ عزّ وجلّ: ﴿ **لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا** ﴾[2] الآية، أى: كما قال أبو أيوب وصاحبته. ثم قال: ﴿ **إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ** ﴾[3].

فلما نزل هذا فى عائشة وفيمن قال لها ما قال، قال أبو بكر ـ وكان ينفق على مسطح لقرابته منه وحاجته: والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا، ولا أنفعه بنفع أبدًا بعد الذى قال لعائشة، وأدخل علينا ما أدخل! قالت: فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ فى ذلك: ﴿ **وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ** ﴾[4] الآية.

فقال أبو بكر: والله لأُحبُّ أن يغفر الله لى. فرجع إلى مسطح نفقته التى كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا.

---

(١) النور : ١١.
(٢) النور: ١٢.
(٣) النور: ١٥.
(٤) النور : ٢٢.

ثم إنّ صفوان بن المعطّل اعترض حسان بن ثابت بالسيف حين بلغه ما يقول فيه؛ وقد كان حسّان قال شعرًا مع ذلك يعرض بابن المعطل فيه وبمن أسلم من العرب من مضر، فقال:

أمسى [الجلابيب][1] قد عزُّوا وقد كثروا وابن الفريعة أمسى [بيضة البلد][2]

قد ثكلتْ أمُّهُ من كنتَ صاحبه أو كان منتشبًا في بُرْثُن الأسد

فاعترضه صفوان بن المعطّل بالسيف فضربه ثم قال:

تلَقَّ ذُباب السَّيْف عنِّى فإننى غُلام إذا هُوجِيتُ لَسْت بشاعر

ووثب ثابت بن قيس بن الشّمّاس أخو بلحْارث بن الخزرج، وثب على صفوان بن المعطّل فى ضربه حسّان، فجمع يديه إلى عُنُقه، فانطلق به إلى دار بنى الحارث بن الخزرج، فلقيه عبد الله بن رواحة، فقال: ما هذا؟ قال: ألا أعجبك ضرب حسّان بن ثابت بالسّيْف! والله ما أراه إلاّ قد قتله. فقال له عبد الله بن رواحة: هل علم الرسول ﷺ بشىء مما صنعت؟ قال: لا والله، قال: لقد اجترأت! أطلق الرجل، فأطلقه.

ثم أتوا رسول الله ﷺ فذكروا له ذلك، فدعا حسّان وصفوان بن المعطّل، فقال ابن المعطّل: يارسول الله، آذانى وهجانى، فاحتملنى الغضب فضربته. فقال رسول الله ﷺ لحسّان: ياحسّان أتشوّهْت على قومى - أى: أقبحت ذلك من فعلهم - أن هداهم الله للإسلام؟! ثم قال: أحسِن أحسِنْ ياحَسّان فى الذى قد أصابك، قال: هى لك يارسول الله.

وأعطاه رسول الله ﷺ عِوضًا بَيْرحا - وهى قصر بنى جُدَيْلة اليوم بالمدينة، كانت مالاً لأبى طلحة بن سهل، تصدّق بها إلى رسول الله - عليه الصلاة

(١) الجلابيب: الغرباء.

(٢) بيضة: ذليل.

والسلام ـ فأعطاها حسّان فى ضربته ـ وأعطاه سيرين، أمة قبطيةً، فولدت له عبد الرحمٰن بن حسان.

ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة شهر رمضان وشوّالا، وخرج فى ذى القعدة من سنة ست معتمرًا.

ذكر الخبر عن عمرة النبى ﷺ

التى صده المشركون فيها عن البيت، وهى قصة الحديبية

عن مجاهد أن النبى ﷺ اعتمر ثلاث عُمرٍ، كلها فى ذى القعدة؛ يرجع فى كلها إلى المدينة.

وعن ابن إسحاق، قال: خرج النبى ﷺ معتمرًا فى ذى القعدة لايريد حربًا، وقد استنفر العرب ومن حوله من أهل البوادى من الأعراب أن يخرجوا معه، وهو يخشى من قريش الذى صنعوا به أن يعرضوا له بحرب، أو يصدوه عن البيت، فأبطأ عليه كثير من الأعراب، وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من المهاجرين والأنصار، ومن لحق به من العرب، وساق معه الهدى، وأحرم بالعمرة، ليأمن الناس من حربه، وليعلم الناس أنه إنما جاء زائرًا لهذا البيت، معظمًا له.

واختلفت الأقوال فى عدد الرجال الذين صاحبوا سيدنا رسول الله ﷺ وتصاعد من أربعة عشر ومائة رجل إلى سبعمائة حتى بلغ عند ابن عباس إلى ألف وخمسمائة وخمسة وعشرين كانوا هم أهل بيعة الحديبية تحت الشجرة.

فخرج رسول الله ﷺ حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبى، فقال له: يارسول الله، هذه قريش قد سمعوا بمسيرك، فخرجوا معهم العُوذ المطافيل ـ أى: الإبل الحديثة النتاج ـ التى معها أولادها بنسائهم وصبيانهم، قد لبسوا جلود النمور، وقد نزلوا بذى طوى، يحلفون بالله لاتدخلها عليهم أبدًا، وهذا خالد ابن الوليد فى خيلهم، قد قدموها إلى كراع الغميم.

وقد كان بعضهم يقول: إن خالد بن الوليد كان يومئذ مع رسول الله ﷺ مسلمًا. إذ إن النبى ﷺ خرج بالهدى، وانتهى إلى ذى الحليفة، فقال له عمر: يارسول الله، تدخل على قوم هم لك حربٌ بغير سلاح ولاكراع؟! فبعث النبى ﷺ إلى المدينة، فلم يدع فيها كراعًا ولا سلاحًا إلا حمله، فلما دنا من مكة منعوه أن يدخل، فسار حتى أتى منىً فنزل بمِنًى، فأتاه عينُه أنّ عِكْرمة بن أبى جهل قد خرج عليك فى خمسمائة، فقال رسول الله ﷺ لخالد بن الوليد: ياخالد، هذا ابن عمك، قد أتاك فى الخيل، فقال خالد: أنا سيف الله وسيف رسوله ـ فيومئذ سُمى سيف الله ـ: يارسول الله ارم بى حيث شئت. فبعثه على خيل، فلقى عكرمة فى الشعب، فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، ثم عاد فى الثانية، فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، ثم عاد فى الثالثة فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾(1).

قال: وكَفّ الله النبى ﷺ عنهم بعد أن أظفره عليهم لبقايا من المسلمين كانوا بقوا فيها من بعد أن أظفره عليهم كراهية أن تطأهم الخيل بغير علم.

أما ابن إسحاق فيواصل حديثه بقوله: قال رسول الله ﷺ: ياويح قريش! قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب؛ فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين؛ وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوّة. فما تظنّ قريش؟! فوالله لا أزال أجاهدهم على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة ـ أى: صفحة العنق، ويكنى بانفرادها عن الموت.

ثم قال: من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها؟ فقال رجل من أسلم: أنا يارسول الله، فسلك بهم على طريق وعر حزن بين شعاب، فلما

---

(1) الفتح: ٢٤، ٢٥.

أن خرجوا منه ـ وقد شقّ ذلك على المسلمين، وأفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادى ـ قال رسول الله ﷺ للناس: قولوا: نستغفر الله ونتوب إليه. ففعلوا. فقال الرسول ﷺ: والله إنها للحطة ـ أى: حط الذنوب عنا ـ التى عرضت على بنى إسرائيل فلم يقولوها[1].

ثم أمر رسول الله ﷺ الناس فقال: اسلكوا ذات اليمين، بين ظهرى الحمض فى طريق تخرجه على ثنية المرار؛ على مهبط الحديبية من أسفل مكة. فسلك الجيش ذلك الطريق، فلما رأت خيل قريش قترة الجيش ـ أى: مايثيره من الغبار ـ وأن رسول الله ﷺ قد خالفهم عن طريقهم، ركضوا راجعين إلى قريش، وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا سلك فى ثنية المرار، بركت ناقته، فقال الناس: خلأت ـ أى: بركت ـ فقال: ماخلأت، وماهو لها بخلق؛ ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة؛ لاتدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى صلة الرحم إلاّ أعطيتهم إياها. ثم قال للناس: انزلوا، فقيل: يارسول الله، ما بالوادى ماء ننزل عليه! فأخرج سهمًا من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل فى قليب من تلك القلب فغرزه فى جوفه، فجاش ـ ارتفع ـ الماء بالرى حتى ضرب الناس عليه بعطن ـ يضرب ذلك مثلا لاتساع الناس ـ ويذكر أن الرجل الذى نزل فى القليب بسهم الرسول ﷺ هو ناجية بن جندب بن عمير.. وهو سائق بدن رسول الله ﷺ.

فبينا هم كذلك جاء بديل بن ورقاء الخزاعى فى نفر من قومه من خزاعة ـ وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ، أى: خاصته وأصحاب سرّه ـ من أهل تهامة ـ فقال: إنى تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى قد نزلوا أعداد مياه الحديبية ـ الماء الدائم ـ معهم العوذ المطافيل؛ وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت. فقال النبى ﷺ: إنا لم نأت لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإنّ قريشًا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شاءوا ماددناهم مدة ويخلّوا بينى وبين الناس، فإن أظهره، فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلاّ فقد جموا؛ وإن هم أبوا

---

(١) يريد قوله تعالى: ﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾.

فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى، أو لينفذن الله أمره. فقال بديل: سنبلغهم ماتقول.

فانطلق حتى أتى قريشًا فقال: إنا قد جئناكم من عند هذا الرجل، وسمعناه يقول قولا، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا. فقال سفهاؤهم: لاحاجة أن تحدّثنا عنه بشىء، وقال ذوو الرأى منهم: هات ماسمعته يقول، قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال النبى ﷺ فقام عروة بن مسعود الثقفى، فقال: أى قوم، ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى، قال: فهل تتهموننى؟ قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أنّى استنفرت أهل عكاظ؛ فلما أبوا علىّ جئتكم بأهلى وولدى ومن أطاعنى! قالوا: بلى، قال: فإن هذا الرجل قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، ودعونى آته. فقالوا: ائته. فأتاه.

فجعل يكلم النبى ﷺ، فقال النبى نحوًا من مقالته لبديل، فقال عروة عند ذلك: أى محمد، أرأيت إن استأصلت قومك، فهل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فوالله إنى لأرى وجوها وأخلاطًا من الناس خُلُقًا أن يفرّوا ويدعوك. فقال أبو بكر: امصص بظر اللات - واللات طاغية ثقيف التى كانوا يعبدون - أنحن نفر وندعه! فقال: من هذا؟ فقالوا: أبو بكر، فقال: أما والذى نفسى بيده لولا يد كانت لك عندى لم أجزك بها لأجبتك؛ وجعل يكلم النبى ﷺ فكلما كلمه أخذ بلحيته - والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبى ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر - فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبى ﷺ ضرب يده بنعل السيف وقال: أخر يدك عن لحيته، فرفع عروة رأسه، فقال: من هذا؟ قالوا: المغيرة بن شعبة، قال: أى غدر؛ ألست أسعى فى غدرتك؟! وكان المغيرة بن شعبة صحب قومًا فى الجاهلية فقتلهم، وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبى ﷺ: أما الإسلام فقد قبلنا، وأما المال فإنه مال غدر، لاحاجة لنا فيه.

وإن عروة جعل يرمق أصحاب النبى ﷺ بعينه. قال: فوالله إن يتنخم النبىّ

نخامة إلا وقعت فى كفّ رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده؛ وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه؛ وإذا تكلموا عنده خفضوا أصواتهم وما يحدون النظر إليه تعظيمًا له.

فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: أى قوم، والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على كسرى وقيصر والنجاشى، والله إن رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه مايعظم أصحاب محمد محمدًا، والله إن يتنخم نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا عنده خفضوا أصواتهم؛ ومايحدون النظر إليه تعظيما له؛ وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها. فقال رجل من كنانة: دعونى آته، فقالوا: ائته..

فلما أشرف على النبى ﷺ وأصحابه قال ﷺ: هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها له، فبعثت له، واستقبله قوم يلبون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله! ماينبغى لهؤلاء أن يصدوا عن البيت!

ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة ـ أو ابن زبان ـ وكان يومئذ سيد الأحابيش؛ وهو أحد بلحارث بن عبد مناة بن كنانة، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: إنّ هذا من قوم يتألّهون ـ أى: يتعبدون ويعظمون الآلهة ـ فابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه، فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى فى قلائده ـ أى: من جانب الوادى مميزة بقلائد فى أعناقها ـ قد أكل أوباره من طول الحبس، رجع إلى قريش، ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظامًا لما رأى.

فقال: يامعشر قريش، إنى قد رأيت مالا يحل صده: الهدى فى قلائده، قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله؛ قالوا له: اجلس، فإنما أنت رجل أعرابى لاعلم لك. فغضب الحليس عند ذلك، وقال: يامعشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم؛ أن تصدوا عن بيت الله من جاءه معظمًا له؛ والذى نفس الحليس بيده لَتُخَلُّنَّ بين محمد وبين ماجاء له؛ أو لأنفرن بالأحابيش

نفرة رجل واحد!! فقالوا له: مَهْ! كف عنا ياحليس حتى نأخذ لأنفسنا مانرضى به. فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص، فقال لهم: دعونى آته. قالوا: ائته. فلما أشرف عليهم قال النبى ﷺ: هذا مكرز بن حفص؛ وهو رجل فاجر. فجاء فجعل يكلم النبى ﷺ، فبينا هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو.. فقال ﷺ: قد سهل لكم من أمركم. وكانت قريش قد بعثته إليه هو وحويطب بن عبد العزّى وحفص بن فلان ليصالحوا النبى ﷺ، وأكمل رسول الله ﷺ قائلا: القوم ماتُّون إليكم بأرحامكم، وسائلوكم الصلح، فابعثوا الهدى، وأظهروا التلبية، لعل ذلك يلين قلوبهم. فلبوا من نواحى العسكر حتى ارتجت أصواتهم بالتلبية. فجاءوا فسألوه الصلح، فبينما الناس قد توادعوا، وفى المسلمين ناس من المشركين، وفى المشركين ناس من المسلمين.. ففتك أبو سفيان بأحدهم، فإذا الوادى يسيل بالرجال والسلاح. وإذا بسلمة ينبرى لستة من المشركين.. فيحكى قائلا: فجئت بستة من المشركين متسلحين أسوقهم، مايملكون لأنفسهم نفعًا ولاضراً، فأتيت بهم النبى ﷺ فلم يسلب ولم يقتل.. وعفا، وأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾[1].

ثم إن قريشًا بعثوا سهيل بن عمرو وحويطبًا، فولّوهم صلحهم، وبعث النبى ﷺ عليـًا ـ عليه السلام ـ فى صلحه.

ويذكر ابن إسحاق أن قريشا إنما بعثت سهيل بن عمرو بعد رسالة كان رسول الله ﷺ أرسلها إليهم مع عثمان بن عفان.

وتفصيل ذلك أن رسول الله ﷺ دعا خراش بن أمية الخزاعى، فبعثه إلى قريش بمكة، وحمله على جمل له يقال له الثعلب، ليبلغ أشرافهم عنه ماجاء له، فعقروا به جمل رسول الله وأرادوا قتله، فمنعته الأحابيش. كما بعثت قريش أربعين ـ أو خمسين ـ رجلا منهم، وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا لهم من أصحابه، فأخذوا أخذًا، فأتى بهم رسول الله ﷺ فعفا عنهم،

(١) الفتح : ٢٤.

وخلَّى سبيلهم ـ وقد كانوا رموا فى عسكر رسول الله ﷺ بالحجارة والنبل ـ ثم دعا النبى ﷺ عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة، فيبلغ عنه أشراف قريشٍ ماجاء له؛ فقال: يارسول الله؛ إنى أخاف قريشًا على نفسى، وليس بمكة من بنى عدى ابن كعب أحد يمنعنى؛ عرفت قريش عداوتى إياها، وغلظتى عليها، ولكنى أدلك على رجل هو أعز بها منى: عثمان بن عفان! فدعا رسول الله ﷺ عثمان، فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب؛ وإنما جاء زائرًا لهذا البيت، معظمًا لحرمته.

فخرج عثمان إلى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة ـ أو قبل أن يدخلها ـ فنزل عن دابته، فحمله بين يديه، ثم ردفه وأجاره، حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن الرسول ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة النبى ﷺ إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف به، قال: ماكنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ، فاحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل. . فقال ﷺ: لانبرح حتى نناجز القوم؛ ودعا الناس إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة.

وحكى سلمة بن الأكوع قائلاً: بينما نحن قافلون من الحديبية، نادى منادى النبى ﷺ: أيها الناس؛ البيعة البيعة! نزل روح القدس. فسرنا إلى رسول الله وهو تحت شجرة سمرة، فبايعناه، وذلك قول الله تعالى: ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ** ﴾(١)، بايعنا رسول الله على ألا نفر؛ ولم نبايعه على الموت، وكان عددنا أربعة عشر ومائة، وكان أول من بايع بيعة الرضوان رجلاً من بنى أسد، يقال له: أبو سنان بن وهب، كما كان سلمة بن الأكوع فى أوّل الناس، وأعطاه النبى ﷺ درقة لما رآه أعزل. . وحدّث قائلا: ثم إن رسول الله بايع الناس؛ حتى إذا كان فى آخرهم قال: ألا تبايع ياسلمة؟ فبادر

---

(١) الفتح : ١٨.

مجيبًا: يارسول الله، قد بايعتك فى أول الناس وأوسطهم! قال: وأيضًا. فبايعه الثالثة.

وقال ابن إسحاق: فبايع رسول الله ﷺ الناس، ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذى كان من أمر عثمان باطل. ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ وقالوا له: ائت محمدًا فصالحه، ولايكن فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لاتحدِّث العرب أنه دخل علينا عنوة أبدًا.

فأقبل سهيل، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً، قال: قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل. فلما انتهى سهيل إليه تكلم فأطال الكلام، وتراجعا، ثم جرى بينهما الصلح، فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب، وثب عمر بن الخطاب، فأتى أبا بكر، فقال: يا أبا بكر، أليس برسول الله؟! قال: بلى. قال: أولسنا بالمسلمين؟! قال: بلى. قال: أوليسوا بالمشركين؟! قال: بلى. قال: فعلام نعطى الدنية - أى: الذل - فى ديننا؟! قال أبو بكر: ياعمر الزم غرزه - أى: أمره - فإنى أشهد أنه رسول الله. قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله، ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله، ألست برسول الله؟! قال: بلى. قال: أولسنا بالمسلمين؟! قال: بلى. قال: أوليسوا بالمشركين؟! قال: بلى. قال: فعلام نعطى الدنية فى ديننا؟! فقال: أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره، ولن يضيعنى. فكان عمر يقول: مازلت أصوم وأتصدق وأصلى وأعتق من الذى صنعت يومئذ؛ مخافة كلامى الذى تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيرًا.

وعن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - قال: ثم دعانى رسول الله ﷺ فقال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم. فقال سهيل: لا أعرف هذا، ولكن أكتب: «باسمك اللهم». فقال رسول الله: اكتب «باسمك اللهم»، فكتبتها، ثم قال: اكتب: «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو»، فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك،

قال: فقال رسول الله ﷺ: اكتب «هذا ماصالح عليه محمد بن عبد الله سهيل ابن عمرو؛ اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى رسول الله من قريش بغير إذن وليّه ردّه عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع رسول الله لم تردّه عليه. وأنّ بيننا عيبة مكفوفة - أى: لاتكون عداوة بيننا - وأنه لا إسلال - أى: سرقة خفية - ولا إغلال - أى: خيانة - وأنه من أحبّ أن يدخل فى عقد رسول الله وعهده دخل فيه، ومن أحبّ أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم، دخل فيه» - فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن فى عقد رسول الله وعهده، وتواثبت بنو بكر، فقالوا: نحن فى عقد قريش وعهدها - «وأنك ترجع عنّا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكّة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك، فدخلتها بأصحابك؛ فأقمت بها ثلاثًا، وأن معك سلاح الراكب، السيوف فى القرب لاتدخلها بغير هذا».

فبينا رسول الله ﷺ يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف فى الحديد، قد انفلت إلى رسول الله ﷺ، وقد كان أصحاب النبى ﷺ خرجوا وهو لايشكون فى الفتح، لرؤيا رآها ﷺ، فلما رأوْا ما رأوْا من الصلح والرجوع، وماتحمّل عليه رسول الله ﷺ فى نفسه، دخل الناس من ذلك أمرٌ عظيم حتى كادوا أن يهلكوا.. فلمّا رأى سهيل أبا جندل، قام إليه فضرب وجهه، وأخذ بلببه، فقال: يامحمدّ، قد لجت - تمت - القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا! قال: صدقت.. فجعل سهيل ينتر أبا جندل بلببه - أى: يجذبه بشدة وجفاء - ويجره ليرده إلى قريش، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يامعشر المسلمين، أردُّ إلى المشركين يفتنوننى فى دينى! فزاد الناس ذلك شرًّا إلى مابهم، فقال رسول الله ﷺ: يا أبا جندل، احتسب، فإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا؛ إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم عقدا وصلحًا، وأعطيناهم على ذلك عهدًا، وأعطونا عهدًا، وإنا لانغدر بهم.

فوثب عمر بن الخطاب مع أبى جندل يمشى إلى جنبه، ويقول: اصبر يا أبا

جندل، فإنّما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دمُ كلب! ويدنى قائم السيف منه.. يقول عمر: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه.. فضنّ الرجل بأبيه.

فَلمّا فرغ من الكتاب أشهد على الصلح رجالاً من المسلمين، ورجالاً من المشركين: أبا بكر بن أبى قحافة، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمٰن بن عوف، وعبد الله بن سهيل بن عمرو، وسعد بن أبى وقاص، ومحمود بن مسلمة أخا بنى عبد الأشهل، ومكرز بن حفص بن الأخيف ـ وهو مشرك ـ أخا بنى عامر ابن لؤى، وعلىّ بن أبى طالب، وكتب: وكان هو كاتب الصحيفة.

فلما دخلها ـ أى: مكة ـ ومضى الأجل، أتى المشركون عليًّا ـ عليه السلام ـ فقالوا له: قل لصاحبك: اخرج عنّا فقد مضى الأجل، فخرج رسول الله ﷺ.

وعن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم فى قضية الحديبية.. قالا: فلمّا فرغ رسول الله ﷺ من قضيته قال لأصحابه: قوموا فانحروا، ثم احلقوا.. فوالله ماقام منهم رجلٌ حتى قال ذلك ثلاث مرّات؛ فلما لم يقم منهم أحد، قام فدخل على أمّ سلمة، فذكر لها مالقى من الناس، فقالت له أمّ سلمة: يانبى الله، أتحب ذلك! اخرج لاتكلّم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بدنتك؛ وتدعو حالقك فيحلقك. فقام فخرج فلم يكلم أحدًا منهم كلمة حتى فعل ذلك؛ نحو بدنته ودعا حالقه فحلقه. فلما رأوْا ذلك قاموا فنحروا؛ وجعل بعضهم يحلق بعضًا؛ حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا. وكان الذى لحقه خراش بن أمية الخزاعى.

وعن ابن عباس، قال: حلق رجال يوم الحديبية، وقصر آخرون؛ فقال رسول الله ﷺ: يرحم الله المحلقين، قالوا: والمقصرين يارسول الله؟ قال: يرحم الله المحلقين، قالوا: والمقصرين يارسول الله؟ قال: يرحم الله المحلقين، قالوا: يارسول الله.. والمقصرين؟ قال: والمقصرين؛ قالوا: يارسول الله؛ فلم ظاهرت الترحم للمحلقين دون المقصرين؟ قال: لأنهم لم يشكّوا.

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أهدى فى عام الحديبية فى هداياه جملاً لأبى جهل فى رأسه برة من فضة، ليغيظ المشركين بذلك.

ثم رجع النبى ﷺ إلى المدينة، فما فتح فى الإسلام فتح قبله كان أعظم منه؛ إنما كان القتال حيث التقى الناس ، فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب أوزارها، وأمن الناس كلهم بعضهم بعضًا فالتقوا، وتفاوضوا فى الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحدٌ بالإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فيه، فلقد دخل فى تلك السنتين فى الإسلام مِثل ماكان فى الإسلام قبل ذلك وأكثر.. فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة جاءه أبو بصير (رجل من قريش) عتبة بن أسيد بن جارية ـ وهو مسلم، وكان ممن حبس بمكة ـ فلما قدم عليه، كتب فيه أزهر بن عوف والأخنس ابن شريق بن عمرو الثقفى إلى رسول الله ﷺ، وبعث رجلا من بنى عامر بن لؤى، ومعه مولى لهم. فقدما على النبى ﷺ بكتاب الأزهر والأخنس، فقال رسول الله ﷺ: يا أبا بصير، إنّا قد أعطينا هؤلاء القوم ماقد علمت؛ ولايصلح لنا فى ديننا الغدر، وإنّ الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا.

فانطلق معهما حتى إذا كان بذى الحليفة، جلس إلى جدار وجلس معه صاحباه، فقال أبو بصير: أصارمٌ سيفك هذا يا أخا بنى عامر؟ قال: نعم. قال: أنظر إليه؟ قال: إن شئت ! فاستله أبو بصير ، ثم علاه به حتى قتله ، وخرج المولى سريعًا حتى أتى رسول الله ﷺ وهو جالس فى المسجد، فلما رآه رسول الله طالعًا، قال: إنّ هذا رجل قد رأى فزعًا. فلما انتهى إلى رسول الله قال: ويلك ! مالك؟! قال: قتل صاحبكم صاحبى؛ فوالله مابرح حتى طلع أبو بصير متوشحا بالسيف، حتى وقف على رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله، وفت ذمتك، وأدى عنك، أسلمتنى ورددتنى إليهم ثم أنجانى الله منهم.. فقال النبى ﷺ: ويل أمّه مِسْعَرُ حَرْبٍ[1] لو كان معه رجالٌ!

(١) وفى رواية : مِحَشّ حربٍ، أى: مشعل حرب ومهيجها.

فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم. . فخرج أبو بصير حتى نزل بالعيص من ناحية ذى المروة على ساحل البحر بطريق قريش الذى كانوا يأخذون إلى الشام.

وبلغ المسلمين الذين كانوا احتبسوا بمكة قول رسول الله ﷺ لأبى بصير: «ويل أمّه مِسْعَرُ حرب لو كان معه رجال»، فخرجوا إلى أبى بصير بالعيص. وينفلت أبو جندل بن سهيل بن عمرو، فلحق بأبى بصير؛ فاجتمع إليه قريب من سبعين رجلاً منهم؛ فكانوا قد ضيقوا على قريش؛ فوالله مايسمعون بعيرٍ خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لهم فقتلوهم، وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبى ﷺ يناشدونه بالله وبالرحم لما أرسل إليهم! فمن أتاه فهو آمن، فآواهم رسول الله ﷺ فقدموا عليه المدينة.

زاد ابن إسحاق فى حديثه: فَلَمَّا بلغ سهيلَ بن عمرو قَتْلُ أبى بصير صاحِبَهم العامرىّ أسند ظهره إلى الكعبة، وقال: لا أؤخر ظهرى عن الكعبة؛ حتى يُودَوا هذا الرجل. فقال أبو سفيان بن حرب: «والله إنّ هذا لهُوَ السّفه! والله لايودَى!» ثلاثًا.

ثم جاءه - يعنى رسول الله - نسوة مؤمنات، فأنزل الله - عزّ وجلّ -: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ ﴾** حتى بلغ: **﴿ بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾**[1] فطلق عمر بن الخطاب يومئذ امرأتين كانتا له فى الشرك، فنهاهم أن يردوهنّ، وأمرهم أن يردّوا الصّداق حينئذ. فتزوّج إحداهما معاوية بن أبى سفيان، والأخرى صفوان بن أمية.

وهاجرت إلى رسول الله ﷺ أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط فى تلك المدة، فخرج أخواها عمارة والوليد ابنا عقبة؛ حتى قدما على رسول الله ﷺ يسألانه أن

---

(١) الممتحنة: ١٠.

يردّها عليهما بالعهد الذى كان بينه وبين قريش فى الحديبية؛ فلم يفعل، أبى الله ـ عزّ وجلّ ـ ذلك.

فى هذه السنة ـ كما قال الواقدى ـ فى شهر ربيع الآخر بعث رسول الله ﷺ عكاشة بن محصن فى أربعين رجلاً إلى الغمر، فيهم ثابت بن أقرم وشجاع بن وهب؛ فأغذ السير، وعلم القوم به فهربوا؛ فنزل على مياههم وبعث الطلائع؛ فأصابوا عينًا فدلهم على بعض ماشيتهم، فوجدوا مائتى بعير، فحدروها إلى المدينة.

وفيها بعث رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة فى عشرة نفر فى ربيع الأول منها، فكمن القوم لهم حتى نام هو وأصحابه، فما شعروا إلا بالقوم، فقتل أصحاب محمد بن مسلمة وأفلت هو جريحًا.

وفيها أسرى رسول الله ﷺ سريّة أبى عبيدة بن الجراح إلى ذى القصّة فى شهر ربيع الآخر فى أربعين رجلاً، فساروا ليلتهم مشاةً، ووافوا ذا القصّة مع عماية الصبح، فأغاروا عليهم، فأعجزوهم هربًا إلى الجبال، وأصابوا نعمًا وسقط متاعٍ ورجلاً واحدًا، فأسلم، فتركه رسول الله ﷺ.

وفيها كانت سريّة زيد بن حارثة بالجموم، فأصاب امرأة من مزينة، يقال لها حليمة، فدلتهم على محلةٍ مِنْ محالّ بنى سليم، فأصابوا بها نعمًا وشاءً وأسراء؛ وكان فى أولئك الأسراء زوج حليمة، فلما قفل بما أصاب، وهب رسول الله ﷺ للمزنية زوجها ونفسها.

وفيها كانت سريّة زيد بن حارثة إلى العيص فى جمادى الأولى، فأخذت الأموال التى كانت مع أبى العاص بن الربيع، فاستجار بزينب بنت النبى ﷺ فأجارته.

وفيها كانت سريّة زيد بن حارثة إلى الطرف فى جمادى الآخرة، إلى بنى ثعلبة فى خمسة عشر رجلاً، فهربت الأعراب وخافوا أن يكون رسول الله سار إليهم، فأصاب من نعمهم عشرين بعيراً، وغاب أربع ليالٍ.

وفيها سريّة زيد بن حارثة إلى حسمى فى جمادى الآخرة، حيث كان دحية الكلبى قادمًا من عند قيصر، محملاً بمال أجازه به وكساء، فلقيه ناس من جذام قطعوا عليه الطريق فى حسمى، فلم يترك معه شىء، فجاء إلى رسول الله قبل أن يدخل بيته فأخبره، فبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة إلى حسمى.

وفيها سريّة زيد بن حارثة إلى وادى القرى فى رجب.

وفيها سريّة عبد الرحمـٰن بن عوف إلى دومة الجندل فى شعبان، وقال له رسول الله ﷺ: إن أطاعوك فتزوج ابنة ملكهم؛ فأسلم القوم، فتزوج عبد الرحمـٰن تماضر بنت الأصبغ، وهى أم أبى سلمة، وكان أبوها رأسهم وملكهم.

وفيها أجدب الناس جدبًا شديدًا، فاستسقى رسول الله ﷺ فى شهر رمضان بالناس.

وفيها سريّة علىّ بن أبى طالب ـ عليه السلام ـ إلى فدك فى شعبان، بمائة رجل معه إلى حىّ من بنى سعد بن بكر، وذلك أنه بلغ رسول الله أن لهم جمعًا يريدون أن يمدوا يهود خيبر، فسار إليهم الليل وكمن النهار، وأصاب عينًا؛ فأقرّ لهم أنه بعث إلى خيبر يعرض عليهم نصرهم على أن يجعلوا لهم ثمر خيبر.

ذكر خروج رُسُل رسولِ الله ﷺ إلى الملوك

وفيها بعث رسول الله ﷺ الرُّسُل، فبعث فى ذى الحجة ستة نفر: ثلاثة مصطحبين؛ حاصب بن أبى بلتعة من لخم حليف بنى أسد بن عبد العُزى إلى المقوقس، وشجاع بن وهب من بنى أسد بن خزيمة ـ حليفًا لحرب بن أمية شهد بدرًا ـ إلى الحارث بن أبى شمر الغسّانى، ودحية بن خليفة الكلبى إلى قيصر. وبعث سليط بن عمرو العامرىّ أخا بنى عامر بن لؤى إلى هوذة بن على الحنفى، وبعث عبد الله بن حُذافة السهمى إلى كسرى، وعمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى.

وفى الكتاب الذى فيه تسمية من بعثهم رسول الله ﷺ إلى ملوك الخائبين،

فيه أن النبى ﷺ خرج على أصحابه ذات غداة، فقال لهم: إنى بعثت رحمةً وكافة؛ فأدّوا عنى يرحمكم الله؛ ولاتختلفوا علىَّ كاختلاف الحواريين على عيسى ابن مرَيم، قالوا: يارسول الله، وكيف كان اختلافهم؟ قال: دعا إلى مثل مادعوتكم إليه؛ فأمّا من قرب به فأحبّ وسلم، وأمّا من بعُد به فكره وأبى، فشكا ذلك منهم عيسى إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ فأصبحوا من ليلتهم تلك، وكان رجل منهم يتكلم بلغة القوم الذين بعث إليهم، فقال عيسى: هذا أمر قد عزم الله لكم عليه، فامضوا.

أما ابن إسحاق فقد زاد البعوث عددًا وزمنًا، فقال: كان رسول الله ﷺ قد فرّق رجالا من أصحابه إلى ملوك العجم والعرب، دعاة إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ فيما بين الحديبية ووفاته. فبعث سليط بن عمرو أخا بنى عامر بن لؤى إلى هوذة ابنْ علىّ ـ صاحب اليمامة ـ وبعث العلاء بن الحضرمّى إلى المنذر بن ساوى أخى بنى عبد القيس ـ صاحب البحرين ـ وعمرو بن العاص إلى جَيْفَر بن جُلَنْدَى وعبّاد بن جلندى الأزديين صاحبى عُمان. وبعث حاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس صاحب الإسكندرية، فأدّى إليه كتاب رسول الله ﷺ، وأهدى المقوقس إلى النبى أربع جوار، منهنّ مارية أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، وبعث دحية ابن خليفة الكلبى ثم الخَزْجىّ ـ نسبة إلى جده الخَزْج بن عامر ـ إلى قيصر، وهو هرقل ملك الروم، فلما أتاه بكتاب رسول الله ﷺ نظر فيه، ثم جعله بين فخذيه وخاصرته.

وعن عبد الله بن عباس قال: حدثنى أبو سفيان بن حرب قال: كنا قومًا تجارًا، وكانت الحربُ بيننا وبين رسول الله ﷺ، قد حصرتنا حتى نهكت أموالنا، فلما كانت الهدنة بيننا وبين رسول الله ﷺ لم نأمن ألا نجد أمنًا، فخرجت فى نفر من قريش تجارًا إلى الشام، وكان وجه متجرنا منها غزة، فقدمناها حين ظهر هرقل على من كان بأرضه من فارس، وأخرجهم منها، وانتزع له منهم صليبه الأعظم؛ وكانوا قد استلبوه إياه، فلمّا بلغه أن صليبه قد استنقذ له ـ وكانت حمص منزله ـ خرج منها يمشى على قدميه متشكرا لله حين ردّ عليه ماردّ،

ليصلّى فى بيت المقدس، تُبسط له البسط، وتلقى عليها الرياحين، فلما انتهى إلى إيلياء وقضى فيها صلاته، ومعه بطارقته وأشارف الروم، أصبح ذات غداة مهمومًا يقلب طرفه إلى السماء، وأبلغ بطارقته قائلا: أريت فى هذه الليلة أن ملك الختان ظاهرٌ! قالوا له: أيها الملك، مانعلم أمةً تختتن إلاّ يهود، وهم فى سلطانك وتحت يدك، فابعث إلى كل من لك سلطان عليه فى بلادك، فمره فليضرب أعناق كل من تحت يديه من يهود، واسترح من هذا الهمّ؛ فوالله إنهم لفى ذلك من رأيهم يديرونه؛ إذ أتاه رسول صاحب بصرى برجل من العرب يقوده ـ وكانت الملوك تهادى الأخبار بينها ـ فقال: أيها الملك، إنّ هذا الرجل من العرب من أهل الشاء والإبل؛ يحدث عن أمر حدث ببلاده عجب، فسله عنه. فقال هرقل لترجمانه: سله، ماكان هذا الحدث الذى كان ببلاده؟ فأجاب قائلا: خرج بين أظهرنا رجلٌ يزعم أنه نبىّ، قد اتبعه ناس وصدّقوه وخالفه ناس، وقد كانت بينهم ملاحم فى مواطن كثيرة؛ فتركتهم على ذلك.

فلما أخبره الخبر، قال: جردوه.. فإذا هو مختون، فقال هرقل: هذا والله الذى أريت، لا ما تقولون، أعطوه ثوبه، انطلق عنا.. ثم دعا صاحب شرطته، فقال له: قلّب لى الشام ظهرًا وبطنًا، حتى تأتينى برجل من قوم هذا الرجل ـ يعنى النبى ﷺ.

قال أبو سفيان: فوالله إنّا لبغزّة، إذ هجم علينا صاحب شرطته، فقال: أنتم من قوم هذا الرجل الذى بالحجاز؟ قلنا: نعم، قال: انطلقوا بنا إلى الملك؛ فانطلقنا؛ فلمّا انتهينا إليه قال: أنتم من رهط هذا الرجل؟ قلنا: نعم. قال: فأيكم أمس به رحمًا؟ قلت: أنا..

قال أبو سفيان: وايمُ الله، مارأيت من رجل أرى أنه كان أنكر من هذا الأغلف ـ يعنى هرقل ـ فقال: ادنه. فأقعدنى بين يديه، وأقعد أصحابى خلفى، ثم قال: إنى سأسأله، فإن كذب فردّوا عليه، فوالله لوكذبت ماردّوا علىّ، ولكنى كنت امرأ سيدًا أتكرم عن الكذب؛ وعرفت أن أيسر مافى ذلك إن أنا

كذبته أن يحفظوا ذلك عليَّ، ثم يحدّثوا به عنى، فلم أكذبه. فقال: أخبرنى عن هذا الرجل الذى خرج بين أظهركم يدّعى مايدّعى! فجعلت أزهِّد له شأنه، وأُصغر له أمره، وأقول له: أيها الملك، مايهمك أمره، إن شأنه دون مايبلغك؛ فجعل لايلتفت إلى ذلك. ثم قال: أنبئنى عما أسألك عنه من شأنه. قلت: سلْ عما بدا لك. قال: كيف نسبُه فيكم؟ قلت: محضٌ ـ أى: خالص ـ أوسطنا نسبًا. قال: فأخبرنى هل كان أحدٌ من أهل بيته يقول مثل مايقول، فهو يتشبّه به؟ قلت: لا. قال: فهل كان له فيكم مُلك استلبتموه إياه؛ فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه؟ قلت: لا. قال: فأخبرنى عن أتباعه منكم ؛ من هم؟ قلت: الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء، وأمّا ذوو الأسنان والشرف من قومه فلم يتبعه منهم أحد. قال: فأخبرنى عمّنْ تبعه، أيحبّه ويلزمه أم يقليه ويفارقه؟ قلت: ماتبعه رجل ففارقه. قال: فأخبرنى كيف الحرب بينكم وبينه؟ قلت: سجالٌ ، يدال علينا وندالُ عليه. قال: فأخبرنى.. هل يغدر؟ فلم أجد شيئا مما سألنى عنه أغمزه فيه غيرها، فقلت: لا، ونحن منه فى هدنة، ولانأمن غدره.. فوالله ما التفت إليها منِّى، ثم كرَّ علىَّ الحديث، قال: سألتك كيف نسبه فيكم؟ فزعمت أنه محضٌ، من أوسطكم نسبًا، وكذلك يأخذ الله النبى إذا أخذه، لايأخذه إلا من أوسط قومه نسبًا، وسألتك هل كان أحد من أهل بيته يقول قوله، فهو يتشبّه به؟ فزعمت أن لا، وسألتك هل كان له فيكم ملك فاستلبتموه منه، فجاء بهذا الحديث يطلب ملكه؟ فزعمت أنْ لا، وسألتك عن أتباعه، فزعمت أنهم الضعفاء والمساكين والأحداث والنساء، وكذلك أتباع الأنبياء فى كل زمان، وسألتك عمّن يتبعه، أيحبّه ويلزمه أم يقليه ويفارقه؟ فزعمت أنه لايتبعه أحد فيفارقه، وكذلك حلاوة الإيمان لاتدخل قلبًا فتحرج منه، وسألتك هل يغدر؟ فزعمت أن لا؛ فلئن كنت صدقتنى عنه ليغلبنّى على ماتحت قدمى هاتين؛ ولوددت أنّى عنده فأغسل قدميه. انطلق لشأنك.

فقمت من عنده وأنا أضرب إحدى يدى بالأخرى، وأقول: أى عباد

الله، ولقد أمر أمْرُ بن كبشة(١)! أصبح ملوك بنى الأصفر يهابونـه فى سلطانهم بالشام.

قال: وقدم عليه كتاب رسول الله ﷺ مع دحية بن خليفة الكلبى: «بسم الله الرحمـٰن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم. السلام على من اتبع الهدى. أما بعد: أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن تتول فإن إثم الأكارين عليك» ـ يعنى تَتَحمَّلُهُ.

فأخذ هرقل كتاب رسول الله ﷺ فجعله بين فخذيه وخاصرته، ثم كتب إلى رجل بروميّة كان يقرأ من العبرانية مايقرأونه؛ يذكر له أمره، ويصف له شأنه، ويخبره بما جاء منه؛ فكتب إليه صاحب روميّة:

إنه للنبى الذى كنا ننتظره؛ لاشك فيه، فاتبعه وصدقه.

فأمر هرقل ببطارقة الرّوم؛ فجمعوا فى دسكرة(٢) وأمر بها فأشرجت ـ أى: سدت ـ أبوابها عليهم ثم اطلع عليه من علية له، وخافهم على نفسه وقال: يامعشر الروم، إنى قد جمعتكم لخير؛ إنه قد أتانى كتاب هذا الرجل يدعونى فيه إلى دينه؛ وإنه والله للنبى الذى كنا ننتظره ونجده فى كتبنا، فهلموا فلنتبعه ونصدقه، فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا.

قال: فنخروا نخرة رجل واحد، ثم ابتدروا أبواب الدسكرة ليخرجوا منها فوجدوها قد أغلقت، فقال: كرّوهم علىّ ـ وخافهم على نفسه ـ فقال: يامعشر الروم، إنى قد قلت لكم المقالة التى قلت لأنظر كيف صلابتكم على دينكم لهذا الأمر الذى قد حدث؛ وقد رأيت منكم الذى أسرُّ به؛ فوقعوا له سجدًا، وأمر بأبواب الدسكرة ففتحت لهم، فانطلقوا.

ثم قال هرقل لدحية بن خليفة: ويحك! والله إنى لأعلم أن صاحبك نبى مرسل، وأنه الذى كنا ننتظره ونجده فى كتابنا، ولكننى أخاف الروم

(١) أى: قَوِىَ واشتد.

(٢) أى: قرية أو صومعة.

على نفسي، ولولا ذلك لاتبعته؛ فاذهب إلى صغاطر الأسقف فاذكر له أمر صاحبكم، فهو والله أعظم فى الروم منى، وأجوز قولاً عندهم منّى، فانظر مايقول لك.

فجاءه دحية؛ فأخبره بما جاء به من رسول الله ﷺ إلى هرقل، وبما يدعوه إليه، فقال صغاطر: صاحبك والله نبى مرسل؛ نعرفه بصفته، ونجده فى كتبنا باسمه.. ثم دخل فألقى ثيابًا كانت عليه سودًا، ولبس ثيابًا بيضًا، ثم أخذ عصاه؛ فخرج على الرّوم وهم فى الكنيسة، فقال: يامعشر الرّوم، إنه قد جاءنا كتابٌ من أحمد، يدعونا فيه إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ وإنى أشهد أن لا إلـه إلا الله، وأن أحمد عبده ورسوله.

قال: فوثبوا عليه وثبة رجل واحد، فضربوه حتى قتلوه. فلمّا رجع دحية إلى هرقل فأخبره الخبر قال: قد قلت لك: إنّا نخافهم على أنفسنا؛ فصغاطر ـ والله ـ كان أعظم عندهم وأجوز قولاً منّى.

فأراد هرقل الخروج من أرض الشام إلى القسطنطينية، لذلك فإنه جمع الرّوم وقال: يامعشر الروم؛ إنّى عارضٌ عليكم أمورًا، فانظروا فيـم قـد أردتهـا! قالوا: ماهى؟ قال: تعلمون والله أن هذا الرجل لنبىٌّ مرسل، إنا نجده فى كتابنا نعرفه بصفته التى وصف لنا، فهلم فلنتبعه، فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا، فقالوا: نحن نكون تحت يدى العرب، ونحن أعظم الناس ملكًا، وأكثرهم رجالاً، وأفضلهم بلدًا!.

قال: فهلم فأعطيه الجزية فى كل سنة، اكسروا عنى شوكته وأستريح من حربه بمال أعطيه إيّاه، قالوا: نحن نُعطى العرب الذلّ والصَّغار بخرج يأخذونه منّا، ونحن أكثر الناس عددًا، وأعظمهم ملكًا، وأمنعهم بلدًا؛ لا والله لانفعل هذا أبدًا.

قال: فهلم فلأصالحه على أن أعطيه أرض سوريّة، ويدعنى وأرض الشام ـ قال: وكانت أرض سوريّة أرض فلسطين والأردن ودمشق وحمص وما دون

الدرْب من أرض سورية، وكان ما وراء الدرب عندهم الشام ـ فقالوا له: نحن نعطيه أرض سورية؛ وقد عرفت أنها سرة الشام؛ والله لانفعل هذا أبدًا.

فلمّا أبوا عليه، قال: أما والله لترون أنكم قد ظفرتم إذا امتنعتم منه فى مدينتكم، ثم جلس على بغل له؛ فانطلق حتى إذا أشرف على الدرب استقبل أرض الشام، ثم قال: السلام عليكم أرض سورية تسليم الوداع، ثم ركض حتى دخل القسطنطينية.

وبعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب، إلى المنذر بن الحارث الغسانى صاحب دمشق، وكتب إليه معه: «سلامٌ على من اتبع الهدى، وآمن به. إنى أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لاشريك له يبقى لك ملكك». فقرأه شجاع على المنذر، فقال: من ينزع منى ملكى! أنا سائر إليه؛ قال النبى ﷺ: باد مُلكه!

كما بعث رسول الله عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى فى شأن جعفر بن أبى طالب وأصحابه، وكتب معه كتابًا: «بسم الله الرحمـٰن الرحيم. من محمد رسول الله إلى النجاشى الأصحم ملك الحبشة، سلام أنت؛ فإنى أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى؛ فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه، وإنى أدعوك إلى الله وحده لاشريك له؛ والموالاة على طاعته، وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى؛ فإنى رسول الله، وقد بعثت إليك ابن عمى جعفرًا ونفرًا معه من المسلمين؛ فإذا جاءك فأقرّهم، ودع التجبر، فإنى أدعوك وجنودك إلى الله؛ فقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصحى، والسلام على من اتبع الهدى».

فكتب النجاشى إلى النبى ﷺ: «بسم الله الرحمـٰن الرحيم. إلى محمد رسول الله، من النجاشى الأصحم بن أبجر: سلامٌ عليك يانبى الله ورحمة الله وبركاته، من الله الذى لا إلـٰه إلا هو، الذى هدانى إلى الإسلام.

أمّا بعد: فقد بلغنى كتابك يارسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فوربّ

السماء والأرض إنّ عيسى ما يزيد على ماذكرت ثُفْرُوقًا ـ شيئًا ـ إنه كما قلت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا؛ وقد قربنا ابن عمك وأصحابه، فأشهد أنك رسول الله صادقًا مصدّقًا، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين، وقد بعثت إليك بابنى أرها بن الأصحم، فإنى لاأملك إلا نفسى؛ وإن شئت أن آتيك فعلت يارسول الله؛ فإنى أشهد أن ماتقول حقّ، والسلام عليكم يارسول الله».

وأضاف ابن إسحاق أن النجاشى بعث ابنه فى ستين من الحبشة فى سفينة؛ فإذا كانوا فى وسط من البحر غرقت بهم سفينتهم، فهلكوا.

كما كان رسول الله ﷺ أرسل إلى النجاشى ليزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان، ويبعث بها إليه مع من عنده من المسلمين، فأرسل النجاشى إلى أم حبيبة يخبرها بخطبة رسول الله إياها جارية له يقال لها أبرهة؛ فأعطتها أوضاحًا وفتخًا ـ أى: حليًّا من الفضة وخاتما كبيرًا ـ سرورًا بذلك، وأمرها أن توكل من يزوجها، فوكّلت خالد بن سعيد بن العاص، فزوّجها، فخطب النجاشىّ على رسول الله ﷺ وخطب خالد فأنكح أم حبيبة، ثم دعا النجاشىّ بأربعمائة دينار صداقها؛ فدفعها إلى خالد بن سعيد؛ فلما جاءت أمَّ حبيبة تلك الدنانير، قال: جاءت بها أبرهة فأعطتها خمسين مثقالا، وقالت: كنت أعطيتك ذلك، وليس بيدى شىء، وقد جاء الله ـ عزّ وجلّ ـ بهذا.

فقالت أبرهة: قد أمرنى الملك ألاّ آخذ منك شيئًا، وأن إردّ إليك الذى أخذت منك، فرددته وأنا صاحبة دهن الملك وثيابه، وقد صدّقتُ محمدًا رسول الله وآمنت به؛ وحاجتى إليك أن تقرئيه منّى السلام.. قالت: نعم، وقد أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك بما عندهنّ من عود وعنبر؛ فكان رسول الله ﷺ يراه عليها وعندها فلا ينكره.

قالت أم حبيبة: فخرجنا فى سفينتين؛ وبعث معنا النواتى حتى قدمنا الجار، ثم ركبنا الظَّهْرَ إلى المدينة؛ فوجدنا رسول الله ﷺ بخيبر، فخرج من خرج إليه،

وأقمت بالمدينة حتى قدم رسول الله ﷺ فدخلت إليه، فكان يسائلنى عن النجاشى، وقرأت عليه من أبرهة السلام، فردّ رسول الله عليها؛ ولما جاء أبا سفيان تزويج النبى ﷺ أم حبيبة قال: ذلك الفحل لايقدع أنفه.

وفيها كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى، وبعث الكتاب مع عبد الله بن حُذافة السّهمى؛ فيه: «بسم الله الرحمـٰن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس. سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إلـه إلا الله، وأنى رسول الله، إلى الناس كافة، لينذر من كان حيًّا، أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس».

فمزق كتاب رسول الله ﷺ فقال رسول الله: مزق ملكه!

ثم كتب كسرى إلى باذان؛ وهو على اليمن: أن ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين من عندك جلدين، فليأتيانى به، فبعث باذان قهرمانه وهو بابويه ـ وكان كاتبًا حاسبًا بكتاب فارس ـ وبعث معه رجلاً من الفرس يقال له: خرّ خُسره، وكتب معهما إلى رسول الله يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى، وقال لبابويه: ائت بلد هذا الرجل، وكلمه وأتنى بخبره، فخرجا حتى قدما الطائف فوجدا رجالاً من قريش بنخب من أرض الطائف ، فسألاهم عنه، فقالوا: هو بالمدينة، واستبشروا بهما وفرحوا؛ وقال بعضهم لبعض: أبشروا فقد نصِب له كسرى[1] ملك الملوك، كفيتم الرجل!

فخرجا حتى قدما على رسول الله ﷺ، فكلمه بابويه، فقال: إن شاهنشاه ملك الملوك كسرى، قد كتب إلى الملك باذان، يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك، وقد بعثنى إليك لتنطلق معى؛ فإن فعلت كتب فيك إلى ملك الملوك ينفعك ويكفه عنك؛ وإن أبيت فهو من قد علمت! فهو مهلكك ومهلك قومك، ومخرب بلادك؛ ودخلا على رسول الله وقد حلقا لحاهما، وأعفيا شواربهما، فكره النظر إليهما، ثم أقبل عليهما فقال: ويلكما! من أمركما بهذا! قالا: أمرنا

(١) أى: جَدَّ واهتَمَّ.

بهذا ربنا - يعنيان كسرى - فقال رسول الله: لكن ربى قد أمرنى بإعفاء لحيتى وقصّ شاربى. ثم قال لهما: ارجعا حتى تأتيانى غداً، وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء أن الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه؛ فقتله فى شهر كذا وكذا ليلة كذا من الليل.

قال الواقدى: قتل شيرويه أباه كسرى ليلة الثلاثاء لعشر ليال مضين من جمادى الأولى من سنة سبع لست ساعات مضت منها. فدعاهما فأخبرهما، فقالا: هل تدرى ماتقول؟! إنا قد نقمنا عليك ماهو أيسر من هذا؛ أفنكتب هذا عنك، ونخبره الملك! قال: نعم، أخبراه ذلك عنى، وقولا له: إن دينى وسلطانى سيبلغ مابلغ ملك كسرى، وينتهى إلى منتهى الخف والحافر؛ وقولا له: إنك إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك، وملكتك على قومك من الأبناء، ثم أعطى خرّ خسره منطقة فيها ذهب وفضة، وكان أهداها له بعض الملوك.

فخرجا من عنده حتى قدما على باذان، فأخبراه الخبر، فقال: والله ماهذا بكلام ملك، وإنى لأرى الرجل نبيّـاً كما يقول، ولننظرن ماقد قال؛ فلئن كان هذا حقّاً مافيه كلام؛ إنه لنبىّ مرسلٌ، وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا.

فلم ينشب باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه؛ أما بعد: فإنى قد قتلت كسرى ولم أقتله إلا غضبًا لفارس لما كان استحلّ من قتل أشرافهم وتجميرهم - أى: حبسهم - فى ثغورهم؛ فإذا جاءك كتابى هذا فخذ لى الطاعة ممن قبلك؛ وانظر الرجل الذى كان كسرى كتب فيه إليك فلا تهجه حتى يأتيك أمرى فيه.

فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان قال: إن هذا الرجل لرسول. فأسلم وأسلمت الأبناء معه من فارس من كان منهم باليمن؛ فكانت حمير تقول لخرّ خُسره: ذو المعجزة، للمنطقة التى أعطاه إياها رسول الله ﷺ - والمنطقة بلسان حمير: المعجزة - فبنوه اليوم ينسبون إليها خرّ خسره ذو المعجزة.

وقد قال بابويه لباذان: ماكلمت رجلاً قط أهيب عندى منه، فقال له باذان: هل معه شرطٌ ؟ قال: لا.

قال الواقدى: وفيها كتب إلى المقوقس عظيم القبط، يدعوه إلى الإسلام فلم يسلم.

ولما رجع رسول الله ﷺ من غزوة الحديبية إلى المدينة أقام بها ذا الحجة وبعض المحرم، وولى الحج فى تلك السنة المشركون.

ذكر الأحداث الكائنة فى سنة سبع من الهجرة

غزوة خيبر

خرج رسول الله ﷺ فى بقية المحرم إلى خيبر، واستخلف على المدينة سباع ابن عرفطة الغفارى، فمضى حتى نزل بجيشه بواد يقال له الرجيع، فنزل بين أهل خيبر وبين غطفان، ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر، وكانوا لهم مظاهرين على النبى ﷺ.

فلما سمعت غطفان بمنزل رسول الله ﷺ من خيبر، جمعوا له، ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه، حتى إذا ساروا مرحلة سمعوا خلفهم فى أموالهم وأهاليهم حسًّا؛ ظنّوا أن القوم قد خالفوا إليهم، فرجعوا على أعقابهم، فأقاموا فى أهاليهم وأموالهم، وخلوا بين رسول الله وبين خيبر، وبدأ رسول الله بالأموال يأخذها مالاً مالاً، ويفتتحها حصنًا حصنًا، فكان أول حصونهم افتتح حصن ناعم، وعنده قتل محمود بن مسلمة، ألقيت عليه رحىً منه فقتلته، ثم القموص، حصن بن أبى الحقيق، وأصاب رسول الله ﷺ منهم سبايا، منهم صفية بنت حيى بن أخطب، وكانت عند كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق؛ وابنتى عم لها.

فاصطفى رسول الله صفية لنفسه، وكان دحية الكلبى قد سأل رسول الله ﷺ صفية، فلما اصطفاها لنفسه أعطاه ابنتى عمها، وفشت السبايا من خيبر فى المسلمين.

ثم جعل رسول الله ﷺ يتدنى الحصون ـ أى: يأخذ الأدنى فالأدنى ـ والأموال.

وأتى بنو سهم من أسْلَم رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، والله لقد جهدنا وما بأيدينا شيء، فلم يجدوا عند رسول الله شيئًا يعطيهم إياه، فقال النبي: اللهم إنك قد عرفْت حالهم، وأن ليست بهم قوة، وأن ليس بيدى شيء أعطيهم إياه، فافتح عليهم أعظم حصونها، أكثرها طعاما وودكا. فغدا الناس ففتح الله عليهم حصن الصعب بن معاذ، وما بخيبر حصن كان أكثر طعامًا وودكا منه.

ولما افتتح رسول الله ﷺ من حصونهم ما افتتح، وحاز من الأموال ماحاز، انتهوا إلى حصنهم الوطيح، والسلالم ـ وكان آخر حصون خيبر افتتح ـ حاصرهم رسول الله بضع عشرة ليلة.

خرج مرحب اليهودى من حصنهم، قد جمع سلاحه وهو يرجز، ويقول:

قد علمَت خيبر أنى مَرْحَبُ ... شاكى السِّلاحِ بطلٌ مُجرَّبُ
أطْعَنُ أحيانًا وحينا أضربُ ... إذا الليوث أقبلتْ تَحرَّبُ(١)
وكان حِمَاىَ لِلْحِمَى لا يُقرَبُ

ويقول متحديًا: هل من مبارز! فقال رسول الله ﷺ: مَن لهذا؟ فقام محمد بن مسلمة، فقال: أنا له يا رسول الله، أنا والله الموتور الثائر، قتلوا أخى بالأمس! قال: فقم إليه، اللهم أعنه عليه.

فلما أن دنا كل واحد منهما من صاحبه، دخلت بينهما شجرة عُمْرِيَّةٌ من شجر العُشَرَ ـ وهو شجر أملس ضعيف العود ـ فجعل أحدهما يلوذ بها من صاحبه، فكلما لاذ بها اقتطع بسيفه منها ما دونه منها؛ حتى برز كل واحد منهما لصاحبه، وصارت بينهما كالرجل القائم، ما بينهما فنن، ثم حمل مرحب على محمد فضربه؛ فاتقاه بالدرقة فوقع سيفه فيها؛ فعضت به فأمسكته، وضربه محمد بن مسلمة حتى قتله. ثم خرج بعد مرحب أخوه ياسر، يرتجز ويقول:

---

(١) اقبلت تحرَّبُ: أقبلت مغضبة.

قد علمت خيبر أنى ياسر شاكى السلاح بطل مغاور
إذا الليوث أقبلت تبادرُ وأحجمت عن صولتى المغاور
إن حماى فيه موتٌ حاضر

فخرج الزبير بن العوام إلى ياسر، فقالت أمه صفية بنت عبد المطلب: أيقتل ابنى يا رسول الله؟ قال: بل ابنك يقتله إن شاء الله.

.... ثم التقيا فقتله الزبير.

وعن أبى رافع مولى رسول الله ﷺ قال: خرجنا مع على بن أبى طالب حين بعثه رسول الله برايته، فلما دنا من الحصن خرج أهله؛ فقاتلهم، فضربه رجل من اليهود، فطرح ترسه من يده؛ فتناول علىّ - رضى الله عنه - بابًا كان عند الحصن، فترس به عن نفسه، فلم يزل فى يده وهو يقاتل، حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه من يده حين فرغ؛ فلقد رأيتنى فى نفر سبعة أنا ثامِنُهُمْ، نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه.

وعن ابن إسحاق، قال: ولما فتح رسول الله ﷺ القموص، حصن بن أبى الحقيق، أتى رسول الله بصفية بنت حيى بن أخطب، وبأخرى معها، فمر بها بلال - وهو الذى جاء بها - على قتلى من قتلى يهود، فلما رأتهم التى مع صفية صاحت وصكت وجهها، وحثت التراب على رأسها، فلما رآها رسول الله قال: أغربوا - أى: أبعدوا - عنى هذه الشيطانة؛ وأمر بصفية فحيزت خلفه، وأُلقى عليها رداؤه، فعرف المسلمون أن رسول الله ﷺ قد اصطفاها لنفسه، فقال ﷺ لبلال حين رأى من تلك اليهودية ما رأى: أنزعت منك الرحمة يا بلال؛ حيث تمر بامرأتين على قتلى رجالهما! وكانت صفية قد رأت فى المنام وهى عروس بكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق؛ أن قمرًا وقع فى حجرها؛ فعرضت رؤياها على زوجها فقال: ما هذا إلا أنك تمنين ملك الحجاز محمدًا، فلطم وجهها لطمة اخضرت عينها منها؛ فأتى بها رسول الله - عليه الصلاة والسلام - وبها أثر منها، فسألها: ما هو؟ فأخبرته هذا الخبر.

وأتى رسول الله بكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق ـ وكان عنده كنز بنى النضير ـ فسأله، فجحد أن يكون يعلم مكانه؛ فأتى رسول الله ﷺ برجل من يهود، فقال لرسول الله: إنى قد رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة، فقال رسول الله لكنانة: أرأيت إن وجدناه عندك، أأقتلك؟ قال: نعم. فأمر رسول الله ﷺ بالخربة فحفرت؛ فأخرج منها بعض كنزهم؛ ثم سأله بعض ما بقى، فأبى أن يؤديه، فأمر به رسول الله ﷺ الزبير بن العوام، فقال: عذبه حتى تستأصل ماعنده؛ فكان الزبير يقدح بزنده فى صدره حتى أشرف على نفسه، ثم دفعه رسول الله إلى محمد بن مسلمة، فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة. وحاصر رسول الله ﷺ أهل خيبر فى حصنيهم، الوطيح والسلالم؛ حتى إذا أيقنوا بالهلكة سألوه أن يسيرهم ويحقن لهم دماءهم؛ ففعل، وكان رسول الله قد حاز الأموال كلها: الشق ونطاة والكتيبة؛ وجميع حصونهم إلا ما كان من ذينك الحصنين، فلما سمع بهم أهل فدك قد صنعوا ما صنعوا، بعثوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يسيرهم ويحقن دماءهم لهم، ويخلوا له الأموال، ففعل، وكان فيمن مشى بينهم وبين رسول الله فى ذلك محيصة بن مسعود؛ أخو بنى حارثة؛ فلما نزل أهل خيبر على ذلك؛ سألوا رسول الله أن يعاملهم بالأموال على النصف، وقالوا: نحن أعلم بها منكم، وأعمر لها؛ فصالحهم رسول الله ﷺ على النصف؛ على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم، وصالحه أهل فدك على مثل ذلك، فكانت خيبر فيئًا للمسلمين، وكانت فدك خالصة لرسول الله ﷺ لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب.

فلما اطمأن رسول الله ﷺ، أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم شاة مصلية ـ مشوية ـ وقد سألت: أى عضو من الشاة أحب إلى رسول الله؟ فقيل لها: الذراع، فأكثرت فيها السم، فسمت سائر الشاة، ثم جاءت بها، فلما وضعتها بين يدى رسول الله ﷺ تناول الذراع؛ فأخذها فلاك منها مضغة فلم يسغها؛ ومعه بشر بن البراء بن معرور؛ وقد أخذ منها كما أخذ رسول الله، فأما بشر فأساغها؛ وأما رسول الله فلفظها، ثم قال: إن هذا العظم ليخبرنى أنه

مسموم؛ ثم دعا بها فاعترفت فقال: ما حملك على ذلك؟ قالت: بلغت من قومى مالم يخف عليك، فقلت: إن كان نبيًّــا فسيخبر؛ وإن كان ملكًا استرحت منه؛ فتجاوز عنها النبى ﷺ، ومات بشر بن البراءِ من أكلته التى أكل.

وقد كان رسول الله ﷺ قال فى مرضه الذى توفى فيه ، ودخلت عليه أم بشر بن البراء تعوده: يا أم بشر، إن هذا الأوان وجدت انقطاع أبهرى من الأكلة التى أكلت مع ابنك بخيبر.

وكان المسلمون يرون أن رسول الله ﷺ قد مات شهيدًا مع ما أكرمه الله به من النبوة. قال ابن إسحاق: فلما فرغ رسول الله من خيبر انصرف إلى وادى القرى فحاصر أهله ليالى، ثم انصرف راجعًا إلى المدينة.

ذكر غزوة رسول الله ﷺ وادى القرى

عن أبى هريرة، قال: لما انصرفنا مع رسول الله ﷺ من خيبر إلى وادى القرى، نزلنا أصلاً مع مغارب الشمس، ومع رسول الله غلام له، أهداه إليه رفاعة بن زيد الجذامى، ثم الضبيبى؛ فوالله إنا لنضع رحل رسول الله ﷺ إذ أتاه سهم غرب ـ أى: لا يدرى راميه ـ فأصابه فقتله، فقلنا: هنيئا له الجنة! فقال رسول الله: كلا والذى نفس محمد بيده، إن شملته الآن لتحرق عليه فى النار. وكان غلها من فئ المسلمين يوم خيبر.. فسمعها رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فأتاه، فقال: يارسول الله، أصبت شراكين لنعلين لى، فقال ـ عليه الصلاة والسلام : يعد لك مثلهما من النار.

وفى هذه السفرة نام رسول الله وأصحابه عن صلاة الصبح حتى طلعت الشمس. إذ أن رسول الله ﷺ لما انصرف من خيبر، وكان ببعض الطريق، قال من آخر الليل: من رجل يحفظ علينا الفجر لعلنا ننام؟ فقال بلال: أنا يارسول الله أحفظ لك. فنزل رسول الله ونزل الناس، فناموا، وقام بلال يصلى، فصلى ما شاء الله أن يصلى ثم استند إلى بعيره، واستقبل الفجر يرمقه فغلبته عينه، فنام

فلم يوقظهم إلا مس الشمس؛ وكان رسول الله ﷺ أول أصحابه هب من نومه! فقال: ماذا صنعت بنا يابلال؟ فقال: يارسول الله، أخذ نفسى الذى أخذ بنفسك، قال: صدقت. ثم اقتاد رسول الله غير كثير، ثم أناخ فتوضأ وتوضأ الناس، ثم أمر بلالاً فأقام الصلاة، فصلى بالناس، فلما سلم أقبل على الناس، فقال: إذا نسيتم الصلاة فصلوها إذا ذكرتموها، فإن الله - عزّ وجلّ - يقول ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾.

وكان فتح خيبر فى صفر، وشهد مع رسول الله ﷺ نساء من نساء المسلمين، فرضخ - أى: أعطى - لهن رسول الله من الفئ ولم يضرب لهن بسهم.

أمر الحجاج بن علاط السلمى

لما فتحت خيبر، قال الحجاج بن علاط السلمى ثم البهزى لرسول الله ﷺ: يارسول الله، إن لى مالا بمكة عند صاحبتى أم شيبة بنت أبى طلحة - وكانت عنده، له منها معرض بن الحجاج - ومال متفرق فى تجار أهل مكة، فأذن لى يارسول الله، فأذن له رسول الله ، ثم قال: إنه لابد لى من أن أقول، قال: قل. قال الحجاج: فخرجت حتى إذا قدمت مكة، فوجدت بثنية البيضاء رجالا من قريش يتسمعون الأخبار، ويسألون عن أمر رسول الله، وقد بلغهم أنه قد سار إلى خيبر، وقد عرفوا أنها قرية الحجاز؛ ريفًا ومنعة ورجالاً، فهم يتحسسون الأخبار؛ فلما رأونى قالوا: الحجاج بن علاط - ولم يكونوا علموا بإسلامى - عنده والله الخبر! أخبرنا بأمر محمد، فإنه قد بلغنا أن القاطع قد سار إلى خيبر. قال: قد بلغنى ذلك، وعندى من الخبر مايسركم.. فالتاطوا - أى: التصقوا - بجنبى ناقتى يقولون: إيه ياحجاج! قال: قلت: هزموا هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط، وقتل أصحابه قتلا لم تسمعوا بمثله قط، وأسر محمد أسرًا، وقالوا: لن نقتله حتى نبعث به إلى مكة فيقتلوه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم... فقاموا فصاحوا بمكة وقالوا: قد جاءكم الخبر، وهذا محمد إنما تنتظرون أن يقدم

(١) سورة طه الآية ١٤.

به عليكم فيقتل بين أظهركم. قال: أعينونى على جمع مالى بمكة على غرمائى؛ فإنى أريد أن أقدم خيبر، فأصيب من فل ـ القوم المنهزمين ـ محمد وأصحابه قبل أن يسبقنى التجار إلى ما هنالك.

فقاموا فجمعوا مالى كأحث جمع سمعت به. فجئت صاحبتى فقلت: مالى ـ وقد كان لى عندها مال موضوع ـ لعلى ألحق بخيبر؛ فأصيب من فرص البيع قبل أن يسبقنى إليه التجار. فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر وجاءه عنى، أقبل حتى وقف إلى جانبى؛ وأنا فى خيمة من خيام التجار، فقال: ياحجاج، ما الذى جئت به؟ قلت: وهل عندك حفظ لما وضعت عندك؟ قال: نعم. قلت: فاستأخر عنى حتى ألقاك على خلاء، فإنى فى جمع مالى كما ترى؛ فانصرف عنى حتى إذا فرغت من جمع كل شىء كان لى بمكة، وأجمعت الخروج، لقيت العباس، فقلت: احفظ على حديثى يا أبا الفضل، فإنى أخشى الطلب ثلاثًا، ثم قل ما شئت. قال: أفعل. قلت: فإنى والله لقد تركت ابن أخيك عروسًا على ابنة ملكهم ـ يعنى صفية بنت حيى بن أخطب ـ ولقد افتتح خيبر، وانتشل مافيها؛ وصارت له ولأصحابه. قال: ماتقول يا حجاج! قلت: أى والله، فاكتم على؛ ولقد أسلمت وما جئت إلا لآخذ مالى فرقًا من أن أغلب عليه، فإذا مضت ثلاث فأظهر أمرك؛ فهو والله على ما تحب... حتى إذا كان اليوم الثالث لبس العباس حلة له. وتخلق وأخذ عصاه؛ ثم خرج حتى أتى الكعبة، فطاف بها؛ فلما رأوه قالوا: يا أبا الفضل؛ هذا والله التجلد لحر المصيبة! قال: كلا والذى حلفتم به! لقد افتتح محمد خيبر، وتُرِك عروسًا على ابنة ملكهم، وأحرز أموالها وما فيها؛ فأصبحت له ولأصحابه. قالوا: من جاءك بهذا الخبر؟ قال: الذى جاءكم بما جاءكم به؛ لقد دخل عليكم مسلمًا، وأخذ ماله وانطلق ليلحق برسول الله وأصحابه فيكون معه، قالوا: يالعباد الله! أفلت عدو الله! أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن، ولم ينشبوا ـ أى: لم يلبثوا غير قليل ـ أن جاءهم الخبر بذلك.

ذكر مقاسم خيبر وأموالها

عن عبد الله بن أبى بكر، قال: كانت المقاسم على أموال خيبر على الشق ونطاة والكتيبة؛ فكانت الشق ونطاة فى سهمان المسلمين، وكانت الكتيبة خمس الله ـ عزّ وجلّ ـ وخمس النبى ﷺ، وسهم ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وطعم أزواج النبى؛ وطعم رجال مشوا بين رسول الله وبين أهل فدك بالصلح؛ منهم محيصة بن مسعود، أعطاه رسول الله منها ثلاثين وسق شعير، وثلاثين وسق تمر، وقسمت خيبر على أهل الحديبية، من شهد منهم خيبر ومن غاب عنها، ولم يغب عنها إلا جابر بن عبد الله بن حرام الأنصارى، فقسم له رسول الله ﷺ كسهم من حضرها.

ولما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر، قذف الله الرعب فى قلوب أهل فدك حين بلغهم ما أوقع الله بأهل بخيبر، فبعثوا إلى رسول الله يصالحونه على النصف من فدك، فقدمت عليه رسلهم بخيبر أو بالطائف، وإما بعدما قدم المدينة. فقبل ذلك منهم، فكانت فدك لرسول الله ﷺ خاصة، لأنه لم يوجف ـ أى: يسير بسرعة ـ عليها بخيل ولا ركاب ـ إبل.

عن ابن إسحاق، قال: سألت ابن شهاب الزهرى، كيف كان إعطاء رسول الله ﷺ يهود خيبر نخيلهم حين أعطاهم النخل على خرجها؟ أبت ـ هل قرر ـ لهم ذلك حتى قبض، أم أعطاهم إياها لضرورة من غير ذلك؟ فأخبرنى ابن شهاب أن رسول الله افتتح خيبر عنوة بعد القتال؛ وكانت خيبر مما أفاء الله على رسوله؛ خمسها رسول الله وقسمها بين المسلمين، ونزل من نزل من أهلها على الإجلاء بعد القتال؛ فدعاهم رسول الله ﷺ فقال: إن شئتم دفعنا إليكم هذه الأموال على أن تعملوها؛ وتكون ثمارها بيننا وبينكم، وأقركم على ما أقركم الله. فقبلوا، فكانوا على ذلك يعملونها. وكان رسول الله يبعث عبد الله بن رواحة فيقسم ثمرها، ويعدل عليهم فى الخرص ـ أى: الظن ـ فلما توفى الله ـ عزّ وجلّ ـ نبيه ﷺ أقرها أبو بكر بعد النبى فى أيديهم على المعاملة التى عاملهم

عليها رسول الله حتى توفى، ثم أقرها عمر صدرا من إمارته؛ ثم بلغ عمر أن رسول الله ﷺ قال فى وجعه الذى قبض فيه: لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان، فمن كان عنده عهد من رسول الله فليأتنى به أنفذه له؛ ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله من اليهود فليتجهز للجلاء، فأجلى عمر من لم يكن عنده عهد من رسول الله منهم. ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة.

فى هذه السنة رد رسول الله ﷺ زينب ابنته على أبى العاص بن الربيع، وذلك فى المحرم.

وفيها قدم حاطب بن أبى بلتعة من عند المقوقس بمارية وأختها سيرين وبغلته دلدل وحماره يعفور وكساء؛ وبعث معهما بخصىّ فكان معهما، وكان حاطب قد دعاهما إلى الإسلام قبل أن يقدم بهما، فأسلمت هى وأختها، فأنزلهما رسول الله على أم سليم بنت ملحان - وكانت مارية وضيئة - فبعث النبى ﷺ بأختها سيرين إلى حسان بن ثابت، فولدت له عبد الرحمـٰن بن حسان.

وفى هذه السنة اتخذ النبى ﷺ منبره الذى كان يخطب الناس عليه، واتخذ درجتين ومقعدة. ويقال: إنه عمل فى سنة ثمان.. وهو الثبت عندنا.

وفيها بعث رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب فى ثلاثين رجلا إلى عجز هوازن بتربة، فخرج بدليل له من بنى هلال، وكانوا يسيرون الليل، ويكمنون النهار، فأتى الخبر هوازن فهربوا، فلم يلق كيدًا، ورجع.

وفيها سرية أبى بكر بن أبى قحافة فى شعبان إلى نجد. قال سلمة بن الأكوع: غزونا مع أبى بكر فى تلك السنة.

وفيها سرية بشير بن سعد إلى بنى مرة بفدك فى شعبان فى ثلاثين رجلا، فأصيب أصحابه وارتث فى القتلى، ثم رجع إلى المدينة.

وفيها سرية غالب بن عبد الله فى شهر رمضان إلى الميفعة، إذ بعثه رسول الله ﷺ إلى أرض بنى مرة، فأصاب بها مرداس بن نهيك حليفًا لهم من الحرقة من

جهينة، قتله أسامة بن زيد ورجل من الأنصار. قال أسامة: لما غشيناه قال: أشهد أن لا إلـه إلا الله، فلم ننزع عنه حتى قتلناه؛ فلما قدمنا على رسول الله أخبرناه الخبر؛ فقال: يا أسامة، من لك بلا إلـه إلا الله؟!.

وفيها سرية غالب بن عبد الله إلى بنى عبد بن ثعلبة.. قال يسار مولى رسول الله ﷺ: يا رسول الله! إنى أعلم غرة من بنى عبد بن ثعلبة، فأرسل معه غالب ابن عبد الله فى مائة وثلاثين رجلاً، حتى أغاروا على بنى عبد، فاستاقوا النعم والشاء، وحدروها إلى المدينة.

وفيها سرية بشير بن سعد إلى يمن وجناب، فى شوال من سنة سبع، ذكر أن يحيى بن عبد العزيز بن سعيد حدثه عن سعد بن عبادة... قال: الذى أهاج هذه السرية أن حسيل بن نويرة الأشجعى - وكان دليل رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى خيبر - قدم على النبى ﷺ فقال: ما وراءك؟ قال: تركت جمعًا من غطفان بالجناب قد بعث إليهم عيينة بن حصن ليسيروا إليكم، فدعا رسول الله بشير بن سعد، وخرج معه الدليل حسيل بن نويرة، فأصابوا نعما وشاء؛ ولقيهم عبد لعيينة بن حصن فقتلوه، ثم لقوا جمع عيينة؛ فانهزم، فلقيه الحارث بن عوف منهزمًا! فقال: قد آن لك ياعيينة أن تقصر عما ترى.

عمرة القضاء

لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة من خيبر، أقام بها شهر ربيع الأول والآخر وجمادى الأولى والآخرة ورجب وشعبان ورمضان وشوالا، يبعث فيما بين ذلك من غزوه وسراياه، ثم خرج فى ذى القعدة فى الشهر الذى صده فيه المشركون معتمرًا عمرة القضاء مكان عمرته التى صدوه عنها؛ وخرج معه المسلمون ممن كان معه فى عمرته تلك، وهى سنة سبع؛ فلما سمع به أهل مكة خرجوا عنه؛ وتحدثت قريش بينها أن محمدًا وأصحابه فى عسر وجهد وحاجة.

عن ابن عباس قال: اصطفوا لرسول الله ﷺ عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه؛ فلما دخل رسول الله المسجد، اضطبع بردائه - أى: أدخل الرداء

من تحت الإبط الأيمن وتغطى به الأيسر ـ وأخرج عضده اليمنى، ثم قال: رحم الله امرأً أراهم اليوم من نفسه قوة! ثم استلم الركن. وخرج يهرول ويهرول أصحابه معه حتى إذا واراه البيت منهم؛ واستلم الركن اليمانى مشى حتى يستلم الحجر الأسود، ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف؛ ومشى سائرها.

وكان ابن عباس يقول: كان الناس يظنون أنها ليست عليهم؛ وذلك أن رسول الله إنما صنعها لهذا الحى من قريش للذى بلغه عنهم؛ حتى حج حجة الوداع، فرملها، فمضت السنة.

وحين دخل رسول الله مكة فى تلك العمرة، دخلها وعبد الله بن رواحة آخذ بخطام ناقته؛ وهو يقول:

خلوا بنى الكفار عن سبيله ... إنى شهيد أنه رسوله
خلوا فكل الخير فى رسوله ... يا رب إنى مؤمن بقيله
أعرف حق الله فى قبوله ... نحن قتلناكم على تأويله
كما قتلناكم على تنزيله ... ضربًا يزيل الهام عن مقيله
ويذهل الخليل عن خليله

عن ابن عباس، قال: تزوج رسول الله ﷺ ميمونة بنت الحارث فى سفره ذلك؛ وهو حرام[1]؛ وكان الذى زوجه إياها العباس بن عبد المطلب.

فأقام بمكة ثلاثًا، فأتاه حويطب بن عبد العزى... بن حسل، فى نفر من قريش فى اليوم الثالث، وكانت قريش وكلته بإخراج رسول الله ﷺ من مكة، فقالوا له: إنه قد انقضى أجلك فاخرج عنا، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم فصنعنا لكم طعامًا فحضرتموه! قالوا: لا حاجة لنا فى طعامك فاخرج عنها. فخرج رسول الله وخلف أبا رافع مولاه

(١) أى: وهو داخل فى الحرم.

على ميمونة، حتى أتاه بها بسرف، فبنى عليها رسول الله هنالك، وأمر رسول الله ﷺ أن يبدلوا الهدى وأبدل معهم، فعزت عليهم الإبل، فرخص لهم فى البقر؛ ثم انصرف رسول الله إلى المدينة فى ذى الحجة، فأقام بها بقية ذى الحجة والمحرم وصفراً وشهرى ربيع، وبعث فى جمادى الأولى بعثه إلى الشام الذين أصيبوا بمؤتة.

قال الواقدى: أمرهم رسول الله ﷺ أن يعتمروا فى قابل قضاء لعمرة الحديبية، وأن يهدوا. ولم تكن هذه العمرة قضاء، ولكن كان شرط على المسلمين أن يعتمروا قابلاً فى الشهر الذى صدهم المشركون فيه. وهذا القول أحب إلى الواقدى، لأنهم أحصروا ولم يصلوا إلى البيت.

وفيها كانت غزوة ابن أبى العوجاء السلمى إلى بنى سليم فى ذى القعدة، بعثه رسول الله ﷺ إليهم بعد ما رجع من مكة فى خمسين رجلا، فخرج إليهم، فأصيب بها هو وأصحابه جميعًا، أما الواقدى فإنه زعم أنه نجا ورجع إلى المدينة وأصيب أصحابه.

ثم دخلت سنة ثمان من الهجرة

وفيها توفيت ـ فيما زعم الواقدى ـ زينب ابنة رسول الله ﷺ.

خبر غزوة غالب بن عبد الله الليثى بنى الملوح

وفيها أغزى[1] رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الليثى فى صفر إلى الكديد إلى بنى الملوح، فبعث ﷺ غالب بن عبد الله الكلبى؛ كلب ليث، إلى بنى الملوح بالكديد، وأمره أن يغير عليهم ـ وكان فى سريته جندب بن مكيث الجهنى، الذى قال: مضينا، حتى إذا كنا بقديد لقينا بها الحارث بن مالك، وهو ابن البرصاء الليثى ـ فأخذناه فقال: إنى إنما جئت لأسلم، فقال غالب: إن كنت إنما جئت مسلمًا، فلن يضرك رباط يوم وليلة، وإن كنت على غير ذلك استوثقنا

(١) أغزى: جهز للغزو.

منك. . فأوثقه رباطًا ثم خلف عليه رويجلا أسود كان معنا، فقال: امكث معه حتى نمر عليك، فإن نازعك فاحتزَّ رأسه. . ثم مضينا حتى أتينا بطن الكديد، فنزلنا عشيشية بعد العصر، فبعثنى أصحابى ربيئة[١]، فعمدت إلى تل يطلعنى على الحاضر ـ أى: الحى إذا حضر ـ فانبطحت عليه ـ وذلك قبيل المغرب ـ فخرج منهم رجل، فنظر فرآنى منبطحًا على التل، فقال لامرأته: والله إنى لأرى على هذا التل سوادا ماكنت رأيته أول النهار؛ فانظرى لاتكون الكلاب جرت بعض أوعيتك. فنظرت فقالت: والله ما أفقد شيئًا. قال: فناولينى قوسى وسهمين من نبلى، فناولته، فرمانى بسهم فوضعه فى جنبى، فنزعته فوضعته، ولم أتحرك، فقال: أما والله لقد خالطه سهمان، ولو كان ربيئة ـ طليعة ـ لتحرك، فإذا أصبحت فاتبعى سهمىَّ فخذيهما لاتمضغهما على الكلاب. . فأمهلناهم حتى راحت رائحتهم، حتى إذا احتلبوا وعطنوا سكنوا، وذهبت عتمة من الليل ـ ثلثه الأول ـ شننا عليهم الغارة، فقتلنا من قتلنا واستقنا النعم، فوجهنا قافلين؛ وخرج صريخ القوم إلى القوم مغوثا ـ أى قائلا: واغوثاه ـ فخرجنا سراعًا حتى نمر بالحارث بن مالك بن البرصاء، وصاحبه، فانطلقنا به معنا، وأتانا صريخ الناس، فجاءنا مالا قبل لنا به، حتى إذا لم يكن بيننا وبينهم إلا بطن الوادى من قديد، بعث الله من حيث شاء سحابًا ما رأينا قبل ذلك مطرًا ولا خالاً، فجاء بما لايقدر أحد أن يقدم عليه، فلقد رأيناهم ينظرون إلينا، ما يقدر أحد منهم أن يقدم ولا يتقدم، ونحن نحدوها سراعًا، حتى أسندناها فى المشلل، ثم صدرناها عنها، فأعجزنا القوم بما فى أيدينا، فما أنسى قول راجز من المسلمين وهو يحدوها فى أعقابها، ويقول:

أبى أبو القاسم أن [تعزبى][٢] فى خضل نباته مغلولب

صفر أعاليه كلون المذهب

وكان شعار أصحاب رسول الله ﷺ تلك الليلة: أمت أمت.

(١) ربيئة: مستطلعًا.

(٢) تغيب الإبل فى المرعى.

وكانت سرية غالب بن عبد الله بضعة عشر رجلا.

وفى هذه السنة.. بعث رسول الله - عليه الصلاة والسلام - العلاء بن الحضرمَى إلى المنذر بن ساوى العبدى، وكتب إليه كتابًا فيه: بسم الله الرحمـٰن الرحيم، من محمد النبى رسول الله إلى المنذر بن ساوى: سلام عليك، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إلـه إلا هو، أما بعد: فإن كتابك قد جاءنى ورسلك، وإنه من صلى صلاتنا، وأكل ذبيحتنا، واستقبل قبلتنا فإنه مسلم، له ما للمسلمين، وعليه ما على المسلمين، ومن أبى فعليه الجزية، لا تؤكل ذبائحهم، ولا تنكح نساؤهم.

وفيها بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى جَيْفَر وعباد ابنى جلندى بعمان، فصدقا النبى، وأقرا بما جاء به، وصدق أموالهما، وأخذ الجزية من المجوس.

وفيها سرية شجاع بن وهب إلى بنى عامر، فى شهر ربيع الأول فى أربعة وعشرين رجلاً، فشن الغارة عليهم، فأصابوا نعما وشاءً، وكانت سهامهم خمسة عشر بعيرًا، لكل رجل.

وفيها كانت سرية عمرو بن كعب الغفارى إلى ذات أطلاح، خرج فى خمسة عشر رجلاً، حتى انتهى إلى ذات أطلاح، فوجد جمعًا كثيرًا، فدعوهم إلى الإسلام، فأبوا أن يجيبوا، فقتلوا أصحابَ عمرو جميعًا، وتحامل حتى بلغ المدينة.

قال الواقدى: وذات أطلاح من ناحية الشام، وكانوا من قضاعة، ورأسهم رجُلٌ يقال له سَدُوس.

وفيها قدم عمرو بن العاص مسْلمًا على رسول الله ﷺ قد أسلم عند النجاشى، وقدم معه عثمان بن طلحة العبدرى، وخالد بن الوليد بن المغيرة، قدموا المدينة فى أول صفر.

وكان سبب إسلام عمرو بن العاص - كما أسرّ به إلى حبيب بن أبى أوْس - قال: لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق، جمعتُ رجالاً من قريش كانوا يروْن رأيى، ويسمعون منى، فقلت لهم: تعلمون والله أنى لأرى أمر محمد يعلو الأمور علواً مُنكرًا، وإنى قد رأيت رأيًا فيما ترون فيه. قالوا: وماذا رأيت؟ قلت: رأيت أن نلحق بالنجاشىّ، فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنّا عند النجاشى، فلأن نكون تحت يديه أحبُّ إلينا من أن نكون تحت يدى محمد؛ وإن يظهر قومنا فنحن من قد عرفوا، فلا يأتينا منهم إلاّ خير، فقالوا: إن هذا الرأى. قلت: فاجمعوا له مانُهدى إليه - وكان أحبَّ ما يهدى إليه من أرضنا الأدم - فجمعنا له أدمًا كثيرًا، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه، فوالله إنا لعنده، إذ جاءه عمرو بن أمية الضمرى، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه فى شأن جعفر ابن أبى طالب وأصحابه. . فدخل عليه ثم خرج من عنده. . فقلت لأصحابى: هذا عمرو بن أمية الضمرى، لو قد دخلت على النجاشى وسألته إياه، فأعطانيه فضربت عنقه! فإذا فعلت ذلك رأت قريش أنى قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد.

فدخلت عليه، فسجدتُ له كما كنت أصنع، فقال: مرحبا بصديقى! أهديت لى شيئًا من بلادك؟ قلت: نعم، أيها الملك، قد أهديت لك أدمًا كثيرًا، ثم قربته إليه، فأعجبه واشتهاه، ثم قلت له: أيها الملك، إنى قد رأيت رجلاً خرج من عندك، وهو رسول رجل عدو لنا، فأعطنيه لأقتله، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا. . فغضب، ثم مد يده فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره - يعنى النجاشى - فلو انشقت الأرض لى لدخلت فيها فرقًا منه. ثم قلت: والله أيها الملك لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه. قال: أتسألنى أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى، لتقتله! فقلت: أيها الملك، أكذاك هو؟ قال: ويحك ياعمرو! أطعنى واتبعه، فإنه والله لعلى الحق، وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده. قلت: فتبايعنى له على الإسلام؟ قال: نعم. . فبسط يده، فبايعته على الإسلام، ثم خرجت إلى

أصحابى، وقد حال رأيى عمّا كان عليه، وكتمت أصحابى إسلامى، ثم خرجت عامدًا لرسول الله لأسلم، فلقيت خالد بن الوليد ـ وذلك قبل الفتح ـ وهو مقبلٌ من مكةَ، فقلت له: إلى أين يا أبا سليمان؟ قال: والله لقد استقام المنسم؛ وإن الرجل لنبى، أذهب والله أسلم؛ فحتى متى! فقلت: والله ما جئت إلاّ لأسلم، فقدمنا على رسول الله ﷺ، فتقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع، ثم دنوت فقلت: يارسول الله، إنى أبايعك على أن تغفر لى ما تقدم من ذنبى، ولا أذكر ما تأخر! فقال رسول الله ﷺ: « **ياعمرو، بايع فإن الإسلام يجُبُّ ما قبله، وإنّ الهجرة تجُبُّ ماقبلها** » فبايعته ثم انصرفت.

وقيل: إن عثمان بن طلحة بن أبى طلحة كان معهما، أسلم حين أسلما.

ذكر ما فى الخبر عن الكائن كان من الأحداث المذكورة فى سنة ثمان من سنى الهجرة

فيها توجيه رسول الله ﷺ عمرو بن العاص فى جمادى الآخرة إلى السلاسل من بلاد قضاعة فى ثلثمائة؛ وذلك أن أم العاص بن وائل كانت قضاعية، فذكر أن رسول الله أراد أن يتألفهم بذلك، فوجهه فى أهل الشرف من المهاجرين والأنصار، ثم استمد رسول الله ﷺ فأمده بأبى عبيدة بن الجراح على المهاجرين والأنصار، فيهم أبو بكر وعمر فى مائتين، فكان جميعهم خمسمائة.

غزوة ذات السلاسل

بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى أرض بلى وعذرة، يستنفر الناس إلى الشام؛ وذلك أن أم العاص بن وائل وكانت امرأة من بَلِيّ، فبعثه رسول الله إليهم يستألفهم بذلك، حتى إذا كان على ماء بأرض جذام، يقال لها السلاسل ـ وبذلك سميت تلك الغزوة ذات السلاسل ـ فلما كان عليه خاف، فبعث إلى رسول الله يستمده، فبعث إليه رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح فى المهاجرين الأولين فيهم أبو بكر وعمر ـ رضوان الله عليهم ـ وقال لأبى عبيدة حين وجّهه:

لا تختلفا، فخرج أبو عبيدة حتى إذا قدم عليه، قال له عمرو بن العاص: إنما جئت مددًا لى، فقال له أبو عبيدة: ياعمرو، إن رسول الله قد قال لى: لا تختلفا؛ وأنت إن عصيتنى أطعتك، قال: فأنا أمير عليك؛ وإنما أنت مددٌ لى، قال: فدونك! فصلّى عمرو بن العاص بالناس.

غزوة الخبط

كان الأمير أبو عبيدة بن الجراح مُبتعثًا من رسول الله فى رجب، على ثلثمائة من المهاجرين والأنصار قبل جُهينة، فأصابهم فيها أزْلٌ[1] شديد وجهدٌ، حتى اقتسموا التمر عددًا، وأكلوا الخبط ـ أى: ورق نبات العضاه من الطلح ونحوه ـ ثلاثة أشهر، فخرجت دابة من البَحر يقال لها العنبر، فمكثوا نصف شهر يأكلون منها، ونحر رجل من الأنصار جزائر، ثم نحر من الغد كذلك، فنهاه أبو عبيدة، فانتهى. ولمّا قدموا المدينة، ذكروا ذلك للنبى ﷺ فقال: كُلوا رزقًا أخرجه الله ـ عزّ وجلّ ـ لكم، معكم منه شىء؟ وكان معهم شىء فأرسل إليه بعض القوم فأكل منه.

كما وجّه رسول الله ﷺ سريّة فى شعبان، أميرها أبو قتادة.

عن عبد الله بن أبى حدرد الأسلمىّ، قال: تزوجت امرأة من قومى، فأصدقتها مائتى درهم، فجئت رسول الله ﷺ أستعينه على نكاحى، فقال: وكم أصدقْتَ؟ قلت: مائتى درهم يارسول الله. قال: سبحان الله! لو كنتم إنما تأخذون الدراهم من بطن واد ما زدتم! والله ما عندى ما أعينُك به. فلبثت أيامًا، وأقبل رجلٌ من بنى جُشَم بن معاوية يقال له رفاعة بن قيس، فى بطن عظيم من جُشم، حتى نزل بقومه ومن معه بالغابة يريد أن يجمع قيسًا على حرب رسول الله ﷺ.. وكان ذا اسم وشرف فى جُشم.. فدعانى رسول الله ﷺ ورجلين من المسلمين فقال: « **اخرجوا إلى هذا الرجل حتى تأتونا به، أو تأتونا منه بخبر وعلم** ».. وقدم لنا شارفًا ـ أى ناقة مسنة ـ عجفاء، فحمل عليها

---

(١) أزْلٌ: قحط وضيق.

أحدنا، فوالله ما قلت به ضعفًا حتى دعمها الرجال من خلفها بأيديهم حتى استقلَّت وما كادت.. ثم قال: « **تبلغوا على هذه واعتقبوها** ».

فخرَجنا ومعنا سلاحنا من النبل والسيوف؛ حتى جئنا قريبًا من الحاضر عشيشية مع غروب الشمس، فكمنت فى ناحية، وأمت صاحبىَّ، فكمنا فى ناحية أخرى من حاضر القوم، وقلت لهما: إذا سمعتُمانى قد كبرت وشددت على العسكر فكبِّرا وشُدَّا معى. فوالله إنا لكذلك ننتظر أن نرى غرّة أو نصيب منهم شيئًا، غشينا الليل حتى ذهبت فحمة العشاء، وقد كان لهم راع قد سرح فى هذا البلد، فأبطأ عليهم حتى تخوّفوا عليه.

فقام صاحبهم ذلك رفاعة بن قيس، فأخذ سيفه، فجعله فى عنقه ثم قال: والله لأتبعنّ أثر راعينا هذا، ولقد أصابه شرٌّ، فقال نفرٌ ممن معه: والله لا تذهب، نحن نكفيك! فقال: والله لا يذهب إلاّ أنا، قالوا: فنحنُ معك، قال: والله لا يتبعنى منكم أحد.

وخرج حتى مرّ بى، فلما أمكننى نفحته بسهم فوضعته فى فؤاده، فوالله ما تكلّم، ووثبت إليه فاحتززت رأسه، ثم شددتُ فى ناحية العسكر وكبَّرت، وشدّ صاحباى وكبرا، فوالله ما كان إلا النجاء ممن كان فيه عندك بكل ما قدروا عليه من نسائهم وأبنائهم، وما خفّ معهم من أموالهم.

فاستقنا إبلاً عظيمة، وغنمًا كثيرة، فجئنا بها إلى رسول الله ﷺ وجئت برأسه أحمله معى.. فأعاننى رسول الله ﷺ من تلك الإبل بثلاثة عشر بعيراً، فجمعت إلىّ أهلى.

وفيها أغزى رسول الله ﷺ فى سرية أبا قتادة، إلى بطن إضم.. فعندما وصلت إليه ـ وكانت قبل الفتح ـ مرَّ عامر بن الأضبط الأشجعى على قعود له، معه مُتَيِّع له ـ تصغير متاع ـ ووطب من لبن ـ وعاء من لبن ـ فلما مر بنا سلم علينا بتحية الإسلام، فأمسكنا عنه، وحمل محلِّم بن جثَّامة الليثى لشىء كان بينه وبينه، فقتله وأخذ بعيره ومُتَيِّعَهُ، فلما قدمنا على رسول

الله ﷺ فأخبرناه الخبر، نزل فينا القرآن: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا ﴾[1].

ذكر الخبر عن غزوة مؤتة

لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة من خيْبر، أقام بها شهرى ربيع، ثم بعث فى جمادى الأولى بعثه إلى الشام الذين أصيبوا بمؤتة، واستعمل عليهم زيد بن حارثة، وقال: إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس. فتجهز الناس، وتهيئوا للخروج، وهم ثلاثة آلاف، فلما حضر خروجهم ودَّع الناس أمراء رسول الله ﷺ وسلّموا عليهم وودّعوهم، فلمّا ودّع عبد الله بن رواحة مع من ودّع من أمراء رسول الله ﷺ بكى، فقالوا له: ما يبكيك يابن رواحة؟ فقال: أما والله ما بى حبُّ الدنيا، ولا صبابة بكم، ولكنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾[2]، فلا أدرى كيف لى بالصدر بعد الورود! فقال المسلمون: صحبكم الله ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين. فقال ابن رواحة:

لكننى أسأل الرحمٰن مغفرة ... وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا[3]
أو طعنة بيدى حران مجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقولوا إذا مروا على جدثى ... أرشدك الله من غاز وقد رشدا

ثم خرج القوم، وخرج رسول الله ﷺ يشيّعهم، حتى إذا ودعهم وانصرف عنهم قال ابن رواحة:

خلف السّلام على امرئ ودعته ... فى النخل خير مشيع وخليل

(١) النساء: ٩٤.
(٢) مريم: ٧١.
(٣) ذات فرغ: ذات سعة: والزبد: رغوة الدم.

ثم مضوا حتى نزلوا معان من أرض الشام، فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء فى مائة ألف من الروم؛ وانضمت إليه المستعربة من لخم وجُذام وبلقين وبهراء وبلى فى مائة ألف منهم؛ عليهم رجل من بلى، ثم أحد إراشة، يقال له: مالك بن رافلة، فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين، ينظرون فى أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ ونخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا برجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له. فشجع الناس عبدُ الله بن رواحة، وقال: ياقوم؛ والله إن الذى تكرهون للذى خرجتم تطلبون: الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به؛ فانطلقوا، فإنما هى إحدى الحسنيين؛ إما ظهور؛ وإما شهادة. فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة. فمضى الناس، وقال ابن رواحة فى محبسهم ذلك.

جلبنا الخيل من آجام قرح ... تُغَرُّ من الحشيش لها العكوم[1]
أقامت ليلتين على معان ... فأعقب بعد فترتها جمومُ
فرُحْنا والجياد مُسوَّماتٌ ... تنفَّس فى مناخرها السَّمومُ
فلا وأبى، مآب لَنَأتيَنْها ... ولو كانت بها عربٌ ورومُ

ثم مضى الناس حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء، لقيتهم جموعِ هرقل من الروم والعرب، بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف. ثم دنا العدوُّ، وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة؛ فالتقى الناس عندها، فتعبأ المسلمون، فجعلوا على ميمنتهم رجلاً من بنى عذرة، يقال له قطبة بن قتادة، وعلى ميسرتهم رجلاً من الأنصار يقال له عباية بن مالك، ثم التقى الناس؛ فاقتتلوا، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شاط[2] فى رماح القوم، ثم أخذها جعفر بن أبى

(١) العكوم: جمع عكم، وهو الجنب.

(٢) شاط: سال دمه فهلك.

طالب؛ فقاتل بها حتى إذا ألحمه القتال ـ نشب فيه فلم يجد مخلصًا ـ اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها ـ أى : ضرب قوائمها بالسيف ـ ثم قاتل القوم حتى قُتل؛ فكان جعفرٌ أول رجل من المسلمين عقر فى الإسلام فرسه، فلما قتل جعفر أخذ الراية عبد الله بن رواحة؛ ثم تقدم بها وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد، ثم قال:

أقسمت يانفس لتنزلنهْ ... طائعة أو فلتكرهنَّهْ
قد طالما قد كنت مطمئنهْ ... هل أنت إلا نطفة فى شنَّه[1]

ثم نزل، فأتاه ابن عم له بعظم من لحم، وقال: شُدَّ بها صلبك، فإنك قد لقيت أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده، فانتهس ـ أى: قضم بفمه يسيرًا ـ نهْسة ثم سمع الحطمة ـ زحام يحطم بعضه ـ فى بعض الناس، فقال: وأنت فى الدنيا؟! ثم ألقاه من يده، وأخذ سيفه، فتقدم فقاتل حتى قُتل، فأخذ الراية ثابت ابن أقرم؛ أخو بلْعجلان؛ فقال: يامعشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم، فقالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد؛ فلما أخذ الراية دافع القوم. وحاشى بهم ـ أى: انحاز بهم ـ ثم انحاز وتحيّز عنه حتى انصرف بالناس. .

وصعد رسول الله ﷺ المنبر، وأمر فنودى: الصلاة جامعة! فاجتمع الناس إلى رسول الله، فقال: باب خير، باب خير، باب خير! أخبركم عن جيشكم هذا الغازى، إنهم انطلقوا فلقُوا العدو، فقتل زيدٌ شهيدًا ـ واستغفر له ـ ثم أخذ اللواء جعفر، فشدّ على القوم حتى قتل شهيدًا ـ فشهد له بالشهادة واستغفر له ـ ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة؛ فأثبت قدميه حتى قتل شهيدًا ـ فاستغفر له ـ ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ـ ولم يكن من الأمراء، هو أمر نفسه ـ ثم قال رسول الله ﷺ: « **اللهم إنه سيف من سيوفك، فأنت تنصره** » فمنذ يومئذ سُمى

(١) الشنَّة : السقاء البالى .

خالد سيف الله. ثم قال رسول الله ﷺ: « **أبكروا فأمدّوا إخوانكم ولا يتخلّفَن منكم أحد** ». فنفروا مشاةً وركبانًا، وذلك فى حرّ شديد.

ولما دَنوا من دخول المدينة، تلقاهم رسول الله ﷺ والمسلمون، ولقيهم الصبيان يشتدون، ورسول الله مقبل مع القوم على دابة، فقال: خذوا الصبيان فاحملوهم، وأعطونى ابن جعفر، فأتى بعبد الله بن جعفر، فأخذه، فحمله بين يديه، وجعل الناس يحثون على الجيش التراب، ويقولون: يافُرار فى سبيل الله، فيقول رسول الله ﷺ: « **ليسوا بالفرّار، ولكنهم الكرّار إن شاء الله** ».

ذكر الخبر عن فتح مكة

ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة بعد بعثه إلى مؤتة، جمادى الآخرة ورجب.

ثم إن بنى بكر بن عبد مناة بن كنانة عدت على خزاعة، وهم على ماءٍ لهم بأسفل مكة، يقال له الوتير، وكان الذى هاج ما بين بنى بكر وبنى خزاعة رجلٌ من بلحضرمى، يقال له مالك بن عباد ـ وحِلف الحضرمى يومئذ إلى الأسود بن رزْن ـ خرج تاجرًا، فلما توسط أرض خزاعة عدوا عليه فقتلوه، وأخذوا ماله، فعدت بنو بكر على رجل من خزاعة فقتلوه، فعدت خزاعة قبيل الإسلام على بنى الأسود بن رزن الديلى، وهم منخر بنى بكر ـ أى: المتقدمون ـ وأشرافهم: سلمى، وكلثوم، وذؤيب، فقتلوهم بعرفة عند أنصاب الحرم. كان بنو الأسود يُودَّوْن فى الجاهلية ديتين ديتين، ونودى دية دية لفضلهم فينا.

فبينا بنو بكر وخزاعة على ذلك حجز بينهم الإسلام، وتشاغل الناس به، فلما كان صلحُ الحديبية بين رسول الله ﷺ وبين قريش، كان فيما شرطوا على رسول الله، وشرط لهم: أنه مَنْ أحب أن يدخل فى عهد رسول الله ﷺ وعقده دخل فيه، ومن أحبّ أن يدخل فى عهد قريش وعقدهم دخل فيه، فدخلت بنو بكر فى قريش، ودخلت خزاعة فى عقد رسول الله ﷺ.

فلما كانت تلك الهدنة اغتنمتها بنو الدِّيل من بنى بكر من خزاعة، وأرادوا أن

يصيبوا منهم ثأرًا بأولئك النفر الذين أصابوا منهم ببنى الأسود بن رزن، فخرج نوفل بن معاوية الدِّيلى فى بنى الدِّيل ـ وهو يومئذ قائدهم، ليس كل بنى بكر تابعه ـ حتى بيَّت خزاعة، وهم على الوتير ـ ماء لهم ـ فأصابوا منهم رجلاً وتحاوزوا واقتتلوا، ورفدت قريش بنى بكر بالسلاح، وقاتل معهم من قريش من قاتل بالليل مستخفيًا، حتى حازوا ـ أى: ساقوا ـ خزاعة إلى الحرام.

قال الواقدى: كان ممن أعان من قريش بنى بكر على خزاعة ليلتئذ بأنفسهم متنكّرين صَفْوان بن أميّة، وعكْرمة بن أبى جهل، وسُهيْل بن عمرو، مع عيرهم وعبيدهم.

وأكمل ابن إسحاق، قال: فلما انتهوا إلى الحرم قالت بنو بكر: يانوفل، إنا دخلنا الحرم إلـهك إلـهك! فقال كلمة عظيمة: إنه لا إلـه له اليوم! يابنى بكر أصيبوا ثأركم، فلعمرى إنكم لتسرقون فى الحرم؛ أفلا تصيبون ثأركم فيه! وقد أصابوا منهم ـ ليلة بيتوهم بالوتير ـ رجلاً يقال له منبه، وكان منبه رجلاً مفئودًا ـ أى: ضعيف الفؤاد ـ خرج هو ورجل من قومه يقال له تميم بن أسد، فقال له منبه: ياتميم، انج بنفسك؛ فأما أنا فوالله إنى لميت قتلونى أو تركونى؛ لقد انبت ـ أى: انقطع ـ فؤادى. فانطلق تميم فأفلت، وأدركوا منبها فقتلوه. فلما دخلت خزاعة مكة لجئوا إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعى، ودار مولى لهم يقال له رافع، فلما تظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة، وأصابوا منهم ما أصابوا، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد والميثاق بما استحلوا من خزاعة ـ وكانوا فى عقده وعهده ـ خرج عمرو بن سالم الخزاعى، ثم أحد بنى كعب؛ حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة، وكان ذلك مما هاج فتح مكة، فوقف عليه وهو فى المسجد جالس بين ظهرانى الناس، فقال:

لاَهُـمَّ إنـى ناشـد محمـدًا　　　حـلف أبينـا وأبـيه الأتلـدا
فوالدًا كنـا وكـنت ولـدا　　　ثمت [أسلمنا] فلم ننزع يدا

فانصر رسول الله نصراً [أعتدا] وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا أبيض مثل البدر ينمى صعدا
إن قريشًا أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا

فقتلونا ركعًا وسجدا

قد قتلونا وقد أسلمنا. فقال رسول الله ﷺ حين سمع ذلك: قد نصرت يا عمرو بن سالم! ثم عرض لرسول الله عنان من السماء، فقال: إن هذه السحابة لتستهل بنصر بنى كعب.

ثم خرج بديل بن ورقاء فى نفر من خزاعة حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة، فأخبروه بما أصيب منهم، وبمظاهرة قريش بنى بكر عليهم؛ ثم انصرفوا راجعين إلى مكة. وقد كان رسول الله ﷺ قال للناس: « **كأنكم بأبى سفيان قد جاء لِيُشدِّد العقد، ويزيد فى المدة** ».

ومضى بديل بن ورقاء وأصحابه، فلقوا أبا سفيان بعسفان، قد بعثته قريش إلى رسول الله ﷺ ليشدد العقد ويزيد المدة، وقد رهبوا الذى صنعوا؛ فلما لقى أبو سفيان بديلاً، قال: من أين أقبلت يابديل؟ وظن أنه قد أتى رسول الله، قال: سرت فى خزاعة فى الساحل وفى بطن هذا الوادى. قال: أو ما أتيت محمدًا؟ قال: لا. قال: فلما راح بُديل إلى مكة قال أبو سفيان: لئن كان جاء المدينة لقد علف بها النوى، فعمد إلى مبرك ناقته، فأخذ من بعرها ففته؛ فرأى فيه النوى، فقال: أحلف بالله لقد جاء بُديل محمداً.

ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة؛ فدخل على ابنته أم حبيبة بنت أبى سفيان، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله، طَوته عنه، فقال: يابنيّة، والله ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش، أم رغبت به عنى! قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس، فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله، قال: والله لقد أصابك يابنيّة بعدى شرّ. ثم خرج

حتى أتى رسول الله ﷺ فكلمه، فلم يردُدْ عليه شيئًا، ثم ذهب إلى أبى بكر فكلّمه أن يكلم له رسول الله، فقال: ما أنا بفاعل. ثم أتى عمر بن الخطاب، فكلمه فقال: أنا أشفع لكم إلى رسول الله؟ فوالله لوْ لم أجد إلا الذرّ لجاهدتكم به. ثم خرج فدخل على عليّ بن أبى طالب - رضى الله عنه - وعنده فاطمة ابنة رسول الله، وعندها الحسن بن على، غلام يدبّ بين يديها. فقال: ياعليّ، إنك أمسُّ القوم بى رحمًا، وأقربهم منى قرابة، وقد جئت فى حاجة، فلا أرجعنَّ كما جئت خائبًا، اشفع لنا إلى رسول الله! قال: ويحك يا أبا سفيان! والله لقد عَزَم رسول الله على أمرٍ ما تستطيع أن نكلّمه فيه، فالتفت إلى فاطمة، فقال: يابنة محمد، هل لك أن تأمرى بُنَيّك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيّد العرب إلى آخر الدهر! قالت: والله ما بلغ بُنَيِّى ذلك أن يجير بين الناس، ومايجير على رسول الله أحد.

قال: يا أبا الحسن، إنّى أرى الأمور قد اشتدت علىّ فانصحنى. فقال له: والله ما أعلم شيئًا يغنى عنك شيئًا. ولكنك سيد بنى كنانة، فقم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرضك، قال: أو ترى ذلك مغنيا عنى شيئًا؟ قال: لا والله ما أظن، ولكن لا أجدُ لك غير ذلك. فقام أبو سفيان فى المسجد، فقال: أيها الناس، إنى قد أجرت بين الناس. ثم ركب بعيره فانطلق.

فلما قدم على قريش، قالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمدًا فكلّمته، فوالله ما ردَّ علىّ شيئًا، ثم جئت ابن أبى قحافة، فلم أجد عنده خيرًا، ثم جئت ابن الخطاب؛ فوجدته أعدى القوم، ثم جئت علىّ بن أبى طالب، فوجدته ألْين القوم؛ وقد أشار علىَّ بشىء صنعته؛ فوالله ما أدرى هل يغنينى شيئًا أم لا! قالوا: وبماذا أمرك؟ قال: أمرنى أن أجير بين الناس ففعلت، قالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا، قالوا: ويلك، والله إن زاد على أن لعب بك، فما يغنى عنا ما قلت. قال: لا والله، ما وجدت غير ذلك، قال: وأمر رسول الله ﷺ الناس بالجهاز؛ وأمر أهله أن يجهزوه؛ فدخل أبو بكر على ابنته عائشة وهى تحرّك بعض جهاز رسول الله. فقال:

أىْ بنيّة، أأمركم رسول الله بأن تجهزوه؟ قلت: نعم، فتجهز، قال: فأين ترينه يريد؟ قالت: والله ما أدرى.

ثمَ إنّ رسول الله ﷺ أعلن الناس أنه سائر إلى مكة، وأمرهم بالجدّ والتهيُّؤ، وقال: اللـهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها.

ولما أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى مكة، كتب حاطب بن أبى بلتعة كتابًا إلى قريش، يخبرهم بالذى أجمع عليه رسول الله من الأمر فى السير إليهم، ثم أعطاه امرأة - من مزينة أو مولاة لبنى عبد المطلب - وجعل لها جعلا على أن تبلغه قريشًا، فجعلته فى رأسها، ثم فتلت عليه قرونها، ثم خرجت به. وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطبٌ؛ فبعث علىّ بن أبى طالب والزبير بن العوام، فقال: أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بكتاب إلى قريش، يحذّرهم ماقد أجمعنا له فى أمرهم؛ فخرجا حتى أدركاها بالحليفة، حليفة ابن أبى أحمد، فاستنزلاها، فالتمسا فى رحلها، فلم يجدا شيئا، فقال لها علىّ بن أبى طالب: إنى أحلف ماكذب رسول الله ولاكذبنا؛ ولتخرجن إلىّ هذا الكتاب أو لنكشفنك؛ فلمّا رأت الجدَّ منه، قالت: أعرض عنّى، فأعرض عنها، فحلت قرون رأسها، فاستخرجت الكتاب منه فدفعته إليه، فجاء به إلى رسول الله ﷺ فدعا رسول الله حاطبًا، فقال: ياحاطب، ماحملك على هذا؟ فقال: يارسول الله، أما والله إنى لمؤمن بالله ورسوله، ماغيّرت ولا بدَّلت، ولكنى كنت امرأً ليس لى فى القوم أصل ولاعشيرة، وكان لى بين أظهرهم أهلٌ وولد، فصانعتهم عليهم، فقال عمر بن الخطاب: يارسول الله، دعنى فلأضـرب عنقـه، فـإن الرجل قد نافق، فقال رسول الله ﷺ: ومايدريك ياعمر؟ لعل الله قد اطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر؛ فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم! فأنزل الله - عزّ وجلّ - فى حاطب ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ﴾[1] إلى آخر القصة[2].

(١) الممتحنة : ١، ٤.

(٢) تفسير الطبرى: ٢٨/٣٩.

ثم مضى رسول الله لسفره، واستخلف على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين الغفارى، وخرج لعشر مضين من شهر رمضان، فصام رسول الله ﷺ وصام الناس معه؛ حتى إذا كان بالكديد، مابين عسفان وأمج، أفطر رسول الله، ثم مضى حتى نزل مرَّ الظهران فى عشرة آلاف من المسلمين، فسبّعت سليم، وألفت مزينة - أى: كانت سبعمائة وألفًا - وفى كل القبائل عدد وإسلام؛ وأوعب - أى: خرج القوم كلهم للغزو - مع رسول الله المهاجرون والأنصار، فلم يتخلف عنه منهم أحد، فلما نزل رسول الله ﷺ مَرّ الظهران، وقد عميت الأخبار عن قريش فلا يأتيهم خبر عن رسول الله؛ ولا يدرون ماهو فاعلٌ؛ فخرج فى تلك الليلة أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء، يتحسسون الأخبار؛ هلى يجدون خبرًا أو يسمعون به.

وقد كان العبّاس بن عبد المطلب تلقّى رسول الله ﷺ ببعض الطريق؛ وقد كان أبو سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة قد لقيا رسول الله بنيق العُقاب، فيما بين مكة والمدينة، فالتمس الدخول على رسول الله، فكلمته أم سلمة فيهما، فقالت: يارسول الله، ابن عمك وابن عمتك وصهرك، قال: لاحاجة لى بهما، أمّا ابنُ عمى فهتك عرضى، وأمّا ابن عمّتى وصهرى فهو الذى قال بمكة ماقال.

فلما خرج الخبر إليهما بذلك؛ ومع أبى سفيان بُنىٌّ له فقال: والله ليأذننّ لى أو لآخذن بيد بنى هذا؛ ثم لنذهبن فى الأرض؛ حتى نموت عطشًا وجوعًا. فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رقّ لهما؛ ثم أذن لهما، فدخلا عليه، فأسلما وأنشده أبو سفيان قوله فى إسلامه واعتذاره مما كان مضى منه:

لعمرى إنى يوم أحمل رايةً لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالمدلج الحيران أظلم ليله فهذا أوانى حين أهدى وأهتدى
وهادٍ هدانى غير نفسى ونالنى مع الله من طردت كلَّ مطرد

وزعموا أنه حين أنشد رسول الله ﷺ قوله: « ونالنى مع الله من طرّدت كل مطرد » ضرب النبى ﷺ فى صدره ثم قال: أنت طرّدتنى كل مطرد!!

فلما نزل مر الظهران خرج أبو سفيان بن حرب ومعه حكيم بن حزام. وعن عباس بن عبد المطلب قال ـ وقد خرج رسول الله من المدينة ـ: ياصباح قريش ـ وتقال فى حالة الإنذار بغارة ـ! والله لئن بغتها رسول الله فى بلادها فدخل مكة عنوة؛ إنه لهلاكُ قريش آخر الدهر! فجلس على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، وقال: أخرج إلى الأراك لعلى أرى حطابًا أو صاحب لبن، أو داخلاً يدخل مكة؛ فيخبرهم بمكان رسول الله، فيأتونه فيستأمنونه. فخرجت، فوالله إنى لأطوف فى الأراك ألتمس ماخرجت له؛ إذ سمعت صوت أبى سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء، وقد خرجوا يتحسسون الخبر عن رسول الله ﷺ فسمعت أبا سفيان و هو يقول: والله مارأيت كاليوم قطّ نيرانًا! فقال بد يل: هذه والله نيران خزاعة حمشتها الحرب ـ أى: هيجتها الحرب ـ، فقال أبو سفيان: خزاعة ألأم من ذلك وأذلُّ! فعرفت صوته، فقلت: يا أبا حنظلة! فقال: أبو الفضل! فقلت: نعم، فقال: لبيك فداك أبى وأمى! فما وراءك؟ فقلت: هذا رسول الله ورائى قد دلف ـ أى: مشى مشيًا فوق الدبيب ـ إليكم بما لاقبل لكم به: عشرة آلاف من المسلمين. قال: فما تأمرنى؟ فقلت: تركب عجز هذه البغلة، فأستأمن لك رسول الله؛ فوالله لئن ظفر بك ليضربن عنقك. فردفنى فخرجت به أركض بغلة رسول الله نحو رسول الله ﷺ، فكلما مررت بنار من نيران المسلمين ونظروا إلىّ، قالوا: عم رسول الله على بغلة رسول الله؛ حتى مررت بنار عمر بن الخطاب، فقال: أبو سفيان! الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد! ثم اشتد نحو النبى ﷺ وركضت البغلة، وقد أردفت أبا سفيان، حتى اقتحمت على باب القبة، وسبقت عمر بما تسبق به الدابة البطيئة الرجل البطىء؛ فدخل عمر على رسول الله فقال: يارسول الله؛ هذا أبو سفيان عدوّ الله، قد أمكن الله منه بغير عهد ولاعقد، فدعنى أضرب عنقه، فقلت: يارسول الله، إنى قد أجرته، ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه، فقلت:

والله لايناجيه اليوم أحدٌ دونى! فلمّا أكثر فيه عمر؛ قلت: مهلاً ياعمر! فوالله ماتصنع هذا إلاّ لأنه رجل من بنى عبد مناف، ولو كان من بنى عديٍّ بن كعب ماقلتِ هذا. فقال: مهلا ياعبَّاس! فوالله لإسلامكَ يوم أسلمت كان أحب إلىّ من إسلام الخطاب لوْ أسلم، وذلك لأنى أعلم أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب لو أسلم؛ فقال رسول الله ﷺ: اذهب فقد آمناه حتى تغدو به علىّ بالغداة، فرجع به إلى منزله؛ فلما أصبح غدا به على رسول الله ﷺ، فلما رآه قال: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أن لا إلـه إلاّ الله! فقال: بأبى أنت وأمى، ما أوصلك وأحلمك وأكرمك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عنى شيئًا، فقال: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أنّى رسول الله! قال: بأبى أنت وأمّى ما أوصلك وأحلمك وأكرمك! أمّا هذه ففى النفس منها شىء! فقال العباس: فقلت له: ويلك! تشهَّد شهادة الحق قبل ـ والله ـ أن تضرب عنقك، قال: فتشهّد.

فقال رسول الله ﷺ للعباس حين تشهد أبو سفيان: انصرف ياعباس فاحبسه عند خطم الجبل بمضيق الوادى، حتى تمر عليه جنود الله، فقلت له: يارسول الله، إنّ أبا سفيان رجل يحبّ الفخر، فاجعل له شيئًا يكون فى قومه. فقال: نعم، من دخل دارَ أبى سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، فخرجت حتى حبسته عند خطم الجبل بمضيق الوادى، فمرت عليه القبائل، فيقول: من هؤلاء ياعباس؛ فأقول: سليم، فيقول: مالى ولسليم! فتمر به قبيلة، فيقول: من هؤلاء؟ فأقول: أسلم، فيقول: مالى ولأسلم؟ وتمر جهينة، فيقول: مالى ولجهينة! حتى مرَّ رسول الله ﷺ فى الخضراء، كتيبة رسول الله من المهاجرين والأنصار فى الحديد؛ لايُرى منهم إلا الحدق، فقال: من هؤلاء يا أبا الفضل؟ فقلت: هذا رسول الله فى المهاجرين والأنصار؛ فقال: يا أبا الفضل، لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيمًا. فقلت: ويحك إنها النبوة! فقال: نعم إذًا، فقلت: الحق الآن بقومك فحذرهم؛ فخرج سريعًا حتى أتى مكّة، فصرخ فى المسجد: يامعشر قريش، هذا محمد قد جاءكم

بما لاقبل لكم به! قالوا: فمه! فقال: من دخل دارى فهو آمن، فقالوا: ويحك! وماتغنى عنا دارك! فقال: ومن دخل المسجد فهو آمن، ومَنْ أغلق عليه بابه فهو آمن.

وكتب عروة بعد ذلك إلى عبد الملك بن مروان: أمّا بعد، فإنك كتبت إلىّ تسألنى عن خالد بن الوليد: هل أغار يوم الفتح؟ وبأمر مَنْ أغار؟ وإنه كان من شأن خالد يوم الفتح أنه كان مع النبى ﷺ فلمّا ركب النبى بطنَ مرّ الظهران عامدًا إلى مكة، وقد كانت قريش بعثوا أباسفيان وحكيم بن حزام يتلقّيان رسول الله ﷺ وهم لايدرون حين بعثوهما أين يتوجه النبى ﷺ إليهم أو إلى الطائف! وذاك أيام الفتح؛ واستتبع أبو سفيان وحكيم بن حزام وبُديل؛ وقالوا لهم حين بعثوهم إلى رسول الله ﷺ: لانؤتين من ورائكم، فإنا لاندرى مَنْ يريد محمد! إيانا يريد، أو هوازن يريد، أو ثقيفًا! وكان بين النبى ﷺ وبين قريش صلح يوم الحديبية وعهد ومدة، فكانت بنو بكر فى ذلك الصلح مع قريش، فاقتتلت طائفة من بنى كعب وطائفة من بنى بكر، وكان بين رسول الله وبين قريش فى ذلك الصّلح الذى اصطلحوا عليه: «لا إغلال ولا إسلال»، فأعانت قريش بنى بكر بالسلاح، فاتهمت بنو كعب قريشًا، فمنها غزا رسول الله ﷺ أهل مكة؛ وفى غزوته تلك لقى أبا سفيان وحكيمًا وبديلا بمر الظهران، ولم يشعروا أن رسول الله ﷺ نزل مرّ الظهران، حتى طلعوا عليه، فلمّا رآه بمرّ الظهران دخل عليه أبو سفيان وبُدَيْل وحكيم بمنزله بمرّ الظهران فبايعوه، فلمّا بايعوه بعثهم بين يديه إلى قريش، يدعوهم إلى الإسلام، فأخبرت أنه قال: من دخل دار أبى سفيان فهو آمن - وهى بأعلى مكة - ومن دخل دار حكيم - وهى بأسفل مكة - فهو آمن، ومن أغلق بابه وكفّ يده فهو آمن.

ولمّا خرج أبو سفيان وحكيم من عند النبى عامدين إلى مكة، بعث فى أثرهما الزبير وأعطاه رايته، وأمّره على خيل المهاجرين والأنصار، وأمَره أن يغرز رايته بأعلى مكة بالحجون، وقال للزبير: لاتبرح حيث أمرتك أن تغرز رايتى حتى

آتيك؛ ومن ثم دخل رسول الله ﷺ وأمر خالد بن الوليد ـ فيمن كان أسلم من قضاعة وبنى سليم وأناس، إنما أسلموا قبيل ذلك ـ أن يدخل من أسفل مكة، وبها بنو بكر قد استنفرتهم قريش، وبنو الحارث بن عبد مناة ومن كان من الأحابيش أمرتهم قريش أن يكونوا بأسفل مكة، فدخل عليهم خالد بن الوليد من أسفل مكة.

وكان النبى ﷺ قد طلب من خالد والزبير حين بعثهما، فقال: لاتقاتلا إلا مَنْ قاتلكما؛ فلمّا قدم خالد على بنى بكر والأحابيش بأسفل مكة، قاتلهم فهزمهم الله ـ عزّ وجلّ ـ ولم يكن بمكة قتال غير ذلك؛ غير أن كرز بن جابر، أحد بنى محارب بن فهر، وابن الأشعر ـ رجلاً من بنى كعب ـ كانا فى خيل الزبير، فسلكا كداء، ولم يسلكا طريق الزّبير الذى سلك، الذى أمر به. فقدما على كتيبه من قريش مهبط كداء فقتلا؛ ولم يكن بأعلى مكة من قبل الزبير قتال؛ ومن ثم قدم النبى ﷺ وقام الناس إليه يبايعونه؛ فأسلم أهل مكة، وأقام النبى عندهم نصف شهر، لم يزد على ذلك، حتى جاءت هوازن وثقيف فنزلوا بحنين.

وقد زعم بعض أهل العلم أن سعد بن عبادة ـ وكان على رأس من دخلوا مكة من كداء ـ قال حين وُجه داخلا: «اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة». فسمعها رجلٌ من المهاجرين، فقال: يارسول الله، اسمع ماقال سعد بن عبادة، وما نأمن أن تكون له فى قريش صولة! فقال رسول الله لعلىّ بن أبى طالب: أدركه فخذ الراية، فكن أنت الذى تدخل بها.

كما أنه ﷺ أمر خالد بن الوليد، فدخل من الليط أسفل مكة، فى بعض الناس؛ وكان خالد على المجنبة اليمنى، وفيها أسلم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من قبائل العرب؛ وأقبل أبو عبيدة بن الجراح بالصف من المسلمين ينصب لمكة بين يدى رسول الله ﷺ، ودخل رسول الله من أذاخر؛ حتى نزل بأعلى مكة، وضربت هنالك قبته.

وعن ابن إسحاق أن صفوان بن أميّة، وعكرمة بن أبى جهل، وسهيل بن عمرو، وكانوا قد جمعوا أناسًا بالخندمة ليقاتلوا، وقد كان حماسُ بن قيس بن خالد أخو بنى بكر يُعدُّ سلاحًا قبل أن يدخل رسول الله مكة ويصلح منها، فقالت له امرأته: لماذا تعد ما أرى؟ قال: لمحمد وأصحابه، فقالت: والله ما أراه يقوم لمحمد وأصحابه شيء، قال: والله أنّى لأرجو أن أخدمك بعضهم. فقال:

إن تقبلوا اليوم فمالى عله   هذا سلاحٌ كامل [وألّهْ][1]
وذو [غرارين][2] سريع السلة

ثم شهد الخندمة مع صفوان وسهيل بن عمرو وعكرمة، فلمّا لقيهم المسلمون من أصحاب خالد بن الوليد ناوشوهم شيئًا من قتال، فقتل كرز بن جابر، وحبيش بن خالد، حليف بنى منقذ ـ وكانا فى خيل خالد بن الوليد، فشذا عنه، وسلكا طريقًا غير طريقه، فقتلا جميعًا.. حبيش قتل قبل كرز بن جابر، وكان حبيش يكنى بأبى صخر، وأصيب من جهينة سلمة بن الميلاء من خيل خالد بن الوليد، وأصيب من المشركين أناس قريب من اثنى عشر أو ثلاثة عشر، ثم انهزموا فخرج حماس منهزمًا حتى دخل بيته، ثم قال لامرأته: أغلقى على بابى، قالت: فأين ماكنت تقول؟ فقال:

إنّك لو شهدت يوم الخندمة   إذ فر صفوان وفرَّ عكرمة
وأبو يزيد قائمٌ [كالمؤتمة][3]   واستقبلتهم بالسيوف المسلمة
يقطعن كلَّ ساعدٍ وجمجمة   ضربا فلا تسمع إلا غمغمة
لهم [نهيب][4] خلفنا وهمهمة   لم تنطقى فى اللوم أدنى كلمة

---

(١) الألّة : حربة ذات أسنان طويلة.

(٢) ذو غرارين: ذو حدّين.

(٣) أم اليتامى.

(٤) صوت فى الصدر.

وكان رسول الله ﷺ قد منع قتل أحد إلاّ من قاتل المسلمين فى فتح مكة، إلاّ أنه قد عهد فى نفرٍ سمّاهم، أمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، منهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح.. بن لؤى ـ وإنما أمر رسول الله ﷺ بقتله لأنه كان قد أسلم فارتدّ مشركًا، ففرّ إلى عثمان، وكان أخاه من الرضاعة، فغيّبه حتى أتى به رسول الله بعد أن اطمأن أهل مكّة، فاستأمن له رسول الله، فذكر أنه ﷺ صمت طويلا، ثم قال: نعم؛ فلما انصرف به عثمان، قال رسول الله لمن حوله من أصحابه: أما والله لقد صمت ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه! فقال رجل من الأنصار: فهلاّ أومأت إلىَّ يارسول الله! قال: إن النبى لايقتل بالإشارة ـ وعبد الله بن خطل، رجل من بنى تيم بن غالب ـ وإنما أمر بقتله لأنه كان مسلمًا، فبعثه رسول الله مصدّقًا ـ أى: جامع الصدقات ـ وبعث معه رجلا من الأنصار؛ وكان مولىً له يخدمه، وكان مسلمًا، فنزل منزلا، وأمر المولى أن يذبح له تيسًا، ويصنع له طعامًا، ونام فاستيقظ ولم يصنع له شيئا، فعدا عليه فقتله، ثم ارتدّ مشركًا، وكانت له قينتان: فرتنى وأخرى معها، وكانتا تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ فأمر بقتلهما معه، والحويرث بن نقيذ بن وهب، وكان ممن يؤذيه بمكة، ومقيس بن صُبابة ـ وإنما أمر بقتله لقتله الأنصارىّ الذى كان قتل أخاه خطأ، ورجوعه إلى قريش مرتداً ـ وعكرمة بن أبى جهل، وسارة، مولاة كانت لبعض بنى عبد المطلب؛ وكانت ممن يؤذيه بمكة. فأمّا عكرمة بن أبى جهل فهرب إلى اليمن، وأسلمت امرأته أم حكيم بنت الحارث، فاستأمنت له رسول الله فأمّنه؛ فخرجت فى طلبه حتى أتت به رسول الله ﷺ فكان عكرمة يحدث ـ فيما يذكرون ـ أن الذى رده إلى الإسلام بعد خروجه إلى اليمن أنه كان يقول: أردت ركوب البحر لألحق بالحبشة، فلما أتيت السفينة لأركبها قال صاحبها: ياعبد الله، لاتركب سفينتى حتى توحد الله، وتخلع مادونه من الأنداد، فإنى أخشى إن لم تفعل أن نهلك فيها، فقلت: وما يركبه أحدٌ حتى يوحّد الله ويخلع مادونه! قال: نعم، لايركبه أحدٌ إلاّ أخلص. فقلت: ففيم أفارق محمدا، فهذا جاءنا به، فوالله إن إلـهنا فى البحر لإلـهنا فى البر، فعرفت الإسلام عند ذلك، ودخل فى قلبى. وأما عبد الله بن خطل، فقتله سعيد بن حريث المخزومى وأبو برزة

الأسلمى، اشتركا فى دمه. وأما مقيس بن صبابة فقتله نميلة بن عبد الله، رجل من قومه، وأما قينتا ابن خطل فقتلت إحداهما، وهربت الأخرى حتى استؤمن لها رسول الله بعد، فأمنها. وأما سارة، فاستؤمن لها فأمنها، ثم بقيت حتى أوطأها رجلٌ من الناس فرسًا له فى زمن عمر بن الخطاب بالأبطح فقتلها، وأما الحويرث بن نقيذ، فقتله على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه.

والواقدى قال أسماء الرجل الذين ذكرهم ابن إسحاق، لكنه زاد عليهم أربع نسوة أمر رسول الله بقتلهن.. هند بنت عتبة بن ربيعة، أسلمت وبايعت. وسارة مولاة عمرو بن هاشم، قتلت يومئذ. وقريبة، قتلت يومئذ. وفرتنى عاشت إلى خلافة عثمان.

ثم قام رسول الله ﷺ قائمًا حين وقف على باب الكعبة، ثم قال: لا إله إلاّ الله وحده، لاشريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. ألا كل مأثرة، أو دم، أو مال يدعى، فهو تحت قدميَّ هاتين إلاّ سدانة البيت ـ أى خدمته ـ وسقاية الحاج. ألا وقتيل الخطأ مثل العمد، السوط والعصا، فيهما الدية مغلظة مائة من الإبل، منها أربعون فى بطونها أولادها.

يامعشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم خلق من تراب. ثم تلا رسول الله: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُم...** ﴾[1].

يامعشر قريش، ويا أهل مكة، ماترون أنى فاعل بكم؟ قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم. ثم قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

فأعتقهم رسول الله ﷺ وقد كان الله أمكنه من رقابهم عنوة، وكانوا له فيئا، فبذلك يسمّى أهل مكة الطلقاء. ثم اجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله على

(١) الحجرات: الآية : ١٣.

الإسلام، فجلس لهم ـ فيما بلغني على الصَّفا وعمر بن الخطاب تحت رسول الله أسفل من مجلسه يأخذ على الناس، فبايع رسول الله على السمع والطاعة لله ولرسوله ـ فيما استطاعوا ـ وكذلك كانت بيعتهُ لمن بايع رسول الله من الناس على الإسلام. فلما فرغ رسول الله ﷺ من بيعة الرجال بايع النساء، واجتمع إليه نساء من نساء قريش؛ فيهنّ هند بنت عُتبة، متنقبة متنكرة لحدثها، وماكان من صنيعها بحمزة، فهي تخاف أن يأخذها رسول الله بحدثها ذلك، فلمّا دنون منه ليبايعنه قال ﷺ فيما بلغني: تبايعنني على ألاّ تشركن بالله شيئًا! فقالت هند: والله إنّك لتأخذ علينا أمرًا ماتأخذه على الرجال وسنؤتيكه، قال: ولاتسرقن، قالت: والله إن كنت لأصيب من مال أبى سفيان الهنة والهنة، وما أدرى إن كان ذلك حلاً لى أم لا! فقال أبو سفيان ـ وكان شاهدًا لما تقول ـ: أمَّا ما أصبت فيما مضى فأنت منه فى حِلٍّ، فقال رسول الله: وإنك لهند بنت عتبة! فقالت: أنا هند بنت عتبة، فاعف عمَّا سلف عفا الله عنك! قال: ولاتزنين، قالت: يارسول الله، هل تزنى الحرّة! قال: ولاتقتلن أولادكن، قالت: قد ربيناهم صغارًا، وقتلتهم يوم بدر كبارًا، وأنت وهم أعلم! فضحك عمر بن الخطاب من قولها حتى استغرب ـ أى: بالغ فى الضحك ـ قال: ولاتأتين ببهتان تفترينه بين أيديكنّ وأرجلكنّ، قالت: والله إنّ إتيان البهتان لقبيح؛ ولبعض التجاوز أمثل. قال: ولاتعصينني فى معروف، قالت: ماجلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك فى معروف، فقال رسول الله ﷺ لعمر: بايعهنّ، واستغفر لهنّ رسولُ الله، فبايعهن عُمر، وكان رسول الله لايصافح النساء، ولايمسّ امرأة ولا تمسُّه إلا امرأة أحلّها الله له، أو ذات محرم منه.

وعن أبان بن صالح، قال: كانت بيعة النساء على نحوين ـ فيما أخبره بعض أهل العلم ـ كان يوضع بين يدى رسول الله إناء فيه ماء، فإذا أخذ عليهن وأعطينه غمس يده فى الإناء، ثم أخرجها، فغمس النساءُ أيديهنّ فيه. ثم كان بعد ذلك يأخذ عليهن، فإذا أعطينه ما شرط عليهنّ، قال: اذهبن فقد بايعتكن.

وعن عروة بن الزبير، قال: خرج صفوان بن أمية يريد جدة، ليركب منها إلى

اليمن، قال عُمير بن وهْب: يانبى الله، إنّ صفوان بن أميّة سيد قومه، وقد خرج هاربًا منك ليقذف نفسه فى البحر، فأمنه ﷺ قال: هو آمن، قال: يارسول الله، أعطنى شيئًا يعرف به أمانك، فأعطاه عمامته التى دخل بها مكّة، فخرج بها عمير حتى أدركه بجدة، وهو يريد أن يركب البحر، فقال: ياصفوان، فداك أبى وأمى! أذكرك الله فى نفسك أن تهلكها! فهذا أمانٌ من رسول قد جئتك به، قال: ويلك! اغرب عنى فلا تكلمنى! قال: أى صفوان! فداك أبى وأمّى! أفضلُ الناس، وأبر الناس، وأحلمُ الناس، وخير الناس، ابن عمّتك، عزّه عزّك، وشرفه شرفك، ومُلْكهُ ملكك! قال: إنى أخافه على نفسى، قال: هو أحلمُ من ذلك وأكرم، فرجع به معه، حتى قدم به على رسول الله ﷺ فقال صفوان: إنّ هذا زعم أنك قد أمّنتنى، قال: صدق، قال: فاجعلنى فى أمرى بالخيار شهرين، قال: أنت فيه بالخيار أربعة أشهر.

عن الزهرى، قال: إن أمّ حكيم بنت الحارث وفاختة بنت الوليد ـ وكانت فاختة عند صفوان بن أميّة، وأمّ حكيم عند عكرمة بن أبى جهل ـ أسلمتا، فأمّا أم حكيم فاستأمنت رسول الله لعكرمة بن أبى جهل، فآمنه، فلحقت به باليمن، فجاءت به، فلما أسلم عكرمة وصفوان، أقرّهما رسول الله عندهما على النكاح الأول.

وكان جميع من شهد فتح مكة من المسلمين عشرة آلاف؛ من بنى غفار أربعمائة، ومن أسلم أربعمائة، ومن مُزينة ألف وثلاثة نفر، ومن بنى سليم سبعمائة، ومن جهينة ألف وأربعمائة رجل، وسائرهم من قريش والأنصار وحلفائهم وطوائف العرب من بنى تميم وقيس وأسد.

وفى هذه السنة ـ كما قال الواقدىّ ـ تزوّج رسول الله ﷺ مليكة بنت داود الليثيّة، فجاء إليها بعض أزواج النبىّ ﷺ فقالت لها: ألا تستحيين حين تزوّجين رجُلا قتل أباك! فاستعاذت منه، وكانت جميلة، وكانت حدثة، ففارقها رسول الله؛ وكان قتل أباها يوم فتح مكة.

وفيها هدم خالد بن الوليد العُزّى ببطن نخلة، لخمس ليال بقين من رمضان، وهو صنم لبنى شيبان، بطن من سليم حلفاء بنى هاشم، وبنو أسد بن عبد العزّى، يقولون: هذا صنمنا، فخرج إليه خالد، فقال: قد هدمته، سئل: أرأيت شيئًا؟ قال: لا. قال: فارجع فاهدمه، فرجع خالد إلى الصنم فهدم بيته، وكسر الصنم، فجعل السادن يقول: أعُزّى اغضبى بعض غضباتك! فخرجت عليه امرأة حبشية عريانة مولولة، فقتلها وأخذ مافيها من حلية، ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك، فقال: تلك العُزّى، ولا تعبد العزى أبدًا.

وفيها هدم سواع، وكان برهاط لهذيل، وكان حجرًا، وكان الذى هدمه عمرو ابن العاص لما انتهى إلى الصنم، قال له السادن: ماتريد؟ قال: هدم سواع، قال: لاتطيق تهدمه، قال له عمرو بن العاص: أنت فى الباطل بعد! فهدمه عمرو، ولم يجد فى خزانته شيئًا، ثم قال عمرو للسادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمت والله. وفيها هدم مناة بالمشلّل، هدمه سعد بن زيد الأشهلىّ، وكان للأوس والخزرج.

مسير خالد بن الوليد إلى بنى جذيمة بن مالك

وفيها كانت غزوة خالد بن الوليد بنى جذيمة، وكان من أمره وأمرهم ماقال ابن إسحاق: قد كان رسول الله ﷺ بعث فيما حول مكة السرايا تدعو إلى الله - عزّ وجلّ - ولم يأمرهم بقتال؛ وكان ممّن بعث خالد بن الوليد، وأمره أن يسير بأسفل تهامة داعيًا، ولم يبعثه مقاتلاً، فوطئ بنى جذيمة، فأصاب منهم.. وتفصيل ذلك أنه عندما نزل على الغميضاء هو ومن معه من قبائل سليم ومدلج وغيرهما - وهى ماء من مياه بنى جذيمة بن عامر - وكانت بنو جذيمة قد أصابوا فى الجاهلية عوف بن عبد عوف أبا عبد الرحمن بن عوف، والفاكه بن المغيرة، وكانا أقبلا تاجرين من اليمن - حتى إذا نزلا بهم قتلوهما؛ وأخذوا أموالهما؛ فلما كان الإسلام، وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد، سار حتى نزل ذلك الماء، فلما رآه القوم أخذوا السلاح، فقال لهم خالد: ضعوا السلاح، فإن الناس قد أسلموا.

عن رجل من بنى جذيمة، قال: لمّا أمرنا خالد بوضع السّلاح، قال رجل منّا يقال له جحدم: ويلكم يابنى جذيمة! إنه خالد! والله مابعد وضع السلاح إلاّ الإسار، ثم مابعد الإسار إلاّ ضرب الأعناق؛ والله لا أضع سلاحى أبدًا. قال: فأخذه رجال من قومه، فقالوا: ياجحدم؛ أتريد أن تسفك دماءنا! إن الناس قد أسلموا، ووضعت الحرب، وأمِن الناس؛ فلم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه، ووضع القوم السلاح لقول خالد؛ فلما وضعوه أمر بهم خالد عند ذلك فكتفوا، ثم عرضهم على السيف، فقتل من قتل منهم. فلما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ رفع يديه إلى السماء، ثم قال: اللهم إنّى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد!

ثم دعا علىّ بن أبى طالب ـ عليه السلام ـ فقال: ياعلىّ اخرج إلى هؤلاء القوم؛ فانظر فى أمرهم، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك. فخرج حتى جاءهم ومعه مالٌ قد بعثه رسول الله، فودَى لهم الدماء وما أصيب من الأموال، حتى إنه ليدى ميلغة الكلب ـ قطعة خشبية محفورة ليلغ فيها الكلب ـ حتى إذا لم يبق شيء من دم ولا مال إلاّ وداه، بقيت معه بقية من المال. فقال لهم علىٌّ ـ عليه السلام ـ حين فرغ منهم: هلى بقى لكم دم أو مال لم يود إليكم؟ قالوا: لا، قال: فإنى أعطيكم هذه البقيّة من هذا المال احتياطًا لرسول الله ﷺ مما لايعلم ولاتعلمون. ففعل، ثم رجع إلى رسول الله فأخبره الخبر، فقال: أصبت وأحسنت. ثم قام رسول الله ﷺ فاستقبل القبلة قائمًا شاهرًا يديه؛ حتى إنه ليُرى بياضُ ماتحت منكبيه؛ وهو يقول: اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد.. وكررها ثلاث مرات.

وقد قال بعض من يعذر خالدا: إنه قال: ما قاتلت حتى أمرنى بذلك عبد الله ابن حُذافة السَّهمى، وقال: إن رسول الله قد أمرك بقتلهم لامتناعهم من الإسلام، وقد كان جحدم قال لهم حين وضعوا سلاحهم، ورأى مايصنع خالد ببنى جذيمة: يابنى جذيمة، ضاع الضّرب، قد كنت حذرتكم ماوقعتم فيه!

وعن ابن إسحاق، قال: أقام رسول الله ﷺ بمكّة بعد فتحها خمس عشرة ليلة يقصر الصلاة، وكان فتح مكة لعشر ليال بقين من شهر رمضان سنة ثمان.

ذكر الخبر عن غزوة رسول الله ﷺ

هوازن بحنين

عن عروة، قال: أقام النبى ﷺ بمكة عام الفتح نصف شهر، لم يزد على ذلك؛ حتى جاءت هوازن وثقيف، فنزلوا بحنين - وحنين وادٍ إلى جنب ذى المجاز - وهم يومئذ عامدون يريدون قتال النبى ﷺ وكانوا قد جمعوا قبل ذلك حين سمعوا بمخرج رسول الله من المدينة، وهم يظنون أنه إنما يريدهم حيث خرج من المدينة، فلما أتاهم أنه قد نزل مكة، أقبلت هوازن عامدين إلى النبى ﷺ وأقبلوا معهم بالنساء والصبيان والأموال - ورئيس هوازن يومئذ مالك بن عوف، أحد بنى نصر - وأقبلت معهم ثقيف؛ حتى نزلوا حنينًا يريدون النبىّ، فلمّا حُدِّث النبى وهو بمكّة أن قد نزلت هوازن وثقيف بحنين يسوقهم رئيسهم يومئذ، عمد النبى ﷺ حتى قدم عليهم، فوافاهم بحنين، فهزمهم الله - عزّ وجلّ - وكان فيها ماذكر الله - عزّ وجلّ - فى الكتاب، وكان الذى ساقوا من النساء والصبيان والماشية غنيمة غنمها الله - عزّ وجلّ - رسوله، فقسم أموالهم فيمن كان أسلم معه من قريش.

وفصل ابن إسحاق ذلك، قال: فلمّا أجمع مالك المسير إلى رسول الله ﷺ حطّ مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم؛ فلمّا نزل بأوطاس اجتمع إليه الناس، وفيهم دريد بن الصمة فى شجار له - أى: شبه هودج مكشوف السقف - يقاد به؛ فلما نزل قال: بأىّ وادٍ أنتم؟ قالوا: بأوطاس، قال: نعم مجالُ الخيل! لاحزن ضرس - أى: مرتفع ذو حجارة محددة - ولا سهل دهس - أى: اللين الكثير التراب - مالى أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، ويعار الشاء، وبكاء الصغير؛ قالوا: ساق مالك بن عوف مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم، فقال: أين مالك؟ فقيل: هذا مالك، فدعى له، فقال: يامالك، إنك قد أصبحت رئيس قومك، وإنّ هذا يوم كائن له مابعده من الأيام؛ مالى أسمع رُغاء البعير، ونهاق الحمير، وثغاء الشاء، وبكاء الصغير! قال: سقت مع الناس أبناءهم

ونساءهم وأموالهم، قال: ولم؟ قال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهْله وماله ليقاتل عنهم؛ قال: فأنقض به - أي: زجره - ثم قال: راعى ضأنٍ والله! هل يردّ المنهزم شيء!! إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك. مافعلت كعب وكلاب؟ قالوا: لم يشهد منهم أحد، قال: غاب الجدُّ والحدُّ، لو كان يوم علاءٍ ورفعة لم يغب عنه كعب وكلاب؛ ولوددت أنكم فعلتم مافعلتْ كعب وكلاب، فمن شهدها منكم؟ قالوا: عمرو بن عامر وعوف بن عامر؛ قال: ذانك الجذعان - أى: الشابان الفتيّان - لاينفعان ولايضرّان، يامالك إنّك لم تصنع بتقديم البيضة، بيضة هوازن، إلى نُحور الخيل شيئًا، ارفعهم إلى متمنّع بلادهم وعُليا قومهم؛ ثم الق الصِّباء - جمع صابئ - على متون الخيل، فإن كان لك لحق بك من وراءك، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك. قال: والله لاأفعل، إنك قد كبرت وكبر علمك؛ والله لتطيعننى يامعشر هوازن أو لأتّكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى! وكره أن يكون لدريد فيها ذكرٌ ورأىٌ. قال دريد بن الصمة: هذا يوم لم أشهده ولم يفتنى.

وكان دريد رئيس بنى جشم وسيدهم وأوسطهم؛ ولكن السِّن أدركته حتى فنى - وهو دريد بن الصمة بن بكر بن علقمة... ثم قال مالك للناس: إذا أنتم رأيتم القوم فاكسروا جفون سيوفكم، وشدوا شدة رجل واحد عليهم. وكان مالك بن عوف قد بعث عيونًا من رجاله لينظروا له، ويأتوه بخبر الناس؛ فرجعوا إليه وقد تفرقت أوصالهم، فقال: ويلكم! ماشأنكم؟ قالوا: رأينا رجالاً بيضًا على خيْل بلقٍ، فوالله ماتماسكنا أن أصابنا ماترى! فلم ينهه ذلك عن وجهه؛ أن مضى على مايريد.

ولمّا سمع بهم رسول الله ﷺ بعث إليهم عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى، وأمره أن يدخل فى الناس فيقيم فيهم حتى يأتيه بخير منهم، ويعلم من علمهم. فانطلق ابن أبى حدرد، فدخل فيهم فأقام معهم حتى سمع وعلم ماقد أجمعوا له من حرب رسول الله ﷺ وعلم أمر مالك وأمر هوازن وماهم عليه. ثم أتى

رسول الله، فأخبره الخبر، فدعا رسول الله عمر بن الخطاب، فأخبره خبر ابن أبى حدرد، فقال عمر: كذب! فقال ابن أبى حدرد: إن تكذبنى فطالما كذبت بالحق ياعمر! فقال عمر: ألا تسمعُ يارسول الله إلى مايقول ابن أبى حدرد! فقال رسول الله ﷺ: قد كنت ضالاً فهداك الله ياعمر.

ولما أجمع رسول الله السير إلى هوازن ليلقاهم، ذكر له أن عند صفوان بن أميّة أدراعًا وسلاحًا، فأرسل إليه، فقال: يا أبا أميّة ـ وهو يومئذ مشرك ـ: أعرنا سلاحك هذا نلق فيه عدونا غدًا. فقال له صفوان: أغصبًا يامحمد! قال: بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك، قال: ليس بهذا بأس، فأعطاه مائة درع بما يصلحها من السلاح؛ فزعموا أنّ رسول الله ﷺ سأله أن يكفيه حملها ففعل.

لذلك قال أبو جعفر محمد بن على: فمضت السُّنّة أن العارية مضمونة مؤدّاة.

ثم خرج رسول الله، ومعه ألفان من أهل مكة، مع عشرة آلاف من أصحابه الذين فتح الله بهم مكة، فكانوا اثنى عشر ألفًا، واستعمل رسول الله ﷺ عتاب ابن أسيد على مكة أميرًا على من غاب عنه من الناس، ثم مضى على وجهه يريد لقاء هوازن.

وعن جابر، قال: لما استقبلنا وادى حنين، انحدرنا فى واد من أودية تهامة أجوف ـ أى: متسع ـ حطوط، إنما ننحدر فيه انحدارًا، وفى عَماية الصبح ـ أى: ظلامه قبل أن يتبين ـ وكان القوم قد سبقوا إلى الوادى، فكمنوا لنا فى شعابه وأحنائه ومضايقه، قد أجمعوا وتهيئوا وأعدُّوا ـ فوالله ماراعنا ونحن منحطون إلاّ الكتائب قد شدت علينا شدّة رجل واحد؛ وانهزم الناس أجمعون، فانشمروا ـ أى: انفضّوا ـ لايلوى أحدٌ على أحد؛ وانحاز رسول الله ذات اليمين، ثم قال: أين أيها الناس؟ هلمّ إلىّ! أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله! قال: فلا شىء، احتملت الإبل بعضها بعضًا، فانطلق الناس، إلاّ أنه بقى مع رسول الله نفرٌ من المهاجرين والأنصار وأهل بيته. وممن ثبت معه من المهاجرين أبو بكر،

وعمر، ومن أهل بيته عليّ بن أبى طالب، والعباس بن عبد المطلب وابنه الفضل، وأبو سفيان بن الحارث، وربيعة بن الحارث، وأيمن بن عبيد ـ وهو ابن أم أيمن ـ وأسامة بن زيد بن حارثة، ورجل من هوازن على جمل له أحمر، بيده راية سوداء فى رأس رمح طويل، أمام الناس وهوازن خلفه، إذا أدرك طعن برمحه، وإذا فاته الناس رفع رمحه لمن وراءه؛ فاتبعوه. ولما انهزم الناس، ورأى من كان مع رسول الله من جفاة أهل مكة الهزيمة، تكلم رجال منهم بمافى أنفسهم من الضغن، فقال أبو سفيان بن حرب: لاتنتهى هزيمتهم دون البحر؛ والأزلام معه فى كنانته، وصرخ كلدة بن الحنبل ـ وهو مع أخيه صفوان بن أمية ابن خلف وكان أخاه لأمه، وصفوان يومئذ مشرك فى المدّة التى جعل له رسول الله ﷺ ـ فقال: ألا بطل السحر اليوم! فقال له صفوان: اسكت فضّ الله فاك! فوالله لأن يربّنى رجلٌ من قريش أحب إليّ من أن يربنى رجل من هوازن! وقال شيبة بن عثمان. . ، أخو بنى عبد الدار: قلت: اليوم أدرك ثأرى ـ وكان أبوه قتل يوم أحد ـ اليوم أقتل محمدًا. فأردت رسول الله لأقتله، فأقبل شيء حتى تغشى فؤادى فلم أطق ذلك، وعلمت أنه قد منع منيّ.

وعن العباس بن عبد المطلب، قال: إنى لمع رسول الله ﷺ بحكمَة بغلته ـ أى: مايحيط بحنكة البلغة من اللجام ـ البيضاء، قد شجرتها بها ـ أو وضعتها فى شجرها، وكنت امرأً جسيمًا شديدَ الصوت. . ورسولُ الله يقول حين رأى من الناس مارأى: أين أيها الناس! فلما رأى الناس لايلوُون على شيء، قال: ياعباس، اصرخ: يامعشر الأنصار! يا أصحاب السمرة! فناديت: يامعشر الأنصار، يامعشر أصحاب السمرة!. . فأجابوا: أن لبيك لبيك!. . فيذهب الرجل منهم يريد ليثنى بعيره، فلا يقدر على ذلك، فيأخذ درعه فيقذفها فى عنقه، ويأخذ سيفه وترسه، ثم يقتحم عن بعيره فيخلّى سبيله فى الناس، ثم يؤم الصوت، حتى ينتهى إلى رسول الله ﷺ حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة رجل استقبلوا الناس، فاقتتلوا، فكانت الدعوى أول ماكانت: ياللأنصار، ثم جعلت أخيرًا: ياللخزرج! وكانوا صبرًا عند الحرب؛ فأشرف رسول الله ﷺ فى ركابه،

فنظر مجتلد القوم وهم يجتلدون، فقال: الآن حمى الوطيس! وغشى المشركون النبى ﷺ فنزل وجعل يرتجز، ويقول:

أنــا النبــــىُّ لاكـــــذب   أنــا ابـــن عبـــد المطلـــب

وبينا ذلك الرجل من هوازن صاحب الراية على جمله يصنع مايصنع؛ إذ هوى له علىّ بن أبى طالب ورجل من الأنصار، يريدانه، فيأتيه علىٌّ من خلفه، فيضرب عُرْقوبى الجمل، فوقع على عجزه، ووثب الأنصارى على الرجل فضربه ضربةً أطنَّ قدمه بنصف ساقه ـ أى: أطار ساقه بصوت مدوى ـ فانعجف عن رحله ـ أى: سقط عنه صريعًا ـ واجتلد الناس، فوالله مارجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى مكتفين؛ وقد التفت رسول الله ﷺ إلى أبى سفيان بن الحارث ـ وكان ممن صبر يومئذ مع رسول الله، وكان حسن الإسلام حين أسلم، وهو آخذ بشفر بغلته ـ مؤخر السرج ـ فقال: من هذا؟ قال: ابن أمّك يارسول الله.

ورأى رسول الله ﷺ أمَّ سليم بنت ملحان ـ وكانت مع زوجها أبى طلحة ـ حازمة وسطها ببرد لها؛ وإنها لحامل بعبد الله بن أبى طلحة، ومعها جمل أبى طلحة، وقد خشيتْ أن يعزها ـ أى يغلبها ـ الجمل، فأدنت رأسه منها، فأدخلت يدها فى خزامته ـ شعر فى شكل حلقه بأنف البعير ـ مع الخطام، فقال رسول الله: أم سليم! قالت: نعم بأبى أنت وأمّى يارسول الله! أقتل هؤلاء الذين يفرّون عنك كما تقتل هؤلاء الذين يقاتلونك، فإنهم لذلك أهل، فقال رسول الله: أو يكفى الله يا أم سليم! ومعها خنجر فى يدها فقال لها أبو طلحة: ماهذا معك يا أم سليم؟ قالت: خنجر أخذته معى، إنْ دنا منّى أحدٌ من المشركين بعجته به ـ أى شققته ـ فيقول أبو طلحة: ألا تسمع ماتقول أم سليم يارسول الله!

وعن أنس بن مالك، قال: لقد استلبَ أبو طلحة يوم حنين عشرين رجلاً وحده هو قتلهم.

وعن جبير بن مطعم، قال: لقد رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل البجاد - أي: الكساء - الأسود، أقبل من السماء حتى سقط بيننا وبين القوم؛ فنظرت فإذا بنمل أسود مبثوث قد ملأ الوادى، فلم أشك أنها الملائكة، ولم يكن إلاّ هزيمة القوم.

فلما انهزمت هوازن استحرّ القتلُ من ثقيف ببنى مالك، فقُتل منهم سبعون رجلاً تحت رايتهم، فيهم عثمان بن عبد الله؛ جدُّ ابن أمّ حكَم بنت أبى سفيان، وكانت رايتهم مع ذى الخمار، فلما قتل أخذها عثمان بن عبد الله فقاتل بها حتى قُتل. ولما بلغ رسول الله ﷺ قتل عثمان، قال: أبعده الله! فإنه كان يبغض قريشًا.

وعن أنس، قال: كان النبىّ ﷺ يوم حنين على بغلة بيضاء، يقال لها دلدل، فلما انهزم المسلمون، قال النبى لبغلته: البُدى دلدل - أمر بعدم ترك المكان - فوضعت بطنها على الأرض، فأخذ النبى حفنة من تراب، فرمى بها فى وجوههم وقال: (حمّ لا ينصرون!) فولّى المشركون مدبرين، ماضرب بسيف ولا طعن برمح ولا رمى بسهم.

ولما انهزم المشركون أتوا الطائف، ومعهم مالك بن عوف، وعسكر بعضهم بأوطاس، وتوجّه بعضهم نحو نخلة ولم يكن فيمن توجّه نحو نخلة إلاّ بنو غيرة من ثقيف، فتبعت خيلُ رسول الله ﷺ من سلك فى نخلة من الناس، ولم تتبع من سلك الثنايا، فأدرك ربيعة بن رفيع - وكان يقال له ابن لذعة وهى أمّه، فغلبت على نسبه - دريد بن الصمة، فأخذ بخطام جمله؛ وهو يظن أنه امرأة؛ وذلك أنه كان فى شجارٍ له، فإذا هو رجل، فأناخ به، وإذا هو بشيخ كبير، وإذا هو دريد بن الصمة، لايعرفه الغلام، فقال له دريد: ماذا تريد بى؟ قال: أقتلك. قال: ومن أنت؟ قال: أنا ربيعة بن رفيع السُّلمى، ثم ضربه بسيفه فلم يغن شيئًا، فقال: بئسما سلحتك أمك! خذ سيفى هذا من مؤخر الرحل فى الشجار، ثم اضرب به وارفع عن الشجار، ثم اضرب به وارفع عن العظام، واخفض عن

الدماغ، فإنى كذلك كنت أقتل الرجل، ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة؛ فرُبَّ يوم والله قد منعت نساءك! فزعمت بنو سليم أن ربيعة قال: لما ضربته فوقع تكشف الثوب عنه، فإذا عجانه وبطون فخذيه مثل القرطاس من ركوب الخيل أعراء - جمع عرى وهو الفرس الذى لا يسرج - فلمّا رجع ربيعة إلى أمه أخبرها بقتله إياه، فقالت: والله لقد أعتق أمّهات لك ثلاثًا.

وبعث رسول الله فى آثار مَنْ تَوجَّه قِبَلَ أوطاس جيشًا على رأسه أبو عامر، فلقى دريد بن الصمة، فقتله، وهزم الله أصحابه، لكن رُمِىَ أبو عامر فى ركبته، رماه رجلٌ من بنى جشم بسهم فأثبته فى ركبته، قال أبو موسى: فانتهيت إليه، فقلت: ياعمّ، من رماك؟ فأشار أبو عامر لأبى موسى، فقال: إن ذاك قاتلى، تراه ذلك الذى رمانى. قال أبو موسى: فقصدت له فاعتمدته، فلحقتُه، فلما رآنى ولّى عنّى ذاهبًا، فاتبعته، وجعلت أقول له: ألا تستحى! ألست عربيًّا! ألا تثبت! فكرَّ، فالتقيت أنا وهو، فاختلفنا ضربتين، فضربته بالسيف، ثم رجعت إلى أبى عامر، فقلت: قد قتل الله صاحبك، قال: فانزع هذا السهم، فنزعته فنزا منه الماء، فقال: يابن أخى، انطلق إلى رسول الله، فأقرئه منى السلام، وقل له إنه يقول: استغفر لى. واستخلفنى أبو عامر على الناس فمكث يسيرًا، ثم مات.

وحكى بعض بنى سعد بن بكر، أن رسول الله ﷺ قال يومئذ لخيله التى بعث: إن قدرتم على بجاد - رجل من بنى سعد بن بكر - فلا يفلتنكم؛ وكان بجاد قد أحدث حدثًا، فلما ظفر به المسلمون ساقوه وأهله، وساقوا أخته الشيماء بنت الحارث، أخت رسول الله من الرضاعة، فعنفوا عليها فى السياق معهم، فقالت للمسلمين: تعلمون والله إنى لأخت صاحبكم من الرضاعة، فلم يصدقوها حتى أتوا بها رسول الله ﷺ.

ولما انتهى بالشيماء إلى رسول الله ﷺ قالت: يارسول الله، إنى أختك، قال: وما علامة ذلك؟ قالت: عضة عضضتنيها فى ظهرى وأنا متوركتك.. فعرف رسول الله العلامة، فبسط لها رداءه، ثم قال: هاهنا، فأجلسها عليه، وخيّرها، وقال: إن أحببت فعندى محببة مكرمة، وإن أحببت أمتعك وترجعى إلى قومك،

قالت: بل تمتعنى وتردنى إلى قومى، فمتعها ﷺ وردها إلى قومها؛ فزعمت بنو سعد بن بكر أنه أعطاها غلامًا له يقال له مكحول، وجارية، فزوجت أحدهما الآخر، فلم يزل فيهم من نسلهما بقية.

قال ابن إسحاق: استشهد يوم حنين من قريش، ثم من بنى هاشم: أيمن بن عبيد - ابن أم أيمن، مولاة رسول الله ﷺ، ومن بنى أسد بن عبد العزى: يزيد ابن زمعة بن الأسود - جمح به فرس يقال له الجناح، فقتل - ومن الأنصار: سراقة بن الحارث بن عدىّ، ومن الأشعريين أبو عامر الأشعرى، ثم جمعت إلى رسول الله سبايا حنين وأموالها، وكان على المغانم مسعود بن عمرو القارئ، فأمر ﷺ بالسبايا والأموال إلى الجعرانة فحبست بها.

قال ابن إسحاق: لمّا قدم فَلّ[1] ثقيف الطائفَ أغلقوا عليهم أبواب مدينتها، وصنعوا الصنائع للقتال. ولم يشهد حُنينًا ولا حصار الطائف عروة بن مسعود ولا غيلان بن سلمة، كانا بجرش يتعلمان صنعة الدّبّاب - وهى آلات يدخل فيها الرجال فيدبون بها إلى الأسوار لينقبوها والضُّبُور - وهى جلود يغشى بها خشب يتقى بها الحرب عند الارتداد - والمجانيق - وهى قاذفات الحجارة فى الحصار.

غزوة الطائف

سار رسول الله ﷺ يوم حنين من فوره ذلك - يعنى منصرفه من حنين - حتى نزل الطائف، فأقام نصف شهر يقاتلهم رسول الله وأصحابه، وقاتلتهم ثقيف من وراء الحصن؛ لم يخرج إليه فى ذلك أحدٌ منهم، وأسلم مَنْ حولهم من الناس كلهم؛ وجاءت رسول الله وفودهم؛ ثم رجع النبى ﷺ ولم يحاصرهم إلاّ نصف شهر حتى نزل الجعرانة، وبها السبى الذى سبى رسول الله من حنين من نسائهم وأبنائهم - ويزعمون أن ذلك السبى الذى أصاب يومئذ من هوازن كانت عدته ستة آلاف من نسائهم وأبنائهم - فلما رجع النبى ﷺ إلى الجعرانة، قدمت عليه هوازن مسلمين، فأعتق أبناءهم ونساءهم كلهم، وأهل بعمرة من الجعرانة؛ وذلك فى ذى العقدة.

(١) الفَلّ: الجماعة المنهزمة من الجيش.

ثم إن رسول الله ﷺ رجع إلى المدينة، واستخلف أبا بكر - رضى الله تعالى عنه - على أهل مكة، وأمره أن يقيم للناس الحج، ويعلم الناس الإسلام، وأمره أن يؤمن من حجّ من الناس، ورجع إلى المدينة؛ فلما قدمها قدم عليه وفود ثقيف، فقاضوه على القضية التى ذكرت؛ فبايعوه، وهو الكتاب الذى عندهم كاتبوه عليه.

وسلك رسول الله إلى الطائف من حُنَين على نخلة اليمانية، ثم على قَرْن، ثم على المُلَيْح، ثم على بَحْرَة الرُّغاء من لِيَّة، فابتنى بها مسجدًا، فصلّى فيه، فأقاد يومئذ ببحرة الرغاء حين نزلها بدم - وهو أول دم أقيد به فى الإسلام - رجلاً من بنى ليث، قتل رجلاً من هذيل، فقتله رسول الله ﷺ وأمر رسول الله وهو بليّة بحصن مالك بن عوف فَهُدِمَ، ثم سلك فى طريق يقال لها الضيقة، فقال: بل هى اليسرى. ثم خرج ﷺ على نَخْب؛ حتى نزل تحت سدرة يقال لها الصادرة، قريبًا من مال رجل من ثقيف، فأرسل إليه رسول الله: إمّا أن تخرج، وإما أن نخرب عليك حائطك؛ فأبى أن يخرج، فأمر رسول الله ﷺ بإخرابه.

ثم مضى رسول الله حتى نزل قريبًا من الطائف؛ فضرب عسكره، فَقُتِلَ أناس من أصحابه بالنَّبْل؛ وذلك أن العسكر اقترب من حائط الطائف فكانت النبل تنالهم، ولم يقدر المسلمون أن يدخلوا حائطهم، غلقوه دونهم، فلما أصيب أولئك النفر من أصحابه بالنبل، ارتفع، فوضع عسكره عند مسجده الذى بالطائف اليوم؛ فحاصرهم بضعًا وعشرين ليلة؛ ومعه امرأتان من نسائه؛ إحداهما أم سلمة بنت أبى أمية، وأخرى معها - هى زينب بنت جحش - فضرب لهما قبتين، فصلى بين القبتين ما أقام.

فلما أسلمت ثقيف، بنى على مُصلّى رسول الله - أبو أمية بن عمرو - مسجدًا وكانت فى ذلك المسجد سارية - فيما يزعمون - لاتطلع عليها الشمس يومًا من الدهر إلا سمع لها نقيضًا - أى: صوت - فحاصرهم رسول الله ﷺ وقاتلهم قتالا شديدًا، وتراموا بالنبل، حتى إذا كان يوم الشدخة عند جدار

الطائف، دخل نفر من أصحاب رسول الله تحت دبّابة، ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار، فخرجوا من تحتها، فرمتهم ثقيف بالنبل، وقتلوا رجالاً؛ فأمر رسول الله بقطع أعناب ثقيف، فوقع فيها الناس يقطعون.

وتقدم أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة إلى الطائف. فناديا ثقيفًا: أن أمنونا حتى نكلمكم! فأمناهما، فدعوا نساء من نساء قريش وبنى كنانة ليخرجن إليهما ـ وهما يخافان عليهن السباء ـ فأبين؛ منهن آمنة بنت أبى سفيان، كانت عند عروة بن مسعود، له منها داود بن عروة وغيرها.

ولما مضت خمس عشرة من حصار الطائف، استشار رسول الله نوفل بن معاوية الديلى، وقال: يانوفل، ماترى فى المقام عليهم؟ قال: يارسول الله؛ ثعلب فى جحر؛ إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك.

وأخبر رسول الله ﷺ أبا بكر بن أبى قحافة، وهو محاصر ثقيفًا بالطائف: يا أبا بكر، إنى رأيت أنه أهديت لى قعبة ـ أى قدح ـ مملوءة زبدًا، فنقرها ديك فأهراق مافيها، فقال أبو بكر: ما أظن أن تدرك منهم يومك هذا ماتريد يارسول الله، فقال ﷺ: وأنا لا أرى ذلك.

ثم إن خولة بنت حكيم بن حارثة ـ وهى امرأة عثمان بن مظعون ـ قالت: يارسول الله، أعطنى إن فتح الله عليك الطائف حُلِىَّ بادية بنت غيلان، أوحُلِىَّ الفارعة بنت عقيل ـ وكانتا من أحلى نساء ثقيف ـ فقال لها رسول الله ﷺ: وإن كان لم يؤذن لى فى ثقيف ياخويلة، فخرجت خويلة، فذكرت ذلك لعمر بن الخطاب، فدخل عمرُ على رسول الله، فقال: يارسول الله، ماحديث حدثتنيه خويلة أنك قلتَه! قال: قد قلتُه، قال: أوَ ما أَذنَ فيهم يارسول الله ! قال: لا، قال: أفلا أؤذّن بالرحيل فى الناس؟ قال: بلى؛ فأذّن عمر بالرَّحيل، فلمّا استقلّ الناس نادىَ سعيد بن عبيدَ الثقفى: ألا إن الحىّ مقيم! قال عيينة بن حصن: أجل والله مَجَدَةً كرامًا! فقال له رجل من المسلمين: قاتلك الله ياعيينة! أتمدح

قومًا من المشركين بالامتناع من رسول الله وقد جئت تنصره! قال: إنى والله ماجئت لأقاتل معكم ثقيفًا؛ ولكنّى أردت أن يفتح محمد الطائف فأصيب من ثقيف جارية أتبطنها لعلها أن تلد لى رجلاً، فإن ثقيفًا قوم مذاكير[1].

واستشهد بالطائف من أصحاب رسول الله ﷺ اثنا عشر رجلاً، سبعة من قريش ورجل من بنى ليث، وأربعة من الأنصار.

أمر أموال هوازن وعطايا المؤلفة قلوبهم منها

انصرف رسول الله ﷺ من الطائف على دَحْنَا، حتى نزل الجعرانة بمن معه من المسلمين، وكان قدْمَ سَبْىَ هوازن حين سار إلى الطائف إلى الجعرانة، فَحُبِسَ فيها؛ ثم أتته وفود هوازن بالجعرانة، وكان مع رسول الله من سبى هوازن من النساء والذرارى عدد كثير، ومن الإبل ستة آلاف بعير، ومن الشاء مالا يُحْصَى.

أتى وفد هوازن وهو ﷺ بالجعرانة، وقد أسلموا، فقالوا: يارسول الله، إنا أصلٌ وعشيرة وقد أصابنا من البلاء مالايخفى عليك، فامنن علينا مَنَّ الله عليك! فقام رجل من هوازن ـ أحد بنى سعد بن بكر ـ وكان بنو سعد هم الذين أرضعوا رسول الله ﷺ يقال له زهير بن صُرَد، فقال: يارسول الله؛ إنما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك! ولو أننا مَلَحْنَا ـ أى: أرضعنا ـ للحارث بن أبى شمر أو للنعمان بن المنذر، ثم نزل منّا بمثل مانزلت به، رجونا عطفه وعائدته، وأنت خير المكفولين، ثم قال:

امننْ علينا رسولَ الله فى كَرَمٍ ... فإنك المرء نرجوه ونَدَّخِـرُ

امنن على بَيْضَةٍ قد عاقها قدرٌ ... مُمَزَّقٌ شَمْلُهَا، فى دهرها غِيَرُ

فقال رسول الله ﷺ: أبناؤكم ونساؤكم أحبّ إليكم أم أموالكم؟ فقالوا: يارسول الله خيّرتنا بين أحسابنا وأموالنا، بل ترد علينا نساءنا وأبناءنا فهم أحب

---

(١) أى يلدون الذكور. وفى رواية: قوم مناكير، أى: ذوو دهاء.

إلينا. فقال: أمّا ماكان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم؛ فإذا أنا صليت بالناس فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا؛ فسأعطيكم عند ذلك؛ وأسأل لكم؛ فلما صلى رسول الله بالناس الظهر، قاموا فتكلموا بالذى أمرهم به، فقال رسول الله: أمّا ماكان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم، وقال المهاجرون: وماكان لنا فهو لرسول الله، وقالت الأنصار: وماكان لنا فهو لرسول الله. قال الأقرع بن حابس: أمّا أنا وبنو تميم فلا، وقال عيينة بن حصن: أمّا أنا وبنو فزارة فلا، وقال عباس بن مرداس: أمّا أنا وبنو سليم فلا، قالت بنو سليم: ماكان لنا فهو لرسول الله.

يقول العباس لبنى سليم: وهّنتمونى - أى: أضعفتمونى - فقال رسول الله ﷺ: أمّا مَنْ تمسّك بحقه من هذا السبى منكم فله بكل إنسان ست فرائض من أول شىء نُصيبه، فردّوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم.

وعن عبد الله بن عمر، قال: أعطى رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب جارية من سبى هوازن، فوهبها لى، فبعثت بها إلى أخوالى من بنى جُمَح ليصلحوا لى منها حتى أطوف بالبيت ثم آتيهم، وأنا أريد أن أصيبها إذا رجعت إليها، فخرجت من المسجد حين فرغت، فإذا الناس يشتدون، فقلت: ماشأنكم؟ قالوا: ردّ علينا رسول الله نساءنا وأبناءنا، قلت: تلكمُ صاحبتكم فى بنى جمح، اذهبوا فخذوها، فذهبوا إليها فأخذوها، وأمّا عيينة بن حصن فأخذ عجوزًا من عجائز هوازن، وقال حين أخذها: أرى عجوزًا وأرى لها فى الحى نسبًا، وعسى أن يعظم فداؤها! فلما ردّ رسول الله ﷺ السبايا بست فرائض أبى أن يردّها. فقال له زهير أبو صرد: خذها عنك؛ فوالله ما فوها ببارد، ولاثديها بناهد، ولابطنها بوالد، ولادَرُّها بماكد، ولازوجها بواجد - أى: حزين - فردّها بستّ فرائض حين قال له زهير ماقال؛ فزعموا أن عيينة لقى الأقرع بن حابس، فشكا إليه ذلك، فقال: والله إنك ما أخذتها بكرًا غريرة - أى: صغيرة السن من النساء - ولانَصَفًا وثيرة - أى: سمينة -؛ فقال رسول الله ﷺ لوفد هوازن، وسألهم عن مالك بن عوف: مافعل؟ فقالوا: هو بالطائف مع ثقيف؛ فقال رسول الله: أخبروا مالكًا

أنه إن أتانى مسلمًا رددت عليه أهله وماله، وأعطيته مائة من الإبل، فأتى مالك بذلك، فخرج من الطائف إليه، وقد كان مالك خاف ثقيفًا على نفسه أن يعلموا أن رسول الله قال له ماقال، فيحبسوه، فأمر براحلته فهيئت له، وأمر بفرس له فأتى به الطائف، فخرج ليلاً، فجلس على فرسه فركضه، حتى أتى راحلته حيث أمر بها أن تحبس له، فركبها، فلحق برسول الله فأدركه بالجعرانة ـ أو بمكة ـ فردّ عليه أهله وماله، وأعطاه مائة من الإبل، وأسلم فحسن إسلامه. واستعمله رسول الله ﷺ على قومه وعلى مَنْ أسلم من تلك القبائل حول الطائف: ثمالة وسلمة وفهم، فكان يقاتل بهم ثقيفًا، لايخرج لهم سرح إلا أغار عليه حتى ضيّق عليهم، فقال أبو محجن بن حبيب الثقفى:

هابت الأعداءُ جانبنا ... ثم تغزونا بنى سلمة
وأتانا مالك بهم ... ناقضًا للعهد والحرمة
وأتونا فى منازلنا ... ولقد كنا أولى نقمة

فلما فرغ رسول الله ﷺ من ردّ سبايا حنين إلى أهلها، ركب واتبعه الناس يقولون: يارسول الله، اقسم علينا فيئنا الإبل والغنم، حتى ألجئوه إلى شجرة، فاختطفت الشجرة عنه رداءه، فقال: رُدّوا علىّ ردائى أيها الناس، فوالله لو كان لى عدد شجر تهامة نعمًا لقسمتها عليكم، ثم مالقيتمونى بخيلاً ولا جبانًا ولا كذّابًا. ثم قام إلى جنب بعير، فأخذ وبرة من سنامه فجعلها بين أصبعيه، ثم رفعها فقال: أيها الناس، إنه والله ليس لى من فيئكم ولاهذه الوبرة إلاّ الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدوا الخياط والمخيط؛ فإن الغلول ـ أى: الخيانة ـ يكون على أهله عارًا ونارًا وشنارًا يوم القيامة، فجاءه رجلٌ من الأنصار بكبة من خيوط شعر فقال: يارسول الله أخذت هذه الكبة أعمل بها برذعة بعير لى دبر، قال: أمّا نصيبى منها فلك، فقال: إنه إذا بلغت هذه فلا حاجة لى بها، ثم طرحها من يده.

وعن عبدالله بن أبى بكر، قال: أعطى رسول الله المؤلفة قلوبهم ـ وكانوا

أشرافًا من أشراف الناس يتألفهم ويتألف به قلوبهم ـ فأعطى أبا سفيان بن حرب مائة بعير، وأعطى ابنه معاوية مائة بعير، وأعطى حكيم بن حزام مائة بعير، وأعطى النضير بن الحارث ـ أخا بنى عبد الدار ـ مائة بعير، وأعطى العلاء بن جارية الثقفى مائة بعير، ومائة بعير لكلٍّ من الحارث بن هشام، وصفوان بن أميّة، وسهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، وعيينة بن حصن، والأقرع بن حابس التميمى، ومالك بن عوف النصرى، كما أعطى دون المائة رجالاً من قريش.. منهم مخرمة بن نوفل وعمير بن وهب، وهشام بن عمرو.. ولا يعرف عدة ما أعطاهم، وأعطى خمسين من الإبل سعيد بن يربوع بن مخزوم، والسهميّ، وأعطى عباس بن مرداس السُّلمى أباعِرَ فسخطها، وعاتب فيها رسول الله ﷺ فقال:

كانت نهابـــًا تلافيتُهـــا ... بكَرِّى على المهر فى الأجْرَعِ

وإيقاظِىَ القـومَ أن يرقـدوا ... إذا هجعَ الناسُ لم أهجعِ

....

وقد كنت فى الحرب ذا تُدْرَإٍ ... فلـم أعـط شـيئًا ولـم أمنـع

وماكنت دون امـرئٍ منهمـا ... ومـن تضـع اليـوم لايُـرْفَعِ

فقال رسول الله ﷺ: اذهبوا فاقطعوا عنى لسانه، فزادوه حتى رضى؛ فكان ذلك قطع لسانه الذى أمر به.

قال قائل لرسول الله ﷺ من أصحابه: يارسول الله، أعطيت عيينة بن حصن والأقرع بن حابس مائة مائة، وتركت جعيل بن سراقة الضمرى! فقال النبى ﷺ: أما والذى نفسى بيده، لجعيل بن سراقة خير من طلاع الأرض ـ أى: مايملؤها حتى يطلع عنها ويسيل ـ كلهم مثل عيينة بن حصن والأقرع بن حابس؛ ولكن تألفتهما ليسلما، ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه.

وعن عمرو بن العاص؛ قال: أقبل رجل من بنى تميم يقال له ذو الخويصرة، فوقف على رسول الله ﷺ وهو يعطى الناس، فقال: يامحمد، قد رأيت ماصنعت فى هذا اليوم! فقال رسول الله: أجل، فكيف رأيت؟ قال: لم أرك عدلت! فغضب رسول الله ﷺ ثم قال: ويحك! إذا لم يكن العدل عندى، فعند من يكون! فقال عمر بن الخطاب: يارسول الله، ألا نقتله! فقال: لا، دعوه، فإنه سيكون له شيعة يتعمقون فى الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرميّة ـ أى: الشىء الذى يرمى ـ ينظر فى النصل، ثم فى القدح فلا يوجد شىء؛ ثم فى الفوق فلا يوجد شىء، سبق الفرث والدم ـ أى: سبق مايوجد فى الكرش.

قال رجل من أصحاب النبىّ ﷺ ممن شهد معه حنينًا: والله إنى لأسير إلى جنب رسول الله على ناقة لى، وفى رجْلى نعل غليظة، إذ زحمت ناقتى ناقة رسول الله ﷺ ويقع حرف نعلى على ساق رسول الله فأوجعه، فقرع قدمى بالسّوط، وقال: أوجعتنى فتأخر عنى، فانصرفت؛ فلما كان من الغد إذا رسول الله ﷺ يلتمسنى، قلت: هذا والله لما كنت أصبت من رجل رسول الله بالأمس، فجئته وأنا أتوقع، فقال لى: إنك قد أصبت رجلى بالأمس فأوجعتنى فقرعت قدمك بالسوط، فدعوتك لأعوضك منها، فأعطانى ثمانين نعجة بالضربة التى ضربنى.

عن ابن إسحاق، قال: لمّا أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا فى قريش وقبائل العرب، ولم يكن فى الأنصار منها شىء، وجد هذا الحىّ من الأنصار فى أنفسهم، حتى كثرت منهم القالة ـ أى: الكلام السيئ ـ حتى قال قائلهم: لقى والله رسول الله قومه! فدخل عليه سعد بن عبادة فقال: يارسول الله؛ إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم لما صنعت فى هذا الفىء الذى أصبت؛ قسمت فى قومك وأعطيت عطايا عظامًا فى قبائل العرب، ولم يكن فى هذا الحىّ من الأنصار شىء، قال: فأين أنت من ذلك ياسعد! فقال سعد: يارسول الله ما أنا إلا من قومى! قال: فاجمع لى قومك فى الحظيرة..

فخرج سعدٌ فجمع الأنصار فى تلك الحظيرة، فجاءه رجال من المهاجرين، فتركهم فدخلوا، وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا أتاه سعدٌ فقال: قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بالذى هو له أهلٌ، ثم قال: يامعشر الأنصار، ماقالةٌ بلغتنى عنكم وموجدة وجدتموها فى أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله؛ وعالة - أى: فقراء - فأغناكم الله، وأعداءً فألف الله بين قلوبكم! قالوا: بلى، لله ولرسوله المنُّ والفضلُ! فقال: ألا تجيبونى يامعشر الأنصار! قالوا: وبماذا نجيبك يارسول الله، لله ولرسوله المنُّ والفضل! قال: أما والله لو شئتم لقلتم فصدقتم ولصدقتم: أتيتنا مكذَّبا فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلاً فآسيناك؛ وجدتم فى أنفسكم يامعشر الأنصار فى لعاعة[1] من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، أفلا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم! فوالذى نفس محمد بيده؛ لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعْبًا - طريقًا بين جبلين - وسلكت الأنصار شعبًا، لسلكت شعب الأنصار! اللهمَّ ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار!

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسمًا وحظًّا، ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا.

عمرة رسول الله ﷺ من الجعرانة

خرج رسول الله ﷺ من الجعرانة معتمرًا، وأمر ببقايا الفىء، فحبس بمجنَّة، وهى بناحية مرّ الظهران، فلما فرغ رسول الله من عمرته وانصرف راجعًا إلى المدينة؛ استخلف عتَّاب بن أسيد على مكة، وخلف معه معاذ ابن جبل يفقه الناس فى الدين ويعلمهم القرآن، واتبع رسول الله ﷺ ببقايا الفىء.

(١) لعاعة: بُقلة ناعمة.

وكانت عمرة رسول الله فى ذى القعدة، فقدم رسول الله ﷺ المدينة فى ذى القعدة، أو فى ذى الحجة، وحجّ الناس تلك السنة على ما كانت العرب تحج عليه، وحج تلك السنة بالمسلمين عتاب بن أسيد، وهى سنة ثمان، وأقام أهل الطائف على شركهم وامتناعهم فى طائفهم مابين ذى القعدة، إذ انصرف رسول الله ﷺ عنهم إلى شهر رمضان من سنة تسع.

قال الواقدى: لمّا قسم رسول الله ﷺ الغنائم بين المسلمين بالجعرانة، أصاب كلَّ رجل أربعٌ من الإبل وأربعون شاة، فمن كان منهم فارسًا أخذ سهم فرسه أيضًا. وقال أيضا: قدم ﷺ المدينة لليالٍ بقين من ذى الحجة من سفرته هذه.

وفيها بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى جيفر وعمرو ابنى الجلندى من الأزد مصدقا، فخليا بينه وبين الصدقة، فأخذ الصدقة من أغنيائهم وردّها على فقرائهم، وأخذ الجزية من المجوس الذين بها، وهم كانوا أهل البلد، والعرب كانوا حولها.

وفيها تزوج رسول الله ﷺ الكلابية التى يقال لها فاطمة بنت الضحاك بن سفيان، فاختارت الدنيا حين خيرت، وقيل: إنها استعاذت من رسول الله، ففارقها. وذكر إبراهيم بن وثيمة بن مالك بن أوس أن النبى ﷺ تزوجها فى ذى القعدة.

وفيها ولدت مارية إبراهيم فى ذى الحجة، فدفعه رسول الله ﷺ إلى أمّ بردة بنت المنذر بن زيد، وزوجها البراء بن أوس بن خالد، فكانت ترضعه. وكانت قابلتها سلمى مولاة رسول الله ﷺ فخرجت إلى أبى رافع فأخبرته أنها ولدت غلامًا، فبشر به أبو رافع رسول الله، فوهب له مملوكًا.

وغارت نساء رسول الله ﷺ واشتد عليهن حين رزقت منه الولد.

ثم دخلت سنة تسع

وفيها قدم وفد بنى أسد على رسول الله ﷺ فقالوا: قدمنا يارسول الله قبل أن ترسل إلينا رسولا، فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ فى ذلك من قولهم: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ ﴾(١).

وفيها قدم وفد بَلِىّ فى شهر ربيع الأول، فنزلوا على رويفع بن ثابت البلوىّ.

وفيها قدم وفد الداريين من لخم، وهم عشرة.

أمر ثقيف وإسلامها

وفيها قدم عروة بن مسعود الثقفى على رسول الله ﷺ مسلمًا، وكان من خبره أن رسول الله حين انصرف عن أهل الطائف اتبع أثره عروة بن مسعود بن معتب حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة، فأسلم؛ وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام، فقال رسول الله ﷺ كما يتحدث قومهم: إنهم قاتلوك، وعرف رسول الله أن فيهم نخوة بالامتناع الذى كان منهم، فقال له عروة: يارسول الله، أنا أحبّ إليهم من أبكارهم ـ وكان فيهم كذلك محببًا مطاعًا ـ فخرج يدعو قومه إلى الإسلام، ورجا ألاَّ يخالفوه لمنزلته فيهم، فلما أشرف بهم على علية له وقد دعاهم إلى الإسلام، وأظهر لهم دينه، رموه بالنبل من كل وجه، فأصابه سهم فقتله؛ فتزعم بنو مالك أنه قتله رجلٌ منهم يقال له أوس بن عوف، أخو بنى سالم بن مالك، وتزعم الأحلاف أنه قتله رجل منهم من بنى عتّاب بن مالك، يقال له وهب بن جابر. فقيل لعروة: ماترى فى دمك؟ قال: كرامة أكرمنى الله بها، وشهادة ساقها الله إلىّ، فليس فىّ إلاّ مافى الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم، فادفنونى معهم، فدفنوه معهم. فزعموا أن رسول الله ﷺ قال فيه: إن مثله فى قومه كمثل صاحب يس فى قومه.

وفيها قدم وفد أهل الطائف على رسول الله ﷺ، قيل: إنهم قدموا عليه فى

(١) الحجرات: ١٧.

شهر رمضان. . ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهرًا، ثم إنهم ائتمروا بينهم ألا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا. وتفصيل ذلك أن عمرو بن أميّة ـ وكان من أدهى العرب ـ كان مهاجرًا لعبد ياليل بن عمرو، وبينهما سيِّئٌ، فمشى إلى عبد ياليل حتى دخل عليه داره، ثم أرسل إليه: إن عمرو بن أمية يقول لك: اخرج إليَّ، فقال عبد ياليل لمن أرسله: ويحك! أعمرو أرسلك؟ قال: نعم، وهو ذا واقف فى دارك، فقال: إنّ هذا الشىء ماكنت أظنه، لعمرو كان أمنع فى نفسه من ذلك! فلما رآه رحَّب به، وقال عمرو: إنه قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة، إنه قد كان من أمر هذا الرجل ماقد رأيت، وقد أسلمت العرب كلها، وليست لكم بحربهم طاقة، فانظروا فى أمركم. فعند ذلك ائتمرت ثقيف بينها، وقال بعضهم لبعض: ألا ترون أن لا يأمن لكم سربٌ، ولايخرج منكم أحدٌ إلا اقتطع به! فائتمروا بينهم، وأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله ﷺ رجلاً، كما أرسلوا عروة، فكلموا عبد ياليل بن عمرو ـ وكان فى سن عروة بن مسعود ـ وعرضوا ذلك عليه فأبى أن يفعل، وخشى أن يصنع به إذا رجع كما يصنع بعروة، فقال: لست فاعلاً حتى تبعثوا معى رجالاً، فأجمعوا على أن يبعثوا معه رجلين من الأحلاف، وثلاثة من بنى مالك، فيكونوا ستة: عثمان بن أبى العاص، وأوس بن عوف، ونمير بن خرشة، وبعثوا من الأحلاف مع عبد ياليل: الحكم بن عمرو، وشرحبيل بن غيلان، فخرج بهم عبد ياليل ـ وهو نابُ القوم وصاحب أمرهم؛ ولم يخرج إلا خشية مِمَّا صُنِعَ بعروة بن مسعود، ليشغل كل رجل منهم إذا رجعوا إلى الطائف رهطه ـ فلما دنوا من المدينة، ونزلوا قناة لقوا بها المغيرة بن شعبة يرعى فى نوبته ركاب أصحاب رسول الله ﷺ وكانت رعيتها نوبًا على أصحابه، فلما رآهم المغيرة ترك الركاب وضبر ـ أى: وثب ـ يشتدّ ليبشر رسول الله بقدومهم عليه، فلقيه أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ قبل أن يدخل على رسول الله، فأخبره عن ركب ثقيف أنهم قدموا يريدون البيعة والإسلام، بأن يشرط لهم شروطًا، ويكتتبوا من رسول الله كتابًا فى قومهم وبلادهم وأموالهم، فقال أبو بكر للمغيرة: أقسمت عليك بالله

لاتسبقنى إلى رسول الله حتى أكون أنا الذى أحدثه، ففعل المغيرة، فدخل أبو بكر على رسول الله فأخبره عن ركب ثقيف بقدومهم، ثم خرج المغيرة إلى أصحابه فروَّح الظَّهر معهم، وعلَّمهم كيف يحيُّون رسول الله ﷺ. فلم يفعلوا إلا بتحية الجاهلية، ولما أن قدموا على رسول الله ﷺ ضرب عليهم قبّة فى ناحية مسجده - كما يزعمون - وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذى يمشى بينهم وبين رسول الله ﷺ حتى اكتتبوا كتابهم، وكان خالد هو الذى كتب كتابهم بيده، وكانوا لايطعمون طعامًا يأتيهم من عند رسول الله ﷺ حتى يأكل منه خالد؛ حتى أسلموا وبايعوا وفرغوا من كتابهم - وقد كان فيما سألوا رسول الله ﷺ أن يدع الطاغية - وهى اللات - لايهدمها ثلاث سنين، فأبى رسول الله ذلك عليهم؛ فما برحوا يسألونه سنة سنة، فأبى عليهم حتى سألوه شهرًا واحدًا بعد مقدمهم؛ فأبى أن يدعها شيئًا يُسمَّى؛ وإنما يريدون بذلك فيما يظهرون أن يسلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذراريّهم، ويكرهون أن يروّعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام، فأبى رسول الله ﷺ ذلك إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فيهدماها؛ وقد كانوا سألوه مع ترك الطاغية أن يعفيهم من الصّلاة، وأن يكسروا أوثانهم بأيديهم؛ فقال رسول الله: أمّا كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه؛ وأما الصلاة فلا خير فى دين لا صلاة فيه؛ فقالوا: يامحمد أمًّا هذه فسنؤتيكها وإن كانت دناءة.

فلما أسلموا وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابهم، أمّر عليهم عثمان بن أبى العاص - وكان من أحدثهم سنًّا - وذلك أنه كان أحرصهم على التفقه فى الإسلام وتعلم القرآن، فقال أبو بكر لرسول الله ﷺ: يارسول الله، إنى قد رأيت هذا الغلام فيهم من أحرصهم على التفقه فى الإسلام وتعلّم القرآن، فلما خرجوا من عند رسول الله وتوجهوا إلى بلادهم راجعين، بعث رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فى هدم الطاغية، فخرجا مع القوم، حتى إذا قدموا الطائف أراد المغيرة أن يقدّم أبا سفيان، فأبى ذلك أبو سفيان عليه، وقال: ادخل أنت على قومك؛ وأقام أبو سفيان بماله بذى الهرْم، فلما دخل

المغيرة بن شعبة علاها يضربها بالمعول، وقام قومه دونه - بنو معتب - خشية أن يرمى أو يصاب كما أصيب عروة، وخرج نساءُ ثقيف حسَّرًا[1] يبكين عليها.

ويقول أبو سفيان والمغيرة يضربها بالفأس: واهًا لك! واهًا لك! فلما هدمها المغيرة أخذ مالها وحليَّها وأرسل إلى أبى سفيان.. وحَلْيُّها مجموع، ومالها من الذهب والجزع، وكان رسول الله ﷺ أمر أبا سفيان أن يقضى من مال اللات دين عروة والأسود ابنى مسعود، فقضى منه دينهما.

ذكر الخبر عن غزوة تبوك

أقام رسول الله ﷺ بالمدينة بعد منصرفه من الطائف مابين ذى الحجة إلى رجب.. ثم أمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم، وذلك فى زمن عسرة من الناس، وشدّة من الحرّ، وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار وأحبت الظلال، فالناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص عنها على الحال من الزمان الذى هم عليه، وكان رسول الله ﷺ قلّما يخرج فى غزوة إلاّ كنى عنها، وأخبر أنه يريد غير الذى يصمد له، إلا ما كان من غزوة تبوك فإنه بينها للناس، لبُعْدِ الشقة وشدة الزمان، وكثرة العدو الذى يصمد له، ليتأهب الناس لذلك أهبته، وأمر الناس بالجهاز، وأخبرهم أنه يريد الروم.

فتجهز الناس على مافى أنفسهم من الكره لذلك الوجه لما فيه؛ مع ماعظموا من ذكر الروم وغزوهم؛ فقال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو فى جهازه ذلك للجد بن قيس أخى بنى سلمة: هل لك ياجدّ العام فى جلاد بنى الأصفر - وهم الروم؟ فقال: يارسول الله، أو تأذن لى ولا تفتنّى! فوالله لقد عرف قومى ما رجلٌ أشدّ عجبًا بالنساء منّى؛ وإنّى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر عنهن. فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: وقد أذنت لك؛ ففى الجدّ بن قيس نزلت هذه الآية: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي.. ﴾[2].

---

(١) أى: مكشوفات الرءوس.

(٢) التوبة: ٤٩.

أي: إن كان إنما يخشى الفتنة من نساء بنى الأصفر ـ وليس ذلك به ـ فما سقط فيه من الفتنة بتخلّفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم؛ وإن جهنم لمن ورائه، وقال قائل من المنافقين لبعض: لاتنفروا فى الحرّ، زهادةً فى الجهاد، وشكـًّا فى الحق، وإرجافًا بالرسول، فأنزل الله ـ تبارك وتعالى ـ فيهم: ﴿ **وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ** ﴾، إلى قوله: ﴿ **جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾[1].

ثم إن رسول الله جدَّ فى سفره، فأمر الناس بالجهاز والانكماش، وحضَّ أهل الغنى على النفقة والحُملان[2] فى سبيل الله، ورغّبهم فى ذلك، فحمل رجالٌ من أهل الغنى فاحتسبوا ـ جعلوا أجر مابذلوا عند الله ـ وأنفق عثمان بن عفان فى ذلك نفقة عظيمة لم ينفق أحدٌ أعظم من نفقته. ثم إن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ وهم البكاءون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم: سالم ابن عمير، وعلبة بن زيد، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب، وعمرو بن حمام ابن الجموح، وعبد الله بن المغفل، وهرمى بن عبد الله، وعرباض بن سارية الفزارى، فاستحملوا رسول الله ـ أى: طلبوا منه مايحملهم عليه ـ وكانوا أهل حاجة، فقال: ﴿ **لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ** ﴾[3].

وقد لقى يامين بن كعب النضرى أبا ليلى عبد الرحمن وعبد الله بن مغفّل وهما يبكيان، فقال لهما: مايبكيكما؟ قالا: جئنا رسول الله ليحملنا، فلم نجد عنده مايحملنا عليه، وليس عندنا مانتقوّى به على الخروج معه، فأعطاهما ناضحًا ـ جملا يستقى عليه ـ فارتحلاه، وزوّدهما شيئًا من تمر، فخرجا مع رسول الله ﷺ.

---

(١) التوبة: ٨١، ٨٢.

(٢) الحملان: مصدر حَمَل.

(٣) التوبة: ٩٢.

وجاء المعذِّرون من الأعراب، فاعتذروا إليه فلم يعذرهم الله ـ عزّ وجلّ ـ وهم كانوا من بنى غفار. . منهم خُفاف بن إيماء بن رحضة.

ثم استتبّ ـ أى: تتابع واستمر ـ برسول الله سفرُه، وأجمع السير، وقد كان نفرٌ من المسلمين أبطأت بهم النّية عن رسول الله حتى تخلفوا عنه من غير شك ولا ارتياب، منهم كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أميّة، وأبو خيثمة أخو بنى سالم، وكانوا نفر صدق لايتهمون فى إسلامهم، فلما خرج رسول الله ﷺ ضرب عسكره على ثنية الوداع، وضرب عبد الله بن أبى بن سلول على حِدَة أسفل منه بحذاء ذباب ـ جبل بالجبانة أسفل من ثنيّة الوداع ـ وكان ـ فيما يزعمون ـ ليس بأقلّ العسكرين، فلما سار رسول الله ﷺ تخلف عنه عبد الله بن أبىّ فيمن تخلَّف من المنافقين وأهل الريب ـ وكان عبدُ الله بن أبىّ أخا بنى عوف بن الخزرج ـ وعبد الله بن نبتل أخا بنى عمرو بن عوف، ورفاعة ابن زيد بن التابوت أخا بنى قينقاع، وكانوا من عظماء المنافقين وكانوا ممن يكيد الإسلام وأهله. . وفيهم أنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿ **لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ** ﴾[1].

وخلف رسول الله ﷺ علىّ بن أبى طالب على أهله، وأمره بالإقامة فيهم، واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة، أخا بنى غفار، فأرجف المنافقون بعلىّ ابن أبى طالب، قالوا: ماخلّفه إلا استثقالاً له، وتخففًا منه، فلما قال ذلك المنافقون أخذ علىّ سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ وهو بالجرف فقال: يانبى الله؛ زعم المنافقون أنك إنما خلفتنى؛ أنك استثقلتنى وتخففت منى! فقال: كذبوا، ولكنّى إنما خلفتك لما ورائى، فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك؛ أفلا ترضى ياعلىّ أن تكون منّى بمنزلة هارون من موسى ، إلاّ أنه لانبى بعدى! فرجع علىّ إلى المدينة، ومضى رسول الله على سفره.

(١) التوبة : ٤٨.

ثم إن أبا خيثمة أخا بنى سالم رجع ـ بعد أن سار رسول الله ﷺ أيامًا ـ إلى أهله فى يوم حارّ، فوجد امرأتين له فى عريشين لهما فى حائط[1] قد رشت كل واحدة منهما عريشها وبردت له فيه ماء، وهيأت له فيه طعامًا؛ فلما دخل فقام على باب العريشين، فنظر إلى امرأتيه وماصنعتا له، قال: رسول الله فى الضِّحِّ والريح، وأبو خيثمة فى ظلال باردة وماء بارد، وطعام مهيأ، وامرأة حسناء، فى ماله مقيم!! ماهذا بالنَّصَف! ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله، فهيئا لى زادًا؛ ففعلتا ثم قدّم ناضحه فارتحله، ثم خرج فى طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك، وقد كان أدرك أبا خيثمة عمير ابن وهب الجمحى فى الطريق، يطلب رسول الله، فترافقا حتى إذا دنوا من تبوك قال أبو خيثمة لعمير بن وهب: إن لى ذنبًا، فلا عليك أن تَخَلَّفَ عنّى حتى آتى رسول الله، ففعل، ثم سار حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ وهو نازل بتبوك، قال الناس: يارسول الله، هذا راكب على الطريق مقبل، فقال رسول الله: كن أبا خيثمة! فقالوا: يارسول الله، هو والله أبو خيثمة! فلمّا أناخ أقبل فسلَّم على رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله: أولَى لك يا أبا خيثمة! ثم أخبر رسول الله الخبر، فقال له رسول الله خيرًا، ودعا له بخير.

وقد كان رسول الله ﷺ حين مر بالحِجْر نزلها واستقى الناس من بئرها، فلما راحوا منها قال رسول الله: لاتشربوا من مائها شيئًا، ولا تتوضّئوا منها للصلاة، وماكان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل، ولاتأكلوا منه شيئًا، ولا يخرجنّ أحد منكم الليلة إلاّ ومعه صاحب له؛ ففعل الناس ما أمرهم به رسول الله، إلا رجلين من بنى ساعدة، خرج أحدهما لحاجته، وخرج الآخر فى طلب بعير له، فأما الذى ذهب لحاجته فإنه خُنِقَ على مذهبه، وأما الذى ذهب فى طلب بعيره فاحتملته الريح حتى طرحته فى جبلى طَيِّئ، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال: ألم أنهكم أن يخرج منكم أحدٌ إلاّ ومعه صاحبٌ له! ثم دعا للذى أصيب على مذهبه فشفى، وأما الآخر الذى وقع بجبلى طَيِّئ؛ فإنّ طيئًا هدته لرسول الله ﷺ حين قدم المدينة.

(١) الحائط : البستان.

فلما أصبح الناس ـ ولا ماء معهم ـ شكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فدعا الله، فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس، واحتملوا حاجتهم من الماء.. ومع ذلك قال أحد المنافقين المعروف نفاقه: سحابةٌ مارّةٌ.

ثم إن رسول الله ﷺ سار حتى إذا كان ببعض الطريق ضلت ناقته، فخرج أصحابه فى طلبها، وعند رسول الله ﷺ رجلٌ من أصحابه، يقال له عمارة بن حزم، وكان عقبيًّا بدريًّا ـ أى: شهد بيعة العقبة ـ وكان فى رحله زيد بن لُصَيْب القَيْنُقَاعِىّ، وكان منافقًا، فقال: أليس يزعم محمد أنه نبىّ يخبركم عن خبر السماء وهو لايدرى أين ناقته! فقال رسول الله ﷺ وعمارة عنده: إن رجلاً قال: إن محمدًا هذا يخبركم أنه نبىّ وهو يزعم أنه يخبركم بخبر السماء وهو لايدرى أين ناقته! وإنى والله ما أعلم إلاّ ما علمنى الله، وقد دلنى الله عليها، وهى فى الوادى من شعب كذا وكذا قد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتوا بها، فذهبوا فجاءوا بها، فرجع عمارة بن حزم إلى أهله، فقال: والله لعجبٌ من شىء حدثناه رسول الله ﷺ آنفًا عن مقالة قائل أخبره الله عنه كذا وكذا، فقال رجل ممن كان فى رحل عمارة ولم يحضر رسول الله: زيد والله قال هذه المقالة قبل أن تأتى. فأقبل عُمارة على زيد يجأ فى عنقه ـ أى: يطعنه ـ ويقول: ياعباد الله، والله إنّ فى رحلى لداهية وما أدرى! اخرج ياعدوّ الله من رحلى فلا تصحبنى! قال: فزعم بعض الناس أن زيدًا تاب بعد ذلك، وقال بعض: لم يزل متهمًا حتى هلك.

ثم مضى رسول الله ﷺ سائرًا؛ فجعل يتخلّف عنه الرّجل فيقولون: يارسول الله، تخلّف فلان، فيقول: دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يكُ غير ذلك فقد أراحكم الله منه، حتى قيل: يارسول الله، تخلّف أبو ذرّ وأبطأ بعيره؛ فقال: دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه. وتمهّل أبو ذرّ على بعيره وتمكّث، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه، فحمله على ظهره، ثم خرج يتبع أثر رسول الله ماشيًا، ونزل رسول الله ﷺ فى

بعض منازله، فنظره ناظرة من المسلمين، فقال: يارسول الله إن هذا الرجل يمشى على الطريق وحده، فقال رسول الله ﷺ: كن أبا ذرٍّ! فلما تأمله القوم، قالوا: يارسول الله، هو أبو ذرٍّ! فقال رسول الله: يرحم الله أبا ذرٍّ.. يمشى وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده.

وعن ابن إسحاق، قال: لمّا نفى عثمانُ أبا ذرّ، نزل أبو ذرّ الربذة، فأصابه بها قدره، ولم يكن معه أحدٌ إلاّ امرأته وغلامه، فأوصاهما أن غسّلانى وكفّنانى، ثم ضعانى على قارعة الطريق، فأوّل ركْب يمرّ بكم فقولوا: هذا أبو ذرٍّ صاحب رسول الله فأعينونا على دفنه. فلمّا مات فعلا ذلك به، ثم وضعاه على قارعة الطريق، فأقبل عبد الله بن مسعود ورهطٌ من أهل العراق عُمّارًا فلم يرعهم إلاّ بجنازة على الطريق قد كادت الإبل تطؤها، وقام إليهم الغلام، فقال: هذا أبو ذر صاحب رسول الله، فأعينونا على دفنه. فاستهلّ عبد الله بن مسعود يبكى، ويقول: صدق رسول الله.. تمشى وحدك، وتموت وحدك، وتبعث وحدك! ثم نزل هو أوصحابه فواروَه.

ثم حدّثهم ابن مسعود حديثه وماقال له رسول الله فى مسيره إلى تبوك.

وقد كان رهط من المنافقين ـ منهم وديعة بن ثابت أخو بنى عمرو بن عوف، ومنهم رجل من أشجع حليف لبنى سلمة، يقال له مخشّى بن حمير ـ يسيرون مع رسول الله وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون قتال بنى الأصفر كقتال غيرهم؟ والله لكأنّى بكم غدًا مقرّنين فى الحبال، إرجافًا وترهيبًا للمؤمنين. فقال مخشّى بن حمير: والله لوددت أنى أقاضَى على أن يضرب كلّ رجل منا مائة جلدة، وأنّا ننفلت أن يُنزل الله فينا قرآنًا لمقالتكم هذه. وقال رسول الله ﷺ لعمّار بن ياسر: أدرك القوم، فإنهم قد احترقوا ـ أى: هلكوا ـ فسلهم عمّا قالوا، فإن أنكروا فقل: بلى قد قلتم كذا وكذا، فانطلق إليهم عمّار فقال لهم ذلك، فأتوا رسول الله يعتذرون إليه، فقام وديعة بن ثابت ورسول الله واقف على ناقته، فجعل يقول وهو آخذ بحقبيها ـ أى: حبلها المشدود على بطن

البعير ـ: يارسول الله، كنّا نخوض ونلعب؛ فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ فيهم: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾[1].

وقال مخشي: يارسول الله، قعد بي اسمي واسم أبي؛ فكان الذي عُفِيَ عنه في هذه الآية مخشي بن حمير؛ فسُمي عبد الرحمن، وسأل الله أن يقتله شهيدًا لايعلم مكانه، فقتل يوم اليمامة فلم يوجد له أثر.

فلما انتهى رسولُ الله ﷺ إلى تبوك، أتاه يحنَّه بن رؤية، صاحب أيلة، فصالح رسول الله وأعطاه الجزية، وأهل جرباء وأذرح أعطوه الجزية، وكتب رسول الله ﷺ لكلٍّ كتابًا، فهو عندهم.

ثم إنّ رسول الله ﷺ دعا خالد بن الوليد، فبعثه إلى أكيدر دومة ـ وهو أكيدر ابن عبد الملك، رجل من كندة كان ملكًا عليها، وكان نصرانيًّا ـ فقال رسول الله لخالد: إنك ستجده يصيد البقر، فخرج خالد بن الوليد حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين، وفي ليلة مقمرة صائفة، وهو على سطح له، ومعه امرأته، فباتت البقر تحكُّ بقرونها باب القصر، فقالت امرأته: هل رأيت مثل هذا قطّ! قال: لا والله، قالت: فمن يترك هذا؟ قال: لا أحد، فنزل فأمر بفرسه فأسرج له، وركب معه نفر من أهل بيته، فيهم أخ له يقال له حسان، فركب، وخرجوا معه بمطاردهم؛ فلما خرجوا تلقتهم خيل رسول الله ﷺ فأخذته، وقتلوا أخاه حسّان، وقد كان عليه قباء له من ديباج مخَوَّص بالذهب، فاستلبه خالد، فبعث به إلى رسول الله ﷺ قبل قدومه عليه.. فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم، ويتعجبون منه، فقال رسول الله: أتعجبون من هذا؟! فوالذي نفس محمد بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا!

ثم إن خالدًا قدم بأكيدر على رسول الله ﷺ فحقن له دمه، وصالحه على الجزية، ثم خلى سبيله، فرجع إلى قريته.

وأقام رسول الله ﷺ بتبوك بضع عشرة ليلة ولم يجاوزها، ثم انصرف قافلاً

(١) التوبة : ٦٥.

إلى المدينة، فكان فى الطريق ماء يخرج من وَشَلٍ مايروى الراكب والراكبيْن والثلاثة، بواد ياقل له وادى المشقّق، فقال رسول الله ﷺ: من سبقنا إلى ذلك الماء فلا يستقينّ منه شيئًا حتى نأتيه. فسبقه إليه نفرٌ من المنافقين فاستقوا مافيه، فلما أتاه رسول الله ﷺ وقف عليه فلم ير فيه شيئًا؛ فقال: من سبقنا إلى هذا الماء؟ فقيل له: يارسول الله فلان وفلان، فقال: أو لم ننههم أن يستقوا منه شيئًا حتى نأتيه! ثم لعنهم رسول الله، ودعا عليهم، ثم نزل ﷺ فوضع يده تحت الوَشَل ـ حجر أو مرتفع يقطر منه الماء قليلاً قليلاً ـ فجعل يصبّ فى يده ماشاء الله أن يصبّ، ثم نضحه به ومسحه بيده، ودعا رسول الله بما شاء الله أن يدعو، فانخرق من الماء ـ كما يقول من سمعه: إن له حسًّا كحسّ الصواعق، فشرب الناس واستقوا حاجتهم منه، فقال رسول الله ﷺ: من بقى منكم ليسمعنّ بهذا الوادى؛ وهو أخصب مابين يديه وماخلفه.

ثم أقبل رسول الله حتى نزل بذى أوَان؛ بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار؛ وقد كان أصحاب مسجد الضِّرار أتوه وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يارسول الله، إنا قد بنينا مسجدًا لذى العلّة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه. فقال: إنّى على جناح سفرٍ، وحال شغل ـ أو كما قال رسول الله ـ ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلينا لكم فيه؛ فلما نزل بذى أوان أتاه خبر المسجد، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدُّخشم، أخا بنى سالم ابن عوف، ومَعْنَ بن عَدِىّ ـ أو أخاه عاصم بن عدى أخا بنى العجلان.

فقال: انطلقا إلى المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرّقاه؛ فخرجا سريعين حتى أتيا بنى سالم بن عوف؛ وهم رهط مالك بن الدخشم، فقال مالك لمعن: أنظرنى حتى أخرج إليك بنار من أهلى، فدخل إلى أهله، فأخذ سعفًا من النخل، فأشعل فيه نارًا، ثم خرجا يشتدّان حتى دخلا المسجد وفيه أهله، فحرّقاه وهدماه، وتفرقوا عنه، ونزل فيهم من القرآن مانزل: ﴿ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾(١)، إلى آخر القصة. كان الذين بنوه اثنى

---

(١) التوبة : ١٠٧.

عشر رجلا . . هم: خذام بن خالد، وثعلبة بن حاطب، ومعتّب بن قشير، وأبو حبيبة بن الأزعر، وعبّاد بن حُنَيف، وجارية بن عامر وابناه مجمّع وزيد، ونبتل ابن الحارث، وبحزج، وبجاد بن عثمان، ووديعة بن ثابت.

وقدم رسول الله ﷺ المدينة - وقد كان تخلّف عنه رهط من المنافقين، وتخلّف أولئك الرهط من المسلمين من غير شك ولانفاق: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية. فقال رسول الله: لايكلّمنّ أحدٌ أحدًا من هؤلاء الثلاثة، وأتاه من تخلّف عنه من المنافقين، فجعلوا يحلفون له ويعتذرون، فصفح عنهم رسول الله ﷺ ولم يعذرهم الله ولا رسوله، واعتزل المسلمون كلام هؤلاء الثلاثة النفر، حتى أنزل الله - عزّ وجلّ - قوله: ﴿ **لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ** ﴾، إلى قوله : ﴿ **وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** ﴾[1]. فتاب الله عليهم.

وقدم رسول الله ﷺ المدينة من تبوك فى شهر رمضان، وقدم عليه فى ذلك الشهر وفد ثقيف كما ذكر من قبل.

أمر طَيّئ وعدى بن حاتم

وفى هذه السنة - أعنى سنة تسع - وجّه رسول الله ﷺ علىّ بن أبى طالب - رضى الله عنه - فى سرية إلى بلاد طَيِّئ فى ربيع الآخر، فأغار عليهم، فسبى وأخذ سيفين كانا فى بيت الصنم، يقال لأحدهما: رَسُوب، وللآخر المخذَم، وكان لهما ذِكْرٌ، كان الحارث بن أبى شمر نذرهما له، وسبَى أخت عدىّ بن حاتم.

حدثنا سماك، قال: سمعت عبّاد بن حُبيش يحدّث عن عدىّ بن حاتم، قال: جاءت خيل رسول الله ﷺ - أو قال: رسُل رسول الله - فأخذوا عمّتى وناسًا، فأتوا بهم النبىّ ﷺ . . قال: فصفّوا له، قالت: يارسول الله، نأى الوافد،

(١) التوبة : ١١٧ - ١١٩.

وانقطع الوالد؛ وأنا عجوز كبيرة مابى من خدمة، فمنّ علىّ مَنّ الله عليك يارسول الله! قال: ومَنْ وَافِدُك؟ قالت: عدىُّ بن حاتم؛ قال: الذى فرّ من الله ورسوله! قالت: فمنَّ علىّ - ورجُل إلى جنبه ترى أنه علىٌّ - عليه السلام - قال: سليهَ حُمْلاَنًا - فسألته، فأمر بها فأتتنى، فقالت: لقد فعلت فعلة ماكان أبوك يفعلها! ثم قالت: ائته راغبًا وراهبًا، فقد أتاه فلان فأصاب منه، وأتاه فلان فأصاب منه. فأتيته فإذا عنده امرأة وصبيان - أو صبى - فذكر قُربهم من النبى ﷺ فعرفتُ أنه ليس بملك كسرى ولاقيصر، فقال رسول الله لى: ياعدىّ بن حاتم، ما أفَرّك - أى: جعلك تفرّ من الجهاد فى سبيل الله - أن يقال لا إله إلا الله! فهل مِنْ إله إلاّ الله! وما أفرّك أن يقال الله أكبر! فهل من شىء هو أكبر من الله! فأسلمتُ، فرأيتُ وجهه استبشر.

قدوم وفد بنى تميم ونزول سورة الحجرات

فى هذه السنة قدم على رسول الله ﷺ وفد بنى تميم، فيهم عطارد بن حاجب بن زرارة ومنهم الأقرع بن حابس، والزبرقان بن بدر التميمى ثم أحد بنى سعد، وعمرو بن الأهتم، والحُتات بن فلان، ونعيم بن زيد، وقيس بن عاصم، ومعهم عُيينة بن حصن بن حذيفة الفزارىّ - الذى شهد هو والأقرع بن حابس مع رسول الله ﷺ فتح مكة وحصار الطائف - فلمّا دخل وفد بنى تميم المسجد، نادوا رسول الله من وراء الحجرات، أن اخرج إلينا يامحمد، فآذى ذلك من صياحهم رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فقالوا: يامحمد، جئناك لنفاخرك، فأذن لشاعرنا وخطيبنا، قال: نعم، أذنت لخطيبكم فليقل، فقام إليه عطارد بن حاجب، فقال: «الحمد لله الذى له علينا الفضل وهو أهله، الذى جعلنا ملوكًا، ووهب لنا أموالاً عظامًا نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعزّ أهل المشرق وأكثره عددًا، وأيسره عُدَّةً، فمن مثلنا فى الناس! ألسنا برءوس الناس وأولى فضلهم! فمن يفاخرنا فليعددْ مثل ماعدّدنا؛ وإنّا لو نشاء لأكثرنا الكلام؛ ولكنّا نحيا من الإكثار فيما أعطانا؛ وإنا نعرف. أقول هذا الآن لتأتونا بمثل قولنا، وأمرٍ أفضل من أمرنا»، ثم

جلس. فقال رسولُ الله لثابت بن قيس بن شمّاس: قم فأجب الرجل فى خطبته. فقام ثابت، فقال: «الحمدُ لله الذى السمٰوات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيه علمه، ولم يكن شىء قطّ إلاّ من فضله. ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكًا، واصطفى من خير خلقه رسولاً أكرمهم نسبًا، وأصدقهم حديثًا، وأفضلهم حسبًا، فأنزل عليه كتابه، وائتمنه على خلقه، فكان خيرة الله من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان، فآمن برسول الله المهاجرون من قومه وذى رحمه، أكرم الناس أنسابًا، وأحسن الناس وجوهًا، وخير الناس فعالاً؛ ثم كان أوّل الخلق إجابة واستجاب لله حين دعا رسول الله ﷺ نحن؛ فنحن أنصارُ الله ووزراء رسوله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه فى الله أبدًا، وكان قتله علينا يسيرًا، أقول قولى هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات. . والسلام عليكم».

قالوا: يامحمد، ائذن لشاعرنا، فقال: نعم، فقام الزِّبرقان بن بدر فقال:

نحنُ الكرامُ فلا حىٌّ يعادلنا ... منَّا الملوكُ وفينا تنصبُ البيعُ[1]
وكمْ قَسَرْنا من الأحياءِ كلهم ... عند النهَاب وفضلُ العزِّ يتبعُ
....
إنّا أبينا ولن يأبَى لنا أحَدٌ ... إنا كذلك عند الفخر نرتفع
فمن يقادرنا فى ذاك يعرفنا ... فيرجع القول والأخبار تستمع

وكان حسّان بن ثابت غائبًا، فبعث إليه رسول الله ﷺ، قال حسّان: فلما جاءنى رسوله فأخبرنى أنه إنما دعانى لأجيب شاعر بنى تميم، خرجتُ إلى رسول الله، وأنا أقول:

منعنا رسول الله إذ حل وسطنا ... على كلِّ باغ من معدٍّ وراغم
منعناه لمّا حلَّ بين بيوتنا ... بأسيافنا من كلِّ عادٍ وظالم
....

(١) البيع: أماكن العبادة.

فلما انتهيت إلى رسول الله وقام شاعر القوم، فقال ما قال، عرضت فى قوله وقلت على نحو مما قال، فلما فرغ الزبرقان بن بدر من قوله، قال رسول الله لحسّان: قم يا حسّان فأجب الرجل فيما قال، فقال حسان:

إنَّ الذوائب مِنْ فِهْرٍ وإخوتهم ... قد بَيَّنُوا سُنَّةً للنَّاسِ تُتَّبَعُ[1]
يرضَى بها كلُّ من كانَت سريرته ... تقوى الإله وكلُّ الخير يصطنع
قومٌ إذا حاربوا ضرّوا عدُوَّهم ... أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا

....

أعفةٌ ذُكِرَتْ فى الوحى عِفَّتُهُمْ ... لايطبعون ولايُرديهم طمع
لايبخلون على جارٍ بفضلهم ... ولاتمسهم من مطمع طبع
نسمو إذا الحرب نالتنا مخالبها ... إذا الزعانف من أظفارها خشعوا

....

أكرم بقومٍ رسول الله شيعتهم ... إذا تفرقت الأهواء والشيع
أهدى لهم مدحتى قلب يوازره ... فيما أحبَّ لسانٌ حائكٌ صَنَعُ[2]
فإنهم أفضل الأحياء كلهم ... إن جدَّ بالناس جدُّ القول أو شمعوا[3]

فلما فرغ حسان بن ثابت من قوله، قال الأقرع بن حابس: وأبى إنّ هذا الرجل لمؤتى له ـ أى: موفق ـ لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، وأصواتهم أعلى من أصواتنا، فلمّا فرغ القوم أسلموا، وجوّزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم، وكان عمرو بن الأهتم قد خَلَّفَهُ القوم فى ظهرهم، فقال قيس بن عاصم ـ وكان يبغض عمرو بن الأهتم: يارسول الله؛ إنه قد كان منّا رجل فى رحالنا وهو غلام حدثٌ، وأزرى به، فأعطاه رسول الله ﷺ مثل ما

---

(١) الذوائب: السادة.

(٢) صنع: يحسن القول.

(٣) شمعوا: هزلوا.

أعطى القوم؛ فقال عمرو بن الأهتم حين بلغه ذلك من قول قيس بن عاصم، وهو يهجوه:

ظلـلتَ مفترشـاً هَلْبَـاكَ تشتمنى عند الرسول فلم تَصْدُقْ ولم تُصبِ
إنْ تُبغضـونا فـإن الـروم أصلكُـم والـروم لاتملك البغضـاء للعـربِ
سُدْنَا فَسُودَدُنا عَـوْدٌ وسُـودَدُكُمْ مؤخرٌ عند أصل العَجْبِ والذَّنَبِ

فأنزل الله فيهم القرآن: ﴿ إنَّ الَّذينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ ﴾ من بنى تميم - ﴿ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُون ﴾(١).

وفيها مات عبد الله بن أبىّ بن سلول، مرض فى ليال بقين من شوال، ومات فى ذى القعدة، وكان مرضه عشرين ليلة.

قدوم رسول ملوك حِمْيَرُ على رسول الله بكتابهم

وفيها قدم على رسول الله ﷺ كتاب ملوك حمير فى شهر رمضان مقرّين بالإسلام، مع رسولهم الحارث بن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال، والنعمان قَيْل ذى رُعَيْن، وهَمْدان، ومَعافر؛ وبَعَثَ إليه زُرْعَة ذو يزن مالكَ بن مُرَّة الرَّهاوى بإسلامهم، ومفارقتهم الشرك وأهله.. وذلك عند مقدمه من تبوك. فكتب إليهم رسول الله ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم.. من محمد النبىّ رسول الله إلى الحارث بن عبد كُلال ونعيم بن عبد كلال والنعمان قَيْل ذى رُعَيْن وهمدان ومعافر؛ أمّا بعد ذلكم؛ فإنى أحمد الله إليكم الذى لا إله إلا هو. أمّا بعدُ؛ فإنه قد وقع بنا رسولكم مَقْفَلَنا من أرض الروم، فلقينا بالمدينة، فَبَلَّغَ ما أرسلتم، وخَبَّرَ ما قِبَلَكُمْ، وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين؛ وإن الله قد هداكم بهدايته، إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله، وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة؛ وأعطيتم من المغانم خمس الله، وسهم نبيه وصفيه، وماكُتب على المؤمنين من الصدقة من

(١) الحجرات: ٤.

العقار - أى: الأرض التى تزرع - عُشْرُ ما سَقَت العين وما سقت السماء، وكل ماسُقِىَ بالغَرْب - أى: الدلو - نصف العُشر، وفى الإبل فى الأربعين ابنة لَبُون، وفى ثلاثين من الإبل ابن لبون ذكر، وفى كل خمس من الإبل شاة، وفى كل عشر من الإبل شاتان، وفى كل أربعين من البقر بقرة، وفى كل ثلاثين من البقر تَبيعٌ، جَذَعَةٌ أو جَذَعٌ، وفى كل أربعين من الغنم سائمة وحدها، شاة. وإنها فريضة الله التى فرض على المؤمنين فى الصدقة؛ فمن زاد خيرًا فهو خيرٌ له، ومن أدى ذلك وأشهد على إسلامه وظاهر المؤمنين على المشركين، فإنه من المؤمنين، له مالهم وعليه ماعليهم، وله ذمّة الله وذمة رسوله. وإنه من أسلم من يهودى أو نصرانى فإن له مثل مالهم وعليه مثل ماعليهم، ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لايفتن عنها، وعليه الجزية، على كل حالم ذكر أو أنثى، حرٌّ أو عبد؛ دينار وافٍ أو قيمته من المعافر - أى: ثياب اليمن - أو عرضه ثيابا؛ فمن أدّى ذلك إلى رسول الله؛ فإن له ذمة الله وذمة رسوله، ومن منعه فإنه عدوٌّ لله ولرسوله.

أما بعد: فإنّ رسول الله محمدًا النبى أرسل إلى زُرْعَة ذى يزن أن إذا أتتكم رسلى فأوصيكم بهم خيرًا: معاذ بن جبل، وعبد الله بن زيد، ومالك بن عبادة، وعقبة بن نمر، ومالك بن مرة وأصحابهم، وأن اجمعوا ماعندكم من الصدقة والجزية من مخالفيكم وبلغوها رُسُلى، وإن أميركم معاذ بن جبل؛ فلا ينقلبن إلا راضيا.

أمّا بعد: فإن محمدًا يشهد أن لا إله إلا الله وأنه عبده ورسوله؛ ثم إن مالك ابن مرة الرُّهاوىّ قد حدثنى أنك أسلمت من أول حمير وقتلت المشركين، فأبشر بخير، وآمرك بحمير خيرا؛ ولاتخونوا ولاتخذلوا، فإن رسول الله مولى غنيكم وفقيركم؛ وإن الصدقة لاتحل لمحمد ولا لأهله، إنما هى زكاة يتزكى بها على فقراء المؤمنين وأبناء السبيل؛ وإنّ مالكًا قد بلّغ الخبر وحفظ الغيب، وآمركم به خيرًا، وإنى قد بعثت إليكم من صالحى أهلى وأولى دينى، وأولى علمهم؛ فآمركم بهم خيرا فإنه منظور إليهم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وفى هذه السنة قدم وفد بهراء على رسول الله ﷺ ثلاثة عشر رجلاً، ونزلوا على المقداد بن عمرو.

وفيها قدم وفد بنى البكّاء.

وفيها قدم وفد فزارة؛ وهم بضعة عشر رجلاً، فيهم خارجة بن حصن. وفيها نعَى رسول الله ﷺ للمسلمين النجاشىّ، وأنه مات فى رجب سنة تسع. وفيها حجّ أبو بكر بالناس، ثم خرج أبو بكر من المدينة فى ثلثمائة، وبعث معه رسول الله ﷺ بعشرين بَدَنَة، وساق أبو بكر خمس بدنات. وحجّ فيها عبد الرحمن ابن عوف وأهدى.

وبعث رسول الله علىّ بن أبى طالب على أثر أبى بكر - رضى الله عنه - فأدركه بالعرْج، فقرأ علىّ عليه «براءة» يوم النحر عند العقبة. وعن السُّدّىّ، قال: لمّا نزلت هذه الآيات إلى رأس الأربعين - يعنى من سورة براءة - فبعث بهنّ رسول الله مع أبى بكر، وأمّره على الحجّ، فلمّا سار فبلغ الشجرة من ذى الحُليفة أتبعه بعلىّ، فأخذها منه؛ فرجع أبو بكر إلى النبى ﷺ فقال: يارسول الله، بأبى أنت وأمّى! أنزل فى شأنى شىء؟ قال: لا؛ ولكن لايبلغ عنّى غيرى أو رجل منّى. أما ترضى يا أبا بكر أنك كنت معى فى الغار، وأنك صاحبى على الحوض! قال: بلى يارسول الله. فسار أبو بكر على الحج، وسار علىٌّ يؤذن ببراءة، فقام يوم الأضحى فآذن فقال: لايقربنّ المسجد الحرام مشرك بعد عامه هذا، ولا يطوفنّ بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فله عهده إلى مدّته، وإنّ هذه أيام أكل وشرب، وإنّ الله لايدخل الجنة إلاّ من كان مسلمًا. فقالوا: نحن نبرأ من عهدك وعهد ابن عمّك إلاّ من الطعن والضرب.

فرجع المشركون فلام بعضهم بعضًا، وقالوا: ماتصنعون وقد أسلمت قريش! فأسلموا.

وفى هذه السنة فرضت الصدقات، وفرّق رسول الله ﷺ عُمّاله على الصدقات.

وفيها نزل قوله: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ ﴾[1]، وكان السبب الذى نزل ذلك به قصّة أمر ثعلبة بن حاطب، ذكر ذلك أبو أمامة الباهلىّ.

وفى هذه السنة ماتت أم كلثوم ابنة رسول الله ﷺ فى شعبان، وغسّلتها أسماء بنت عُميس وصفية بنت عبد المطلب.. ونزل فى حفرتها أبو طلحة.

وفيها قدم وفد ثعلبة بن منقذ.

قدوم ضمام بن ثعلبة وافدًا عن بنى سعد

وفيها قدم وفد سعد هُذَيْم.

عن عبد الله بن عباس، قال: بعث بنو سعد بن بكر ضِمَامَ بن ثعلبة إلى رسول الله ﷺ فقدم عليه، فأناخ بعيره على باب المسجد ثم عقله، ثم دخل المسجد ورسول الله ﷺ جالس فى أصحابه، وكان ضمام رجلاً جلدًا أشعر ذا غديرتين، فأقبل حتى وقف على رسول الله فى أصحابه، فقال: أيّكم ابن عبد المطلب؟ قال رسول الله: أنا ابن عبد المطلب، قال: محمد؟ قال: نعم. قال: يا ابن عبد المطلب، إنى سائلك ومغلظ لك فى المسألة، فلا تجدنّ فى نفسك! قال: لا أجد فى نفسى، فسل عما بدا لك، قال: أنشدك بالله إلـهك وإلـه من كان قبلك وإلـه من هو كائن بعدك، آلله بعثك إلينا رسولاً؟ قال: اللهم نعم. قال: فأنشدك بالله إلـهك وإلـه من كان قبلك وإلـه من هو كائن بعدك، آلله أمَرَكَ أن تأمرنا أن نعبده وحده، ولا نشرك به شيئًا، وأن نخلع هذه الأنداد التى كانت آباؤنا تعبد من دونه؟ قال: اللهم نعم. قال: فأنشدك بالله إلـهك وإلـه من كان قبلك وإلـه من هو كائن بعدك، آلله أمرك أن تأمرنا أن نصلّى هذه الصلوات الخمس؟ قال: اللهم نعم. قال: ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة، الزكاة، والصيام، والحجّ، وشرائع الإسلام كلها، يناشده عن كل فريضة كما ناشده فى التى قبلها، حتى إذا فرغ قال: فإنى أشهد أن لا إلـه إلاّ الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمدًا رسول الله، وسأؤدّى هذه الفرائض وأجتنب ما

(١) التوبة: ١٠٣.

نهيتنى عنه، ثم لا أنقص ولا أزيد. ثم انصرف إلى بعيره راجعًا. فقال رسول الله حين ولّى: إن صَدَق ذو العقيصتين يدخلِ الجنة. قال: فأتى بعيره فأطلق عقاله، ثم خرج حتى قدم على قومه فاجتمعوا إليه، فكان أوّل ما تكلم به أن قال: باستِ اللات والعُزّى! قالوا: مَهْ ياضمام! اتق البرصَ، اتق الجذام، اتق الجنون! قالَ: وَيْحكُم، إنهما لا ينفعان ولا يضرّان، إن الله قد بعث رسولا، وأنزل عليه كتابًا استنقذكم به مما كنتم فيه، وإنى أشهد أن لا إلـه إلاّ الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه.

فوالله ما أمسى ذلك اليوم فى حاضره - حيٌّ - رجل ولا امرأة إلاّ مسلمًا. ويقول ابن عباس: فما سمعنا بوافد قومٍ كان أفضل من ضمام بن ثعلبة.

ثم دخلت سنة عشر

سرية خالد بن الوليد إلى بنى الحارث بن كعب وإسلامهم

عن عبد الله بن أبى بكر، قال: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فى شهر ربيع الآخر - أو فى جمادى الأولى - من سنة عشر، إلى بلحارث بن كعب بنجران، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثًا، فإن استجابوا لك فاقبل منهم، وأقم فيهم، وعلمهم كتاب الله وسُنّة نبيّه، ومعالم الإسلام، فإن لم يفعلوا فقاتلهم.

فخرج خالد حتى قدم عليهم، فبعث الركبان يضربون فى كلّ وجه، ويدعون الناس إلى الإسلام، ويقولون: يا أيها الناس أسلموا تسلموا، فأسلم الناس، ودخلوا فيما دعاهم إليه، فأقام خالد فيهم؛ يعلّمهم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيّه.

ثم كتب خالد إلى رسول الله ﷺ: «بسم الله الرحمـٰن الرحيم. لمحمد النبى رسول الله ﷺ من خالد بن الوليد، السلام عليكم يارسول الله ورحمة الله

وبركاته؛ فإنى أحمد إليك الله الذى لا إلـه إلاّ هو؛ أمّا بعد يارسول الله صلّى الله عليك؛ بعثتنى إلى بنى الحارث بن كعب، وأمرتنى إذا أتيتهم ألاّ أقاتلهم ثلاثة أيام، وأن أدعوهم إلى الإسلام، فإن أسلموا قبلتُ منهم وعلمتهم معالم الإسلام وكتاب الله وسنّة نبيه، وإن لم يسلموا قاتلتهم، وإنى قدمت عليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرنى رسول الله ﷺ، وبعثت فيهم ركبانًا قالوا: يابنى الحارث، أسلموا تسلموا، فأسلموا ولم يقاتلوا، وأنا مقيمٌ بين أظهرهم وآمرهم بما أمرهم الله به، وأنهاهم عمّا نهاهم الله عنه، وأعلّمهم معالم الإسلام وسنّة النبى ﷺ حتى يكتب إلىّ رسول الله، والسلام عليكم يارسول الله ورحمة الله وبركاته».

فكتب إليه رسول الله ﷺ: «بسم الله الرحمـٰن الرحيم.. من محمد النبى رسول الله إلى خالد بن الوليد: سلام عليك، فإنى أحمد الله إليك الذى لا إلـه إلا هو؛ أمّا بعد: فإنّ كتابك جاءنى مع رسلك بخبر أنّ بنى الحارث قد أسلموا قبل أن يقاتلوا، وأجابوا إلى مادعوتهم إليه من الإسلام وشهادة أن لا إلـه إلاّ الله وحده لاشريك له، وأنّ محمدًا عبده ورسوله، وأن قد هداهم الله بهداه، فبشّرهم وأنذرهم، وأقبل وليقبل معك وفدهم؛ والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».

فأقبل خالد بن الوليد إلى رسول الله ﷺ وأقبل معه وفد بلحارث بن كعب؛ فيهم قيس بن الحُصين، ويزيد بن عبد المدَان ويزيد بن المحجَّل، وعبد الله بن قُريظ الزيادىّ، وشداد بن عبد الله القنانى، وعمرو بن عبد الله الضِّبابى.

فلما قدموا على رسول الله فرآهم، قال: من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند؟ قيل: يارسول الله، هؤلاء بنو الحارث بن كعب؛ فلما وقفوا عند رسول الله سلموا عليه، فقالوا: نشهد أنك رسول الله، وأن لا إلـه إلا الله. فقال رسول الله: وأنا أشهد أن لا إلـه إلاّ الله وأنّى رسول الله. ثم قال ﷺ: أنتم الذين إذا زجروا استقدموا! فسكتوا، فلم يراجعه منهم أحد، ثم أعادها رسول

الله الثالثة، فلم يراجعه منهم أحد، ثم أعادها رسولُ الله الرابعة، فقال يزيد بن عبد المدان: نعم يارسول الله، نحن الذين إذا زُجرنا استقدمنا، فقالها أربع مرّات، فقال رسول الله ﷺ: لو أنَّ خالد بن الوليد لم يكتُب إليّ فيكم أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا لألقيت رءوسكم تحت أقدامكم. فقال يزيد بن عبد المدان: أما والله يارسول الله، ماحمدناك ولاحمدنا خالدًا، فقال رسول الله: فمن حمدتم؟ قالوا: حمدنا الله الذى هدانا بك يارسول الله، قال: صدقتم، ثم قال ﷺ: بم كنتم تغلبون مَنْ قاتلكم فى الجاهليةّ؟ قالوا: لم نكن نغلب أحدًا، فقال رسول الله: بلى قد كنتم تغلبون من قاتلكم، قالوا: يارسول الله، كنا نغلب مَنْ قاتلنا، أنَّا كنَّا بنى عبيد، وكنا نجتمع ولانتفرق، ولانبدأ أحدًا بظلم، قال: صدقتم. ثم أمَّر رسول الله على بلحارث بن كعب قيس بن الحُصين. فرجع وفد بلحارث إلى قومهم فى بقية شوّال أو فى صدر ذى القعدة، فلم يمكثوا بعد أن قدموا إلى قومهم إلاّ أربعة أشهر، حتى توفّى رسول الله ﷺ.

وكان رسول الله ﷺ بعث إلى بنى الحارث بن كعب بعد أن ولَّى وفدهم عمرو بن حزم الأنصارى، ثم أحد بنى النجار ليفقههم فى الدين ويعلمهم السُّنة ومعالم الإسلام، ويأخذ منهم صدقاتهم، وكتب له كتابا عهد إليه فيه، وأمره فيه بأمره: «بسم الله الرحمـٰن الرحيم. هذا بيان من الله ورسوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُود** ﴾[1]، عقدٌ من محمد النبى لعمرو بن حزْم حين بعثه إلى اليمن، أمره بتقوى الله فى أمره كله، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأمره أن يأخذ بالحقّ كما أمر به الله، وأن يبشّر الناس بالخير، ويأمرهم به، ويعلم الناس القرآن، ويفقّههم فى الدين، وينهى الناس، ولايمس أحد القرآن إلاّ وهو طاهر، ويخبر الناس بالذى لهم؛ وبالذى عليهم، ويلين للناس فى الحقّ، ويشتدّ عليهم فى الظلم؛ فإن الله ـ عزّ وجلّ ـ كره الظلم ونهى

(١) المائدة : ١ .

عنه وقال: ﴿ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾[1].. ويبشر الناس بالجنة وبعملها، وينذر بالنار وبعملها، ويستألف الناس حتى يتفقهوا فى الدين، ويعلم الناس معالم الحجّ وسنّته وفريضته، وما أمر الله به فى الحجّ الأكبر والحجّ الأصغر، وهو العُمْرة، وينهى الناس أن يصلى أحد فى ثوب واحد صغير، إلاّ أن يكون ثوبًا واحدًا يثنى طرفه على عاتقه، وينهى أن يحتبى أحدٌ فى ثوب واحد يفضى بفرجه إلى السَّماء، وينهى ألاَّ يعقص أحد شعر رأسه إذا عفا فى قفاه، وينهى إذا كان بين الناس هَيْجٌ عن الدعاء إلى القبائل والعشائر، وليكن دعاؤهم إلى الله وحده لاشريك له؛ فمن لم يدع إلى الله ودعا إلى القبائل والعشائر فليقطعوا بالسيف حتى يكون دعاؤهم إلى الله وحده لاشريك له، ويأمر الناس بإسباغ الوضوء يغسلون وجوههم وأيديهم إلى المرافق وأرجلهم إلى الكعبين، ويمسحون برءوسهم كما أمرهم الله ـ عزّ وجلّ ـ وأمره بالصلاة لوقتها، وإتمام الركوع والخشوع، ويغلّس بالفجر، ويهجِّر بالهاجرة حين تميل الشمس، وصلاة العصر والشمس فى الأرض مدبرة، والمغرب حين يقبل الليل، لاتؤخَّر حتى تبدو النجوم فى السماء، والعشاء أوّل الليل، ويأمر بالسَّعى إلى الجمعة إذا نودى لها، والغُسل عند الرواح إليها، وأمره أن يأخذ من المغانم خمس الله وماكتب على المؤمنين فى الصدقة من العقار عُشر ما سقى البعل وماسقت السّماء، ممّا سقى الغرب نصف العشر، وفى كل عشْر من الإبل شاتان، وفى كل عشرين من الإبل أربع شياه، وفى كل أربعين من البقر بقرة، وفى كل ثلاثين من البقر تبيع جذعٌ أو جذعةٌ، وفى كل أربعين من الغنم سائمة شاةٌ؛ فإنما فريضة الله التى افترض الله ـ عزّ وجلّ ـ على المؤمنين فى الصدقة، فمن زاد خيرًا فهو خيرٌ له، وأنه من أسلم من يهودى أو نصرانى إسلامًا خالصًا من نفسه، ودان دين الإسلام فإنه من المؤمنين، له مثل مالهم وعليه مثل ما عليهم؛ ومن كان على نصرانيّته أو يهوديته فإنه لايفتن عنها، وعلى كل حالم ذكر أو أنثى، حرّ أو عبد،

---

(1) هود : ١٨ .

دينار واف أو عَرْضه[1] ثيابًا؛ فمن أدّى ذلك؛ فإن له ذمّة الله وذمّة رسوله، ومن منع ذلك فإنه عدوٌّ لله ولرسوله وللمؤمنين جميعا».

وقال الواقدىّ: توفىّ رسول الله ﷺ وعمرو بن حزم عامله بنجران.

وفى هذه السنة قدم وفد سلامان فى شوال على رسول الله ﷺ وهم سبعة نفر، رأسهم حبيب السلامانى.

وفيها قدم وفد غسان فى رمضان.

وفيها قدم وفد غامد فى رمضان.

قدوم وفد الأزد

وعن عبد الله بن أبى بكر، قال: قدم على رسول الله ﷺ صُرد بن عبد الله الأزدى فأسلم فحسن إسلامه، فى وفدٍ من الأزد، فأمّره رسول الله على من أسلم من قومه، وأمره أن يجاهد بمن أسلم من أهل بيته المشركين من قبائل اليمن، فخرج صرد يسير بأمر رسول الله فى جيش حتى نزل بِجُرَش؛ وهى يومئذ مدينة مغلقة، وفيها قبائل اليمن، وقد ضَوَتْ إليهم خَثْعَم، فدخلوا معهم حين سمعوا بمسير المسلمين، فحاصروهم بها قريبًا من شهر، وامتنعوا منهم فيها، ثم إنه رجع عنهم قافلاً؛ حتى إذا كان إلى جبل يقال له «كشر»[2] ظنّ أهل جرش أنه إنما ولى عنهم منهزمًا؛ فخرجوا فى طلبه؛ حتى إذا أدركوه عطف عليهم فقتلهم قتلاً؛ وقد كان أهل جرش قد بعثوا رجلين منهم إلى رسول الله ﷺ وهو بالمدينة يرتادان وينظران؛ فبينا هما عند رسول الله عشيّةً بعد العصر، إذ قال رسول الله ﷺ: بأىّ بلاد الله شكْر؟ فقام الجرشيان فقالا: يارسول الله، ببلادنا جبلٌ يقال له كشر، وكذلك تسميه أهل جرش، فقال: إنَّه ليس بكشر، ولكنه «شكر». قالا: فما له يارسول الله؟ قال: إنَّ بُدْنَ الله لَتُنْحَر عنده الآن. قال: فجلس الرّجلان إلى أبى بكر وإلى عثمان، فقال لهما: ويحكما! إن رسول الله لينعى لكما قومكما ـ أى: يخبركما بقتلهم ـ فقوما إلى رسول الله فاسألاه أن

(١) وفى رواية ابن هشام: «أو عوضه» بالواو.

(٢) وفى رواية «شكْر»، وكلاهما وارد.

يدعو الله فيرفع عن قومكما، فقاما إليه فسألاه ذلك، فقال: اللهم ارفع عنهم؛ فخرجا من عند رسول الله راجعين إلى قومهما، فوجدا قومهما أصيبوا يوم أصابهم صرد بن عبد الله فى اليوم الذى قال فيه رسول الله ﷺ ما قال؛ وفى الساعة التى ذكر فيها ماذكر؛ فخرج وفد جرش حتى قدموا على رسول الله ﷺ فأسلموا، وحمى لهم حمى حول قريتهم على أعلام معلومة للفرس، وللراحلة، وللمثيرة تثير الحرث ـ أى: بقرة الحرث ـ فمن رعاها من الناس سوى ذلك فماله سحت، فقال رجل من الأزد فى تلك الغزوة ـ وكانت خثعم تصيب من الأزد فى الجاهلية، وكانوا يغزون فى الشهر الحرام.

سرية على بن أبى طالب إلى اليمن

عن البراء بن عازب، قال: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام، فكنت فيمن سار معه؛ فأقام عليه ستة أشهر لايجيبونه إلى شيء، فبعث النبيّ ﷺ عليّ بن أبى طالب، وأمره أن يُقْفِلَ خالدًا ومن معه، فإن أراد أحد ممن كان مع خالد بن الوليد أن يعقب معه تركه. قال البراء: فكنت فيمن عقّب معه، فلمّا انتهينا إلى أوائل اليمن، بلغ القوم الخبر، فجمعوا له، فصلىّ بنا علىٌّ الفجر، فلمّا فرغ صفّنا صفـًّا واحدًا، ثم تقدم بين أيدينا، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ فأسلمت همدان كلها فى يوم واحد، وكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ فلما قرأ كتابه خرَّ ساجدًا، ثم جلس، فقال: السلام على همدان، السلام على همدان! ثم تتابع أهل اليمن على الإسلام.

قدوم وفد زبيد

عن عبد الله بن أبى بكر، قال: قدم على رسول الله ﷺ عمرو بن معدِ يكرب فى أناس من بنى زبيد، فأسلم، وكان عمرو بن معدِ يكرب قد قال لقيس بن مكشوح المرادىّ حين انتهى إليهم أمر رسول الله: ياقيس؛ إنك سيد قومك اليوم؛ وقد ذكر لنا أنّ رجلاً من قريش يقال له محمد قد خرج بالحجاز يقول:

إنّى نبى، فانطلق بنا إليه حتى نعلم علمه، فإن كان نبيًّا كما يقول؛ فإنه لايخفى عليك إذا لقيناه اتبعناه، وإن كان غير ذلك علمنا علمه، فأبى عليه ذلك قيس بن مكشوح وسفه رأيه.

فركب عمرو حتى قدم على رسول الله ﷺ فصدّقه وآمن به، فلما بلغ ذلك قيسًا أوْعد عمْرًا، وتحفّظ عليه - أى: اشتد - وقال: خالفنى وترك رأيى! فقال عمرو فى ذلك:

أمــرتُكَ يــوم ذى صنعــا ... ءَ أمْــرًا باديــًا رَشَــدُهْ
أمــرتك باتّقــاء اللــ ... ـه والمعــروف تاتعــدُهْ
خـرجت مـن المنَى مثل الـ ... ـحمـار أعــارَهُ وَتَــدُهْ
تمنــانى عــلى فَــرَسٍ ... عليــه جالســًا أَسَــدُهْ
فلــو لاقَيْتَــنِى لاقيــ ... ـت ليثــًا فوقــه لِبَـدُهْ
....
فــلا تَتَمَنَّنِــى وتمــنَّ ... غيــرى لَيِّنــًا كَتَــدُهْ

فأقام عمرو بن معد يكرب فى قومه من بنى زبيد؛ وعليهم فروة بن مسيك المرادى، فلما توفى رسول الله ﷺ ارتد عمرو فقال حين ارتد:

وَجَدْنَا مُلْكَ فَرْوَةَ شَرَّ مُلْك ... حمارًا سافَ مُنْخُره بِقَـذْرِ(١)
وكنــتَ إذا رأَيْــتَ أبــا عُمَـيْرٍ ... تَرى الحُوَلاءَ مِنْ خُبْثٍ وغَدْرِ(٢)

قدوم فروة بن مسيك المرادى

وعن عبد الله بن أبى بكر، قال: قدم فروة بن مسيك المرادىّ على رسول الله ﷺ مفارقًا لملوك كندة، ومعاندًا لهم؛ وقد كان قبيل الإسلام بين مراد وهمدان وقعة أصابت فيها همدان من مراد ما أرادوا؛ حتى أثخنوهم - أى: أكثروا القتل

(١) ساف: شَمَّ

(٢) الحولاء: جلدة الوليد، ذات ماء أخضر.

صنيعة أصحابه، وذلك الذى يريد رسول الله، فلما انتهى إلى اليمامة ارتد عدو الله وتنبأ وتكذب، وقال: إنى قد أشركت فى الأمر معه؛ ثم جعل يسجع السجعات، ويقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن: «لقد أنعم الله على الحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق - ما رقّ من البطن - وحشى»، ووضع عنهم الصلاة؛ وأحَلّ لهم الخمر والزنى، ونحو ذلك. فشهد لرسول الله ﷺ أنه نبى، فأصفقت - أى: أجمعت - بنو حنيفة على ذلك، فالله أعلم أى ذلك كان.

قدوم الأشعث بن قيس فى وفد كندة

قدم على رسول الله ﷺ الأشعث بن قيس فى ستين راكبًا من كندة، فدخلوا على رسول الله مسجده، وقد رَجَّلُوا جُمَمَهُمْ - أى: مشطوا شعر نواصيهم الذى يصل إلى المنكبين - وتكحلوا، عليهم جُبَبُ الحبرة؛ قد كَفَّفُوهَا بالحرير - أى: جعلوا لها سجفًا من الحرير - فلمَّا دخلوا على رسول الله ﷺ قال: ألم تسلموا؟ قالوا: بلى، قال: فما بال هذا الحرير فى أعناقكم؟.. فشقوه منها فألقوه، ثم قال الأشعث: يارسول الله؛ نحن بنو آكل المرار، وأنت ابن آكل المُرار - أى: الحارث بن عمرو بن حجر - فتبسم رسول الله، ثم قال: ناسبوا بهذا النسب العباس بن عبد المطلب وربيعة بن الحارث.. وكان ربيعة والعباس تاجرين؛ فكانا إذا ساحا فى أرض العرب فسئلا من هما، قالا: نحن بنو آكل المُرار، يتعززان بذلك، وذلك أن كندة كانت ملوكًا، فقال رسول الله ﷺ: نحن بنو النضر بن كنانة لانَقْفُو أُمَّنَا - أى: لانتبع نسب أمنا -.. وذلك لأن فى جدات النبى ﷺ كما قال السهيلى - مَنْ هى مِنْ هذا القبيل - و لانتفى من أبينا. فقال الأشعث ابن قيس: هل عرفتم يامعشر كندة! والله لا أسمع رجلا قالها بعد اليوم إلاَّ ضربته حدَّه ثمانين.

* * *

قال الواقدى: وفيها قدم وفد محارب.

وفيها وفد العاقب والسيّد من نجران، فكتب لهما رسول الله ﷺ كتاب الصلح.

وفيها قدم وفد عَبْس.

وفيها قدم وفد صَدِف، وافوا رسول الله ﷺ فى حجة الوداع.

وفيها قدم عدىٌّ بن حاتم الطائى، فى شعبان.

وفيها مات أبو عامر الراهب عند هرقل، فاختلف كنانة بن عبد ياليل وعلقمة ابن علاثة فى ميراثه، فقضى به لكنانة بن عبد ياليل. قال: هما من أهل المدر، وأنت من أهل الوبر.

قدوم رفاعة بن زيد الجذامى

قدم على رسول الله ﷺ فى هدنة الحديبية قبل خيبر رفاعة بن زيد الجذامّى ثم الضبيبى، فأهدى لرسول الله غلامًا، فأسلم وحسن إسلامه، وكتب له رسول الله إلى قومه كتابًا، فى كتابه: بسم الله الرحمـٰن الرحيم؛ هذا كتاب من محمد رسول الله لرفاعة بن زيد؛ إنّى بعثته إلى قومه عامّة ومن دخل فيهم، يدعوهم إلى الله وإلى رسوله، فمن أقبل فمن حزب الله وحزب رسوله، ومن أدبر فله أمان شهرين. فلما قدم رفاعة على قومه، أجابوا وأسلموا، ثم ساروا إلى الحرة؛ حَرّة الرجلاء فنزلوها.

ولم يلبث أن أقبل دحية بن خليفة الكلبى من عند قيصر صاحب الروم، حين بعثه رسول الله ومعه تجارة له؛ حتى إذا كان بوادٍ من أوديتها يقال له شنار؛ أغار على دحية الهنيد بن عوص وابنه عوص بن الهُنيد، الضليعيان ـ والضليع بطن من جذام ـ فأصابا كل شىء كان معه.

فبلغ ذلك نفرًا من بنى الضبيب قوم رفاعة ممن كان أسلم وأجاب، فنفروا إلى الهنيد وابنه، فيهم من بنى الضبيب النعمان بن أبى جعال، حتى لقوهم، فاقتتلوا، وانتمى يومئذ قرة بن أشقر الضفارى ثم الضليعى، فقال: أنا ابن لبنى،

ورمى النعمان بن أبى جعال بسهم فأصاب ركبته، فقال حين أصابه: خذها وأنا ابن لُبنى ـ وكانت له أمٌّ تدعى لبنى. . . وقد كان حسّان بن مَلَّة الضبيبىّ قد صحب دحية بن خليفة الكلبى قبل ذلك؛ فعلّمه أمَّ الكتاب، فاستنقذوا ماكان فى يد الهنيد وابنه عوص، فردّوه على دحية، فسار دحية حتى قدم على رسول الله، فأخبره خبره، واستسقاه دم الهنيد وابنه، فبعث إليهم رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ـ وذلك الذى هاج غزوة زيد جذامًا، وبعث معه جيشًا ـ وقد وجهت غطفان من جذام كلها ووائل ومن كان من سلامان وسعد بن هذيم حين جاءهم رفاعة بن زيد بكتاب رسول الله، فنزلوا بالحرّة؛ حرة الرجلاء. . ورفاعة بن زيد بكراع ربّة ولم يعلم، ومعه ناس من بنى الضبيب وسائر بنى الضبيب بواد من ناحية الحرّة مما يسيل مشرقًا، وأقبل جيش زيد بن حارثة من ناحية الأولاّج، فأغار بالفضافض من قبل الحرّة، وجمعوا ماوجدوا من مال وأناس، وقتلوا الهنيد وابنه ورجلين من بنى الأحنف، ورجلاً من بنى خصيب؛ فلما سمعت بذلك بنو الضبيب والجيش بفيفاء مدان، وركب حسّان بن ملّة على فرس لسُويد بن زيد يقال لها العجاجة، وأنيف بن ملّة على فرس لملّة يقال لها رغال، وأبو زيد بن عمرو على فرس له يقال لها شمر؛ فانطلقوا حتى إذا دنوا من الجيش، قال أبو زيد لأنيف بن ملّة: كفّ عنّا وانصرفْ؛ فإنا نخشى لسانك، فانصرف فوقف عنهما، فلم يبعدا منه، فجعل فرسه تبحث بيدها وتوثب؛ فقال: لأنا أضنُّ بالرجلين منك بالفرسين؛ فأرخى لها حتى أدركهما، فقالا له: أمّا إذ فعلت مافعلت، فكفّ عنا لسانك ولاتشأمنا اليوم، وتواطئوا ألاّ يتكلم منهم إلاّ حسّان ابن ملّة؛ وكانت بينهم كلمة فى الجاهلية قد عرفوها بعضهم من بعض؛ إذا أراد أحدهم أن يضرب بسيفه قال: ثورى.

فلما برزوا على الجيش أقبل القوم يبتدرونهم، فقال حسّان: إنّا قوم مسلمون، وكان أوّل من لقيهم رجُلٌ على فرس أدهم بائع رمحه يقول معرِّضهُ: كأنما ركّزه على منسج فرسه جدّ وأعنق، فأقبل يسوقهم، فقال أنيف: «ثورى»، ! فقال له حسان: مهلاً! فلما وقفوا على زيد بن حارثة قال له حسّان: إنا قوم مسلمون، فقال له زيد: فاقرأ أمّ الكتاب، فقرأها حسَّان، فقال زيد بن حارثة: ناد فى

الجيش، إن الله قد حرّم علينا ثغرة القوم التى جاءوا منها ـ أى ناحيتهم التى جاءوا منها ـ إلاّ من ختر ـ أى: نقض العهد وخان ـ، وإذا أختٌ لحسّان بن ملّة ـ وهى امرأة أبى وبر بن عدىّ بن الضُّبيب ـ فى الأسارى، فقال له زيد: خذها، فأخذت بحقويه ـ أى: خصريه ـ فقالت أمّ الفزر الطليعية: أتنطلقون ببناتكم، وتذرون أمهاتكم! فقال أحد بنى خصيب: إنها بنو الضبيب! وسحرت ألسنتهم سائر اليوم، فسمعها بعض الجيش، فأخبر بها زيد بن حارثة، فأمر بأخت حسّان؛ ففكت يداها من حقويه، فقال لها: اجلسى مع بنات عمك حتى يحكم الله فيكن حكمه؛ فرجعوا؛ ونهى الجيش أن يهبطوا إلى واديهم الذى جاءوا منه، فأمسوا فى أهليهم، واستمتعوا ذودًا ـ أى: انتظروه إلى عتمة الليل ـ لسويد بن زيد، فلما شربوا عتمتهم ـ أى: فى وقت العتمة ـ ركبوا إلى رفاعة بن زيد، وكان ممن ركب إلى رفاعة تلك الليلة أبو زيد بن عمرو، وأبو شماس بن عمرو، وسويد ابن زيد، وبعجة بن زيد، وبرذع بن زيد، وثعلبة بن عمرو، ومخربة بن عدىّ، وأنيف بن ملّة، وحسّان بن ملة، حتى صبحوا رفاعة بن زيد بكراع ربّة بظهر الحرة على بئر هنالك من حرّة ليلى، فقال له حسّان بن ملة: إنك لجالسٌ تحلب المعزى ونساء جذاع يجرون أسارى قد غرها كتابك الذى جئت به! فدعا رفاعة بن زيد بجمل له، فجعل يشكل عليه رحله، وهو يقول: «هل أنت حيٌّ أو تنادى حيًّا».

ثم غدا وهم معه بأميّة بن ضفارة أخى الخصيبى المقتول مبكرين من ظهر الحرّة، فساروا إلى جوف المدينة ثلاث ليال؛ فلمّا دخلوا انتهوا إلى المسجد، ونظر إليه رجلٌ من الناس، فقال لهم: لاتنيخوا إبلكم فتقطع أيديهن، فنزلوا عنها وهنّ قيام، فلما دخلوا على رسول الله ﷺ ورآهم، ألاح ـ أى: أشار ـ إليهم بيده أن تعالوا من وراء الناس؛ فلما استفتح رفاعة بن زيد المنطق قام رجلٌ من الناس، فقال إنّ هؤلاء يانبى الله قومٌ سحرةٌ؛ فرددها مرتين، فقال رفاعة: رحم الله من لم يجزنا فى يومنا هذا إلاّ خيرًا! ثم دفع رفاعة كتابه إلى رسول الله الذى كان كتبه له، فقال: دونك يارسول الله قديمًا كتابه، حديثًا غدره. فقال ﷺ: اقرأ

ياغلام وأعلن؛ فلما قرأ كتابهم واستخبرهم فأخبروه الخبر، قال رسول الله: كيف أصنع بالقتلى؟.. ثلاث مرات؛ فقال رفاعة: أنت يارسول الله أعلم، لا نحرّم عليك حلالاً، ولانُحل لك حرامًا؛ فقال أبو زيد بن عمرو: أطلق لنا يارسول الله من كان حيًّا، ومن كان قد قتل فهو تحت قدميّ هاتين، فقال رسول الله: صدق أبو زيد، اركب معهم ياعليّ، فقال عليّ: يارسول الله؛ إنّ زيدًا لن يطيعنى، قال: خذ سيفى، فأعطاه سيفه، فقال عليّ: ليس لى راحلة يارسول الله أركبها، فحمله رسول الله على جمل لثعلبة بن عمرو، يقال له المكحال؛ فخرجوا، فإذا رسول لزيد بن حارثة على ناقة من إبل أبى وبر يقال لها الشمر، فأنزلوه عنها، فقال: ياعليّ ماشأنى؟ فقال له عليّ: مالهم عرفوه فأخذوه. ثم ساروا حتى لقوا الجيش بفيفاء الفحلتيْن، فأخذوا مافى أيديهم من أموالهم؛ حتى كانوا ينزعون لبَد المرأة من تحت الرّحل.

وفد بنى عامر بن صعصعة

قدم على رسول الله ﷺ وفد بنى عامر؛ فيهم عامر بن الطفيل، وأربد بن قيس، وجبّار بن سلمى، وكان هؤلاء الثلاثة رءوس القوم وشياطينهم.

فقدم عامر بن الطفيل على رسول الله وهو يريد الغدر به؛ وقد قال له قومه: ياعامر؛ إنّ الناس قد أسلموا فأسلم؛ قال: والله لقد كنت آليت ألاّ انتهى حتى تتبع العربُ عَقِبى؛ أفأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش! ثم قال لأربد: إذا قدمت على الرجل فإنى شاغلٌ عنك وجهه؛ فإذا فعلت ذلك فاعْلُهُ بالسيف؛ فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال عامر بن الطفيل: يامحمد خالنى ـ أى: اتخذنى خليلاً ـ قال: لا والله حتى تؤمن بالله وحده. قال: يامحمد خالنى.. وجعل يكلمه فينتظر من أربد ماكان أمره به، فجعل أربد لايحير شيئًا، فلمّا رأى عامر مايصنع أربد، قال: يامحمد خالنى، قال: لا والله حتى تؤمن بالله وحده لاشريك له. فلما أبى عليه رسول الله ﷺ قال: أما والله لأملأنها عليك خيلاً حمرًا ورجالاً، فلما ولىّ قال رسول الله: اللهم اكفنى عامر بن الطفيل، فلما

خرجوا من عند رسول الله قال عامر لأربد: ويلك يا أربد، أين ماكنت أوصيتك به! والله ماكان على ظهر الأرض رجلٌ هو أخوف على نفسى عندى منك، وايم الله لاخافك بعد اليوم أبداً. قال: لاتعجل علىّ لا أبا لك! والله ماهممت بالذى أمرتنى به من مرّة إلاّ دخلت بينى وبين الرجل حتى ما أرى غيرك، أفأضربك بالسيف! قال عامر بن الطفيل:

بَعَثَ الرسولُ بما ترى فكأنما   عَمْدًا نَشنُّ على المقانبِ غارًا
ولقد وَرَدْنَ بنا المدينةَ شُزَّبًا   ولقد قَتَلْنَ بجوِّها الأنصارا

وخرجوا راجعين إلى بلادهم، حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله ـ عزّ وجلّ ـ على عامر بن الطفيل الطاعون فى عنقه فقتله، وإنه فى بيت امرأة من بنى سلول، فجعل يقول: يابنى عامر، أغدة كغدة البكْر، وموت فى بيت امرأة من بنى سلول ـ الغدة: داء يصيب البعير فيهلكه، والبكْر: الفتى من الإبل ـ ثم خرج أصحابه حين واروه حتى قدموا أرض بنى عامر، فلما قدموا أتاهم قومهم، فقالوا: ماوراءك يا أربد؟ قال: لاشىء؛ والله لقد دعانا إلى عبادة شىء لوددت أنه عندى الآن فأرميه بنبلى هذه حتى أقتله؛ فخرج بعد مقالته هذه بيوم أو يومين معه جمل له يبيعه. فأرسل الله عليه وعلى جمله صاعقةً فأحرقتهما. وكان أربد ابن قيس أخا لبيد بن ربيعة لأمه.

قدوم زيد الخيل فى وفد طيّئ

وقدم على رسول الله ﷺ وفد طيّئ؛ فيهم زيد الخيل، وهو سيّدهم، فلما انتهوا إليه كلموه؛ وعرض عليهم الإسلام، فأسلموا فحسن إسلامهم، فقال رسول الله ﷺ: «ماذكر لى رجلٌ من العرب بفضل ثم جاءنى إلاّ رأيته دون مايقال فيه، إلاّ ما كان من زيد الخيل؛ فإنه لم يبلغ فيه كلّ مافيه» ثم سماه زيد الخير، وقطع له فيدًا وأرضين معه؛ وكتب له بذلك، فخرج من عند رسول الله راجعًا إلى قومه، فقال رسول الله: إن ينجُ زيدٌ من حمىً المدينة ـ سماها رسول الله باسم غير الحُمَّى وغير أمٍّ مَلدَم فلم يثبته ـ فلما انتهى

من بلاد نجد إلى ماءٍ من مياهه يقال له فردة أصابته الحمّى؛ فمات بها، فلما أحس زيد بالموت قال:

أَمُرْتَحِلٌ قومى المشارق غُدْوَةً ... وأُتْرَكُ فى بيت بِفَرْدَةَ مُنْجِد

ألا رُبَّ يومٍ لو مَرِضْتُ لعَادَنى ... عوائدُ مَنْ لم يُبْرَ منهن يَجْهَد

فلما مات عمدت امرأته إلى ماكان معها من كتبه التى قطع له رسول الله ﷺ فحرّقتها بالنار.

كتاب مسيلمة إلى رسول الله ﷺ والجواب عنه

وفى هذه السنة كتب مسيلمة إلى رسول الله ﷺ يدّعى أنه أشرك معه فى النبّوة.. عن عبد الله بن أبى بكر، قال: كتب مسيلمة الكذاب يقول: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله.. سلامٌ عليك، فإنّى قد أشركت فى الأمر معك؛ وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشًا قوم يعتدون.

فقدم عليه رسولان بهذا الكتاب.. وعن نعيم بن مسعود، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول لهما حين قرأ كتاب مسيلمة: فما تقولان أنتما؟ قالا: نقول كما قال؛ فقال: أما والله لولا أن الرسُل لاتقتل لضربت أعناقكما. ثم كتب إلى مسيلمة: «بسم الله الرحمن الرحيم؛ من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب.. سلامٌ على من اتبع الهدى؛ أمّا بعد: فإنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين». وكان ذلك فى آخر سنة عشر.. وقد قيل: إنّ دعوى مسيلمة ومن ادّعى النبوّة من الكذابين فى عهد النبىّ ﷺ إنما كانت بعد انصراف النبىّ من حجّه المسمّى حجة الوداع، ومرضته التى مرضها التى كانت منها وفاته ﷺ.

وعن أبى مويهبة مولى رسول الله، قال: لما انصرف النبى ﷺ إلى المدينة بعد ماقضى حجّة التمام، فتحلل به السيرُ، وطارت به الأخبار لتحلّل السير بالنبى ﷺ

أنه قد اشتكى، فوثب الأسود باليمن ومسيلمة باليمامة، وجاء الخبر عنهما للنبيّ، ثم وثب طليحة فى بلاد بنى أسد بعد ما أفاق النبيّ، ثم اشتكى فى المحرم وجعه الذى توفاه الله فيه.

خروج الأمراء والعمال على الصدقات

عن عبد الله بن أبى بكر قال: كان رسول الله ﷺ قد بعث أمراءه وعمّاله على الصدقات، على كل ما أوطأ الإسلام من البلدان، فبعث المهاجرين أبى أميّة إلى صنعاء؛ فخرج عليه العنسيّ وهو بها؛ وبعث زياد بن لبيد أخا بنى بياضة الأنصارى إلى حضرموت على صدقتها، وبعث عديّ بن حاتم على الصدقة، صدقة طيّئ وأسد، وبعث مالك بن نويرة على صدقات بنى حنظلة، وفرّق صدقة بنى سعد على رجلين منهم، وبعث العلاء بن الحضرمى على البحرين، وبعث على بن أبى طالب إلى نجران ليجمع صدقاتهم، ويقدم عليه بجزيتهم.

حجة الوداع

عن عائشة زوج النبى ﷺ قالت: خرج النبى ﷺ إلى الحج لخمس ليال بقين من ذى القعدة، ـ فاستعمل على المدينة أبا دجانة الساعدى، أو سباع بن عرفطة الغفارى ـ لايذكر ولايذكر الناس إلا الحجّ، حتى إذا كان بسرف، وقد ساق رسول الله معه الهدى وأشرافٌ من أشراف الناس، أمر الناس أن يحلّوا بعمرة إلاّ من ساق الهدى، وحضتُ ذلك اليوم؛ فدخل عليّ وأنا أبكى؛ فقال: مالك ياعائشة؟ لعلك نفست! فقلت: نعم، لوددت أنّى لم أخرج معكم عامى هذا فى هذا السفر، قال: لاتفعلى، لاتقولين ذلك، فإنك تقضين كل مايقضى الحاج، إلاّ أنك لاتطوفين بالبيت. قالت: ودخل رسول الله ﷺ مكة، فحلّ كل من كان لاهَدْيَ له، وحلّ نساؤه بعمرة؛ فلما كان يوم النحر أتيت بلحم بقر كثير فطرح فى بيتى، قالوا: ذبح رسول الله عن نسائه البقر؛ حتى إذا كانت ليلة الحصبة، بعثنى رسول الله مع أخى عبد الرحمـٰن بن أبى بكر لأقضى عمرتى من التنعيم مكان عمرتى التى فاتتنى.

وعن ابن أبى نجيح، قال: بعث رسول الله ﷺ علىّ بن أبى طالب إلى نجران، فلقيه بمكة وقد أحرم، فدخل علىٌّ على فاطمة ابنة رسول الله، فوجدها قد حلت وتهيأت، فقال: مالك يابنة رسول الله؟ قالت: أمرنا رسول الله أن نحلّ بعمرة، فأحللنا، قال: ثم أتى رسول الله، فلما فرغ من الخبر عن سفره، قال له رسول الله: انطلق فطُف بالبيت، وحلّ كما حلّ أصحابك، فقال: يارسول الله؛ إنى قد أهللت بما أهللت به؛ قال: ارجع فاحلل كما حلّ أصحابك، قلت: يارسول الله، إنى قلت حين أحرمت: اللهم إنى أهللت بما أهلّ به عبدك ورسولك؛ قال: فهلْ معك من هدْى؟ قلت: لا.. فأشركه رسول الله ﷺ فى هَدْيه وثبت على إحرامه مع رسول الله حتى فرغا من الحجّ، ونحر رسول الله الهَدْى عنهما.

وعن يزيد بن طلحة، قال: لمّا أقبل علىٌّ بن أبى طالب من اليمن ليلقى رسول الله بمكة تعجّل إلى رسول الله، واستخلف على جنده الذين معه رجلاً من أصحابه، فعمد ذلك الرجل فكسا رجالاً من القوم حُللاً من البزّ الذى كان مع علىّ بن أبى طالب؛ فلمّا دنا جيشه، خرج علىّ ليلقاهم؛ فإذا هم عليهم الحُلل، فقال: ويحك ماهذا! قال: كسوْت القوم ليتجمّلوا به إذا قدموا فى الناس، فقال: ويلك! انزعْ من قبل أن تنتهى إلى رسول الله.. فانتزع الحُلل من الناس، وردّها فى البزّ؛ وأظهر الجيش شكاية لما صنع بهم.

وعن أبى سعيد، قال: شكا الناس علىّ بن أبى طالب، فقام رسول الله فينا خطيبًا، فسمعته يقول: يا أيها الناس لاتشكُو عليًّا، فوالله إنه لأخشى فى ذات الله - أو فى سبيل الله - من أن يشكى. ثم مضى رسول الله ﷺ على حجّه؛ فأرى الناس مناسكهم، وأعلمهم سنن حجّهم، وخطب الناس خطبته التى بيّن للناس فيها مابيّن، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«أيها الناس، اسمعوا قولى؛ فإنّى لا أدرى لعلى لاألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدًا، أيها الناس: إنّ دماءكم وأموالكم عليكم حرام، إلى أن تلقواْ ربّكم

كحرمة يومكم هذا، وحرمة شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم. وقد بلغتُ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدّها إلى من ائتمنه عليها. وإنّ كلّ رِبًا موضوع، ولكم رءوس أموالكم، لاتظلمون ولاتُظلمون. قضى الله أنه لا ربا. وإنّ ربا العباس بن عبد المطلب موضوعٌ كله، وإنّ كل دم كان فى الجاهلية موضوع، وإنّ أوّل دم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب - وكان مسترضعًا فى بنى ليث، فقتلته بنو هذيل - فهو أوّل ما أبدأ به من دماء الجاهلية.

أيها الناس، إن الشيطان قد يئس من أن يُعْبَدَ بأرضكم هذه أبدا؛ ولكنه رضى أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تحقّرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم.

أيها الناس: ﴿ **إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ** ﴾[1]، ويحرموا ما أحل الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض؛ و ﴿ **إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ** ﴾[2]، ثلاثة متوالية؛ ورجب مُضر الذى بين جمادى وشعبان.

أما بعد أيها الناس: فإن لكم على نسائكم حقًّا ولهن عليكم حقًّا، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، وعليهن ألاّ يأتين بفاحشة مبيِّنة؛ فإن فعلن فإنّ الله أذن لكم أن تهجروهنّ فى المضاجع، وتضربوهن ضربًا غير مبرِّح، فإن انتهين فلهنّ رزقهنّ وكسوتهن بالمعروف. واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنّهن عندكم عَوانٍ - جمع عانية وهى الأسيرة - لايملكن لأنفسهنّ شيئًا، وإنكم إنّما أخذتموهنّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله؛ فاعقلوا أيها الناس

(١) التوبة : ٣٧.

(٢) التوبة : ٣٦.

واسمعوا قولى؛ فإنّى قد بلغت وتركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا: كتاب الله وسنة نبيه.

أيها الناس: اسمعوا قولى فإنى قد بلغت، واعقلوه. تعلمُنَّ أن كلّ مسلم أخو المسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحلّ لامرئ من أخيه إلاّ ما أعطاه عن طيب نفس؛ فلا تظلموا أنفسكم. اللهمّ هل بلغتُ! قال: فذكر أنهم قالوا: اللهم نعم، فقال رسول الله: اللهم فاشهد».

وعن عباد بن عبد الله بن الزُّبير، قال: كان الذى يصرخ فى الناس بقول رسول الله وهو على عرفة: ربيعة بن أميّة بن خلف، قال: يقول له رسول الله: قل أيها الناس؛ إنّ رسول الله يقول: هل تدرون أى شهر هذا! فيقولون: الشهر الحرام، فيقول: قل لهم: إن الله قد حرّم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربَّكم كحرمة شهركم هذا. ثم قال: قل: إنّ رسول الله يقول: أيها الناس؛ فهل تدرون أى بلد هذا؟ قال: فيصرخُ به، فيقولون: البلد الحرام، قال: فيقول: قل: إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة بلدكم هذا. ثم قال: أيها الناس، هل تدرون أىّ يوم هذا؟ فقال لهم، فقالوا: يوم الحجّ الأكبر. فقال: قل: إن الله حرّم عليكم أموالكم ودماءكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا.

وحين وقف رسول الله بعرفة، قال: هذا الموقف ـ للجبل الذى هو عليه ـ وكل عرفة موقف. وقال حين وقف على قزح صبيحة المزدلفة: هذا الموقف، وكل المزدلفة موقف. ثم لما نحر بالمنحر قال: هذا المنحر، وكل منىً منحرٌ؛ فقضى رسول الله ﷺ الحجّ وقد أراهم مناسكهم، وعلمهم ما افترض عليهم فى حجّهم فى المواقف ورمى الجمار والطواف بالبيت، وما أحلّ لهم فى حجهم وماحرّم عليهم، فكانت حجّة الوداع وحجة البلاغ؛ وذلك أن رسول الله لم يحجّ بعدها.

ذكر جملة الغزوات

قال أبو جعفر: وكانت غزواته بنفسه ستًا وعشرين غزوة؛ ويقول بعضهم: هنّ سبع وعشرون غزوة؛ فمن قال: هى ستٌ وعشرون، جعل غزوة النبى ﷺ خيبر وغزوته من خيبر إلى وادى القرى غزوة واحدة، لأنه لم يرجع من خيبر حين فرغ من أمرها إلى منزله؛ ولكنه مضى منها إلى وادى القرى، فجعل ذلك غزوة واحدة. ومن قال: هى سبع وعشرون غزوة، جعل غزوة خيبر غزوة، وغزوة وادى القرى غزوة واحدة؛ فيجعل العدد سبعًا وعشرين.

وهى غزوات: وَدّان وتسمّى غزوة الأبواء، ثم غزوة بواط إلى ناحية رضوى، ثم غزوة العشيرة من بطن ينبع، ثم غزوة بدر الأولى يطلب كرز بن جابر، ثم غزوة بدر الكبرى التى قتل فيها صناديد قريش وأشرافهم، وأسر فيها من أسر، ثم غزوة بنى سليم حتى بلغ الكدر، ماء لبنى سليم، ثم غزوة السويق يطلب أبا سفيان حتى بلغ قرقرة الكدْر، ثم غزوة غطفان إلى نجد، وهى غزوة ذى أمَر؛ ثم غزوة بحران: معدن بالحجاز من فوق الفُروع، ثم غزوة أحُد، ثم غزوة حمراء الأسد، ثم غزوة بنى النضير، ثم غزوة ذات الرقاع من نخل، ثم غزوة بدر الآخرة، ثم غزوة دومة الجندل، ثم غزوة الخندق، ثم غزوة بنى قريظة، ثم غزوة بنى لحيان من هذيل، ثم غزوة ذى قرد، ثم غزوة بنى المصطلق من خزاعة، ثم غزوة الحديبية - لايريد قتالاً، فصدّه المشركون - ثم غزوة خيبر؛ ثم اعتمر عُمرة القضاء، ثم غزوة الفتح: فتح مكة، ثم غزوة حنين، ثم غزوة الطائف، ثم غزوة تبوك، قاتل منها فى تسع غزوات: بدر، وأحُد، والخندق، وقريظة، والمصطلق، وخيبر، والفتح، وحُنين، والطائف.

ذكر جملة السرايا والبعوث

واختلف فى عدد سراياه ﷺ عن عبد الله بن أبى بكر، قال: كانت سرايا رسول الله وبعوثه - فيما بين أن قدم المدينة وبين أن قبضه الله - خمسًا وثلاثين بعثًا وسريّة: سريّة عبيدة بن الحارث إلى أحياء من ثنيّة المرة، وهو ماء بالحجاز،

ثم غزوة حمزة بن عبد المطلب إلى ساحل البحر من ناحية العيص - وبعض الناس يقدم غزوة حمزة قبل غزوة عبيدة - وغزوة سعد بن أبى وقّاص إلى الخرار من أرض الحجاز، وغزوة عبد الله بن جحش إلى نخلة، وغزوة زيد بن حارثة القردة: ماء من مياه نجد، وغزوة مرثد بن أبى مرثد الغنوى، وغزوة المنذر بن عمرو بئر معونة، وغزوة أبى عبيدة بن الجرّاح إلى ذى القصة من طريق العراق، وغزوة عمر بن الخطاب تربة من أرض بنى عامر، وغزوة علىّ بن أبى طالب اليمن، وغزوة غالب بن عبد الله الكلبى - كلب ليث - الكديد وأصاب بلملوّح، وغزوة على بن أبى طالب إلى بنى عبد الله بن سعد من أهل فدك، وغزوة ابن أبى العوجاء السُّلمى أرض بنى سليم؛ أصيب بها هو وأصحابه جميعًا، وغزوة عكاشة بن محصن الغمرة، وغزوة أبى سلمة بن عبد الأسد قطنًا: ماء من مياه بنى أسد من ناحية نجد قتل فيها مسعود بن عروة، وغزوة بشير بن سعد إلى بنى مُرّة بفدك، وغزوة بشير بن سعد - أيضًا - إلى يمن وجناب: بلد من أرض خيبر وقيل يمن وجبار: أرض من أرض خيبر، وغزوة زيد بن حارثة الجموم من أرض بنى سليم، وغزوة زيد بن حارثة أيضًا جُذام من أرض حِسْمَى - وقد مضى ذكر خبرها قبل - وغزوة زيد بن حارثة - أيضًا - وادى القرى، لقى بنى فزارة. وغزوة عبد الله بن رواحة خيبر مرتين! إحداهما التى أصاب الله فيها يسير بن رزام (وكان من حديث يسير بن رزام اليهودى أنه كان بخيبر يجمع غطفان لغزو رسول الله ﷺ، فبعث إليه رسول الله عبد الله بن رواحة فى نفر من أصحابه، منهم عبد الله بن أنيس حليف بنى سلمة، فلما قدموا عليه كلموه وواعدوه وقربوا له، وقالوا له: إنك إن قدمت على رسول الله استعملك وأكرمك؛ فلم يزالوا به حتى خرج معهم فى نفر من يهود، فحمله عبد الله بن أنيس على بعيره وردفه، حتى إذا كان بالقرقرة من خيبر على ستة أميال ندم يسير بن رزام على سيره إلى رسول الله، ففطن له عبد الله بن أنيس وهو يريد السَّيف؛ فاقتحم به، ثم ضربه بالسيف فقطع رجله، وضربه يسير بمخرش - عصا معقوفة يجذب بها البعير ونحوه - فى يده من شوحط - أى: شجر النبع - فأمّه - جرحه - فى رأسه، وقتل

الله يسيرًا، ومال كل رجل من أصحاب رسول الله ﷺ على صاحبه من يهود فقتله، إلاّ رجلاً واحدًا أفلت على راحلته؛ فلما قدم عبد الله بن أنيس على رسول الله ﷺ تفل على شجته فلم تقح ولم تؤذه).

وغزوة عبد الله بن عتيك إلى خيبر؛ فأصاب بها أبا رافع، وقد كان رسول الله بعث محمد بن مسلمة وأصحابه ـ فيما بين بدر وأحد ـ إلى كعب بن الأشرف فقتلوه، وبعث رسول الله ﷺ ابن أنيس إلى خالد بن سفيان بن نبيح الهذلى وهو بنخلة أو بعرنة ـ يجمع لرسول الله ليغزوه ـ فقتله.

وغزوة زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة إلى مؤتة من أرض الشام، وغزوة كعب بن عمير الغفارى بذات أطلاح من أرض الشام، فأصيب بها هو وأصحابه، وغزوة عيينة بن حصن بنى العنبر من بنى تميم، وكان من حديثهم أن رسول الله ﷺ بعثه إليهم؛ فأغار عليهم؛ فأصاب منهم ناسًا، وسبى منهم سبيًا، وكان ممن سبى من نسائهم أسماء بنت مالك، وكأس بنت أرىّ، ونجوة بنت نهد، وجميعة بنت قيس، وعمرة بنت مطر.

وغزوة غالب بن عبد الله الكلبى ـ كلب ليث ـ أرض بنى مُرة؛ فأصاب بها مرداس بن نهيك؛ حليفًا لهم من الحرقة من جهينة، قتله أسامة بن زيد ورجل من الأنصار، وهو الذى قال فيه النبى ﷺ لأسامة: مَنْ لك بلا إلـه إلاّ الله! وغزوة عمرو بن العاص ذات السلاسل، وغزوة ابن أبى حدرد وأصحابه إلى بطن إضم، وغزوة ابن أبى حدرد الأسلمى إلى الغابة، وغزوة عبد الرحمـٰن بن عوف.

وبعث سرية إلى سيف البحر، وعليهم أبو عبيدة بن الجراح، وهى غزوة الخَبَط.

أما محمد بن عمر فقال: كانت سرايا رسول الله ﷺ ثمانيًا وأربعين سرية.

وقال الواقدى: فى هذه السنة قدم جرير بن عبد الله البجلى على رسول الله ﷺ مُسلمًا فى رمضان، فبعثه رسول الله ﷺ إلى ذى الخلصة فهدمها.

وفيها قدم وبر بن يحنس على الأبناء باليمن يدعوهم إلى الإسلام، فنزل على بنات النعمان بن بُزرج فأسلمن.

وبعث إلى فيروز الديلمى فأسلم، وإلى مركبود وعطاء ابنه، ووهب بن منبّه، وكان أول من جمع القرآن بصنعاء ابنه عطاء بن مركبود ووهب بن منبه.

وفيها أسلم باذان، وبعث إلى النبى ﷺ بإسلامه.

وقال أبو جعفر: وقد خالف فى ذلك عبد الله بن أبى بكر من قال: كانت مغازى رسول الله ﷺ ستًّا وعشرين غزوة، من أنا ذاكره:

عن زيد بن أرقم، قال: سمعت منه أن رسول الله غزا تسع عشرة غزوة، وحجّ بعد ما هاجر حجّة، لم يحجّ غير حجّة الوداع. وذكر ابن إسحاق حجّة بمكة.

قال أبو إسحاق: فسألت زيد بن أرقم: كم غزوت مع رسول الله؟ قال سبع عشرة غزوة، قلت: كم غزا رسول الله ﷺ؟ قال: تسع عشرة غزوة. فقلت: فما أول غزوة غزا؟ قال: ذات العُسير - أو العشير.

وزعم الواقدى أن هذا عندهم خطأ، قال: عن أبى إسحاق الهمدانى، قال: قلت لزيد بن أرقم: كم غزوت مع رسول الله ﷺ؟ قال: سبع عشرة غزوة، قلت: كم غزا رسول الله؟ قال: تسع عشرة غزوة.

قال الواقدى: فحدّثت بهذا الحديث عبد الله بن جعفر، فقال: هذا إسناد أهل العراق؛ يقولون هكذا؛ وأوّل غزوة غزاها زيد بن الأرقم المريسيع؛ وهو غلام صغير، وشهد مؤتة رديف عبد الله بن رواحة؛ وما غزا مع النبى ﷺ إلا ثلاث غزوات أو أربعًا.

ذكر الخبر عن حج رسول الله ﷺ

عن جابر، قال: حجّ النبىّ ﷺ ثلاث حجج.. حجتين قبل أن يهاجر، وحجة بعد ما هاجر، معها عُمرة.

وعن ابن عمر، قال: اعتمر رسول الله ﷺ عمرتين قبل أن يحج، فبلغ ذلك عائشة، فقالت: اعتمر رسول الله أربع عمرٍ؛ قد علم ذلك عبد الله بن عمر، منهنّ عُمرة مع حجته. كما ثبت أنه ﷺ ما اعتمر فى رجب.

ذكر الخبر عن أزواج رسول الله ﷺ

ومن منهنّ عاش بعده، ومن منهنّ فارقه فى حياته، والسبب الذى فارقه من أجله، ومن منهن مات قبله:

عن هشام بن محمد، قال: أخبرنى أبى أن رسول الله ﷺ تزوّج خمس عشرة امرأة؛ دخل بثلاث عشرة، وجمع بين إحدى عشرة، وتوفى عن تسع.

تزوّج فى الجاهلية وهو ابن بضع وعشرين سنة خديجة بنت خويلد؛ وهى أول من تزوّج، وكانت قبله عند عتيق بن عابد، وأمّها فاطمة بنت زائدة بن الأصم. فولدت لعتيق جارية، ثم توفّى عنها، وخلف عليها أبو هالة بن زرارة، وهو فى بنى عبد الدار بن قصىّ، فولدت لأبى هالة هند ابن أبى هالة، ثم توفِّى عنها فخلف عليها رسول الله، وعندها ابنُ أبى هالة هند، فولدت لرسول الله ثمانية: القاسم، والطيّب، والطاهر، وعبد الله، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة.

ولم يتزوج رسول الله ﷺ فى حياتها على خديجة حتى مضت لسبيلها؛ فلما توفيت خديجة تزوج رسول الله بعدها؛ فاختلف فيمن بدأ بنكاحها منهن بعد خديجة؛ فقال بعضهم: كانت التى بدأ بنكاحها بعد خديجة قبل غيرها عائشة بنت أبى بكر الصّديق. وقال بعضهم: بل كانت سودة بنت زمعة بن قيس. فأما عائشة فكانت يوم تزوجها صغيرة لاتصلح للجماع؛ وأمّا سودة فإنها كانت امرأة ثيبًا، قد كان لها قبل النبىّ ﷺ زوج، هو السكْران بن عمرو، وكان السكران من مهاجرة الحبشة فتنصّر ومات بها، فخلف عليها رسولُ الله وهو بمكة. ولاخلاف بين جميع أهل العلم بسيرة رسول الله ﷺ أنه بنى بسودة قبل عائشة.

ذكر السبب الذى كان فى خطبة رسول الله ﷺ عائشة وسودة، والرواية الواردة بأولاهما كان عقد عليها رسول الله عقدة النكاح:

عن عائشة، قالت: لمّا توفيّت خديجة، قالت خولة بنت حكيم بن أمية، امرأة عثمان بن مظعون.. وذلك بمكة: أى رسول الله، ألا تزوّج؟ فقال: ومن؟ فقالت: إن شئت بكرًا وإن شئت ثيبًا، قال: فمن البكر؟ قالت: ابنة أحبّ خلق الله إليك، عائشة بنت أبى بكر، قال: ومن الثيب؟ قالت: سودة بنت زمعة، قد آمنت بك واتبعتك على ما أنت عليه، قال: فاذهبى فاذكريهما علىَّ. فجاءت فدخلت بيت أبى بكر، فوجدت أمّ رُومان ـ أم عائشة ـ فقالت: أى أم رومان.. ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة! قالت: وماذاك؟ قالت: أرسلنى رسول الله أخطب عليه عائشة، قالت: وددتُ! انتظرى أبا بكر فإنه آت، فجاء أبو بكر، فقالت: يا أبا بكر، ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة! أرسلنى رسول الله أخطبُ عليه عائشة، قال: وهل تصلح له؟ إنما هى ابنة أخيه! فرجعت إلى رسول الله ﷺ فقالت له ذلك، فقال: ارجعى إليه، فقولى له: أنت أخى فى الإسلام، وأنا أخوك، وابنتك تصلح لى. فأتت أبا بكر فذكرت ذلك له، فقال: انتظرينى حتى أرجع، فقالت أم رومان: إن المطعم بن عدىّ كان ذكرها على ابنه، ولا والله ماوعد شيئًا قطّ فأخلف، فدخل أبو بكر على مطعِم، وعنده امرأته أم ابنه الذى كان ذكرها عليه، فقالت العجوز: يابن أبى قحافة، لعلّنا إن زوّجنا ابننا ابنتك أن تصبئه ـ أى: تردّه عن دينه ـ وتدخله فى دينك الذى أنت عليه! فأقبل على زوجها المطعِم، فقال: ماتقول هذه؟ فقال: إنها تقول ذاك. قال: فخرج أبو بكر، وقد أذهب الله العدَة التى كانت فى نفسه من عدته التى وعدها إياه، وقال لخولة: ادعى لى رسول الله، فدعته فجاء فأنكحه، وهى يومئذ ابنة ست سنين. قالت: ثم خرجتُ فدخلت على سودة فقلت: أى سودة، ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة! قلت: وماذاك؟ قالت: أرسلنى رسول الله يخطبك عليه، فقالت: وددت! ادخلى على أبى فاذكرى له ذلك، وهو شيخ كبير قد تخلّف عن الحج، فدخلتُ عليه، فحييتُه بتحيّة أهل الجاهليّة، ثم قلت:

إن محمد بن عبد الله أرسلني أخطب عليه سودة، قال: كفء كريم، فماذا تقول صاحبته؟ قالت: تحبّ ذلك، قال: ادعيها إليّ، فدعيت له، فقال: أي سودة، زعمت هذه أن محمد بن عبد الله أرسل يخطبك وهو كفء كريم، أفتحبّين أن أزوّجكه؟ قالت: نعم، قال: فادعيه لي، فدعته، فجاء فزوّجه، فجاء أخوها من الحجّ: عبد بن زمعة، فجعل يحثي في رأسه التراب، فقال بعد أن أسلم: إنّي لسفيه يوم أحثي في رأسي التراب أن تزوّج رسول الله سودة بنت زمعة! قالت عائشة: فقدمنا المدينة، فنزل أبو بكر السُّنح في بني الخزرج.. فجاء رسول الله فدخل بيتنا، فاجتمع إليه رجالٌ من الأنصار ونساء، فجاءتني أمّي وأنا في أرجوحة بين عذقين يرجّح بي، فأنزلتني ثم وفّتْ جميمة كانت لي، ومسحت وجهي بشيء من ماء، ثم أقبلت تقودني، حتى إذا كنتُ عند الباب وقفت بي حتى ذهب بعض نفسي، ثم أدخلت ورسول الله جالسٌ على سرير في بيتنا. فأجلستني في حجْره. فقالت: هؤلاء أهلك فبارك الله لك فيهنّ وبارك لهن فيك! ووثب القوم والنساء، فخرجوا، فبنى بي رسول الله ﷺ في بيتي، مانحرت جزورٌ ولاذبحت عليّ شاة، وأنا يومئذ ابنة تسع سنين، حتى أرسل إلينا سعد بن عبادة بجفنة كان يرسل بها إلى رسول الله ﷺ.

وأكمل هشام بن محمد الخبر.... قائلاً: فتوفّي عنها وهي ابنة ثمان عشرة، ولم يتزوج رسول الله بكرًا غيرها، ثم تزوّج رسول الله ﷺ حفصة بنت عمر بن الخطاب ـ وكانت قبله عند خنيس بن حذافة بن قيس، وكان بدريّـًا، شهد بدرًا مع رسول الله ﷺ فلم تلد له شيئًا، ولم يشهد من بني سهم بدرًا غيره.

ثم تزوج رسول الله أمّ سلمة، واسمها هند بنت أبي أمية، وكانت قبله عند أبي سلمة بن عبد الأسد، وشهد بدرًا مع رسول الله ﷺ وكان فارس القوم، فأصابته جراحة يوم أحُد فمات منها، وكان ابن عمة رسول الله ورضيعه، وأمّه بُرّة بنت عبد المطلب، وولدت له عمر، وسلمة، وزينب، ودرّة؛ فلما مات كبَّر رسول الله على أبي سلمة تسع تكبيرات، فلما قيل: يارسول الله، أسهوت أم نسيت؟ قال: لم أسهُ ولم أنسَ، ولو كبَّرت على أبي سلمة ألفًا كان أهلاً لذلك؛

ودعا النبي ﷺ لأبي سلمة بخلفه في أهله، فتزوجها رسول الله قبل الأحزاب سنة ثلاث، وزوّج سلمة بن أبي سلمة ابنة حمزة بن عبد المطلب.

ثم تزوّج ﷺ عام المريسيع جويرية بنت الحارث سنة خمس، وكانت قبله عند مالك بن صفوان، لم تلد له شيئًا، فكانت صفيّة رسول الله ﷺ يوم المريسيع، فأعتقها وتزوّجها وسألت رسول الله عتق مافي يده من قومها، فأعتقهم لها.

ثم تزوّج ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان، وكانت عند عبيد الله بن جحش، وكانت من مهاجرات الحبشة هي وزوجها، فتنصر زوجها وحاولها أن تتابعه، فأبت وصبرت على دينها، ومات زوجها على النصرانية، فبعث ﷺ إلى النجاشي فيها يزوجها منه، ففعل وبعث بها النجاشي إليه.

ثم تزوّج ﷺ زينب بنت جحش، وكانت قبله عند زيد بن حارثة مولى رسول الله، فلم تلد له شيئًا، وفيها أنزل الله عز وجل: ﴿ **وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ** ﴾[1]، إلى آخر الآية، فزوّجها الله ـ عزّ وجلّ ـ إياه، وبعث في ذلك جبريل، وكانت تفخر على نساء النبي ﷺ وتقول: أنا أكرمكنّ وليـًّا، وأكرمكنّ سفيرًا.

ثم تزوج صفيّة بنت حُيَيّ بن أخطب، وكانت قبله تحت سلام بن مشكم، فقتله محمد بن مسلمة بأمر النبي ﷺ ضرب عنقه صبرًا، فلما تصفح النبي السَّبْيَ يوم خيبر، ألقى رداءه على صفية، فكانت صفيه يوم خيبر، ثم عرض عليها الإسلام فأسلمت فأعتقها، وذلك سنة ست.

ثم تزوج رسول الله ميمونة بنت الحارث، وكانت قبله عند عمير بن عمرو ـ وهو ثقفي ـ لم تلد له شيئًا، وهي أخت أم الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب، زوّجها إياه العباس بسرف في عمرة القضاء، فتزوّجها رسول الله.

---

(١) الأحزاب: ٣٧.

وكل هؤلاء اللواتى ذكرنا أن رسول الله تزوّجهن إلى هذا الموضع، توفّى رسول الله وهن أحياء، غير خديجة بنت خويلد.

ثم تزوّج ﷺ امرأة من بنى كلاب يقال لها النشاة بنت رفاعة، وكانوا حلفاء لبنى رفاعة من قريظة. وقد اختلف فيها، وكان بعضهم يسمى هذه سنا وينسبها، فيقول: سنا بنت أسماء بن الصّلت.. وقال بعضهم: هى سبا بنت أسماء بن الصلت. وقالوا: توفيت قبل أن يدخل بها رسول الله ﷺ ونسبها بعضهم فقال: هى سنا بنت الصلت بن حبيب.

ثم تزوج رسول الله الشَّنْباء بنت عمرو الغفارية، وكانوا أيضا حلفاء لبنى قُريظة، وبعضهم يزعم أنها قرظية، وقد جُهل نسبها لهلاك بنى قريظة، وقيل أيضًا: إنها كنانية، فعركت ـ أى: حاضت ـ حين دخلت عليه، ومات إبراهيم قبل أن تطهر، فقالت: لو كان نبيا ما مات أحبُّ الناس إليه، فسرحها رسول الله ﷺ.

ثم تزوج رسول الله ﷺ غُزَيّة بنت جابر من بنى أبى بكر بن كلاب، وهى التى استعاذت بالله منه، فأعاذها وردها إلى أهلها، ويقال إنها من كندة.

ثم تزوج رسول الله أسماء بنت النعمان بن الأسود.. الكندىّ، فلما دخل بها وجد بها بياضًا فمتّعها وجهّزها وردّها إلى أهلها، ويقال: بل كان النعمان بعث بها إلى رسول الله فسرحته، فلما دخلت عليه استعاذت منه أيضًا، فبعث إلى أبيها، فقال له: أليست ابنتك؟ قال: بلى، قال لها: ألست ابنته؟ قالت: بلى، قال النعمان: عليكها يارسول الله، فإنها وإنها... وأطنب فى الثناء فقال: إنها لم تيجع قط، ففعل بها مافعل بالعامرية، فلا يدرى: ألقولْها أم لقول أبيها: «وإنها لم تيجع قطّ» ـ (أى: لم يصبها مايوجع قط).

وأفاء الله ـ عز وجل ـ على رسوله ريحانة بنت زيد، من بنى قريظة.

وأهدى لرسول الله ﷺ مارية القبطية، أهداها له المقوقس صاحبُ الإسكندرية، فولدت له إبراهيم ابن رسول الله.

فهؤلاء أزواج رسول الله ﷺ منهن ستّ قرشيات.

قال أبو جعفر: وممن لم يذكر هشام في خبره هذا ممن روى عن رسول الله ﷺ أنه تزوّج من النساء: زينب بنت خزيمة ـ وهى التى يقال لها أم المساكين ـ من بنى عامر بن صعصعة، وكانت قبل رسول الله عند الطفيل بن الحارث بن المطلب، وتوفيّت عند رسول الله ﷺ بالمدينة.. وقيل: إنه لم يمُت عند رسول الله فى حياته من أزواجه غيرها وغير خديجة، وشراف بنت خليفة، أخت دحية ابن خليفة الكلبى، والعالية بنت ظبيان.. وهى امرأة من بنى بكر بن كلاب فمتعها، ثم فارقها. وقُتَيْلة بنت قيس بن معديكرب، فتوفّى عنها قبل أن يدخل بها، فارتدّت عن الإسلام مع أخيها؛ وفاطمة بنت شريح، وغزية بنت جابر ـ وهى أمّ شريك ـ تزوّجها رسول الله ﷺ بعد زوج لها قبله، وكان لها منه ابنٌ يقال له شريك، فكنيت به، فلما دخل بها النبى ﷺ وجدها مسنّة فطلقها، وكانت قد أسلمت؛ وكانت تدخل على نساء قريش فتدعوهن إلى الإسلام.

وقيل: إنه تزوّج خوْلة بنت الهزيل بن هبيرة.. روى ذلك عن ابن عباس، كما روى أن ليلى بنت الخطيم بن عدىّ أقبلت إلى النبى ﷺ وهو مولٍّ ظهره الشمس، فضربت على منكبه، فقال: من هذه؟ قالت: أنا ابنة مبارى الريح، ليلى بنت الخطيم، جئتك أعرض عليك نفسى فتزوجنى، قال: قد فعلت، فرجعت إلى قومها، فقالت: قد تزوّجنى رسول الله، فقالوا: بئسما صنعت! أنت امرأة غَيْرَى؛ والنبى صاحبُ نساء، استقيليه نفسك، فرجعت إلى النبى ﷺ فقالت: أقلنى، قال: قد أقلتك.

كما قيل: إن النبى ﷺ تزوّج عمرة بنت يزيد، امرأة من بنى رؤاس بن كلاب.

ذكر من خطب النبى ﷺ من النساء ثم لم ينكحهن

منهن أم هانئ بنت أبى طالب، واسمها هند، خطبها رسول الله ولم يتزوّجها، لأنها ذكرتْ أنها ذات ولد.

وخطب صباعة بنت عامر بن قُرْط إلى ابنها سلمة بن هشام، فقال: حتى أستأمرها، فأتاها فقال: إنّ النبى ﷺ خطبك، فقالت: ماقلت له؟ قال: قلت له: حتى أستأمرها، قالت: وفى النبى يُستأمر! ارجع فزوّجه؛ فرجع فسكت عنه النبى، وذلك أنه أخبر أنها قد كبرت.

وخطب ـ فيما ذكر ـ صفيّة بنت بشامة أخت الأعور العنبرى، وكان أصابها سباء، فخيّرها، فقال: إن شئت أنا وإن شئت زوجُك، قالت: بل زوجى؛ فأرسلها.

وخطب أم حبيب بنت العباس بن عبد المطلب، فوجد العباس أخاه من الرضاعة، أرضعتهما ثويبة.

وخطب جمرة بنت الحارث بن أبى حارثة، فقال أبوها ـ فيما ذكر ـ بها شىء، ولم يكن بها شىء، فرجع فوجدها قد برصتْ.

ذكر سرارى رسول الله ﷺ

وهى مارية بنت شمعون القبطية، وريحانة بنت زيد القرظية. وقيل: هى من بنى النضير. وقد مضى ذكر أخبارهما قبل.

ذكر موالى رسول الله ﷺ

فمنهم زيد حارثة وابنه أسامة بن زيد؛ وثوبان مولى رسول الله، فأعتقه، ولم يزل معه حتى قبض، ثم نزل حمص وله بها دار وقف، ذكر أنه توفى سنة أربع وخمسين فى خلافة معاوية، وقال بعضهم: بل كان سكن الرملة، ولاعقب له.

وشُقران ـ وكان من الحبشة ـ اسمه صالح بن عدىّ، اختلف فى أمره، قد ذكر أنه ـ أى: شقران ـ ورثه رسول الله عن أبيه. وقال بعضهم: شقران من الفرس، ونسبه فقال: هو صالح بن حول بن مهربود.

ورويفع ـ أبو رافع ـ اسمه أسلم. وقال بعضهم: اسمه إبراهيم، واختلفوا فى أمره، فبعضهم قال: كان للعباس بن عبد المطلب، فوهبه لرسول الله، فأعتقه

ﷺ، وقال بعضهم: كان أبو رافع لأبى أحيحة فورثه بنوه، فأعتق ثلاثة منهم أنصباءهم منه، وقتلوا يوم بدر جميعًا.

وشهد أبو رافع معهم بدرًا، ووهب خالد بن سعيد نصيبه منه لرسول الله فأعتقه ﷺ هو وابنه البهىّ - اسمه رافع.

وعبيد الله بن أبى رافع - أخو البهى - وكان يكتب لعلىّ بن أبى طالب، فلما ولى عمرو بن سعيد المدينة دعا البهى، فقال: من مولاك؟ فقال: رسول الله، فضربه مائة سوط، وكرر عليه السؤال مرّات كانت إجابته عليها جميعًا واحدة، حتى بلغت عدد ضربات السوط خمسمائة، ثم سأله: مولى من أنت؟ قال: مولاكم، فلما قتل عبدُ الملك عمرَو بن سعيد قال البهى بن أبى رافع:

صَحَّتْ ولاشَلَّتْ وضَرَّتْ عَدُوَّهَا　　يَمِينٌ هَراقَتْ مُهْجَـةَ ابْنِ سَعِيد
هُوَ ابْنُ أبى العَاصِى مِراراً ويَنْتَمِى　　إلى أُسْرَةٍ طابَتْ له وَجُدُودِ

وسلمان الفارسى - وكنيته أبو عبد الله، من أهل قرية أصبهان؛ فأصابه أسرٌ من بعض كلب، فبيع من بعض اليهود بناحية وادى القُرى، فكاتب اليهودىّ، فأعانه رسول الله ﷺ والمسلمون حتى عتق.

وسفينة مولى رسول الله ﷺ وكان لأم سلمة فأعتقته؛ واشترطت عليه خدمة رسول الله حياته، قيل: إنه أسود، واختلف فى اسمه، فقال بعضهم: اسمه مهران، وقال بعضهم: اسمه رباح، وقال بعضهم: هو من عجم الفرس. . كان من مولدى السّراة؛ وكان يأذن على رسول الله ﷺ إذا جلس، وشهد بدرًا وأحُدًا والمشاهد كلها من رسول الله.

وأبو كبشة - واسمه سليم - قيل: إنه كان من مولّدى مكّة، وقيل: من مولّدى أرض دوس، ابتاعه رسول الله فأعتقه، فشهد مع رسول الله بدراً وأحُدًا والمشاهد، توفى فى أول يوم استخلف فيه عمر بن الخطاب سنة ثلاثة عشرة من الهجرة.

وأبو مُوَيْهِبَة ـ قيل: إنه كان من مولّدى مزينة، فاشتراه رسول الله ﷺ فأعتقه.

ورَباح الأسود ـ كان يأذن لرسول الله . . . ﷺ.

وفَضَالة، مولى رسول الله، نزل ـ فيما ذكر ـ الشام.

ومِدْعَم، كان عبدًا لرفاعة بن زيد، فوهبه لرسول الله، فقتل بوادى القرى يوم نزل بهم رسول الله، أصابه سهم غربٌ ـ أى: لايدرى راميه ـ فقتله.

وأبو ضُمَيْرَة. . زعم نسّابة الفرس أنه من عجم الفرس، وذكر بعضهم أنه كان ممن صار فى قسم رسول الله فى بعض وقائعه، فأعتقه، وكتب له كتابًا بالوصيّة، وهو جدّ حسين بن عبد الله، وأن ذلك الكتاب فى أيدى ولد ولده وأهل بيته، وأن حسين بن عبد الله هذا قدم على المهدىّ ومعه ذلك الكتاب، فأخذه المهدىّ فوضعه على عينيه، ووصله بثلثمائة دينار.

ويَسار ـ وكان فيما ذكر ـ نوبيـًّـا؛ كان فيما وقع فى سهم رسول الله ﷺ فى بعض غزواته فأعتقه؛ وهو الذى قتله العرنيون الذين أغاروا على لقاح رسول الله.

ومِهْران: حدّث عن رسول الله ﷺ.

ومابور ـ وهو خصىّ كان المقوقس أهداه إليه من الجاريتين اللتيْن يقال لإحداهما مارية، وهى التى تسرّى بها، والأخرى سيرين. . وكان المقوقس بعث بهذا الخصىّ مع الجاريتين ليوصلهما إلى رسول الله ﷺ ويحفظهما من الطريق حتى تصلا إليه.

ذكر من كان يكتب لرسول الله ﷺ

ذكر أن عثمان بن عفان كان يكتب له أحيانًا، وأحيانًا علىّ بن أبى طالب، وخالد بن سعيد، وأبان بن سعيد، والعلاء بن الحضرمىّ.

قيل: أوّل مَنْ كتب له أُبَىٌّ بن كعب؛ وكان إذا غاب أُبَىٌّ كتب له زيد بن ثابت.

وكتب له معاوية بن أبى سفيان، وحنظلة الأسيدىّ.

أسماء خيل رسول الله ﷺ

أوّل فرس ملكه رسولُ الله ﷺ فرس ابتاعه بالمدينة من رجُل من بنى فزارة بعشر أواق، وكان اسمه عند الأعرابى **الضَّرِس**، فسمّاه رسول الله **السَّكْب**، وكان أول ما غزا عليه أحُد، ليس مع المسلمين يومئذ فرس غيره، وفرس لأبى بردة بن نيار، يقال له: **مُلاَوِح**.

والمُرتجز: وهو الفرس الذى اشتراه من الأعرابى الذى شهد له فيه خزيمة بن ثابت؛ وكان الأعرابى من بنى مرّة.

وعن ابن سهل، قال: كان لرسول الله ﷺ ثلاثة أفراس: لِزَاز، والظَّرِب، واللَّخِيف.

فأما لزاز فأهداه له المقوقس، وأما اللخيف فأهداه له ربيعة بن أبى البراء؛ فأثابه عليه فرائض من نَعَم بنى كلاب، وأمّا الظرب فأهداه له فروة بن عمرو الجذامى.

وأهدى تميم الدارىّ لرسول الله فرسًا يقال له: الورد، فأعطاه عمرَ؛ فحمل عليه فى سبيل الله، فوجده ينباع ـ أى: يسير بخطى واسعة.

وقد زعم بعضهم أنه كان له مع ماذكرت من الخيل فرس يقال له اليعسوب.

ذكر أسماء بغال رسول الله ﷺ

عن ابن سعد، قال: كانت دلدُل بغلة النبى ﷺ أوّل بغلة رؤيت فى الإسلام، أهداها له المقوقس، وأهدى له معها حمارًا يقال له: عُفير؛ فكانت البغلة قد بقيت حتى كان زمن معاوية.

وكما أهدى فروة بن عمرو إلى النبى ﷺ بغلة يقال لها فضة، فوهبها لأبى بكر، وحماره يعفور، فنفق منصرفه من حجّة الوداع.

ذكر أسماء إبله ﷺ

عن ابن سعد، قال: القَصْوَاء من نَعَم بنى الحريش، ابتاعها أبو بكر وأخرى معها بثمانمائة درهم، وأخذها منه رسول الله بأربعمائة؛ فكانت عنده حتى نفقت، وهى التى هاجر عليها؛ وكانت حين قدم رسول الله المدينة رَبَاعية، وكان اسمها القصواء والجَدْعَاء والعَضْبَاء ـ وكان فى طرف أذنها جَدْع.

ذكر أسماء لقاح رسول الله ﷺ

عن ابن سعد، قال: كانت لرسول الله ﷺ لقاح ـ جمع لَقْحَة وهى الناقة الحلوب ـ وهى التى أغار عليها القوم بالغابة، وهى عشرون لقحة، وكانت التى يعيش بها أهل رسول الله، يراح إليه كل ليلة بقربتين عظيمتين من لبن فيها لقاحٌ غزار ـ أى: كثيرات اللبن: الحناء، والسمراء، والعريس، والسعدية، والبغوم، واليسيرة، والريَّا. . وكان رسول الله قد فرقها على نسائه.

ذكر أسماء منائح رسول الله ﷺ

عن ابن سعد، قال: كانت منائح ـ جمع منيحة، وهى مايمنح من الأرض أو الدواب ـ رسول الله ﷺ سبعًا: عجوة، وزمزم، وسُقْيَا، وبَرَكة، وورَسَة، وأطلال، وأطراف.

وعن ابن عباس، قال: كانت منائح رسول الله سبع أعنز منائح، يرعاهن ابن أم أيمن.

ذكر أسماء سيوف رسول الله ﷺ

عن مروان بن أبى سعيد بن المعلَّى، قال: أصاب رسول الله من سلاح بنى قينقاع ثلاثة أسياف: سيفًا قَلَعِيًّا ـ نسبة إلى القلعة، موضع بالبادية قرب حلوان ـ، وسيفًا يدعى بتارًا، وسيفا يدعى الحتف، وكان عنده بعد ذلك المِخْذَم ورَسُوب، أصابهما من الفِلْس ـ صنم كان لِطَيِّئ تم هدمه فى سنة تسع. . وقيل: إنه قدم

رسول الله المدينة ومعه سيفان، يقال لأحدهما: القضيب، شهد به بدرًا، وسيفه ذو الفقار غَنِمَهُ يوم بدر، وكان لمنبّه بن الحجّاج.

ذكر أسماء قِسِيِّه ورماحه ﷺ

عن ابن سعد، قال: أصاب رسول الله ﷺ من سلاح بنى قينقاع ثلاثة أرماح وثلاث قسىّ: قوس الرَّوْحَاء، وقوس شَوْحَط، تدعى البيضاء، وقوس صَفْرَاء تدعى الصّفراء من نبْع.

ذكر أسماء دروعه ﷺ

عن ابن سعد، قال: أصاب رسول الله من سلاح بنى قينقاع درعين، درع يقال له السعدية، ودرع يقال لها فضّة.

وعن محمد بن مسلمة، قال: رأيت على رسول الله ﷺ يوم أُحُد درعين: درعه ذات الفضول ودرعه فضّة، ورأيت عليه يوم خيبر درعين، ذات الفضول والسعدية.

ذكر ترسه ﷺ

عن ابن سعد، قال: كان لرسول الله تُرْسٌ فيه تمثال رأس كبش، فكره رسول الله مكانه، فأصبح يومًا وقد أذهبه الله ـ عزّ وجلّ.

ذكر أسماء رسول الله ﷺ

عن أبى موسى، قال: سمى لنا رسول الله ﷺ نفسه أسماء، منها ماحفظنا، قال: أنا محمد، وأحمد، والمقفّى، والحاشر، ونبىّ التوبة والمَلْحَمَة.

وعن ابن مطعِم عن أبيه، قال: قال لى رسول الله ﷺ إنّ لى أسماء؛ أنا محمد، وأحمد، والعاقب، والماحى. قال الزهرى: العاقب: الذى ليس بعده أحد ـ نبى ـ والماحى: الذى يمحو الله به الكفر.

ذكر صفة النبى ﷺ

عن علىّ بن أبى طالب، قال: كان رسول الله ﷺ ليس بالطويل ولا بالقصير، ضخم الرأس واللحية، شَثْن الكَفَّيْن - أى: يميلان إلى الغلظ - والقدمين، ضخم الكراديس - ملتقى كل عظمين - مشربًا وجهه الحُمرة، طويل المَسْرُبَة - الشعر مابين وسط الصدر إلى البطن - إذا مشى تكفَّأ تكفُّؤًا - أى: يميل إلى الأمام فى مشيه - كأنما ينحط من صَبَب - طريق فى منحدر -، لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ.

وأجاب علىٌّ رجلاً من الأنصار سأله عن نعت رسول الله ﷺ فقال: كان رسول الله أبيض اللون مُشربًا حُمرة، أدْعج، سَبْطَ الشعر، دقيق المسربة، سهل الخَدَّيْن، كثّ اللحية، ذا وَفْرَة - الشعر المجتمع على الرأس ومانزل من على الأذنين - كأن عنقه إبريق فضّة؛ كان له شعر من لبَّته إلى سُرَّته، يجرى كالقضيب، لم يكن فى إبطه ولا صدره شعر غيره، شثن الكف والقدم، إذا مشى كأنما ينحدر من صَبَب، وإذا مشى كأنما ينقلع من صخر، وإذا التفت التفت جميعًا، ليس بالقصير ولا بالطويل، ولا العاجز ولا اللئيم، كأنَّ العَرَق فى وجهه اللؤلؤ، ولَرِيحُ عَرَقِهِ أطيب من المسك، لم أر قبله ولابعده مثله ﷺ.

وعن أنس بن مالك، قال: توفّى رسول الله ﷺ على رأس ستين، ليس فى رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء؛ ولم يكن رسول الله بالطويل البائن ولا القصير، ولم يكن بالأبيض الأمهق - أى: الشديد البياض - ولا الآدم، ولم يكن بالجَعْدِ القَطَط ولا السَّبط - أى: الشعر القصير ولا شعر الزنج ولا المسترسل.

ذكر خاتم النبوة التى كانت به ﷺ

عن أبى زيد، قال: قال لى رسول الله ﷺ: يا أبا زيد، اُدْنُ منى امسَحْ ظهرى.. وكشف من ظهره.. فمسستُ ظهره، ثم وضعت أصبعى على الخاتم - بمعنى الشامة أو العلامة - فغمزتها، قال: قلت: وما الخاتم؟ قال: شعرٌ مجمعٌ كان على كتفيه.

عن أبى نضرة، قال: سألت أبا سعيد الخدرىّ عن الخاتم التى كانت للنبىّ ﷺ، قال: كانت بَضْعَةً ناشزة.

ذكر شجاعته وجوده ﷺ

عن أنس بن مالك، قال: كان نبىّ الله ﷺ من أحسن الناس، وأسمح الناس، وأشجع الناس؛ لقد كان فزعٌ بالمدينة، فانطلق أهل المدينة نحو الصوت، فإذا هم قد تلقَّوْا رسول الله على فرس عُرْىٍ لأبى طلحة، ماعليه سرج، وعليه السيف، قال: وقد كان سبقهم إلى الصَّوت.. فجعل يقول: يا أيها الناس، لم تُراعوا لم تراعوا.. مرتين.. ثم قال: يا أبا طلحة، وجدناه بحرًا؛ وقد كان الفرس يبطأ، فما سبقه فرسٌ بعد ذلك.

ذكر صفة شعره ﷺ وهل كان يخضب أم لا

عن معاذ بن معاذ، قال: دخلنا على عبد الله بن بُسْر ـ وهو أفضل أهل الشام ـ فقلت له من بين أصحابى: أرأيت رسول الله ﷺ أشيخًا كان؟ قال بعد أن وضع يده على عَنْفَقَته: كان فى عنفقته شعر أبيض.

سئل أنس: أخَضَبَ رسول الله؟ قال: لم يشتدّ برسول الله الشَّيْب، ولكن خضب أبو بكر بالحنّاء والكَتَم ـ وهو نبت يخلط بالحنّاء للإبقاء على لون الشعر المخضّب ـ وخضب عمر بالحناء.

وعن أنس، قال: لم يكن الشيب الذى بالنبى ﷺ عشرين شعرة.

وعن جابر بن سمرة، قال: ماكان فى رأس رسول الله ﷺ من الشَّيب إلاّ شعرات فى مفرق رأسه، وكان إذا دهنه غطّاهن.

وعن عثمان بن عبد الله بن مَوْهَب، قال: دخلتْ زوجُ النبىّ ﷺ فأخرجتْ إلينا شعرًا من شعر رسول الله مخضوبًا بالحنّاء والكتم.

عن مجاهد، عن أم هانئ، قالت: رأيت رسول الله ﷺ وله ضفائر أربع.

ذكر الخبر عن بدء مرض رسول الله ﷺ الذى توفى فيه وما كان منه قبيل ذلك لما نعيت إليه نفسه ﷺ

قال أبو جعفر: يقول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾[1].

قد مضى ذكرُنا قبلُ ما كان من تعليم رسول الله ﷺ أصحابه ـ فى حجّته التى حجَّها المسمّاة حجَّة الوداع، وحجة التمام، وحجة البلاغ ـ مناسكهم ووصيته إياهم، بما ذكرت قبل فى خطبته التى خطبها بهم فيها.

ثم إن رسول الله انصرف من سفره ذلك بعد فراغه من حجّه إلى منزله بالمدينة فى بقية ذى الحجة، فأقام بها ما بقى من ذى الحجّة والمحرّم والصفر.

ثم دخلت سنة إحدى عشرة:

ذكر الأحداث التى كانت فيها

قال أبو جعفر: ثم ضرب فى المحرّم من سنة إحدى عشرة على الناس بعثًا إلى الشام، وأمَّر عليهم مولاه وابن مولاه أسامة بن زيد بن حارثة، وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، فتجهّز الناس، وأوعب ـ أى: جمع ما استطاع من العدة ـ مع أسامة المهاجرون الأوّلون.

فبينا الناس على ذلك ابتدئ ﷺ شكواه التى قبضه الله ـ عزّ وجلّ ـ فيها إلى ما أراد به من رحمته وكرامته، فى ليالٍ بقينَ من صَفَر، أو فى أول شهر ربيع الأول.

عن أبى مُوَيهْبة مولَى رسول الله، قال: رجع رسول الله إلى المدينة بعدما قضى ﷺ حجة التمام، فتحلل به السير، وضرب على الناس بعثًا، وأمَّر عليهم

---

(١) سورة النصر: ١ ـ ٣.

أسامة بن زيد، وأمره أن يوطئ من آبل الزيت من مشارف الشام الأرض بالأردن، فقال المنافقون فى ذلك، وردّ عليهم النبى ﷺ: «**إنه لخليق لها ـ أى: حقيق بالإمارة ـ وإن قلتم فيه لقد قلتم فى أبيه مَن قبل، وإن كان لخليقًا لها**». فطارت الأخبار بتحلّل السير بالنبى أن النبىّ قد اشتكى، فوثب الأسود باليمن ومسيلمة باليمامة، وجاء الخبر عنهما للنبى ﷺ، ثم وثب طليحة فى بلاد أسد بعدما أفاق النبى، ثم اشتكى فى المحرّم وجعه الذى قبضه الله تعالى فيه.

عن عروة، قال: اشتكى رسولُ الله ﷺ وجعه الذى توفاه الله به فى عقب المحرم.

وقال الواقدى: بُدِئَ رسول الله ﷺ وجعه لليْلتين بقيتا من صفر.

* * *

وعن فيروز بن الديلمى، قال: إن أول ردة كانت فى الإسلام باليمن كانت على عهد رسول الله ﷺ على يدى ذى الخمار عَبْهَلَةَ بن كعب ـ وهو الأسود ـ فى عامة مذحج، خرج بعد الوداع، كان الأسود كاهنًا شعْبَاذًا ـ أى: مشعوذًا ساحرًا ـ وكان يريهم الأعاجيب، ويسبى قلوب مَنْ سمع منطقه، وكان أوّل ما خرج أن خرج من كهف خُبّان، وهى كانت داره، وبها وُلد ونشأ؛ فكاتبته مذحج، وواعدته نجران، فوثبوا بها وأخرجوا عمرو بن حزم وخالد بن سعيد بن العاص وأنزلوه منزلهما، ووثب قيس بن عبد يغوث على فروة بن مسيك وهو على مراد، فأجلاه ونزل منزله؛ فلم ينشب عبهلة بنجران أن سار إلى صنعاء فأخذها، وكتب بذلك إلى النبى ﷺ من فعله ونزوله بصنعاء؛ وكان أوّل خبر وقع به عنه من قِبَل فروة بن مُسَيك، ولحق بفروة من تم على الإسلام من مذحج، فكانوا بالأحسية، ولم يكاتبه الأسود ولم يرسل إليه، لأنه لم يكن معه أحد يشاغبه، وصفا له مُلْك اليمن.

عن ابن عباس، قال: ...... أكثر المنافقون فى تأمير أسامة، حتى بلغه، فخرج النبى ﷺ على الناس عاصبًا رأسه من الصُّداع لذلك الشأن وانتشاره،

لرؤيا رآها فى بيت عائشة، ففال: إنى رأيت البارحة - فيما يرى النائم - أن فى عضدى سوارين من ذهب، فكرهتهما فنفختهما، فطارا، فأوّلتهما هذين الكذّابين - صاحب اليمامة وصاحب اليمن - وقد بلغنى أن أقوامًا يقولون فى إمارة أسامة! ولعمرى لئن قالوا فى إمارته، لقد قالوا فى أمارة أبيه من قبله! وإن كان أبوه لخليقًا للإمارة، وإنه لخليق لها؛ فأنقذوا بعث أسامة. وقال: لعن الله الذين يتخذون قبور أنبيائهم مساجد!

فخرج أسامة فضرب بالجُرْف، وأنشأ الناس فى العسكر ونجم طليحة، وتمهّل الناس، وثقل - اشتد عليه المرض - رسول الله ﷺ فلم يستتم الأمر، ينظرون أولهم آخرهم، حتى توفى الله - عزّ وجلّ - نبيه ﷺ.

ووقع بنا الخبر بوجع النبى ﷺ، ثم بلغنا أن مسيلمة قد غلب على اليمامة، وأن الأسود قد غلب على اليمن، فلم يلبث إلاّ قليلاً حتى ادعى طليحة النبوة، وعسكر بسميراء، واتبعه العوام، واستكثف أمره، وبعث حبال ابن أخيه إلى النبى ﷺ يدعوه إلى الموادعة، ويخبره خبره. وقال حبال: إن الذى يأتيه ذو النون، فقال: لقد سمى ملكًا، فقال حبال: أنا ابن خويلد، فقال النبى ﷺ: قتلك الله وحرمك الشهادة!

عن عروة، قال: حاربهم رسول الله ﷺ بالرسل، قال: فأرسل إلى نفرٍ من الأبناء رسولاً، وكتب إليه أن يحاولوه، وأمرهم أن يستنجدوا رجالاً - قد سماهم - من بنى تميم وقيس؛ وأرسل إلى أولئك النّفَر أن ينجدوهم، ففعلوا ذلك، وانقطعت سُبل المرتدة، وطعنوا فى نقصان وأغلقهم، واشتغلوا فى أنفسهم، فأصيب الأسود فى حياة رسول الله وقبل وفاته بيوم أو بليلة، ولظّ طليحة ومسيلمة وأشباههم بالرسل، ولم يشغله ما كان فيه من الوجع عن أمر الله والذبِّ عن دينه، فبعث وبر بن يُحنَّس إلى فيروز وجشيش الديلمى وداذويه الإصطخرىّ، وبعث جرير بن عبد الله إلى ذى الكلاع وذى ظليم، وبعث الأقرع ابن عبد الله الحميرى إلى ذى زُود وذى مُرّان، وبعث فرات بن حيان إلى ثمامة ابن أثال، وبعث زياد بن حنظلة التميمى ثم العمرى إلى قيس بن عاصم

والزِّبرقان بن بدر، وبعث صلصل بن شرحبيل إلى سبسرة العنبرى ووكيع الدارمى وإلى عمرو بن المحجوب العامرى، وإلى عمرو بن الخفاجىّ من بنى عامر، وبعث ضرار بن الأزور الأسدى إلى عَوْف الزرقانى من بنى الصيداء وسنان الأسدى ثم الغنمى، وقضاعى الدُئلىّ، وبعث نعيم بن مسعود الأشجعى إلى ابن ذى اللحية وابن مشيمصة الجبيرى.

عن أبى مويْهبة مَوْلَى رسول الله ﷺ قال: بعثنى رسولُ الله ﷺ من جوف الليل، فقال لى: يا أبا مُوَيْهبة، إنّى قد أمرت أن أستغفر لأهل البقيع، فانطلق معى، فانطلقت معه، فلما وقف بين أظهرهم قال: السلام عليكم أهل المقابر، ليَهْنِ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه! أقبلت الفتنُ كقطع الليل المُظلم، يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى، ثم أقبـل عَـلَىَّ فقال: يا أبا مويْهبة، إنى قد أوتيت مفاتيحَ خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنّة، خُيِّرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنَّة، فاختَرت لقاء ربى والجنّة. قلت: بأبى أنت وأمّى! فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلْد فيها، ثم الجنّة. فقال: لا والله يا أبا مويْهبة، لقد اخترت لقاء ربى والجنة، ثم استغفر لأهل البقيع، ثم انصرف، فبدئ رسول الله ﷺ بوجعه الذى قبض فيه.

عن عائشة زوج النبى ﷺ قالت: رجع رسول الله ﷺ من البقيع، فوجدنى وأنا أجدُ صداعًا فى رأسى، وأنا أقول: وارأساه! قال: بل أنا والله ياعائشة وارأساه! ثم قال: ما ضرّك لوْ متِّ قبلى فقمت عليك وكفَّنْتك، وصلّيْت عليك، ودفنتك! فقلت: والله لكأنى بك لو فعلت ذلك رجعتَ إلى بيتى فأعْرسْتَ ببعض نسائك.. فَتبسّم رسول الله ﷺ وتتامّ به وجعه، وهو يدور على نسائه حتى استُعِزّ به ـ أى: اشتد به وجعه وغلبه على نفسه ـ وهو فى بيت ميمونة، فدعا نساءه فاستأذنهنّ أن يُمَرَّضَ فى بيتى، فأذنَّ له.

فخرج رسول الله ﷺ بين رجلين من أهله: أحدهما الفضل بن العباس ورجل آخر تخطّ قدماه الأرض، حاصبًا رأسه حتى دخل بيتى. وكان الرجل

الآخر هو على بن أبى طالب، ولكن عائشة ـ كما قال عبد الله بن عباس ـ كانت لاتقدر على أن تذكره بخير وهى تستطيع.

ثم غُمِرَرسولُ الله ﷺ ـ أى: أصابته شدة المرض ـ واشتد به الوجع، فقال: أهريقوا علىّ من سبع قِرَبٍ من آبار شتى، حتى أخرج إلى الناس فَأعهدَ إليهم، فأقعدْناه فى مِخضَب ـ إناء يغتسل فيه ـ لحفصة بنت عمر، ثم صببنا عليه الماء حتى طفق يقول: حَسْبُكم، حسبكم.

عن الفضل بن عباس، قال: جاءنى رسول الله ﷺ فخرجت إليه، فوجدته موعوكًا قد عصب رأسه، فقال: خذ بيَدِى يافضل، فأخذ بيده، حتى جلس على المنبر، ثم قال: نَادِ فى الناس، فاجتمعوا إليه، فقال: أمّا بعد أيها الناس، فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إلـه إلاّ هو، وإنه قدْ دنا منِّى حقوق من بين أظهركم، فمن كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهرى فليستقد منه، ومن كنتُ شتمتُ له عرضًا فهذا عِرضى فليستقدْ منْه، ألا وإنّ الشحناء ليست من طبعى ولا من شأنى، ألا وإن أحبكم إلىّ من أخذ منّى حقـًّا إن كان له، أو حلّلنى فلقيت الله وأنا أطيب النفس، وقد أرى أن هذا غيرُ مُغْنٍ عنى حتى أقوم فيكم مراراً.

ثم نزل فصلّى الظهر، ثم رجع فجلس على المنبر، فعاد لمقالته الأولى فى الشحناء وغيرها، فقام رجل فقال: يارسول الله، إنّ لى عندك ثلاثة دراهم، قال: «**أعطه يافضل**»، فأمرته فجلس، ثم قال: «**أيها الناس: من كان عنده شىء فليؤدِّه ولايقل فضوح الدنيا، ألا وإن فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة**». فقام رجل فقال: يارسول الله عندى ثلاثة دراهم غللْتُها فى سبيل الله، قال: «**ولم غللتها؟**» قال: كنت محتاجًا إليها، قال: «**خُذْها منه يافضل**». ثم قال: «**يا أيها الناس، من خشى من نفسه شيئًا فليقم أدعُ له**». فقام رجل فقال: يارسول الله، إنى لكذّاب، إنى لفاحشٌ، وإنى لنؤوم. فقال: «**اللـهم ارزقه صدقًا وإيمانًا، وأذهبْ عنه النوم إذا أراد**». ثم قام رجل فقال: والله يارسول الله، إنى لكذاب وإنى لمنافق وما شىء ـ أو إن شىء ـ إلا قد جنيته. فقام عمر بن الخطاب فقال:

فضحت نفسك أيها الرجل! فقال النبي ﷺ: «**يابن الخطاب، فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة، اللهم ارزقه صدقًا وإيمانًا وصيِّرْ أمره إلى خير**». فقال عمر كلمة، فضحك رسول الله، ثم قال: «**عمر معي وأنا مع عمر، والحقّ بعدي مع عمر حيث كان**».

وعن أيوب بن بشير أن رسول الله ﷺ كان عاصبًا رأسه وهو جالس على المنبر، وصلّى على أصحاب أُحُد واستغفر لهم، ثم قال: إنّ عبدًا من عباد الله خيرّه الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله. ففهمها أبو بكر، وعلم أن نفسه يريد، فبكى، وقال: بل نفديك بأنفسنا وأبنائنا، فقال: على رسلك يا أبا بكر! انظروا هذه الأبواب الشوارع اللافظة ـ أي: النافذة إليه ـ في المسجد فسدوها. إلا ما كان من بيت أبي بكر، فإني لا أعلم أحدًا كان أفضل عندي في الصحبة يدًا منه.

عن عبد الله بن مسعود، قال: نعى إلينا نبينا وحبيبنا نفسه قبل موته بشهر، فلما دنا الفراق جمعنا في بيت أمنا عائشة، فنظر إلينا وشدّد، فدمعت عينه، وقال: «**مرحبًا بكم! رحمكم الله! آواكم الله! حفظكم الله! رفعكم الله! نفعكم الله! وفقكم الله! نصركم الله! سلّمكم الله! رحمكم الله! قبلكم الله! أوصيكم بتقوى الله، وأوصى الله بكم، وأستخلفه عليكم، وأؤديكم إليه، إني لكم نذير وبشير، لاتعلوا على الله في عباده وبلاده، فإنه قال لي ولكم: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾**(١). وقال: **﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾**(٢). قلنا: متى أجلك؟ قال «**قد دنا الفراق والمنقلب إلى الله، وإلى سدرة المنتهى**». قلنا: فمن يغسلك يانبي الله؟ قال: «**أهلي الأدنى فالأدنى**»، قلنا: ففيم نكفّنك

---

(١) القصص: ٨٣.

(٢) الزمر: ٦٠.

يانبى الله؟ قال: «**فى ثيابى هذه إن شئتم، أو فى بياض مصر، أو حلّة يمانية**»، قلنا: فمن يصلى عليك يانبى الله؟ قال: «**مهلاً غفر الله لكم، وجزاكم عن نبيكم خيرا! فبكينا وبكى النبى ﷺ وقال: إذا غسلتمونى وكفنتمونى فضعونى على سريرى فى بيتى هذا، على شفير قبرى، ثم اخرجوا عنى ساعة، فإن أوّل من يصلّى علىّ جليسى وخليلى جبريل، ثم ميكائيل، ثم إسرافيل، ثم ملك الموت مع جنود كثيرة من الملائكة بأجمعها، ثم ادخلوا علىّ فوجًا فوجا، فصلوا علىّ وسلموا تسليمًا، ولا تؤذونى بتزكية ولا برنّة ولا صيحة، وليبدأ بالصلاة علىّ رجال أهل بيتى، ثم نساؤهم، ثم أنتم بعد. أقرئوا أنفسكم منى السلام، فإنى أشهدكم أنى قد سلمت على من بايعنى على دينى من اليوم إلى يوم القيامة**». قلنا: فمن يدخلك فى قبرك يانبى الله؟ قال: «**أهلى مع ملائكة كثيرين يرونكم من حيث لا ترونهم**».

وعن ابن عباس قال: يوم الخميس، وما يوم الخميس؟! قال: اشتدّ برسول الله ﷺ وجعُه، فقال: «**ائتونى أكتب كتابًا لاتضلوا بعدى أبدًا**». فتنازعوا - ولا ينبغى عند نبى أن يتنازع - فقالوا: ما شأنه؟ أهجر - أى: اختلف كلامه بسبب المرض -! استفهموه؟ فذهبوا يعيدون عليه، فقال: «**دعونى فما أنا فيه خيرٌ مما تدعوننى إليه، وأوصى بثلاث؛ قال: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحوٍ مما كنت أجيزهم، وسكت عن الثالثة عمداً - أو قال: فنسيتها**».

عن ابن عباس، قال: أخبره علىٌّ بن أبى طالب أنه خرج من عند رسول الله ﷺ فى وجعه الذى توفّى فيه، فقال الناس: يا أبا الحسن، كيف أصبح رسول الله؟ قال: أصبح بحمد الله بارئًا، فأخذ بيده عبّاس بن عبد المطلب: فقال: ألا ترى أنك بعد ثلاث عبْدُ العصا! وإنى أرى رسول الله سيتوفّى فى وجعه هذا؛ وإنى لأعرف وجوه بنى عبد المطلب عند الموت، فاذهب إلى رسول الله فسلْه فيمَنْ يكون هذا الأمر؟ فإن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان فى غيرنا أمر به فأوصى بنا. قال علىّ: والله لئن سألناها رسول الله فمنعناها لا يعطيناها الناس أبدًا. فتُوفّى رسول الله حين اشتدّ الضحى من ذلك اليوم.

عن عائشة، قالت: لدَدْنا رسول الله ﷺ - أى: وضعنا الدواء فى شق فمه -

فى مرضه، فقال: «**لاتلُدُّونى!**» فقلنا: كراهية المريض الدواء. فلمّا أفاق قال: «**لايبقى منكم أحدٌ إلاّ لُدَّ، غير العباس فإنه لم يشهدْكم**».

عن عائشة، قالت: ثم نزل رسول الله ﷺ فدخل بيته، وتتام به وجعُه حتى غُمر، واجتمع عنده نساء من نسائه: أمّ سلمة، وميمونة، ونساء من نساء المؤمنين؛ منهن أسماء بنت عُميس، وعنده عمُّـه العباس بن عبد المطلب، وأجمعوا على أن يلدّوه، فقال العبّاس: لأَلُدّنه، قال: فَلُدَّ، فلما أفاق رسولُ الله ﷺ قال: «**من صنع بى هذا؟**» قالوا: يارسول الله، عمك العباس، قال: «**هذا دواء أتى به نساء من نحو هذه الأرض ـ وأشار نحو أرض الحبشة ـ ثم قال: ولم فعلتم ذلك؟**» فقال العباس: خشينا يارسول الله أن يكون بك وجع ذات الجنب، فقال: «**إن ذلك لداء ما كان الله ليعذبنى به، لا يبقى فى البيت أحدٌ إلاّ لُدَّ إلا عمى**»، فلقد لُدت ميمونة وإنها لصائمة لقسم رسول الله ﷺ عقوبةً لهم بما صنعوا.

وعن عروة أن عائشة حدثته أن رسول الله ﷺ حين قالوا: خشينا أن يكون بك ذات الجنب قال: إنها من الشيطان؛ ولم يكن الله ليسلّطها علىّ.

وعن علماء أهل الحجاز، قالوا: قال رسول الله ﷺ: «**أعوذ بالله أن يُبلينى بذات الجنب، أنا أكرم على الله من ذلك**».

وعن عائشة، قالت: كان رسول الله ﷺ كثيرًا ما أسمعه وهو يقول: إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ لم يقبض نبيًّـا حتى يخيره، فلما حضر رسول الله ﷺ كان آخر كلمة سمعتها منه وهو يقول: بل الرفيق الأعلى من الجنة! فقلت: إذًا والله لايختارنا! وعرفت أنه الذى كان يقول لنا: إن نبيًّـا لم يقبض حتى يخيّر.

عن الأرقم بن شُرحبيل، قال: سألت ابن عباس: أوصَى رسول الله ﷺ؟ قال: لا، قلت: فكيف كان ذلك؟ قال: قال رسول الله: ابعثوا إلى علىّ فادعوه، فقالت عائشة: لو بعثت إلى أبى بكر! وقالت حفصة: لو بعثت إلى عُمر! فاجتمعوا عنده جميعًا، فقال رسول الله ﷺ: انصرفوا، فإن تك لى حاجة

أبعث إليكم، فانصرفوا، وقال ﷺ: آن الصلاة؟ قيل: نعم، قال: فأْمروا أبا بكر ليصلِّىَ بالناس، فقالت عائشة: إنه رجلٌ رقيق فَمُرْ عمر، فقال عمر: ماكنت لأتقدم وأبو بكر شاهد، فتقدم أبو بكر، ووجد رسولُ الله خفَّة، فخرج، فلما سمع أبو بكر حركته تأخّر، فجذب رسول الله ﷺ ثوبه، فأقامه مكانه، وقعد رسول الله، فقرأ من حيث انتهى أبو بكر.. فكان أبو بكر يصلّى بصلاة النبى، وكان الناس يصلون بصلاة أبى بكر. وعن عكرمة قال: صلّى بهم أبو بكر ثلاثة أيام.

وعن عائشة، قالت: رأيت رسول الله ﷺ يموت، وعنده قدح فيه ماء، يدخل يده فى القدح، ثم يمسح وجهه بالماء، ثم يقول: «اللهم أَعِنِّى على سكرة الموت»!

وعن أنس بن مالك، قال: لـمّا كان يوم الاثنين، اليوم الذى قُبض فيه رسولُ الله ﷺ، خرج إلى الناس وهم يصلون الصبح، فرفع الستر، وفتح الباب، فخرج رسول الله حتى قام بباب عائشة، فكاد المسلمون أن يفتتنوا فى صلاتهم برسول الله ﷺ حين رأوه؛ فرحًا به، وتفرجوا. فأشار بيده: أن اثبتوا على صلاتكم، وتبسم رسول الله فرحًا لما رأى من هيئتهم فى صلاتهم، وما رأيت رسول الله ﷺ أحسن هيئة من تلك الساعة؛ ثم رجع وانصرف الناس وهم يظنون أنّ رسول الله ﷺ قد أفاق من وجعه، فرجع أبو بكر إلى أهله بالسُّنْح.. ولما فرغ من الصلاة، أقبل على الناس وكلمهم رافعًا صوته حتى خرج صوته من باب المسجد يقول: يا أيها الناس، سُعرت النار، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم! وإنى والله لاتمسكون علىَّ شيئًا؛ إنّى لم أحل لكم إلا ما أحلَ لكم القرآن، ولم أحرّم عليكم إلاّ ما حرّم عليكم القرآن. فلما فرغ رسول الله ﷺ من كلامه، قال له أبو بكر: يانبى الله؛ إنّى أراك قد أصبحت بنعمة الله وفضله كما نحبُّ، واليوم يوم ابنة خارجة، فآتيها. ثم دخل رسول الله ﷺ وخرج أبو بكر إلى أهله بالسنح.

عن عائشة، قالت: رجع رسول الله ﷺ فى ذلك اليوم حين دخل من المسجد، فاضطجع فى حجرى، فدخل علىّ رجل من آل أبى بكر فى يده سواك

أخضر. قالت: فنظر رسول الله ﷺ إلى يده نظرًا عرفت أنه يريده، فأخذته فمضغته حتى ألنته، ثم أعطيته إياه، قالت: فاستنّ به كأشد ما رأيته يستنّ بسواك قبله، ثم وضعه؛ ووجدت رسول الله يثقل فى حجرى. قالت: فذهبت أنظر فى وجهه فإذا نظره قد شخص، وهو يقول: **بل الرفيق الأعلى من الجنّة!** قالت: قلتُ: خُيِّرت فاخترتَ والذى بعثك بالحق.. وقُبِضَ رسول الله ﷺ.

وعنها قالت: مات رسول الله ﷺ بين سَحْرِى ونَحْرِى وفى دَوْرِى؛ ولم أظلم فيه أحدًا، فَمِنْ سَفَهى وحداثة سنِّى أنَّ رسول الله قُبض وهو فى حجرى، ثم وضعت رأسه على وسادة، وقمت ألتَدِمُ مع النساء، أضرب وجهى.

ذكر الأخبار الواردة باليوم الذى توفى فيه رسول الله ﷺ ومبلغ سنه يوم وفاته

لاخلاف بين أهل العلم بالأخبار فيه أن اليوم الذى مات فيه رسول الله ﷺ كان يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، غير أنه اختلف فى أىّ الأثانين كان موته ﷺ، فقال بعضهم عن فقهاء أهل الحجاز: قبض رسول الله ﷺ نصف النهار يوم الاثنين، لليلتين مضتا من شهر ربيع الأول، وبويع أبو بكر يوم الاثنين فى اليوم الذى قُبض فيه النبى ﷺ.

وقال الواقدى: توفِّى يوم الاثنين لثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، ودفن من الغد نصف النهار حين زاغت الشمس، وذلك يوم الثلاثاء.

قال أبو جعفر: توفِّى رسول الله ﷺ وأبو بكر بالسُّنح وعمر حاضرٌ، فقام وقال: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله توفى، وإن رسول الله - والله - مامات؛ ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فغاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع بعد أن قيل قد مات؛ والله ليرجعن رسول الله فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم يزعمون أن رسول الله مات.

وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر، وعُمر يكلّم

الناس، فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله ﷺ في بيت عائشة؛ ورسول الله مسجى ـ أي: مغطى ـ في ناحية البيت عليه بردة حبرة ـ نوع من ثياب اليمن ـ فأقبل حتى كشف عن وجهه، ثم أقبل عليه فقبله، ثم قال: بأبي أنت وأمي: أمّا الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها، لن يصيبك بعدها موتة أبدًا. ثم ردَّ الثوب على وجهه. ثم خرج وعمر يكلّم الناس، فقال: على رسلك ياعمر! فأنصت، فأبى إلاّ أن يتكلم، فلما رآه أبو بكر لاينصت أقبل على الناس، فلمّا سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنّه مَنْ كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لايموت، ثم تلا هذه الآية: ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُل** ﴾[1]، إلى آخر الآية. قال: فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ حتى تلاها أبو بكر يومئذ. قال: وأخذها الناس عن أبي بكر، فإنما هي في أفواههم.

قال عمر: والله ماهو إلاّ أن سمعتُ أبا بكر يتلوها فعَقِرْتُ ـ أي: دهشت ـ حتى وقعت إلى الأرض، ماتحملني رجْلاىَ، وعرفتُ أن رسول الله قد مات.

فاجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة ليبايعوا سعد بن عبادة، فبلغ ذلك أبا بكر، فأتاهم ومعه عمر وأبو عبيدة بن الجراح، فقال: ماهذا؟ فقالوا: منّا أمير ومنكم أمير، فقال أبو بكر: منّا الأمراء ومنكم الوزراء، إني قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين: عمر وأبا عبيدة، إن النبي ﷺ جاءه قوم فقالوا: ابعث معنا أمينًا فقال: لأبعثن معكم أمينًا حقَّ أمين؛ فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح، وأنا أرضى لكم أبا عبيدة. فقام عمر، فقال: أيكم تطيب نفسه أن يخلف قدمين قدمهما النبي ﷺ ؟ فبايعه عمر، وبايعه الناس، فقالت الأنصار ـ أو بعض الأنصار ـ: لانبايع إلا عليـًّا.

عن زياد بن كليب، قال: أتى عمر بن الخطاب منزل عليّ وفيه طلحة والزبير

(١) آل عمران : ١٤٤.

ورجال من المهاجرين، فقال: والله لأحرقنّ عليكم أو لتخرجن إلى البيعة، فخرج عليه الزبير مصلتًا بالسيف، فعثر فسقط السيف من يده، فوثبوا عليه فأخذوه. فقال عمر: خذوا سيف الزبير، فاضربوا به الحجر. وانطلق إليهما فجاء بهما تعبًا، وقال: لتبايعان وأنتما طائعان، أو لتبايعان وأنتما كارهان! فبايعا.

وكان نصّ كلام أبى بكر، قال: لقد علمتم أنّ رسول الله قال: لو سلك الناس واديًا وسلكت الأنصار واديًا سلكت وادى الأنصار، ولقد علمت ياسعد أن رسول الله قال وأنت قاعدٌ: قريش ولاة هذا الأمر، فبرُّ الناس تبع لبرهم، وفاجرهم تبعٌ لفاجرهم. فقال سعد: صدقت، فنحن الوزراء وأنتم الأمراء. فقال عمر: ابسط يدك يا أبا بكر فلأبايعك، فقال أبو بكر: بل أنت ياعمر، فأنت أقوى لها منِّى. . . وكان عمر أشدّ الرجلين، وكان كل واحد منهما يريد أن يفتح صاحبه يده يضرب عليها، ففتح عمر يد أبى بكر وقال: إن لك قوتى مع قوتك. فبايع الناس واستثبتوا للبيعة.

حديث السقيفة

عن ابن عباس، قال: كنت أقرئ عبد الرحمٰن بن عوف القرآن. . فحجّ عمر وحججنا معه، فإنى لفى منزلٍ بمنًى إذ جاءنى عبد الرحمٰن بن عوف، فقال: شهدتُ أمير المؤمنين اليوم، وقام إليه رجلٌ فقال: إنّى سمعت فلانًا يقول: لو قد مات أمير المؤمنين لقد بايعت فلانًا، فقال أمير المؤمنين: إنّى لقائم العشيّة فى الناس فمحذرهم هؤلاء الرهط الذين يريدون أن يغصبوا الناس أمرهم. قلت: يا أمير المؤمنين، إنّ الموسم يجمع رعاع الناس وغوغاءهم؛ وإنهم الذين يغلبون على مجلسك، وإنى لخائف إن قلت اليوم مقالة ألا يعوها ولايحفظوها، ولايضعوها على مواضعها، وأن يطيروا بها كل مطير، ولكن أمهل حتى تقدم المدينة، تقدم دار الهجرة والسنة، وتخلص بأصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار، فتقول ماقلت متمكنًا فيعوا مقالتك، ويضعوها على مواضعها. فقال: والله لا أقومنّ بها فى أول مقام أقومه بالمدينة.

فلما قدمنا المدينة، وجاء يوم الجمعة هجرت للحديث الذى حدّثنيه عبد الرحمن، فوجدت سعيد بن زيد قد سبقنى بالتهجير، فجلست إلى جنبه عند المنبر، ركبتى إلى ركبته، فلمّا زالت الشمس لم يلبث عمر أن خرج، فقلت لسعيد وهو مقبل: ليقولنَّ أمير المؤمنين اليوم على هذا المنبر مقالة لم تقل قبله! فغضب وقال: فأى مقالة يقول لم تقل قبله! فلما جلس عمر على المنبر أذّن المؤذنون، فلمّا قضى المؤذن أذانه قام عمر، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «أما بعد، فإنى أريد أن أقول مقالة قد قُدر أن أقولها، من وعاها وعقلها وحفظها فليحدث بها حيث تنتهى بها راحلته، ومن لم يعها فإنى لا أحلّ لأحد أن يكذب علىّ.

إن الله ـ عزّ وجلّ ـ بعث محمداً بالحق، وأنزل عليه الكتاب؛ وكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فرجم رسول الله ورجمنا بعده، وإنى قد خشيت أن يطول بالناس زمان، فيقول قائل: والله مانجد الرّجْم فى كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، وقد كنا نقول: لاترغبوا عن آبائكم، فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم. ثم إنه بلغنى أنّ قائلاً منكم يقول: لو قد مات أمير المؤمنين بايعتُ فلانًا، فلا يغُرَّنّ امرأ أن يقول: إن بيعة أبى بكر كانت فلتة، فقد كانت كذلك؛ غير أن الله وقى شرّها، وليس منكم من تقطع إليه الأعناق مثل أبى بكر! وإنه كان من خبرنا حين توفّى الله نبيّه ﷺ أن عليًّا والزبير ومن معهما تخلفوا عنّا فى بيت فاطمة، وتخلفت عنّا الأنصار بأسرها، واجتمع المهاجرون إلى أبى بكر، فقلت لأبى بكر: انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار، فانطلقنا نؤمهم.. فلقينا رجلان قد شهدا بدرًا، فقالا: أين تريدون يامعشر المهاجرين؟ فقلنا: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار. قالا: فارجعوا فاقضوا أمركم بينكم. فقلنا: والله لنأتينهم. فأتيناهم وهم مجتمعون فى سقيفة بنى ساعدة، وإذا بين أظهرهم رجلٌ مزمَّلٌ ـ ملتفٌ فى كساء أو غيره ـ قلت: من هذا؟ قالوا: سعد بن عبادة، فقلت: ما شأنه؟ قالوا: وجعٌ، فقام رجل منهم، فحمد الله، وقال: أمّا بعد،

فنحن الأنصار وكتيبة الإسلام، وأنتم يامعشر قريش رهط نبيّنا؛ وقد دفت إلينا من قومكم دافّةٌ ـ القوم يسيرون جماعة سيرًا بطيئًا ـ. . فلما رأيتهم يريدون أن يختزلونا من أصلنا، ويغصبونا الأمر. . وقد كنت زوّرت ـ أي: هيأت وأعددت ـ في نفسي مقالة أقدّمها بين يديْ أبي بكر، وقد كنت أداري منه بعض الحدّة، وكان هو أوقر منّي وأحلم، فلمّا أردت أن أتكلم، قال: على رسلك! فكرت أن أعصيه، فقام فحمد الله وأثنى عليه، فما ترك شيئًا كنت زوّرت في نفسي أن أتكلّم به لو تكلّمت إلاّ قد جاء به أو بأحسن منه. وقال: أمّا بعد يامعشر الأنصار؛ فإنكمَ لاتذكرون منكم فضلاً إلاّ وأنتم له أهل؛ وإن العرب لاتعرف هذا الأمر إلا لهذا الحيّ من قريش، وهم أوسط العرب دارًا ونسبًا، ولكن قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم، فأخذ بيده وبيد أبي عبيدة ابن الجراح. وإني والله ماكرهت من كلامه شيئًا غير هذه الكلمة؛ إن كنت لأقدم فتضرب عنقي فيما لايقربني إلى إثم أحبُّ إليَّ من أن أؤمَّر على قوم فيهم أبو بكر. فلما قضى أبو بكر كلامه، قام منهم رجلٌ، فقال: أنا جُذَيْلُهَا المُحكّك ـ يشتفي برأيه ـ، وعُذَيْقُها المُرَجَّب ـ كالرجل الشريف الذي يعظمه قومه ـ؛ منا أميرٌ، ومنكم أمير يا معشر قريش.

فارتفعت الأصوات، وكثر اللَّغَطُ، فلما أشفقت الاختلاف، قلت لأبي بكر: ابسُط يدك أبايعك.

فبسط يده فبايعته، وبايعه المهاجرون، وبايعه الأنصار. ثم نزونا على سعد ـ أي: وثبنا عليه ووطئناه ـ، حتى قال قائلهم: قتلتم سعد بن عبادة؟ فقلت: قتل الله سعدًا! وإنا لله ماوجدنا أمرًا هو أقوى من مبايعة أبي بكر، خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعةٌ أن يحدثوا بعدنا بيعة، فإما أن نتابعهم على مانرضى، أو نخالفهم فيكون فساد».

وعن عروة بن الزبير، قال: إن أحد الرجلين اللذين لقوا من الأنصار حين ذهبوا إلى السقيفة، عويم بن ساعدة والآخر معْن بن عديّ، أخو بني العجلان،

فأما عويم بن ساعدة فهو الذى بلغنا أنه قيل لرسول الله ﷺ : مَن الذين قال الله لهم: ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِين ﴾[1]؟

فقال رسول الله ﷺ: نعم المرء منهم عويم بن ساعدة! وأمّا معن فبلغنا أن الناس بكوا على رسول الله حين توفاه الله، وقالوا: والله لوددنا أنا متنا قبله، إنا نخشى أن نفتتن بعده.

فقال معن بن عدىّ: والله ما أحبّ أنّى متُّ قبله حتى أصدقه ميتًا كما صدقته حيًّا. فقتل معنٌ يوم اليمامة شهيدًا فى خلافة أبى بكر يوم مسيلمة الكذاب.

وعن حبيب بن أبى ثابت، قال: كان علىٌّ فى بيته إذ أُتى فقيل له: قد جلس أبو بكر للبيعة، فخرج فى قميص ماعليه إزار ولا رداء، عجلاً، كراهية أن يبطئ عنها، حتى بايعه، ثم جلس إليه وبعث إلى ثوبه فأتاه فتجلله، ولزم مجلسه.

عن عروة، عن عائشة، أن فاطمة والعبّاس أتيا أبا بكر يطلبان ميراثهما من رسول الله ﷺ وهما حينئذ يطلبان أرضه من فدك، وسهمه من خيبر، فقال لهما أبو بكر: أمَا إنّى سمعتُ رسول الله يقول: **لانورثُ، ماتركنا فهو صدقة.** إنما يأكل آل محمد فى هذا المال، وإنى والله لا أدع أمرًا رأيت رسول الله يصنعه إلاّ صنعته.. فهجرته فاطمة فلم تكلمه فى ذلك حتى ماتت، فدفنها علىٌّ ليلاً، ولم يؤذن بها أبا بكر. وكان لعلىٍّ وجهٌ من الناس فى حياة فاطمة، فلما توفيت فاطمة انصرفت وجوه الناس عن علىّ، فمكثت فاطمة ستة أشهر بعد رسول الله ﷺ ثم توفيت.

أجاب الزهرىّ على رجل سأله: أفلم يبايعه علىّ ستة أشهر؟! قال: لا، ولا أحدٌ من بنى هاشم، حتى بايعه علىّ، فلما رأى علىٌّ انصراف وجوه الناس عنه ضرع إلى مصالحة أبى بكر، فأرسل إليه أن ائتنا ولا يأتينا معك أحد، وكره أن يأتيه عمر لما علم من شدة عمر، فقال عمر: لاتأتهم وحدَك، قال أبو بكر: والله

(١) التوبة : ١٠٨.

لآتينهم وحدى، وماعسى أن يصنعوا بى؟!... فانطلق أبو بكر، فدخل على علىّ، وقد جمع بنى هاشم عنده، فقام علىّ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أمّا بعد: فإنه لم يمنعنا من أن نبايعك يا أبا بكر إنكار لفضيلتك، ولانفاسةٌ عليك بخير ساقه الله إليك، ولكم كنا نرى أن لنا فى هذا الأمر حقّـًا، فاستبددتم به علينا. ثم ذكر قرابته من رسول الله ﷺ وحقهم، فلم يزل علىّ يقول ذلك حتى بكى أبو بكر.

فلما صمت علىٌّ تشهد أبو بكر، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أما بعد: فوالله لقرابة رسول الله أحبّ إلىّ أن أصل من قرابتى، وإنى والله ما ألوتُ فى هذه الأموال التى كانت بينى وبينكم غير الخير، ولكنى سمعت رسول الله يقول: **لانورث؛ ماتركنا فهو صدقة.** إنما يأكل آل محمد هذا المال، وإنى أعوذ بالله لا أذكر أمرًا صنعه محمد رسول الله إلاّ صنعته فيه إن شاء الله.

ثم قال على: موعدك العشيّة للبيعة، فلما صلىّ أبو بكر الظهر أقبل على الناس، ثم عذر عليـًّا ببعض ما اعتذر، ثم قام علىٌّ فعظم من حق أبى بكر وذكر فضيلته وسابقته، ثم مضى إلى أبى بكر فبايعه.. فأقبل الناس إلى علىّ، فقالوا: أصبت وأحسنت، فكان الناس قريبًا إلى علىّ حين قارب الحق والمعروف.

عن أنس بن مالك، قال: لما بويع أبو بكر فى السقيفة، وكان الغد، جلس أبو بكر على المنبر، وتكلّم عمر مثنيًا على أبى بكر، وقال: إنّ الله قد جمع أمركم على خيركم؛ صاحب رسول الله وثانى اثنين إذ هما فى الغار، فقوموا فبايعوا.. فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة.

ذكر جهاز رسول الله ﷺ ودفنه

لما بويع أبو بكر أقبل الناس على جهاز رسول الله ﷺ فقال بعضهم: كان ذلك من فعلهم يوم الثلاثاء، وذلك الغد من وفاته ﷺ.

وقال بعضهم: إنما دفن بعد وفاته بثلاثة أيام.

وعن عبد الله بن عباس، قال: إنّ عليّ بن أبي طالب والعباس بن عبدالمطلب والفضل بن العباس وقثم بن العباس وأسامة بن زيد وشقران مولى رسول الله ﷺ هم الذين ولوا غسله، وإنّ أوس بن خولى أحد بنى عوف بن الخزرج قال لعلى بن أبى طالب: أنشدك الله ياعليّ، وحظّنا من رسول الله! وكان أوس من أصحاب بدر؛ وقال: ادخل، فدخل فحضر غسل رسول الله ﷺ، فأسنده عليّ ابن أبى طالب إلى صدره، وكان العباس والفضل وقثم هم الذين يقلبونه معه، وكان أسامة بن زيد وشقران مولياه هما اللذان يصبّان الماء، وعليّ يغسّله قد أسنده إلى صدره، وعليه قميصه يدلكه من ورائه، لايفضى بيده إلى رسول الله ﷺ وعليٌّ يقول: بأبى أنت وأمى! ما أطيبك حيًّا وميتًا! ولم يُرَ من رسول الله شيء مما يُرى من الميت.

عن عائشة، قالت: لما أرادوا أن يغسلوا النبى ﷺ اختلفوا فيه، فقالوا: والله ماندرى أنجرد رسول الله من ثيابه كما نجرّد موتانا، أو نغسله وعليه ثيابه؟! فلما اختلفوا ألقى عليهم السِّنة حتى ما منهم رجل إلاّ وذقنه فى صدره، ثم كلّمهم متكلّم من ناحية البيت لايدرى من هو: أن اغسلوا النبى وعليه ثيابه، قالت: فقاموا إلى رسول الله ﷺ فغسّلوه وعليه قميص يصبّون عليه الماء فوق القميص، ويدلكونه والقميص دون أيديهم. فكانت عائشة تقول: لو استقبلت من أمرى ما استدبرتُ ماغسله إلا نساؤه.

فلمّا فرُغ من غُسْل رسول الله ﷺ كُفِّنَ فى ثلاثة أثواب، ثوبين صحاريين - منسوب إلى مدينة صحار باليمن - وبرد حبرة، أدرج فيها إدراجًا.

فلما فرغ من جهاز رسول الله يوم الثلاثاء وضع على سريره فى بيته، وقد كان المسلمون اختلفوا فى دفنه، فقال قائل: ندفنه فى مسجده، وقال قائل: يدفن مع أصحابه، فقال أبو بكر: إنّى سمعت رسول الله ﷺ يقول: ماقبض نبىٌّ إلا يدفن حيث قبض. فرفع فراش رسول الله الذى توفّى عليه، فحفر له تحته، ودخل

الناس على رسول الله يصلّون عليه أرسالا - أي: جماعة بعد جماعة - حتى إذا فرغ الرجال أدخل النساء، حتى إذا فرغ النساء أدخل الصبيان، ثم أدخل العبيد، ولم يؤم الناس على رسول الله ﷺ أحدٌ، ثم دفن رسول الله من وسط الليل ليلة الأربعاء.

وكان الذى نزل قبر رسول الله ﷺ علىّ بن أبى طالب والفضل بن العبّاس وقثم بن العبّاس وشُقران مولى رسول الله ﷺ. وقال أوس بن خولىّ: أنشدك الله ياعلىّ وحظّنا من رسول الله! فقال له: انزل، فنزل مع القوم؛ وقد كان شقران مولى رسول الله ﷺ حين وضع رسول الله فى حفرته وبنى عليه؛ قد أخذ قطيفة كان رسول الله يلبسها ويفترشها، فقذفها فى القبر، وقال: والله لايلبسها أحدٌ بعدك أبدًا. قال: فدُفِنَتْ مع رسول الله ﷺ.

عن عائشة، قالت: كان على رسول الله ﷺ حين وضع رسول الله فى حفرته خميصة سوداء حين اشتد به وجعه، قالت: فهو يضعها مرّة على وجهه، ومرّة يكشفها عنه، ويقول: قاتل الله قومًا اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يحذر ذلك على أمّته.

وكان آخر ماعهد رسول الله ﷺ أنه قال: لايترك بجزيرة العرب دينان.

وتوفى رسول الله ﷺ لاثنتى عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول، فى اليوم الذى قدم فيه المدينة مهاجرًا، فاستكمل فى هجرته عشر سنين كوامل.

واختلف فى مبلغ سنّه يوم توفىّ ﷺ فقال بعضهم: كان له يومئذ ثلاث وستون سنة.

عن ابن عباس، قال: أقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، وبالمدينة عشرا، ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة.

وعن سعيد بن المسيب، قال: أنزل على رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وأربعين سنة، وأقام بمكة عشرًا، وبالمدينة عشرًا، وتوفى وهو ابن ثلاث وستين.

وعن ابن عباس، قال: بعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة، وأقام بمكة ثالث عشرة يوحى إليه، وبالمدينة عشرًا، ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة.

وعن عائشة، قالت: توفى رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وستين سنة.

وقال آخرون: كان له يومئذ خمس وستون.

وعن ابن عباس، قال: قبض النبى ﷺ وهو ابن خمس وستين.

وعن ابن حنظلة، قال: إن النبىّ ﷺ توفى وهو ابن خمس وستين سنة.

وقال آخرون: بل كان له يومئذ ستون سنة.

وعن عروة بن الزبير، قال: بعث رسول الله ﷺ وهو ابن أربعين، ومات وهو ابن ستين.

وعن أبى سلمة، قال: حدثتنى عائشة وابن عباس أن رسول الله ﷺ لبث بمكة عشر سنين ينزل عليه القرآن وبالمدينة عشرًا.

ذكر الخبر عن اليوم والشهر اللذين توفى فيهما رسول الله ﷺ

عن ابن عمر، قال: إن النبى - ﷺ استعمل أبا بكر على الحج سنة تسع، فأراهم مناسكهم، فلما كان العام المقبل حجّ رسول الله ﷺ حجّة الوداع سنة عشر، وصدر إلى المدينة، وقُبض فى ربيع الأول.

وعن ابن عباس، قال: وُلد النبىّ ﷺ يوم الاثنين، واستُنْبِئَ يوم الاثنين، ورفع الحَجَر يوم الاثنين، وقُبض يوم الاثنين.

وعن ابن حزم، قال: توفى رسول الله ﷺ فى شهر ربيع الأول فى اثنتى عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول يوم الاثنين، ودفن ليلة الأربعاء.

وعن عائشة قالت: دفن النبى ﷺ ليلة الأربعاء، وماعلمنا به حتى سمعنا صوت المساحى.

تم بحمد الله

المحتويات

